

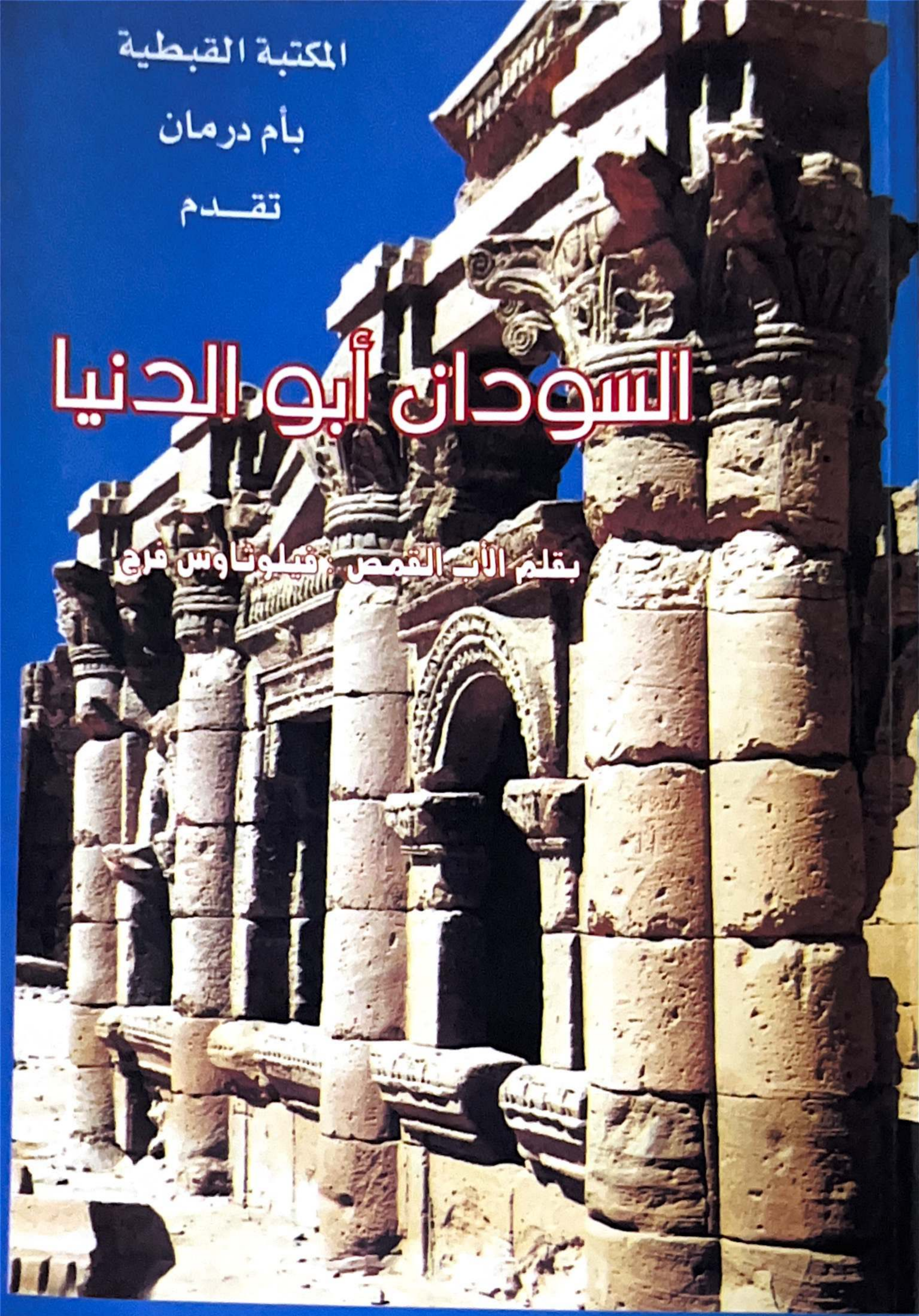
المكتبة القبطية

بأمر درمان

تقدم

# السودان أبو الدنيا

بقلم الأب القمص : فيلوثاوس فرج





## السودان أبو الدنيا

الفهرس :

موكب المقدمات :

١. المكتبة القبطية بام درمان التاريخ والتاريخ ..... ٦
٢. للكاتب خصوصية ثقافية ودينية واجتماعية ..... ١٤
٣. قلم مداده المحبة وعشق الوطن ..... ١٨
٤. لست أديباً مثله ولكنني معجب بأدبه الرفيع ..... ٢٢
٥. الكتاب إنعكاس لواقع الحياة ..... ٢٥
٦. ماكتبه المؤلف في حب السودان لم يكتبه أحد ..... ٢٧
- قالوا عن المؤلف ..... ٢٩

فهرس المقالات

١. السودان أبو الدنيا ..... ٣٣
٢. حكاوى أم درمان ويهود السودان ..... ٣٥
٣. السودان وأغاني أفريقيا ..... ٣٨
٤. ازدهار الحياة في بلاد النوبة ..... ٤٠
٥. محمد على والبحث عن الذهب ..... ٤٢
٦. اليهود في السودان ..... ٤٤
٧. التعليم الدينى في السودان ..... ٤٧
٨. أول إنطلاق لأطباء السودان ..... ٤٩
٩. أول نهضة تربوية سودانية ..... ٥٢
١٠. إسماعيل الأزهرى وبئر دنقلا ..... ٥٥
١١. تاريخ السودان القديم ..... ٥٦
١٢. اليهود بينون الإهرامات ..... ٥٩
١٣. مجتمع الخرطوم وتباين العادات والتقاليد ..... ٦١
١٤. المواطنة ومناهج التعليم ..... ٦٣
١٥. إلى الأمام نحو مائة عام لنجم جريدة الأيام ..... ٦٥
١٦. يوسف ميخائيل سجيناً ومؤرخاً ..... ٦٧
١٧. رئيس إيران مع المسيحيين في السودان ..... ٦٩
١٨. عيد الصليب والأمطار ..... ٧١
١٩. من ذهب مروى إلى سد مروى ..... ٧٣
٢٠. النوبة واحدة في الشمال والجبال ..... ٧٦



٧٨	٢١. صالون عبد الرحمن المهدي
٨٠	٢٢. منصور خالد والقديسة السودانية
٨٢	٢٣. الصادق بخيت والإعلام والإرهاب
٨٥	٢٤. محمد إسماعيل الأزهرى
٨٧	٢٥. ندوة أم درمان
٨٩	٢٦. مفاهيم يجب تصحيحها
٩١	٢٧. راحة الخريف
٩٤	٢٨. بابكر بدرى
٩٧	٢٩. ملك كوش والشمس
٩٩	٣٠. زارنا طفل وديع
١٠١	٣١. المعجم يتضخم والمؤلف يتناقص
١٠٣	٣٢. كرسى التعايش الدينى
١٠٥	٣٣. هل سوف تمطر دار فور ؟
١٠٧	٣٤. مستقبل حوار الأديان
١٠٩	٣٥. عرس يهودى فى الخرطوم
١١٢	٣٦. هل تعود حلفا القديمة ؟
١١٤	٣٧. كرمة مملكة النوبة
١١٧	٣٨. الحضارات السودانية القديمة
١١٩	٣٩. إستثناءات العدالة
١٢١	٤٠. حكم وأمثال النوبة
١٢٣	٤١. إستوصوا خيراً بقبط السودان
١٢٦	٤٢. شاعر أغداً ألقاك يلقى ربه
١٢٨	٤٣. فى بيت لحم أعطينا غلاماً ذكياً
١٣٠	٤٤. المواقع الأثرية بالسودان
١٣٣	٤٥. مؤتمر حوار الأديان
١٤٠	٤٦. فى مادبة إفطار رمضان
١٤٤	٤٧. بطريك إثيوبيا فى بلادنا
١٤٦	٤٨. أم درمان الأصالة والتراث
١٤٩	٤٩. مأمون بحيرى الحكيم الساهر
١٥٢	٥٠. يوسف ميخائيل
١٥٤	٥١. أطفال يعقوب فى بقعة المهدي

١٥٦	٥٢. المكتبة القبطية بالخرطوم وإفطار رمضان
١٦١	٥٣. المكتبة القبطية بالخرطوم بحرى وإفطار رمضان
١٦٤	٥٤. الشاعر توفيق جبريل
١٦٧	٥٥. السفير الأديب جمال محمد أحمد
١٦٩	٥٦. أسير المتمهدي
١٧١	٥٧. من السودان إلى لبنان
١٧٤	٥٨. الطيب صالح يقدم لرسائل جمال
١٧٦	٥٩. جمعية الإتحاد السودانى
١٧٨	٦٠. السودان كما رآه سرجيوس
١٨١	٦١. الصحافة فى السودان زمان
١٨٣	٦٢. الصحافة السودانية والوحدة الوطنية
١٨٥	٦٣. العمارة فى العصر المسيحى
١٨٧	٦٤. المرأة فى الصحافة السودانية
١٩٠	٦٥. القمص سرجيوس والإستعمار
١٩٢	٦٦. الفرعون أمنحوتب وخزان سنار
١٩٤	٦٧. صلوات على محراب النيل
١٩٦	٦٨. المعاش ورجال الدين والعلماء
١٩٨	٦٩. النهر والرجال
٢٠٠	٧٠. أرض الطيبين
٢٠٢	٧١. لوطنى وللتاريخ
٢٠٥	٧٢. تحية لمن رحب باللورد ومن لم يرحب
٢٠٧	٧٣. دار الثقافة بالخرطوم
٢٠٩	٧٤. خلود الديمقراطية
٢١٢	٧٥. السودان تحت الحكم البريطانى
٢١٤	٧٦. السودان عند روبرتسون
٢١٧	٧٧. السودان عند ماكمايكل
٢١٨	٧٨. ترجمة كتاب السودان
٢٢٠	٧٩. أمير الصاوى ودار الثقافة
٢٢٣	٨٠. إفتتاح خزان سنار
٢٢٥	٨١. السودان أبو الكل والنيل أبو الحضارة
٢٢٧	٨٢. السودان أبو الدين والدنيا



٢٢٩.....	٨٣. السودان أبو الرجال والنساء
٢٣٢.....	٨٤. الصوفية أبوة سودانية حاتية
٢٣٤.....	٨٥. أبوة السودان حزم وعزم
٢٣٥.....	٨٦. السودان أبو كل الأجناس
٢٣٨.....	٨٧. السودان أبو الكل المُكرّم
٢٤٠.....	٨٨. السودان أب محبوب
٢٤٢.....	٨٩. السودان أبو دنيا السياسة
٢٤٤.....	٩٠. أحلام الشاعر والسودان الجديد
٢٤٦.....	٩١. السوداني صاحب الجلالة
٢٤٩.....	٩٢. الفنان كرومة والصوفي قريب الله
٢٥١.....	٩٣. إسماعيل الحاج موسى ونزار قباني
٢٥٤.....	٩٤. فجر الحركة الوطنية
٢٥٦.....	٩٥. النوبة والإستقلال السياسي
٢٥٨.....	٩٦. الكنيسة الشرقية ومسيرة التواضع
٢٦٠.....	٩٧. تاريخ الحركة الوطنية في السودان
٢٦٢.....	٩٨. المناخ الثقافي للسودان زمان
٢٦٥.....	٩٩. تحية من عزيز إلى قائد عزيز
٢٦٨.....	١٠٠. وإنطلق الطبيب صالح من محطة المحبة
٢٧٠.....	١٠١. سلام يحمي يا أم درمان
٢٧٢.....	١٠٢. السودان للسودانيين
٢٧٥.....	١٠٣. نقد العقل السوداني
٢٧٧.....	١٠٤. أم درمان عبر الزمان
٢٨٠.....	١٠٥. مداخلتى لمحاضرة الرئيس الإيراني
٢٨٣.....	١٠٦. مصر والنوبة تكاملاً
٢٨٥.....	١٠٧. مصر والنوبة والبجا عائلة واحدة
٢٨٧.....	١٠٨. شهيدة العفاف تعصم بالنهر
٢٩٠.....	١٠٩. الصليب وثالوث في حضارة مروي
٢٩٢.....	١١٠. البشير ووطنية الكنيسة الشرقية
٢٩٥.....	١١١. الصليب فرعونياً ومسيحياً
٢٩٨.....	١١٢. سامي الحاج ومبادرة السفير الأمريكي
٣٠٠.....	١١٣. الألفية الأثيوبية

٣٠٢.....	١١٤. محمد على وميخائيل وخديجة أفندي
٣٠٥.....	١١٥. الأبعاد الثقافية في التمثيليات السودانية
٣٠٧.....	١١٦. في الأزهر الشريف
٣٠٩.....	١١٧. أقباط السودان واللغة العربية
٣١٢.....	١١٨. مساهمات الأقباط في اللغة العربية
٣١٥.....	١١٩. أساتذتي في اللغة العربية
٣١٨.....	١٢٠. الأستاذ هنري رياض سكلا
٣٢٤.....	١٢١. مقار وزكري وعبد الله حميدة
٣٢٥.....	١٢٢. استدعاء الذاكرة
٣٢٧.....	١٢٣. الشاعر عزيز أندراوس
٣٣٣.....	١٢٤. صالح بطرس في جامع أم درمان
٣٣٥.....	١٢٥. في ميلاد المسيح أسكبوا عطر السلام
٣٣٧.....	١٢٦. تكريم المؤرخ الكبير بروفيسور أحمد دياب
٣٣٩.....	١٢٧. الطفل الوديع
٣٤٠.....	١٢٨. قاعة الصداقة عند تادرس الفرشوطي
٣٤٣.....	١٢٩. ثورة أكتوبر في شعر الفرشوتي
٣٤٧.....	١٣٠. بطريك إثيوبيا في بلادنا
٣٤٩.....	١٣١. رحلة إلى الغرفة الداخلية
٣٥١.....	١٣٢. لوحة فرس عن الفتية في النار
٣٥٣.....	١٣٣. نكاء قطر وصناعة السلام
٣٥٥.....	١٣٤. هارون داؤد
٣٥٧.....	١٣٥. أفراح مأمون حميدة
٣٥٩.....	١٣٦. أول الحروف وقوة الإتحاد
٣٦٢.....	الإنتاج الثقافي والأدبي للمؤلف



## ١/ المكتبة القبطية بأم درمان التاريخ والتاريخ

التاريخ والتاريخ : هناك ما يسمى «الإحساس التاريخي» وهو شعور طيب يعنى أن ينمى ويتيقظ، ويهدف الإحساس التاريخي إلى تنشيط ذاكرة المواطن نحو الوطن ومواطن الوطن والمؤسسات الثقافية والتاريخية فيه، وعندما ينمو وعي الأفراد والشعوب لماضيهم يستيقظ الإحساس التاريخي وتزداد قيمة المواقع التاريخية في الوطن وقد قام كثيرون من رواد الفكر عبر العصور بمحاولات مقدامة للنفاذ إلى لب الحياة الماضية وفهم الروابط التي تشد أحداث الماضي إلى واقع الحاضر وتدفع إلى المستقبل دفعا، ومن خلال الإحساس التاريخي تأتي أهمية التاريخ والتاريخ، وهناك تداخل بين الكلمتين ويقولون أن التاريخ هو حوادث الماضي أما التاريخ فهو دراسة هذا الماضي والدخول إلى أعماق فلسفته وأحيانا تختلط المعاني بين التاريخ والتاريخ وفي بعض اللغات ينتقل الذهن عفوا بين المعين دون تمييز بينهما ولعل هذا ناشئ عن شعور أصيل في الإنسان بالارتباط الرفيق بين معرفة الماضي والماضي ذاته، ولا يمكن للإنسان أن يتناسى تاريخه لأن التاريخ يعطينا المقدرة على حل مشاكل الحياة بالنفاذ إلى الجذور العميقة ودراسة العلل الباعثة وأدراك الأسباب الأصلية الفاعلة في تكوين المشكلات الإنسانية الحاضرة لأن الإنسان هو نتاج الماضي ولهذا فإن معالجة القضايا الكبرى التي تجابه الإنسان ينبغي أن تستند إلى معرفة تاريخية شاملة المدى بعيدة الفور، ومعرفة تثير الأسئلة الأساسية عن واقع المدينة الحديثة وعن كيفية تكون هذا الواقع، ومعرفة تدرس الطبيعة والإنسان والنظرات والقيم والمفاهيم من أي جذور نبعت ونبتت وتفرعت وأثمرت وبلغت مابلغت وحققت ماحققت، وما هي عناصر القوة وناحي الضعف فيها، وإذا كان جون لوك

قد قال إن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء فيها المجتمع ما يود أن يكتبه في صحيفة الحياة فإن الأمر الآن ليس هكذا بل العكس يولد الطفل وهو يحمل في كيانه حضارة أجداده لذا يفاخر رؤساء البلاد بأن مواطنيهم يولدون وفي رؤوسهم حضارة آلاف السنين ويرث في كيانه ثقافة أجداده بنفس المستوى الذي يرث فيه اللون والطول والعرض والبشرة ولون العين وتعرجات الأنف وماتقول به هندسة الوراثة البيولوجية تقول بة الآن هندسة الموارث الثقافي .

وبالنسبة للمكتبة القبطية بأم درمان نحتاج إلى التاريخ أدراكا لواقع المكتبة وعلى الأخص أننا نعتمد التاريخ الشفاهي الذي من أعملكن أن نفقد بة أهم مقومات التاريخ ونحتاج إلى التاريخ تعمقا في الدور الثقافي الذي قامت بة المكتبة القبطية في أم درمان، وأم درمان نفسها هي دار العراقة والأمن والأمان وهي التاريخ وهي أيضاً التاريخ وهي الأصالة والتراث والثقافة وهي السودان بل درة السودان وقلبه النابض وماضيه السعيد وتاريخه المجيد كما تغنى الشاعر الأمدري ماني/ عبدالله محمد زين في «قصيدة أنا أم درمان أنا السودان أنا الدرة البريد بلدي أقوم بأعظم الأدوار

وأكون الساحة للثوار

، وابقى البقعة للأجرار

وأمثل عزة السودان ،

أنا أم درمان أنا الواحة قلادتي القدرة

والتقديس وأرادتي تسابق الأجيال

، وكنت القوة والوحولة

، وحزت وقرت بالجولة وثلت الراية والدولة

وفي التاريخ بقيت عنوان .



المكتبة القبطية : ولقد ولدت المكتبة القبطية بأم درمان بعد ولادة المكتبة القبطية بالخرطوم بسنوات عديدة ، وسجلت تواريخ ميلاد المكتبات ميلاد مكتبة الخرطوم القبطية عام ١٩٠٨م بينما سجلت وثيقة ميلاد المكتبة القبطية بأم درمان في عام ١٩٢٥م وقد جاء فرق الزمن لأن المكتبة القبطية بالخرطوم ملاذا لسكان أم درمان ورغم صعوبة المواصلات فإن المسافة ليست بعيدة كان الناس يتسامرون معاً في مكان واحد ولكن أصبحت الحاجة ماسة إلى مكان جديد للسمر والقراءة والأنس الإجتماعي في أم درمان تقوية لأواصر الصداقة وتمتيناً للروابط الإجتماعية وكانت البداية في منزل أستاخرته المكتبة في حي المسالمة بأم درمان ذلك الحي العريق الذي سجل عنه علماء التاريخ تاريخاً يتحدث عن عراقة وسيرته ومسيرته في إعجاب شديد بقبيلة الأقباط التي عاشت في سلام وونام مع باقي القبائل السودانية وكان لقبيلة الأقباط تميزها ولكن هذا التميز كان تميزاً سودانويّاً خالصاً فلقبيلة الأقباط مكانتها ولكن للوطن لواءه الكبير الذي يجمع الكل دون تنافر ولقد شارك أقباط السودان في قضايا الوطن ودخل إلى غياهب السجون أثنان منهما في سجن كوبر عقاباً لهما على المشاركة في ثورة ١٩٢٤م السودانية ومن بينهما وهبة حنا وظلت المكتبة القبطية بأم درمان في منزل مستأجر منذ عام ١٩٢٥م إلى ١٩٧٨م وهو العام السعيد الذي شرف فيه قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث وهو الذي وضع حجر الأساس لنادي المكتبة القبطية الحالي ذلك الصرح العملاق في شارع الشنقيطي على رمية حجر وبضعة أقدام من كنيسة الشهيد العظيم مارمينا العجايبى وقد وضع قداسة البابا حجر الأساس في يوم الثلاثاء ٢١ فبراير ١٩٧٨م الموافق ١٤ أمشير ١٦٩٤ للشهداء على أرض مساحتها ٩٠٠٠ م ٢ .

وذلك بحضور لفيف من كبار الشخصيات السودانية على رأسهم السيد مهدي

مصطفى الهادي عضو المكتبة التنفيذي للاتحاد الإشتراكي السوداني ، والسيد عبد الوهاب إبراهيم وزير الداخلية ، والسيد عبدالله الحسن رئيس المجلس الوطني للتضامن والسلام والسيد مختار الطيب محافظ الخرطوم ، والدكتور وديع حبشى رئيس المجلس القومي للبحوث والسيد سعد النطاظري سفير جمهورية مصر في السودان ، وتآلق في الحضور الوفد البابوي رفيق البابا في زيارته المباركة نيافة الأنبا يونس أسقف طنطا والغربية ، ونيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة ودمنهو ، ونيافة الأنبا أنطونيوس مرقس أسقف كينيا وأفريقيا ، ونيافة الأنبا صرابامون رئيس دير الأنبا بيشوى وثلاثة أساقفة عموميون هم نيافة الأنبا برسوم ، ونيافة ونيافة الأنبا تيموثاوس ونيافة الأنبا رويس ، والأب القمص ميخائيل السرياني سكرتير قداسة البابا .

أما ملاكي كنيسة السودان فقد كانا في موكب الإحتفال وهما وهما نيافة الأنبا إسطفانوس مطران أم درمان ونيافة الأنبا دانيال مطران الخرطوم ، هذا عدا جميع كبير من الآباء الكهنة ، وعدد من أراخنة أقباط أم درمان والجمعيات القبطية بالخرطوم ، وشارك في الإحتفال رؤساء بعض الأندية بالعاصمة المثلة ، وأجهزة الإعلام وعدد كبير من رجالات الدولة .

ابتدأ إحتفال وضع حجر أساس المكتبة القبطية بأم درمان بكلمة ترحيب من أسرة المكتبة . ثم كلمة نيافة الأنبا إسطفانوس مطران أم درمان وأعقبها نشيد روحي من أبناء وبنات التربية الكنسية تطلعاً روحياً نحو الرسالة الروحية التي سوف تقوم بها المكتبة مساندة لرسالة الكنيسة الروحانية وبعدها تقدم الأرخن وديع شنودة تاجر المشورة ورئيس المكتبة المنتخب انتخاباً حراً بكلمة أشاد بها بعظمة البابا شنودة وشخصيته القوية وحسه الوطني الواعي وقال إن الأقباط في كل المعمورة ينتظرون منه الكثير والكثير ثم ألقى رئيس مجلس شعبي



المسالمة كلمة رحب فيها بقداسة البابا والوفد المرافق له وأشاد بروح التعاون والمحبة بين المسيحيين والمسلمين في السودان وقدم هدية المسالمة لقداسة البابا والتي تمثلت في مفتاح مدينة أم درمان من الذهب الخالص وكان قداسه قبلها يحمل مفتاح قلوب كل أهل السودان وأعلن البابا سعادته بالهدية وتحدث حديثاً لبقاً عميقاً روحانياً شفافاً مقدراً المشاعر النبيلة لأهل السودان مشيداً بالروح السمحة التي وجدها في أهل السودان والتعاون الصادق الذي تجاوبت به معه الأجهزة المختصة وأشاد بالترحيب الكبير والاستقبالات العظيمة من محافظي المديرية التي زارها مدني والأبيض وبورسودان وعطبرة، وفي أثناء الحفل تبرع محافظ النيل الأزرق بقطعة أرض مساحتها ؟ لكي تبني عليها كنيسة باسم الألبا شنودة في وادي مدني على مشارف النيل الأزرق في مدخل المدينة، وتبرع محافظ البحر الأحمر بقطعة أرض للجمعية القبطية في بورسودان وهكذا في مكتبة أم درمان أجمع الوطن كله واجمع على تكريم قداسة البابا شنودة الثالث وقدموا له هداياهم في أم درمان التي هي السودان كله، وأثنى قداسة البابا على روح الود والإخاء التي تسود المسيحيين والمسلمين في شتى العصور مستشهداً بما كان يحدث بين رؤساء الأقباط وزعماء المسلمين عهد الخلفاء الراشدين والعهود التالية لهم وتمنى أن تستمر هذه الروح الطيبة في ظل رئاسة السيد جعفر محمد نميري رئيس الجمهورية في ذلك الوقت واختتم قداسة البابا كلمته شاكرراً أسرة المكتبة داعياً للدار الأدرمانية لأن تكون درة أمن وأمان وسلام وإطمئنان وتقدم وإزدهار في كل مضمار روحياً وثقافياً وإجتماعياً ورياضياً، ووجه البابا شكرياً خاصاً إلى السادة رئيس وأعضاء مجلس شعبي المسالمة، وبعدها إمتلأ الحضور صبوراً وحماساً واندفعوا يساهمون في مساندة هذا الوليد الجديد القوى الذي ولد بأسنانه وكان أول تبرع من مواطن سوداني هو السيد محمد إدريس الذي رفع

سقف التبرعات متبرعاً بمبلغ ألفين من القوة حيث كان الجنية السوداني أغلى من الجنية الذهب وأكثر من الجنية الأنجليزي ويساوي ثلاث دولارات، وبعد تبرع مواطن المسالمة العظيم الذي عبر عن حب المسلمين للأقباط جاءت تبرعات أخرى من محافظة الخرطوم بمبلغ ألفين جنية والسيد جورج مشرقى صاحب صالون جورج مشرقى في سوق الموية بمبلغ خمسمائة جنية وضابط الشرطة شقيقه السيد حنا مشرقى بمبلغ خمسون جنية، وبعدها قدم مجلس إدارة نادي المكتبة القبطية بأم درمان هدية لقداسة البابا عبارة عن جلد نمر مدبوغ بكامل حجمه، وكان أول مجلس منتخب لسنة ١٩٧٨م بالانتخاب المباشر الذي ظل ديدن المجلس حتى الآن وأعضاء أول مجلس هم : السيد وديع شنودة رئيساً ، السيد توفيق داود نائباً للرئيس ، والسادة هرفي حكيم ، زكريا نصحي ، قديس كيرلس ، درياس باخوم ، لمعي مكسيموس ، صفوت رياض ، إدوارد رياض ، وصفي جوزيف ، مفيد قرياقص ، حنا مشرقى ، وقد قدم الأعضاء مايقرب من ألف جنية سلفية لدفع مسيرة البناء والذي تم في الثاني من أبريل ١٩٨٠م . وبعد هذا بدأت نشاطات النادي حيث في ٢٩/٤/١٩٨٠م تم قبول كشافة جورجيو كهيئة منظمة شريطة أن تخضع لقوانين ولوائح المكتبة التي قامت بدورها بتخصيص مكان خاص بهم لحفظ معداتهم وممارسة نشاطهم الكشفي الذي سجل نجاحاً ملحوظاً منذ ١٩٨٠م وحتى الآن وقد فتحت المكتبة لعضوية الكشافة عضوية شرقية معفاة من رسوم الدخول والإشتراكات. وفي ١/١١/١٩٨٠م تم إصدار مجلة شهرية خاصة بالشباب ، وفي ٢٥/١١/١٩٨١م تم إنشاء فريق كرة قدم بالنادي بدأ في اجتذاب المتقدمين في الأيام تنشيطاً للدورة الدموية ثم مالبت أن صار فريق للشباب بكامل قدرته على المنافسة والدخول في التصنيفات . وفي ١٩/١/١٩٨٢م تكونت مجموعة ثقافية من شباب النادي للنهوض بالنشاط الثقافي وقامت بشراء الكتب الثقافية



والدينية واشترت اثاثات فاخرة لمزاولة نشاطها، وفي دورة ١٩٨٢-١٩٨٤م تم انتخاب السيد توفيق داود يسمى رئيساً والسيد قديس كيرلس نائباً للرئيس والسيد لمعى مكسيموس سكرتيراً والسيد إيليا نصحي أميناً للصندوق وعضوية كل من السادة هرفى حكيم وفاروق نظيم، ومفيد قرياقوس، وأدوارد رياض، ومكين بلامون، والدكتور وديع حبشى وصفوت رياض ولطفى عزيز وميشيل رؤوف وشهدت هذه إنشاء فريق الرائدات للكرة الطائرة، وبعد هذا توالى الدورات ادارات منتخبة انتخاباً مباشراً ديموقراطياً كان ولم يزل التنافس على أشده في احترام حرية الاختيار والدورة لمدة عامين فقط. وفي شهر رمضان وبالتحديد عند غروب شمس يوم ١٩٩٤/٣/١م استقبلت المكتبة القبطية أول احتفال بأفطار رمضان وكان الأب القمص فيلوثاوس فرج تعاوناً مع الأستاذ عبد الباسط سبترات رائداً سباقاً لهذا الاحتفال الذى صار فيما بعد ملحمة وطنية يحضر دوماً رئيس الجمهورية ويتم تبادل الكلمات بقراءة من الكتاب المقدس والقرآن الكريم وترحيب من إدارة النادى نيابة عن المؤسسات القبطية وتأمل من المطران وكلمة عن الأقباط ودورهم فى الوحدة الوطنية من الأب القمص فيلوثاوس فرج. وفى لقاء ١٩٩٤م تحدث نيافة الأبا دانيال عن المحبة فى المسيحية، وكانت كلمة الأب القمص فيلوثاوس فرج مع الرئيس قائل له هؤلاء هم الأقباط الذين يحبون السودان ويحبونكم وقد ذاقوا حلو مراكم والمر هو أنك سيادة الرئيس أمرت بعد دخول المخدرات والأقمشة إلى السودان وبالنسبة للمخدرات أقمت المجلس الأهلى لمكافحة المخدرات والأمان فهل يعنى هذا أن نقيم مؤسسة مدينة لمحاربة استيراد الأقمشة، وإن كل هؤلاء الأقباط يعيشون على الأقمشة إستيراد وبيعاً وشراء وما قررتموه هو نهاية لعمل عظيم يظل على متطلباتهم، وقد تجاوب الرئيس مع كلام الأب فيلوثاوس ووفق على عثمان محمد طه وكان وزيراً للتخطيط الإجتماعى

ليعلن فك الحظر على إستيراد الأقمشة، وكان عام ١٩٩٤م عاماً سعيداً على المكتبة القبطية ففي مارس كان أول إفطار رمضان يقام من الأقباط وفى آخر العام كان قدوم، ونيافة الأبا صرابامون أسقفالأم درمان وتألقت المكتبة ولبست حلة البهاء فرحة بالراعى القادم من كنيسة الأم والذى قلده سعادة رئيس الجمهورية فى عام ٢٠٠٨م وسام النيلين من الطبقة الأولى ومنحة الجنسية السودانية، وقد كان أول حفل تجلس لنيافة الأبا صرابامون فى ١٩٩٤/١٢/٣٠م فى دار المكتبة القبطية بأم درمان. وبعد هذا تعددت الأنشطة فى نادى المكتبة القبطية نجيلة خضراء للكبار ونجيلة خضراء للأطفال ثم صالة محاضرات وتتابع الأنشطة وتتوالى الانجازات وسط محبة أقباط أم درمان للمكتبة القبطية بأم درمان ويعمل مجلس إدارة النادى حالياً على قدم وساق ويستقبل اقتراحات العضوية ويفكر فيما ينفعهم ويقرر مايجول بخواطرهم ويحقق أحلامهم السعيدة وقد تم انتخاب مجلس إدارة النادى فى يوم برئاسة المهندس عادل العبد أبادير رئيساً والسيد جون وديع نائباً للرئيس ويسعدنا الآن أن نقدم هذا السفر النفيس كتاب "السودان أبو الدنيا" تأليف الأب القمص فيلوثاوس فرج الذى وافق مشكوراً أن يكون هذا المؤلف القيم هدية نادى المكتبة القبطية بأم درمان إلى القارئ السودانى الذكى بل إلى كل قارئ للغة الضاد وسوف يعمل مجلس إدارة النادى على أن يصل هذا الكتاب إلى أقباط السودان فى المعمورة كلها، صلوا لأجلنا لكى يوفقنا الرب فيما نفكر وفيما نعمل ولكى يكون الله الكل فى الكل.

فريد وردى بخيت جرجس

سكرتير نادى المكتبة القبطية بأم درمان



بسم الله الرحمن الرحيم

## ٢- للكاتب خصوصية ثقافية ودينية واجتماعية

ليس هذا السفر الذي أتشرف بتقديمه للسادة القراء هو الكتاب الأول أو الأخير للقمص كاهن كنيسة الشهيدين و طالب الدكتوراه الأب فيلوثاوس فرج و إنما هو أحد تلك التي رأت النور منذ سنوات و ما يزال بعضها ينتظر الصدور.

و مهما يكن من شئ فإن لهذا الذي بين يدي القراء من العناوين و المواضيع خصوصيته لأنه ( السودان ابو الدنيا ) . كما للكاتب أيضاً و هو ( ما شاء الله ) الناشط دينياً و ثقافياً و سياسياً و اجتماعياً خصوصيته إذ له موقعه المرموق في ديانته المسيحية الارثوذكسية القبطية فهو يتمتع بموقع القمص و الأب و الكاهن لما له موقعه في حوار الاديان في بلده السودان و في فيدرالية السلام العالمية التي خلعت عليه في لقاءها الجامع في العاصمة الكينية - نيروبي في منتصف نوفمبر - تشرين اول ٢٠٠٥م و عن استحقاق لقب « سفير السلام العالمي ».

و من خصوصيات الاخ الكاتب التي تضاف الي ذلك خصوصيته الثقافية التي جعلت منه - كما يلاحظ القارئ في هذا الكتاب - كاتباً صحفياً يلاحق بقلمه شتي الموضوعات و عبر السنوات مما أتاح له فرصة اصدار عدد من الكتب كما سلفت الاشارة. و ذلك الي جانب حضوره السياسي و التشريعي في المجتمع . فقد كان عضواً في المجلس الوطني ( البرلمان ) لمرتين في الفترة الاخيرة.

علي ان خصوصيته و حضوره الاجتماعيين أضافا لشخصيته و سيرته بعداً آخر عمق و رسخ في ذاكرة كل من يعرفه الابعاد الاخرى - حفظه الله.

و أحسب ان كل هذا الكل المركب في شخصية الكاتب هو الذي دفع به إلي أن يلقي بهذا الثبت بين يدي لأقلب صفحاته و أكتب هذه المقدمة أو التوطئة و أنا الشخصية التي تحسب أنها مسلمة و الكاتب الصحفي الذي لا يفرق بين الدين و

السياسة. فالأب فيلوثاوس - كما تعرف عنه (وسطي المنهج) و صاحب نشاط اجتماعي و فكري متعدد المجالات والمنابر.

و هذا الكتاب الذي لم نلج اليه بعد في هذه المقدمة هو فيما نحسب بتنوعه و غزارة مادته و تعبيره عن العنوان الذي اختاره الكاتب ( السودان ابو الدنيا ) ليس سوي ترجمة و تصديقاً لذلك الذي ذكرت سلفاً و أنا الذي اعرف الكاتب معرفة مباشرة و من خلال ما يكتب في الصحافة و يظهر في المجتمعات قبل عقدين من الزمان علي الاقل أو أكثر بحيث تمتت العلاقة بيننا و استقرت - ادامها الله .

إن السودان من حيث التركيبة السكانية و الثقافية و الحضارية و اللغوية هو (أبو الدنيا) كما قال الكاتب الذي أخذ التعبير الذي طوره و جسده من لسان شخصية جنوبية مسيحية ملتزمة سبق لها القول - كما جاء في فاتحة الكتاب بأن ( السودان ابو الدنيا...! ) .

و تأسيساً عليه و قد تنقلت بين صفحات الكتاب - و هو من القطع المتوسط - أقول أنه من أعظم الهدايا التي تقدم للقارئ السوداني و القارئ الاجنبي في هذا الظرف العالمي و الدولي الحرج الذي يري فيه البعض ان التنوع في بلد كالسودان ( نعمة و ليس نعمة ) ...!

غير أنه - للحقيقة - شاهد و دليل علي أن السودان بحضاراته المتعددة و امتداده المكاني و السكاني و تنوع ثقافته و أعراقه و أديانه التي من أشهرها الإسلام و المسيحية و اليهودية و الاخرى الارواحية الافريقية يشكل بؤرة انصهار و تلاحم في النسيج الاجتماعي رغم الحروب و الاضطرابات التي ظهرت مؤخراً و تلك التي سبقت رحيل المستعمر عن البلاد في الأول من يناير - كانون الثاني ١٩٥٦م.

من صور ذلك التعايش أن السوداني المسلم لم يكن ليفرق بين أن يرسل ابنه في مقتبل العمر أو بنته لمدرسة الراهبات أو الكمبوني أو اليونيتي و هي مدارس



ذات طبيعة و خلفية تبشيرية كنسية و السوداني المسيحي في غرب السودان - كما حدثني أحدهم و هو مسيحي من أصول شامية - و قد كانت فرص التعليم يومئذ ضئيلة كان لا يجد حرجاً هو الآخر في أن يبعث بابنه لخلوة من خلاوي تحفيظ القرآن الكريم.

و غني عن القول أن الطائفة القبطية هنا في الخرطوم و القمص فيلوثاوس مؤلف هذا الكتاب من رموزها درجت علي أن تقيم في رمضان - شهر الصوم عند المسلمين من كل عام إفطاراً جماعياً لأخوانهم من الطائفة المسلمة ، مسنولين و رموز مجتمع تأكيداً علي أن (السودان أبو الدنيا...) و أهل الأديان فيه نسيج واحد، متحد ، متحاب و متسامح..

إن الكنيسة القبطية و هي المعروفة بأنها كنيسة شرقية و لسانها عربي أثر عن رئيسها الاببا شنوده في مصر قوله ( نحن الاقباط مسيحيون ديناً و مسلمون وطناً). في اشارة الي جذور اللحمة و الترابط بين الاقباط المسيحيين و العرب المسلمين ، نضيف الي هذا أيضاً ما جاء في الأثر ( استوصوا بالقبط خيراً فإن لكم فيهم رحماً و نمة). فالرحم هي رحم السيدة ماري القبطية احدي زوجات الرسول محمد (ص) التي اتجبت له سيدنا ابراهيم الذي بسببه رفع عمر بن الخطاب الجزية عن الاقباط إذ هم (خوولة سيدنا ابراهيم ) كما كان يقول .

و عوداً إلي عناوين هذا الكتاب التي فاقت المائة و أربعون عنواناً كما يقول الفهرس نجد فيها أن الكاتب الذي إستهوته الفكرة و استغرقت له يدخر وسعاً في أن يأتي إلينا بكل ما يدعم فكرته و هي ( السودان أبو الدنيا) . و في هذا .. هذه المرة يلجأ القمص فيلوثاوس الي شهادة الكاتب المصري المعروف يومئذ محمد حسين هيكل ( وهو غير الصحفي محمد حسنين هيكل ) الذي كان قد شهد حفل افتتاح خزان سنار في ١٩٢٦م حيث كان الإحتفال يومذاك حاشداً و الحدث كبير

فكتب يقول - والذهول و الاعجاب يحيطان به : ماذا أري ؟ و ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان ...؟ ما أظن مدن أكبر دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب أوزارها ( يقصد الحرب الكونية الاولى) موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة و خزائنها...! انظر المقال بعنوان ( إفتتاح خزان سنار ) في موقعه من الكتاب.

و السوداني بنظر الكاتب الذي يضمه ( السودان أبو الدنيا) هو صاحب الجلالة او الملك. و ما ذلك كما يقول الكاتب إلا أنه ( يحافظ علي كرامته التي وهبها الله له). ثم يدعم ذلك بعدد من العناوين التي منها بطبيعة الحال عنوان ( السوداني صاحب الجلالة) الذي يجده القارئ في موقعه. و عناوين أخرى ذات دلالة منها:

السودان أبو كل الاجناس

السودان أبو الكل المكرم

و السودان أبو دنيا السياسة...!

في هذا العنوان الاخير الذي ندلف اليه و نقف عنده بعد قليل يقول الكاتب ( في دنيا السياسة يناقش المواطن السوداني أهم القضايا السياسية تحت شجرة » النيم ... و كثيراً ما يكون رئيس الجمهورية في صالات العزاء يسمع مثل هذا الحوار الجهير الذي ينتقد سياسة البلاد...!).

و ذلك حق والملاحظة في محلها و تذكر للسودان و انسانيته خصوصية ربما انفرد بها عن غيره من المجتمعات . فهو أبو دنيا السياسة و أبو الكل المكرم كما عنون الكاتب لذلك في هذا الثبوت الهام الذي أخذ من كل نبع قطرة .. و من كل حقل زهرة ليخرج إلينا بهذا المؤلف الذي نري أنه سيحتل موقعه عند القارئ و الباحث المعني بالتراث و الانثروبولوجيا و علم الاجتماع و الثقافة و الفكر. و لعل هذا ما قصد اليه الكاتب ( سفير السلام العالمي) الذي خصته فدرالية السلام العالمي بذلك



الدور كما سبق أن أشرنا و ذكرنا. فهذا هو ما يمارسه من خلال هذا العمل الفكري الذي حشد له الكثير.

عليه لا نريد بهذه المقدمة الطويلة شيئاً ما أن نحول بين القارئ وهذا النص الذي بين يديه. ( السودان أبو الدنيا ) .. و من منا لا يريد أن يغوص في تلك الدنيا و يكتشف أبعادها و محتوياتها و أسرارها؟!

شكراً للكاتب الأب فيلوثاوس فرج كاهن كنيسة الشهيد الذي نحسب أنه أثري المكتبة السودانية بهذا الجهد المقدر. و نعتذر له و للقارئ الكريم مسبقاً إن لم تكن هذه المقدمة و التوطئة في قامة الكاتب و الكتاب. بيد أن العزاء في هذه الاحوال و غيرها هو ما نعلم من أن (نية المرء خير من عمله).

موسي يعقوب

باحث مدقق وصحفي مخضرم

بسم الله الرحمن الرحيم

### ٣- قلم مداده المحبة وعشق الوطن

خصني الأب فيلوثاوس فرج هذه المرة لأقدم له في هذه الإصدارة- حينها أحسست أنه ملكني عبئاً ثقيلاً وضعه على كاهلي، فالرجل موسوعة علمية يمشى على رجلين، وله معارف بقدر نجوم السماء كماً وكيفاً، فمعارفه وأصدقائه ومحبيه من مختلف ألوان الطيف وعلى مختلف الدرجات العلمية والعملية، والكل يتمنى أن يقول عنه كلمات مكتوبة.. والرجل أيضاً وهج من السماحة والإخاء يمشى بين الناس وهو قامة سامقة من قامات بلادي، الاحترام سياج حوله، والتقدير من كل الناس قلادة يتقلدها..

تنوعت أطروحاته فتجلت قدرته وإبداعه وفاح حتى تتسمه، كل من يقرأ

أسطر ما طرحه في كل المجالات، تنوع وتضوع من أسطر ما كتب من إبداع أريج المحبة وعبق التعايش بين الأديان، فقره المسيحي، وأحبه المسلم، سكن الوطن بحبه، وسكنه الوطن ورعاه، وهو الأديب المبدع والمؤرخ والشاعر ورجل الدين والسياسة والإجتماع وعالم الفيزياء والبيئة وغيرها، له في كل مجال مقال..

قرأت له « حصاد السنين » وقد قدم له الأستاذ الدكتور أبو صالح محمد الفاتح قريب الله والذي قال عنه: إن كثيراً من الصفات والمواهب تعاونت في تكوين قيادة دينية إجتماعية لم يعرف العالم الأفريقي وما وراءه قيادة دينية سياسية أقوى وأعمق تأثيراً وأكثر إنتاجاً منذ قرون قبلها.. وقد قدم للكتاب الدكتور عبد المطلب الفحل قال: إنه كاتباً يكتب بأسلوب سلس أخذ يرتبط بالعقيدة والوجدان والواقع..

وقدم للكتاب الدكتور عبد الرحيم السيد كرار وقال عنه: إن الرجل قامة وكتاباتهِ تتميز بسلاسة التعبير وعمق المعنى وطلاوة الكلمات، مما شد إليه الكثيرون من القراء بألوان طيفهم الأدبية والثقافية، قرأت له « القادرون يحبون » وهو سفر مكون من عدة مقالات كعادة كتاباته.. قدم له الأستاذ الدكتور على محمد شمو قال فيه: إن من يقرأ للأب فيلوثاوس يدرك تماماً عظمة كاتب الكتاب والدور الذي قام ويقوم به في توثيق عرى الإخاء والصداقة بين أبناء شعب ومجتمع متعدد الثقافات والأعراف والأديان كالمجتمع السوداني..

قالت عنه بخيته أمين : إنه رجل تجاوز الأزمنة والأمكنة وقفز فوق المراحل التاريخية والإجتماعية والدينية والعقائدية، وإختار أن يكون رمزاً للتآلف والتعايش القومي والديني والوطني، بعيداً عن التعصب والعصبية، وبعيداً جداً عن المعتقدات « والعقد » والتغيرات الإجتماعية.. قال عنه محمد حسن طنون : إن القمص فيلوثاوس يكثر الإستشهاد بالآيات البينات من القرآن الكريم ولا يخطيء من يقرأ له إنه صاحب أفق واسع، وإطلاع كبير في شؤون الدين والسياسة والإجتماع، مما جعله يبيث أفكاره بإتقان في الأسلوب لا في اللفظ وحده..



قدم له الأستاذ الدكتور حسن مكى وقال : إن شخصية الكاتب تجمع ما بين النخبوتة والجماهيرية وتشهد له نخبويته كتاباته وكتبه ووجوده ومساهماته فى المؤتمرات والمنتديات الفكرية، وتشهد على شعبية إنه رجل دين كتب « مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام ».. وقدم له الأستاذ الدكتور الطيب زين العابدين واصفاً الإصدارة بأنها جهد لمؤلف جاد يملك رؤية أخلاقية لعلاقات التعدد الدينى الذى يريد لها أن تسود فى أرجاء الوطن الذى تنتمى له..

وقال عن إصداراته وعنه الأستاذ الدكتور بركات موسى الحواتى: إن الكاتب ظل يقدم على مساحة الوطن من المشاركة النبيلة ما يجعله سفيراً فى وجدان كل وطنى، فكتاباته عن المحبة الممزوجة بكل قيم المؤمن المشرئب لعالم يتجاوز كل الأطر المادية لروح يشملها السمو ويرعاه الله فى جنة عرضها السموات والأرض.. ويقول: إن ما يقدمه القمص فيلوثاوس يمثل دعوة شجاعة ووسيلة لعالم جديد فتتابع الود والتعايش، ليس مجرد كلمات تلوكها بقدر ما تمثل نهجاً علمياً يتبعه فى دراسته الجادة عن « مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام ».. قرأت له « أطروحات سودانية » وقرأت له « المسيحية فى عيون المسلمين ».. طالعت ما كتبه فى « السودان أبو الدنيا » والمكون من مجموعة من المقالات، وجدتها سلسلة من ذهب وفضة تأخذ برقاب بعضها ..

فحينما تبدأ فى القراءة وتنتهى من مقالة تشد إنتباهك الأخرى فتطالعها لتنتقلك إلى الأخرى بعناوينها وبداياتها ثم بما فى متنها من إمتاع وموانسة ومعلومة وأدب وسلاسة.. فليس بغريب على من يكتب عن « النوبة ملوكاً وشعباً » ومن كتب عن « النيل والسودان الأصيل » ومن كتب عن « السودان زمان » أن يكتب عن « السودان أبو الدنيا » وسلسلة مقالات عن السودان..

وبالرغم من إننى قرأت البعض منها فى الصحف وقرأت قبلها فى الكتب التى

أصدرها أبونا، إلا إننى وقبل أن ألتقيه لصيقاً كنت أحسبه رجل دين فقط، وكنت أعلم إنه رجل يمشى بين الناس يدعو للتوادر بينهم والتأخى وينضح عبق المحبة من ريحانه ساقه..

ولكننى وأنا أعيد قراءة مقالاته شدى إليه إنه روائى من الدرجة الأولى، وهو مؤرخ وتنم كتاباته عن أدب جم وتعابير موسقة منمقة والذى سعد بمجالسة الكاتب لا يندهش حين يقرأ له، وينهل من بساتنه ريحاناً وزهراً وورداً قرنفلًا، وكل لها عبقها وعبيرها ونسمتها، الريحان والفل والياسمين بطبعه محدث لبق لا تمله إطلاقاً وصاحب نكتة موزونة..

لم أشأ وأنا أقرأ كل مقالاته أن أختزل منها فافسد رونقها وأحرف مقصدها ومعناها الجميل.. فالرجل موسوعة بجانب إنه محب لشعبه بمختلف دياناتهم وأعمارهم ومهنتهم، يصاب بالرهق والإعياء فيتابع كتاباته ومقالاته ولكنه يحس بالإمتاع إن استطاع أن يطالعها على كثر.. قدح زناد أفكاره، وسطر الروائع لينهل منها كل ما يريد ويروى ظمأه وتطمئن روحه، وهو ينتشر بين الناس بحبه ووفاق الأديان فى تعايش الناس فى وئام، ومودة ورحمة..

والرجل له الفضل فى أن تكون مائدة الإفطار فى المكتبة القبطية فى كل رمضان يومه الإخوة المسيحيين رهباناً وقساوسة ومطارنة ومعهم المسلمون بدءاً برأس الدولة وعلماء المسلمون والشيوخ، يجالسون بعضهم البعض فى إخاء وتسامح دينى ظل مضرب المثل على مر السنين، وسيظل كذلك..

ما أروعك أيها القمص، ويراعك مداده المحبة، وعشق الوطن والمواطنين..

دكتور كمال عمر بابكر

أستاذ مشارك - كلية الشرطة والقانون

جامعة الرباط الوطنى



٤- لست أديباً مثله ولكنني معجب بأدبه الرفيع

مركز السود: ( قيل إن خير الأمور أوسطها ) والسودان وسط أفريقيا الحبيبة والشعب السوداني الطيب والمتواضع ، ولكنه في تقديري شديد الانطباع الأمر الذي يؤثر كثيراً على مستقبل هؤلاء الكرماء حيث إن الهدر الكبير من الوقت والمال تذهب لذلك السبب وبشكل متكرر، نعم واجب العزاء أمر ديني وإلهي ومقبول ثم تأتي المشاركة، ولكن يجب ألا يخرج عن حده، المجاملة الأكثر من اللازم هي التي تضر بمصالح الكثيرين، ونحن نعلم إن الإكثار الزائد عن حده ينقلب إلى ضده وهذا مضر.. شعب ذكي طيب وكريم ولكنه مجامل وإنطباعي أكثر من اللازم..

عندما يأتي الغريب من البلاد الأوربية ( الخواجة ) أو أى شخص من جنس آخر، يأتي الجميع لمشاهدته صغراً وكباراً، ذكوراً وإناً لدرجة أنه يمكن للفرد أن يترك مهامه ليلقى نظرة على الشخص المذكور.. ويمكنه تأييد إنسان في أمر لمجرد التعاطف معه وهو ما يقال عنه: إن الناس كلهم ذهبوا لماذا أنا لا ؟ أو هذا عمل قبل ذلك أنا مالى !! أمر غريب عدم تحسب النتائج والتبعات الناتجة عن هذه التبعة.. مناصرة الضيف والضعيف هي أحد القيم العظيمة المتوارثة في قبيلة النوير.. والرجل النويراوى يجب أن يكون له مبادئ ومواقف، نعم الرجال مواقف، ولكن هل من الضروري أن يكون الانتحار موقف مقبول ؟.. يدخل النويراوى المعركة فقط لتسجيل موقف إشتراك، حتى ولو أدى ذلك إلى الموت، وإن كان ضعيفاً في مكان المعركة، لأن النويراوى يعتقد إن الدخول في المعركة صفة من صفات الرجل، والرجولة عندهم تثبت وتختبر بالقوة الجسمانية للشخص في المعركة، ومدى صبره وثباته في الشدائد، ويتدرب الرجال على ذلك لقياس مدى تحملهم للصعاب..

مثل عادة الشلوخ عند قبيلة النوير والمبارزة وصيد الحيوانات المفترسة من أسود وأفيل، وذلك ما يدعو النويراوى الدخول في المعركة دون معرفة الأسباب

والواقع، حتى ولو كان في بلد بعيد.. هذه واحدة من عادات وتقاليده وطبائع قبيلة النوير الذين يقطنون في منطقة شديدة القساوة والوعورة من شدة مياه الفيضانات لأنها منطقة المستنقعات، وتربتها الطينية شديدة اللزوجة وتكثر فيها الحيوانات والزواحف المفترسة.. المنطقة وصفها المستعمر الإنجليزي بأنها مكان لا يسكنها إلا النويراوى والبعوض وفرس البحر.. ولكنها في تقديري أغنى مناطق السودان عامة، والقبيلة من السكان النيلية التي وصفها الكتاب المقدس بالجرد وطوال القامة وملساء الأجساد، تلك هي قبيلة النوير من السودان..

في قديم الزمان كان الإنسان يفضل الإستيطان في مكان يسهل فيها المشاهدة أو الرؤية وسهولة الحصول على المياه مثل المرتفعات كالتباب والأودية الخضراء والسهول وجوار الأنهار والخيران، فالسودان المميز بواديه الخصيب نهر النيل العظيم يعد واحداً من أقدم مناطق إستيطان البشر في العالم، بدليل الحضارات والممالك التاريخية الموجودة، وكذلك بدليل كثرة الثروات الطبيعية المعروفة من مياه وذهب وحياة برية وأخرى كثيرة، لذلك يعتبر ملتقى البشر والحياة البرية.. منطق بشرى عادى لم أحصل عليها من أى كتاب كتب ولا قصة من الكبار، ولكنه إعتقادي حيث إنه من البديهي القول: إن الحضارات الموجودة على وجه الأرض دائماً تكون قرب الأنهار العظيمة أو في الأودية والبحيرات..

فأنا أحسب إنه بعد فيضان سيدنا نوح عليه السلام إنتشر الأقارقة من السودان شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً بدليل إكتشاف مقابر ذات شخصيات سمراء البشرة في مصر شمال الوادي، وإختلاط القبائل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع القبائل السودانية ويدعم ذلك وجود النيل الخالد والذي أحسب إنه ملجأ الجميع من البشر والحياة البرية والطيور، لذلك من المنطق جداً أن أقول: إن السودان أبو الدنيا على الأقل لجميع البشر ذوى البشرة السمراء والتي يتميز بها السودان والسودانيون وسط أفريقيا، وأدعو الله أن يمنح القدرة والحكمة والمعرفة لإثبات ذلك مستقبلاً..



وفى الأسبوع الأول من شهر يونيو وبالتحديد ٢٠٠٧/٧/٧م إتصل الأديب المربى الأب القمص فيلوثاوس فرج مذكرنى ومكلفنى ، الذكرة هو إنه تم تأليف كتابه القيم « السودان أبو الدنيا » الذى قال لى يوماً إنه سوف يؤلف كتاب بهذا الإسم عندما أعجبته فلسفة المقولة فى كتاب « النهر والرجال » « السودان أبو الدنيا » مجرد منطق بسيط عادى وجود أم الدنيا ( مصر الشقيقة ) قلت أن يكون هناك أيضاً أبو الدنيا، وفى أقل من شهرين أكمل كتابة هذا الكتاب، والتكليف هو إننى أقوم بكتابة مقدمة للكتاب مع العلم إننى لست أديباً مثله ولا أتحمل مطالعة الكتب الطويلة لعدم صبرى على ذلك، لكنى قررت أن أختار لهذا الكتاب مقدمة بعنوان « مركز السود » وأعنى بهذا السودان مركز الأفارقة والذى يتوسط أفريقيا..

وتناولت فيه فلسفة القول « خير الأمور أوسطها » وإن كلمة السودان أصلها من السودان أى سمر البشرة والى أيضاً تعنى كلمة أثيوبيا أو الحبشة التى أطلقت لكل أفريقيا ، جنوب مصر أى القارة السوداء.. ووجود النيل الخالد عندى دليل لوجود إستيطان البشر والحيوان لأنها وادى خصيب، وانتشر منها البشر لبقية دول أفريقيا أى السودان منبع الحياة، كل هذه الأحياء الإنسان والحيوان، لذلك كانت الكلمة والمقولة « السودان أبو الدنيا »..

أما الثثرة عن النوير القبيلة الحبيبة فى وطنى الحبوب ( مثال للإطباع ) ليس ذلك قبلية بل مجرد معرفة لصيقة بها ومضرب مثل لى وعن ما أذكره من موروث لأننى عاشرت تلك القبيلة وأنا أعرفها جيدة، فأرجو المعذرة، وأرجو أن أقول إننى لم أستطع حتى الآن مطالعة قصص هذا الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج ولا حتى الكتاب المقدس الذى تحدث عن كوش كثيراً وعن أعالى النيل بالتحديد فى العهد القديم.. فلسفتى عن السودان أبو الدنيا مجرد منطق بشرى عادى بسيط يتخيله عقل إنسان متواضع..

كنت لا أحب كثيراً مطالعة الكتب فى السابق لأننى أمل المطالعة، لكنى أعتمد كثيراً على الإستماع للأستاذ وقراءة العناوين وبسيط من مقدمة القصص أو الكتب،

وفى بعض الأحيان الخاتمة، لذلك ما أكتبه فى محاولتى الكتابية مجرد خيال شخص دون المراجع وقليل من الأسئلة من العارفين أو أصحاب التجارب، فانا سعيد جداً بمعرفتى للشاعر الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج الذى أحسب إن إهداءاته لى سوف تشكل مدرسة جديدة ومفيدة ومفعمة بآيات من الكتاب المقدس، والله المستعان..

قلواك دينق قرنق أليز

وزير الثروة الحيوانية حكومة الوحدة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

#### ٥- الكتاب إنعكاس لواقع الحياة بأسلوب رصين

يجد القارئ لهذا الكتاب الموسوعى الشامل بعنوان « السودان أبو الدنيا » ما يزيد على المائة مقالة ، وموضوع تناول فيها الأخ الصديق القمص الأديب الوطنى المثقف فيلوثاوس فرج بأسلوب سلس يفيض عذوبة ورقة ورصانة ونهج فكرى متقدم، وثقافة سودانية أصيلة عدة مواضيع إتسمت بالتنوع فى مختلف مجالات الفكر الإنسانى، والتراث والثقافة السودانية، بما فى ذلك تراث هذا الوطن وتاريخه القديم والحديث، وضروب النهضة الثقافية والفكرية والاجتماعية والإقتصادية والتربوية والتعليمية إلخ.. بالإضافة لمجالات الوحدة الوطنية والتنوع الثقافى والاجتماعى والدينى، وسير الإعلام السودانىين البارزين، القداماء منهم والمحدثين، كالشيخ الحكيم فرح ود تكتوك، والشيخ المربى بابكر بدرى، من القداماء..

والأستاذ النابغة يوسف ميخائيل، والدبلوماسى العريق منصور خالد، والسفير المخضرم جمال محمد أحمد، والأديب الفذ الطيب صالح، والإقتصادى العريق مامون بحيرى، والذى تم وصفه فى هذا الكتاب بالحكيم الساهر، بالإضافة إلى السياسى الشاب المرحوم محمد إسماعيل الأزهرى، وخلافهم من أعلام السياسة والمجتمع والفكر والفن.. هذا بالإضافة للجانب الهام والخاص بحوار الأديان، والتعايش



العقائدي والديني بين مختلف الطوائف والملل..

وفي هذا الإطار لا يفوتنا إلا أن نوجه أنظار القراء الكرام للمقالات الخاصة بوضعية السودان تحت لواء الحكم البريطاني، كمقالتى السودان عند روبرتسون، والسودان عند ماكمايكل.. هذا بالإضافة للعرض الفكرى والثقافى المتميز والمستنير للمقالات العامة التى تدور حول موضوع إسم الكتاب كمقالة «السودان أبو الدنيا» ، والتى تفرعت عنها عدة مقالات بعناوين السودان أبو الكل، النيل أبو الحضارة، السودان أبو الرجال والنساء، أبوة السودان للدنيا، السودان أبو لكل الأجناس، السودان أبو محبوب، وأخيراً السودان صاحب الجلالة.. وكما أرى فإن الهدف الأساسى لهذا الكتاب ليس هو المتعة والترفيه فحسب، بالرغم من إننى قد إستمتعت كثيراً من قراءته، إلا أن الفائدة العظيمة والأساسية بالنسبة لى كانت تلك الحصيلة الثرة، والإضافة لرصيد معلومات وأفكارى ومفاهيمى عن الحياة فى السودان، بما فيها من إشراقات وأفراح وأتراح..

وفي هذا الإطار لا يفوتنى أن أذكر بأن معظم الباحثين ومؤلفى الكتب، قد إعتادوا أن يعللوا الأسباب التى ترتب عليها إختيار عناوين كتبهم، ولا أرى أن موضوع «السودان أبو الدنيا» فى حاجة لتعليل.. وإننى إذ أقدم للقارئ هذا الكتاب، فإننى أقدمه ليكون معلماً لإثبات الجهد العظيم الذى بذله المؤلف مع علمنا التام بأنه لا يمكن لمؤلف أو كاتب أن يدعى إن ما توصل إليه هو كل الحق أو الحقيقة، ولكن يكفيه بأنه قد أجهد نفسه فى البحث عن المعلومات والحقائق وإستخلاص النتائج وإستيعاب واقع الحياة فى مجتمعه ووطنه، وعكسه للقارئ بأسلوب رصين وسرد شيق وممتع.. ولا أعتقد إننى فى حاجة للحديث عن القمص الأديب فيلوثاوس فرج ومآثره الكثيرة ونبل شخصه ، وصدق وطنيته لأن الناس يعرفون عنه ذلك النبل وكريم الخصال..

وفقنا الله جميعاً والسلام....

بروفسور قاسم بدرى

عميد جامعة الأحفاد

بسم الله الرحمن الرحيم

٦- ما كتبه المؤلف فى حب السودان لم يكتبه آخر

طلب منى أبونا القمص فيلوثاوس فرج أن أكتب عنه من كتابه الجديد «السودان أبو الدنيا» فقلت له على الفور: هذا شرف عظيم، فالأب فيلوثاوس فرج صاحب قلم جياش ظل يمتعنا أعوام وأعوام فى عمود يومى وإسبوعى فى أكثر من صحيفة يومية بجانب محاضراته العامة ومقابلاته ومساهماته فى الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية، وأبحاثه وأوراقه فى الندوات العلمية.. وسبق لى أن إستضفتة فى برنامج إذاعى «كتاب ومؤلف» وفى حلقتين متتاليتين تعرضنا لمؤلفات وكتابات ومساهمات الأب فيلوثاوس فرج فى مجال الثقافة السودانية.. والمتصفح فى مقالاته وكتاباته يجدها مشبعة بالعلمية والحقائق التاريخية والموثقة بالمصادر والمراجع، وليست مقالات تأتى عفو الخاطر، بل كتابات علمية رصينة نلاحظ بكل الوضوح الجهد العلمى المبذول فى إعدادها وأثر المراجع التراثية والحديثة..

وحب السودان وعشقه والتغنى به نلمسه فى كل ما كتبه، وفى كل ما يقدم من أحاديث ومحاضرات، فالسودان الوطن الشاسع وبتاريخه القديم الضارب فى جذور الحضارة الإنسانية وبيأسانه وحضارته التى تعاقبت على مر الحقب والآزمان كانت مجال إهتمامه، فكلف ببحثها وتسجيلها وتوثيقها.. يكتب ويتحدث عن السودان دون كلل أو ملل.. ولا أظن المبالغة إذا قلت إن ما كتبه الأب القمص فيلوثاوس فرج فى حبه وعشقه للسودان لم يكتبه أى شخص آخر فى تاريخنا القديم أو المعاصر.. ويشهد على ذلك سلسلة الكتب التى أصدرها وزادت عن العشرة وجميعها تحتوى من المقالات التى تفيض بحب السودان وأهله..

ولا غرابة فى ذلك، فى إن الأب فيلوثاوس فرج ولد وعاش فى هذا البلد والتى إعتبرها وطناً له، ويحق له أن يتغنى بها، لأنها حقيقة وطنه وموطن أهله وعشيرته، الذين عاشوا عقوداً بين إخوته من المسلمين السودانيين فلم يجدوا سوى الإحترام



والتبجيل والأخوة والصداقة والمساواة في المواطنة.. وإذا استعرضنا جانباً من الموضوعات التي تطرق لها هذا الكتاب لوجدنا اسم السودان قد ورد عشرات المرات، فالمؤلف ينتهز الفرص للكتابة عن السودان في تاريخه القديم في شخصياته التراثية والمعاصرة في آثاره وجغرافيته ورحلاته وآراء الكتاب، والمؤلفين عن السودان..

سودان الجميع، الوطن الشاسع الواسع، الذي يحتضن كل المواطنين دون تمييز في العرق أو الدين أو اللون.. وهو أمر شَبَّ عليه كل أهل السودان وكانهم رضعوا ذلك من ثدى أمهاتهم.. فالتسامح والمحبة وإحترام الآخر، كلها صفات ميزتهم عن كثير من شعوب المعمورة، وإستطاع الأب فيلوثاوس فرج بإسلوبه وكلماته وعباراته العذبة أن يعرض كل تلك المفاهيم والقضايا، وأن يؤكد لنا بكل الوضوح لأنه رجل المحبة ورجل الوطنية، ورجل التسامح، وابن بار من أبناء هذا الوطن، تشبع بالثقافة والحضارة والعلم وأنتج وقدم لنا أدباً رفيعاً في حب الديار والأهل والعشيرة..

ونحن نقدر للأب القمص فيلوثاوس فرج هذا الجهد العظيم في الكتابة والتأليف والنشر والتوزيع، وهو عمل لا يقدر عليه إلا من أوتى عزيمة الرجال، وصبر الأنبياء، فشكراً لك يا أبونا لهذا العطاء العظيم، متعك الله بالصحة والعافية، والمحبة والسرور..

أ. د. قاسم عثمان نور

أستاذ علوم المكتبات والمعلومات

بالجامعات السودانية

## قالوا عن المؤلف

١- نحمد الله أن بيننا رجلاً عالمً كالأب فيلوثاوس فرج، درس و تعمق لما جاء في الإنجيل و أدهشنا بفهمه العميق الواسع للقرآن الكريم ، و إختياره الدقيق للآيات التي تعضد فكره الموحد للمؤمنين، قال تعالى : نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديك و أنزل التوراة و الإنجيل من قبل هُدي للناس و أنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد.

لقد إستطاع الأب العالم بهذا التعمق و الدراسة للقرآن الكريم أن يؤكد على أن الإسلام قد جاء مصداقاً بالمسيحية و مقراً لما جاء فيها. و هو دوماً يشير إلى أن التعايش بين الديانتين استمر لعدة قرون في رقعة جغرافية واحدة، تصادقوا مرات ، وتحاربوا مرّات بسبب الحكام الطغاة والساسة ذوي الأغراض ، الذين لم يدركوا إن الديانتين المسيحية و الإسلام تتوافقان و إن لم يتطابقان، و أن الله لو أراد أن يرسل رسولاً واحداً لفعل، فهذه حكمته جلت قدرته، و الأب فيلوثاوس يشير دائماً إلى أهمية أن يكون الود قائماً بين المسيحيين والمسلمين

برفسور تاج السر دوليب

حامل وسام الآداب و الفنون

٢-

إنني أهني القارئ السوداني بما يكتب الأب القمص فيلوثاوس فرج و أهني الأب الكاهن الوقور بثقة القارئ فيه و أعتقد أن أبحاثه سوف تستمر لفائدة الوطن العظيم السودان الممتد الأطراف، إن الأب فيلوثاوس فيما يكتب يحاول أن يمتن عري الصداقة و قرب المودة و لا إكراه في الدين، والمسيحيون آمنون و مؤمنون إلى يوم الدين والإسلام في حريته يذكر: و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجاً و لو شاء ربك لجعلكم أمة واحدة هذا ما جاء في سورة المائدة و في نفس هذه السورة: إن الذين آمنوا و الذين هادوا النصارى و الصائبين من آمن بالله و اليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و أرجو أن نلاحظ أن سورة المائدة كُتبت قبل وفاة النبي صلوات الله و سلامه عليه بأسابيع قليلة و لم تنسخ، والحديث يطول عن مكانة أهل الكتاب و أهل الذمة و نحنُ كلنا و الحمد لله في ذمة الله.



وما يكتبه أبونا هو إجتهد مقبول ومشكور ونظراً لأن الإجتهد مباح ومطلوب في الإسلام لهذا كتبت كتاباً عنوانه " فقه الطبابة " لأن الحرية متاحة والفسحة واسعة لطرح الأسئلة والأجتهد ومطلوب أن تكون صياغة القوانين مواكبة للظروف والمتغيرات ونحتاج لحماية الإجتهد صونا لحرية البحث والتي هي أخص خصائص حقوق الإنسان اللزامة لصياغة المجتمع الديموقراطي المعاصر الذي يتساوي فيه الجميع حقوقاً واجبات،

بروفيسور أحمد عبد العزيز  
أخصائي جراحة القلب  
وزير الصحة الأسبق

٣- عندما تقرا للأب فيلوثاوس تشعر أنه يقدم لك مرآة صادقة فيها الفن والذوق الأدبي الرفيع وفيها مادة تحوي السلام والحب والأخاء وفيها جسر من المودة والتسامح، وفيها حكمة الشيخ وحيوية الشباب وفيها العمل والبحث والجدية والتواصل المتواصل، يملكك شعور وأنت تقرا بأن الكاتب ليس غريباً عنك بل هو قريب منك ... وكفي

ولهذا وجب على أن أحيى هذا الكاتب الوقور المكافح النشط الأب فيلوثاوس وهو يرسى دعائم المحبة والسلام ويرسم لوحة فنية صادقة في إمتداد مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام وكتاباته هي لوحة تؤصل وتؤرخ للتوادر المحبة فتبني جسوراً من الثقة والأمل بين أهل السودان جميعاً،

بروفيسور عبد الهادي محمد عمر تميم  
خبير أول معهد الخرطوم الدولي  
للسنة العربية

٤- إن للأب فيلوثاوس خصوصيته ككاتب وهو ( ماشاء الله ) الناشط دينياً وثقافياً وسياسياً واجتماعية وهو يحظى بموقع مرموق في ديوانته المسيحية الأرثوذكسية القبطية ويتمتع بموقع القمص والأب والكاهن كما له موقعه في حوار الأديان في بلده السودان وفي فيدرالية السلام العالمية التي خلعت عليه في لقاءها الجامع في العاصمة الكينية نيروبي في منتصف

نوفمبر تشرين الأول ٢٠٠٥م وعن إستحقاق لقب « السفير العالمي للسلام » ومن خصوصيات الأخ الكاتب الأب فيلوثاوس التي تضاف إلى ذلك خصوصيته الثقافية التي جعلت منه كاتباً صحفياً يلاحق بقلمه شتى الموضوعات و عبر السنوات مما أتاح له فرصة إصدار عدد من الكتب وذلك إلى جانب حضوره السياسي والتشريعي في المجتمع فقد كان عضواً في المجلس الوطني ( البرلمان ) لمرتين في الفترة الأخيرة.

علي أن خصوصيته وحضور الإجتماعيين أضافاً لشخصيته وسيرته بعداً آخر عمق ورسخ في ذاكرة كل من يعرف الأبعاد الأخرى - حفظه الله - وأحسب أن كل هذا الكل المركب في شخصيته الكاتب هو الذي يجعله مؤلفاً واقعياً في وطن متعايش ومن صور ذلك التعايش أن السوداني المسلم لم يكن ليفرق بين أن يرسل ابنه في مقتبل العمر أو بنته لمدرسة الراهبات أو الكومبوني أو اليونيتي وهي مدارس ذات طبيعة وخلفية تبشيرية كنسية - والسوداني المسيحي في غرب السودان في أن يبعث بابنه لخلوة من خلاوي القرآن الكريم .

موسي يعقوب

صحفي مخضرم

و مؤلف صنديد

٥- إن الرسالة التي يؤمن بها الأستاذ الأديب القمص فيلوثاوس فرج و يدعو لها و يعبر عنها أفكاراً وتأملات ومشاعر معبرة عن رؤي وتجارب، هي رسالة تتجسد في مكونات أربعة وهي الإيمان والمحبة والأمل والسلام، هذه المكونات الأربعة هي البوتقة أو المنظومة التي ينتظم في إطارها كل هذا الكم المتنوع والمتعدد من الأفكار والمشاعر، يحدثك المؤلف في كل ذلك حديث إلفه ومحبة فهو لا يعتلي منبراً عالياً، بل يعمل على إزالة كل الحواجز ليحدثك حديثاً مؤنساً هادفاً يدفعك إلى المزيد من التأمل والتبصر، ويجذبك في تودة لتشاركه الحجة المنطقية لما يقدم من أفكار وآراء.

و الأستاذ الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج رجل دين عليم بعلم اللاهوت، غير أن معارفه لم تنحصر في الدين وحده بل يهتم بتغذية ما يكتب بالعديد من الروافد



الفكرية في الآداب والفنون والتاريخ والفلسفة، وبالإنفتاح الذكي المتبصر على معطيات علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ولقد ظل الأب القمص فيلوثاوس فرج من أبرز دعاة التعايش الديني السلمي بين الأديان منطلقاً في ذلك من جوهر كل الأديان السماوية المبنية على الإيمان الكامل بوحداية الخالق،  
بروفسور دكتور

حسن أبشر الطيب

كبير خبراء الأمم المتحدة

٦- إنني من قراء الأب فيلوثاوس فرج إيماناً مني بأن ما يكتبه هو جيد جاد يهدف منه إلي الإسهام بالرأي والكتابة في خلق المجتمع المتسامح، والذي هو نموذج صادق لهذا السودان الذي عُرف طوال تاريخه الناصع بالمحبة والسلام والتسامح بين أبنائه المتعددي الأعراق، المتنوعي الثقافة، والذين خلقوا هذا النسيج الفريد الذي عرف عند الناس بالسودان.

إن من يقرأ ما كتب الأب فيلوثاوس يدرك تماماً عظمة هذا الكاتب والدور الذي قام به في توثيق عري الأخاء والصدقة بين أبناء شعب ومجتمع كالمجتمع السوداني ويدرك أن رجل الدين أيا كان هذا الدين، يستطيع أن يسطع ويشع في مجتمعه متجاوزاً المسجد والكنيسة، فيضئ بكلماته وعباراته الطيبة ذلك الأفق الواسع التي يعيش في فناءه وتحت لوائه شعب عظيم كشعب السودان، إن الأب فيلوثاوس أخ صديق حميم ونموذج لرجل الدين في السودان يذكرني بالراحل الانبا دانيال والذي كان حضوراً في كل المناسبات الوطنية والدينية للمسلمين والمسيحيين علي السواء، إن الأب فيلوثاوس يمثل قيادة واعية في مجتمع التسامح والتفهم للديانات والعقائد كاقباط مصر الذين عرفناهم وطنية وحماسة لقضايا وادي النيل في مصر والسودان.

إن الأب فيلوثاوس فرج هو استمرار لنماذج محترمة من الأخوة الاقباط الذين أثروا الساحة الوطنية السودانية منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم، ويمتاز الأب بإسهاماته المتعددة في المجالات السياسية والثقافية والدينية، وفي المجال الصحفي الذي يحمل عدداً من المقالات التي ترتبط بالمجتمع وتناقش قضايا تهم القارئ السوداني.

بروفسور علي محمد شمو

رئيس المجلس القومي للصحافة

والمطبوعات الصحفية

## ١. السودان أبو الدنيا

الأب والأم: أهم ما يميز أهل مصر حبهم لمصر، وقد لقبوها «أم الدنيا» وهذا اللقب وجد مكانه أيضاً خارج مصر، مصر أم الدنيا.. ومنذ عهد أمنحتب الثالث تترنم مصر بدعاء إلى الله وإلى مصر التي هي الأم البارة للآلهة والبشر، مثلما هذا الدعاء القديم:-

أيها الموجد الذي لا موجد له..

أيها الواحد الأحد الذي يطوى الأبد..

أنت الأم البارة للآلهة والبشر..

والصانع الدؤوب الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر..

والراعي ذو القوة والبأس يرعى رعيته..

ولولا ملاذهم ما تهيأت لهم حياة..

وإذا كانت مصر هي أم الدنيا فإن الوزير المؤمن المسيحي الملتزم قلكا دينق أطلق شعاراً يقول فيه: إن السودان أبو الدنيا.. أبو الحضارة كلها، فالحضارة منه تبعت مع نهر النيل وجرت وتدفقت إلى الجنوب، وإذا كان النيل يبدأ من السودان القديم، فقد نشأت حضارة الإنسان على ضفاف النيل ولهذا يعد السودان منذ القدم «أبو الدنيا»، وأب الحضارة، لأن النيل هو النهر الوحيد الذي يجري من الجنوب إلى الشمال حاملاً الخصب والنماء والغرين وكل جذور الحضارة وبذور التقدم الإنساني، والرأي الذي قاله قلكا أتى ببدلة عليه من الكتاب المقدس وماذكره أشعياء عن كوش (أصحاح ١٨) وما قيل عن قوسهم وسرعتهم وخفة حركتهم، وإنهم شعب قوة ودوس..

وما جاء في المزمور الثامن والستون «كوش تسرع بيديها إلى الله»، وفي ترجمة الحياة تأتي الآية «وتبسط الحبشة يديها مسرعة إعراباً عن خضوعها لله (مزمور ٦٨: ٣١)». وتستفيد التجمعات المسيحية بهذا النص الجميل، وعندما تقام احتفالات روحية مسيحية في الساحة الخضراء يرفع كل الحاضرين أيديهم إلى الله ويبسطونها أمامه خضوعاً وعبادة وسجوداً أمام العلى الذي خص كوش بأن يكون «أبو الدنيا» كلها، ويكون أيضاً «أبو الآخرة»، لأن دنياها هي الطريق إلى آخرتنا.. كما أرجو أن نلاحظ كوش هو نفسه الحبشة، وهو نفسه أثيوبيا، وكلها كلمات



تعنى أصحاب البشارة السوداء والذي أقول: إنهم الحبة السوداء والتي فيها الشفاء من كل داء، وهم الآن في كل البلدان يعملون في قوة ويخدمون في أمانة، ولا يوجد مكان على وجه البسيطة لا يحمل بذرة أهل السودان الحبشة أثيوبيا وما تقدمه هذه المنطقة من عطاء، فلقد قدمت الجندى القوى، وقدمت العامل الأمين، وتقدم الآن أساتذة الجامعات والخبراء والمدراء..

وهنا يؤكد كثيرون: إن موسى النبي من مواليد دنقلا وإن هذا الرجل العظيم تزوج بامرأة كوشية.. وإن القديس موسى الأسود الذي يزين سماء القديسين في الكنيسة القبطية هو سودانى الأصل، وإن القديس تكلا هيمانوت رجل السياحة الروحية يرجع أيضا لنفس المنبت والجذور، وإن هاجر زوجة إبراهيم أم إسماعيل أيضا سودانية كوشية، وإن الملكة بلقيس ملكة سبا كانت سمراء جميلة وأعجب بها سليمان الملك بجمالها وتزوج بها وأنجب منها الجد الأكبر للأمبراطور منليك، وقد رأيت صوراً قديمة تؤكد التشابه بين سليمان الأب ومنليك الابن، هذا عدا شهادة السيد المسيح عنها في قوله ملكة التيمن: ستقوم في يوم الدين وتدين هذا الجيل لأنها أتت لتطلع إلى حكمة سليمان، وهوذا أعظم من سليمان ههنا..

ديودور الصقلى: وأورد هذا المؤرخ القديم: إن الأثيوبيين أى السودانين يقولون: إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا، وإن طين بلادها طمى من بلادنا ساقه النيل إليها، وإن بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة، وهناك تشابه بين القوانين وفي زى ملوك البلدين، ولم يذكر ديودور بناء الإهرامات والمسلات كقاسم مشترك بينهما، ويرى دكتور سليم حسن في كتابه «مصر القديمة» إن رواية ديودور المؤيدة لمجىء المصريين من أثيوبيا راجعة في الحقيقة إلى أن أصل المصريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية لأنه كما ذكر ديودور في موضع آخر: إن القبائل المهاجرة من بلاد العرب نزلت على شواطئ البحر الأحمر في أثيوبيا وأقامت فيها زمناً ثم زحفت بعد ذلك إلى وادى النيل، وإن كنا نرى إنه لا مانع من قدوم العرب إلى «أبو الدنيا» ولكن بعد أن بدأت الدنيا على أرضنا وقد تعرض الصقلى أكثر من مرة إن هناك صلة قوية بين مصر والسودان..

ونذكر بكل وضوح: إن منطقة النوبة يسكن فيها قوم يجتمعون في نسبهم مع مصر، وقال: إن المصريون جالية نوبية نزحت من الجنوب، ومن يؤيد قوله

يذكر بعض الأدلة منها: إن المصريين في عصور ما قبل التاريخ كانوا يدفنون موتاهم ورؤوسهم متجهة نحو وطنهم الأصلي في الجنوب بل يذهبون إلى أن آلهة المصريين «أوزوريس وحورس» آلهة أصلها نوبية.. وإلى القرن الرابع كان أهل النوبة يعتزون بالآلهة إيزيس ويعتبرونها آلهة خاصة بهم، وكانوا يأتون في موكب إلى معبد الآلهة إيزيس في جزيرة فيلة أسوان، ويأخذون تمثالها ويجولون به في موكب بهيج في بلاد النوبة لكي تخصب الأرض وينمو الزرع، وكان هذا يحدث في عيد النقطة الذي يحتفل فيه المصريون أيضا بنزول أول نقطة مطر لتروى النيل.. وكان الإله المصرى «أمون» معبود سودانى في نباتا ومروى حتى إن بغنى طالب الجنود أن يكسبوا رضاء الإله أمون لكي يتم إفتتاح شمال الوادى، وفعلا قامت المملكة المتحدة لمصر والسودان بقيادة بغنى الملك السودانى..

## ٢. حكاوى أم درمان ويهود السودان

شوقى بدرى: لقد تفتح وعى شوقى بدرى على المدينة الجميلة أم درمان وكتب عنها وفيها مساهمة ثرة هي: حكاوى أم درمان.. ونحن حتى الآن لم نسجل تاريخ أم درمان ولا غير أم درمان من مدن السودان.. وما زلنا نعتمد على التاريخ الشفاهى أو التسليم فنحن نستلم تاريخنا من أفواه الآباء والأجداد والحبوبات، ولكن هل ما زال حبوبات هذا الزمان قادرات على العطاء؟ ربما الاسم نفسه قد تغير رغم إننى أصر على اسم حبوبة لأنه يعنى ليس المحبوبة فقط وإنما الأم التى تحب ومسئولية الباحثين فى هذا الجيل أن يسجلوا تاريخنا الشفاهى قبل أن يضيع مع المدينة الحديثة ومشاغلا وأمهات اليوم عندما يصرن حبوبات ربما لا يلتزم بعطاء الحبوبات الآن..

لقد تعرض شوقى بدرى كما تحدث عنه مكى أبو قرجه بصورة حانية ومحبة لبعض العائلات اليهودية التى أقامت بالمدينة منذ المهدية.. وتحدث عن اندماج اليهود فى الحياة السودانية وهذا أمر معروف فى السودان التى لا يأتياها أحد إلا ويعقد علاقات ود وإحترام مع كل الناس حتى إن ما كتبه الأجانب من إنجليز وأمريكان وفرنسيون وعرب عن السودان أكثر مما كتبه أهل السودان، وأذكر أستاذاً مصرياً عالماً من علماء التاريخ كان مدرساً فى جامعة الخرطوم وعندما زرته فى ليبيا ذكرنى بأنه قضى فى الخرطوم أجمل أيام العمر..



وكان سعيداً في كل أمسية أن يرش حوش بيته بالماء ويضع الكراسى في انتظار الزوار .. وكان بلاشك يدير حديثاً جميلاً عن المدينة الجميلة وكانت زوجته قد عبرت أمامي عن سعادتها باستضافة الضيوف وبالندوة المسائية التي كانت تعقد في دارها في ود تلقائي ومحبة لا يعرفها إلا أهل المحبة لأنه بالمحبة نعرف الله.. ومن لا يحب أخاه الذي يراه فكيف يحب الله الذي لم يره أحد قط.. ويقول شوقي بدرى نساء اليهود أنجب أفضل الأبناء والبنات للسودان.. ويذكر السيد محمد الفضل أول مدير عام سوداني لمصلحة السكة الحديد خال الشاعر صلاح أحمد إبراهيم وأخوانه وهو الشاعر الشاعر الذي وقف في وجه السلطان الجائر..

لقد أنجب الفضل من زوجته وردة إسرائيل الدكتور فاروق والدكتور فيصل والدكتور فتحى وشقيقاتهم فاطمة وفتحية وفائزة وجميعهم كرسوا حياتهم وقدموا التضحيات الكبيرة لأجل نفع وطنهم الكبير ، ولا يشك أحد في وطنية هؤلاء ولا في وطنية اليهود الذين عاشوا على أرض السودان سودانيون بلا منازع.. وتكلم شوقي بدرى عن آل إسرائيل بأم درمان وكيف كان لهم عزم الأسود يفيضون وطنية ورجولة.. وقد أنجب إسحق إسرائيل من كريمة السيد محمد عبد الرحيم المؤرخ الشهير منصور وسميرة وإخوتهم الذين عُرفوا بأنبل الخصال وأشرف المواقف.. وأعتقد إنه لولا قيام الحركة الصهيونية والتي إستعدت الحرب وإستولت على فلسطين لعاش اليهود في السودان حتى الآن..

حركة اليهود: لقد شهد المجتمع السوداني حركة اليهود منذ أقدم الأزمان.. ولقد سكن بعضهم في حلفا ومروى والدابة وكريمة.. كانوا يعملون وكلاء لتجار يهود كبار مركزهم في جزيرة فيلة بأسوان.. ويعتقد البعض أن وزيراً لملكة كنداكة وهو أول مسيحي سوداني كان يهودياً ويستدلون بذلك على قراءته لسفر أشعياء، وإن كان هذا يمكن أن يكون دليل ثقافته وحبه للقراءة، ولكن كما يقولون فإن هذا ليس بغريب أن تستفيد الملكة الوقور بمواطن سوداني من أصل يهودي.. ولقد شهد المجتمع السوداني في القرن التاسع عشر خلال الحكم التركي وجود عدد كبير من الأتراك واليونانيين والإيطاليين والروس والإنجليز والألمان واليهود، وإن كان الباحث لا يرى فيما هو متاح عن تاريخ السودان ذكراً لليهود عدا الإشارة إلى الرحالة اليهودي اليمنى صالح روبين الذي زار السودان في أوائل القرن السادس

عشر إبان نشوء دولة الفونج الإسلامية وكتب إنطباعاته عن هذه الزيارة.. ويقولون إن اليهود من أبناء الملك سليمان من زوجته السودانية بلقيس قد عادوا إلى السودان في زمن مبكر يبحثون عن مجد أجدادهم وكانوا يحملون معهم لوحى الشريعة اللذان إستلمهما موسى كليم الله من الله ويجرى البحث عن هذا الأثر الخالد، وقد بذلت جهود في ذلك شارك فيها الباحث الدكتور عمر الصادق، ولكن لم تزل النتائج سالبة.. واليهود أنفسهم الذين سكنوا جزيرة فيلة في أسوان بكثافة كبيرة قد أجبروا في وقت ما على الرحيل فتوجهوا جنوباً إلى السودان حيث كان الضغط عليهم من الشمال.. وعندما اندلعت ثورة المهدي في أنحاء السودان المختلفة وباتت الخرطوم تحت أسر الفتح المهدي تسلل كثيرون هاربين ، وعندما تم فتح الخرطوم في يناير ١٨٥٥م إتخذ الإمام المهدي أم درمان عاصمة له.. وخرجت الخرطوم من جغرافية السودان ولم تعد إلا بعد أعوام، وبالتحديد عام ١٨٩٨م أى ظل السودان بدون خرطوم ثلاثة وثلاثون عاماً، وخلال هذه المدة ذهب اليهود والأقباط واليونانيين إلى أم درمان وعاشوا فيها، وكان معهم بعض رهبان وقساوسة الكنيسة الكاثوليكية، ووصل إليهم فيما بعد الكاهن القبطي القمص فلتاؤوس قلادة من الأبيض، وكان اليهود في ذلك الوقت ثمانى عائلات من السفارديم أى الذين عاشوا في الأندلس أيام مجدها الزاهى وعصرها الذهبى الذى إنطوى بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م.. وأسلم هؤلاء اليهود.. وأسلم غيرهم.. ولم يطلب منهم أن يقولوا الشهادة.. وعندما زالت دولة المهدي عاد كل هؤلاء إلى أديانهم بما فيهم اليهود والذين إختلطوا مع غيرهم، ولكن لا يأكلون لحم الطير أو الحيوان إلا إذا قام الحاخام اليهودى بذبحه حتى يكون حلالاً.. ولا يأكلون لحم الجمال ولا الأرانب رغم أن غيرهم من أهل السودان يأكلونها.. وعاشوا وإختلطوا دون أن يتنازلوا..



### ٣. السودان وأغانى أفريقيا

أفريقيا تغنى: عاشت أفريقيا السوداء أياماً سوداء.. ولكنها اجتازت قسوة الأيام وعبرت فوق المرات وكشفت عن كنوزها.. وكنوز أفريقيا ليست معادن نفيسة وبترو.. وذهب.. وماس.. إنما هي أيضا رجال.. فالرجل الأفريقى الذى يحيا الطبيعة الجميلة هو كنز من كنوز أفريقيا.. ومنذ أيام كوش الأب الكبير لكل أفريقيا كان أبناء كوش هم الجنود الأقوياء النبلاء سريعى الحركة الذين هم عماد جيوش الفراعنة وبلاد الشام وفرنسا والبرازيل.. وعندما صُلب السيد المسيح حمل معه الصليب سمعان القيروانى، وهكذا حملت أفريقيا صليب المسيح ودخل إليها نور الإنجيل منذ القرن الأول على يد النوبة المسيحية، وعاش الملوك حياة التقوى وأدركوا سر الحياة الآتية.. ومن ثم جاء الرجل الأبيض وكتب الانتصار لأفريقيا لأنها بجهود رجال أفريقيا عادت الأرض إليهم فصاروا يملكون الأرض ويملكون الإنجيل سراج الحياة.. نور الطريق.. ترنيمة الغرباء فى الأرض الذين يشتهون السماء ويتوقون إلى حياة الأبد..

أغانى أفريقيا: والسودان هو مدخل أفريقيا وهذا ما كتب عنه الأمريكى وليم آدمز مؤلفاً ضخماً ترجم تحت عنوان « النوبة رواق أفريقيا ».. والمترجم والمقدم هو محبوب التجاتى محمود السودانى العريق، والذى تعد النوبة أكبر تراجمه المنشورة وأسلوبه أسلوب رفيع، وكتاباته تشبه كتابات الأب القمص متى المسكين الذى تمتاز أبحاثه بالعمق وكلماته بالدقة وتعبيراته بالبلاغة.. وعن الغناء فلقد إهتم الإتحاد الأفريقى فى إحتفالات سفراء الإتحاد الأفريقى بالخرطوم بأن تقدم كتاب « أغانى أفريقيا » فى الذكرى الجميلة لهذا الإتحاد العظيم فى العيد السابع لتأسيس الإتحاد الذى كان فى سبتمبر ١٩٩٩م.. والكتاب صادر من الخرطوم فى نوفمبر ٢٠٠٦م..

وفيه مختارات من أغانى أفريقيا من تأليف الشاعر العربى الأفريقى محمد مفتاح الفيتورى.. وبينما قال الشاعر والأديب السر قدور: شمس إيمانى بأوطانى.. ده خلانى.. أقول للعالم أنا أفريقى أنا سودانى.. بلدى بلد الخير والطيبة.. قمر يضوى ما يعبث أبداً.. دائماً باين.. ويقف أمام المواكب التى لا تتراجع ويقول : أنا أفريقى.. أنا سودانى.. فإن الفيتورى يتحدث أحياناً بمرارة عن سواد بشرته.. ولكنه فى إباء

وشمم يخاطب كل أفريقى.. قلها لا تجبن ، لا تجبن.. قلها فى وجه البشرية.. أنا زنجى.. وأبى زنجى الجد.. أمى زنجية.. أنا اسود.. أسود ولكن حر أمتك الحرية.. أرضى أفريقية.. عاشت أرضى.. عاشت أفريقيا.. أنا زنجى وأفريقيا لى.. أنا فلاح ولى أرضى التى شربت تربتها من جسدى.. أنا إنسان ولى حرىتى.. وهى أغلى ثروة من ولدى.. أنا حر مستقل البلد.. وسابقى مستقل البلد..

وكتاب أغانى أفريقيا قام بترجمته الشاعر والأديب والسياسى النقيب.. إدريس البنا نائب رأس الدولة فى عصر الديمقراطية، ولقد ترجمته بكلمات إنجليزية قوية تكاد أن تكون شعراً.. والكتاب يحوى خمس أغنيات شعرية هى : وحين يشيد الظلام وينعس ليل ويصحو نهار.. ويا أخى فى الشرق فى كل سكن.. أنا زنجى.. إلى وجه أبيض.. الطوفان الأسود..

والشاعر محمد مفتاح الفيتورى من قبيلة الفواتير ، وهو من مواليد الجنيانة التى هى جزء من دارفور صاحبة التاريخ العطر، والتى تحتاج إلى تضافر أهل السودان حتى يستعاد مجدها الذى سلبته عواذى الزمن وأطماع البشر وإعتداءات الإنسان على أخيه الإنسان، ويتحدث الفيتورى عن الناس فى أفريقيا والذين هم فى أرض سجيئة.. وأيامهم ذكريات طعينة لأرض طعينة.. وأوجههم كآلاف حزينة.. تراها مطاطاة فى سكيئة.. مخدقة فى الشقوق فتحسبها مستكيئة ولكنها فى حريق.. والأفريقى يخاطب الناس فى الشرق.. فى الأرض.. فى كل وطن..

ويقول: إننى مزقت أكفان الدجى.. إننى هدمت جدران الوهن.. لم أعد مقبرة تحكى البلى.. لم أعد ساقية تبكى الدمن.. لم أعد عبد قيودى.. لم أعد عبد ماض هرم.. عبد وثن.. أنا خالد رغم الردى.. أنا حر رغم قضبان الزمن.. فاستمع لى.. إنما أذن الجيفة صماء الأذن.. إن نكن سرنا على الشوك سنينا.. ولقينا من أذاة ما لقينا.. إن لم نكن بتنا عراة جائعينا.. أو نكن عشنا حفاة بئسينا.. أو نكن قد أهوت الفأس قوانا.. فوقفنا نتحدى الساقطينا..

ويمضى الفيتورى هكذا حديثاً عن آلام أفريقيا ، ولكنه يرسم صورة للفجر الصادق الذى أشرق عليها عندما تداعت الظلمة وتساقطت حقولها ورداً.. وتحفر فوق جدار الزمن أغانيها الدامية.. وسوف تستمر أفريقيا فى طريق الأمل الجديد.. والذى أطلبه من الإتحاد الأفريقى مقترحاً إياه أن نقيم المسابقات لفنانى السودان



وأفريقيا لكي يتحول شعر الفيتورى هذا عن أفريقيا إلى أغاني يغنيها أبناء أفريقيا  
بالعربية والإنجليزية والسواحلية والفرنسية.. فهل سادت في الإتحاد الأفريقى  
ستقراون إقتراحى ؟..

#### ٤. إزدهار الحياة في بلاد النوبة

قوة ضاربة: عندما فتح عمرو بن العاص مصر ٦٣٩-٦٤١ ومع سقوط السلطة  
البيزنطية في الشرق في مواجهة الهجوم العربى ، وجد النوبيون أنفسهم بجوار  
قوة ضاربة في الشمال، ولكن كانوا هم أنفسهم قوة ضاربة إذ لم يتأخر العرب في  
محاولة غزو النوبة ، ولكن محاولاتهم لم تتوج بالنصر المبين الذى حصلوا عليه  
في أماكن أخرى ، فلقد قاوموا العرب مقاومة صلبة وإشتد عودهم وما يحاربون به  
من سهام ولهذا إستحقوا لقب « معاقبى التلاميذ » وعلى الرغم من معاودة الجيوش  
العربية كراً و فرأ ووصولهم حتى دنقلا عام ٦٥٢ ، فإنهم لم يحصلوا على السيطرة  
على الأرض وبعدها تمت إتفاقية البقت وقد وجدت هذه الكلمة تكتب بالطاء بقط..  
ولكن بعض الكتاب يصر على أن يكتبها بالتاء بقت وبها صار خط الشلال الأول هو  
الخط الحدودى..

ويقولون عن البقت: إنها إتفاقية ثنائية بين ندين متساويين وتشمل نقاط إتفاق  
تحدد تبادل السلع وبحسبها يقدم النوبيون كل سنة ثلثمائة وستون عبداً مع بعض  
الحيوانات ويقدم العرب في مصر مجموعة كاملة من الأغذية والأقمشة من بينها  
ملابس الملك والتي كان يتقن صناعتها أقباط مصر فيما يسمى بالقباطى نسيجاً  
مزخرفاً وأقمصة ملوكية وكانت إتفاقية البقت توافق على مرور العرب بالبلاد دون  
أن يقيموا فيها وأيضاً النوبيون يذهبون إلى مصر دون أن يقيموا فيها، ولكن هذا  
لم ينطبق على النوبيين الذين كان منهم سفراء لبلادهم، والذين تكون منهم الجيش  
النظامى والبوليس والهجانة، حيث يتمتعون بلباقة بدنية تجعلهم يتقنون ويقدرّون  
على حماية مصر..

وقد فهم النوبة من أول الكلام إن العبيد ليسوا من شباب النوبة ، إنما من الأسرى  
الذين يأسرونهم في الحروب، ولكن عندما أصر العرب أحياناً على هذا حدث المزيد  
من المشاكل داخل بلاد النوبة.. وقد ذكر البقت العديد من الكتاب العرب، كما وجد في

وثيقة بالعربية مؤرخة في نوفمبر ٧٥٦ وصادره من قصر بريم، ويذكر المقرئى  
هذا في قائمة مفصلة ويشير إلى شرط الإجبار على بناء مسجد في ساحة العاصمة  
ولو أن هذا من الممكن أن يشير إلى فترات لاحقة .. ويلاحظ إن المصادر العربية  
التي وصفت الحملات العسكرية ضد النوبة لم تذكر نوباطيا لأنها كانت قد توحدت  
مع مملكة المقرة والتي بعد البقط مرت بفترة سلام.. أما علوة وعاصمتها سوبا فقد  
ظلت بمنأى عن هجمات العرب ومتحررة من شروط البقط..

إزدهار وإقتصاد: وخلال أربعة قرون من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر  
كان العصر الذهبى لبلاد النوبة وكتب العرب والتجار والمراقبين والرحالة عن  
حيوية المنطقة ، ووصف الأسوانى إنه على بعد سفر يومين باتجاه شمال دنقلا كان  
هناك ثلاثون قرية من مباني جميلة وكنائس وأديرة تزينها الكروم وأشجار النخيل  
والحدائق والغابات الكثيفة .. وقال الأسوانى: إن ملك علوة أقوى من ملك المقرة  
ولديه جنود أكثر وجياد أكثر.. وبلاده أكثر خصباً وأشد كثافة..

هذا وقد إعتد إقتصاد النوبة على الزراعة وتربية الماشية وقامت بلاد النوبة  
مملكة المقرة على ضفاف نهر النيل حيث الماء والخصب، ومياه الفيضان.. وعندما  
تكون الأرض عالية تستعمل الساقية التى يجرها ثوران أو حماران مع نير يجمعهما  
معاً، ويمكن إستعمالها لرى جزء محدد من الأرض.. وعندما قال السيد المسيح:  
أحملوا نيرى لأن نيرى هين وحملى خفيف.. تحدث المفسرون عن السيد المسيح  
نفسه يحمل معنا هذا النير ويشاركنا مسئوليتنا ويشجع طريقنا..

وقد كانت عواصم المناطق مزدانة بالكنائس الجميلة ، ففي دنقلا كانت أديرة  
متعددة لرهبان النوبة، وهكذا إزدانت العواصم بالكنائس والأديرة ونشطت التجارة  
وحركة النقل بواسطة نهر النيل، وعبر مرفأ على البحر الأحمر.. وظهر من المساكن  
التي أكتشفت في التقنيات الأثرية إنها تتسم بهيكل بناء جيد وخطوط مستطيلة من  
اللبن وبعضها مكون من أكثر من طابق، وطبعاً كانت المباني بعيدة عن فيضان النيل  
أو عالية عن منسوبه، وفي قرية مينارتي حيث تزايد الخطورة بسبب الفيضان تطلب  
البناء إنشاءات تقابل هذا الخطر..

وكان من الممكن أن تكون المباني من الخشب رغم إنها قليلة ، وكانت مباني سوبا  
أكواخاً مستديرة من الخشب بينما إنتشرت لاحقاً الأساسات المستطيلة الخشبية..



ولكن مشاكل الأرضة أو النمل الأسود جعلت كثيرون يتجنبون الأخشاب.. وقد وجدت كميات من الخزف الجيد والأواني الزجاجية على الأخص في قصر أبريم ينتجه الجو المتصحّر، وبعد النمل الأرضة عن المكان، وقد أستعملت اللغة المروية حتى القرن الخامس الميلادي وبعدها كانت اللغة النوبية والتي كتبت بالحروف القبطية وأستعملت اللغة القبطية في كنائس النوبة لأن الكنيسة القبطية كانت هي المبشر بالمسيحية والمحافظة عليها..

### ٥. محمد علي والبحث عن الذهب

وطن الذهب: إن السودان منذ أقدم الأزمان هو وطن الذهب.. وقبل أن يطلق اسم السودان على بلادنا حملت البلاد اسماً هو « النوبة » أي الذهب.. وكانت مصر الفرعونية تستورد الذهب من الممالك الكوشية والمروية القديمة منذ عام ٢٤٠٠ ق.م.. ومثلما كان الفراعنة يحبون الذهب هكذا كان اليهود الذين في قدس الأقداس، وضعوا مبخرة من ذهب.. وتابوت للعهد كان مغشى من كل جهة بالذهب.. وكان فيه قسط من ذهب فيه ذكرى حية للمن.. وعصا هارون التي أفرخت.. ولوحى العهد اللذان كتباً بأصبع الله وفيهما الوصايا العشر.. وصعوداً إلى الروحانية تكلم بطرس الرسول عن تزكية الإيمان إنها أئمن من الذهب الفاني.. وإنه كما ينقى الذهب بالنار فإن تزكية الإيمان تمتحن بالنار وتوحد للمدح والكرامة والمجد عند إستعلان يسوع المسيح في مجيئه الثاني..

والذهب يعد مصدراً اقتصادياً له دوره في بناء الإقتصاد، وهكذا كان السودان وعلى الأخص بعد ظهور الإسلام عندما أتى العرب إلى السودان بحثاً عن الذهب ووجدوه.. وتركوا ديارهم وعاشوا في وطن الذهب.. وتصاهروا مع النوبة.. وإشتروا البيوت والأراضي لكي يستقروا فيها وتمكنوا أن ينتشروا في بلاد النوبة وعلى الأخص في مناطق الذهب بالبحر الأحمر.. ووجدوا من الذهب تبراً.. ووجدوا فيه سائلاً.. وتعاملوا مع الذهب وأشرفوا على إستخراجه وخدموا أهل النوبة معهم في إستخراج الذهب.. وعندما مرت الأيام وجاء محمد علي ليحكم مصر في القرن التاسع عشر إتجه نحو السودان فاتحاً لكي يؤمن ظهر بلاده ولكي يبحث عن الذهب حتى يتقوى إقتصاده.. فلقد كان ذهب السودان هو الأمل وظل هو الأمل.. وعندما

قال آخرون لمحمد علي : إن هذا وهم وأكذوبة لم يصدق قولهم بل إستمر يبحث عن الذهب..

رحلة البحث: لقد نجح محمد علي في الزراعة في السودان وبدأ إهتمامه بزراعة القطن عندما رأى حنا الطويل يرتدى ثوباً من القطن وسأله: وإستفسر عنه، وعرف منه عن القطن المكاوي.. ونجح محمد علي في زراعة القطن وزرع ما يقرب من إثني عشر مليون فدان قطناً.. وكان يتابع زراعة القطن بنفسه.. وكان حكام السودان بأنفسهم يشرفون على الزراعة وبرع في هذا ممتاز باشا الذي سمى نوع من القطن بإسمه.. وهذا الذهب الأبيض قطناً والذي منه سدد إسماعيل باشا بعض ديون قناة السويس، لم يجعل محمد علي يكتفى بالذهب الأبيض إنما يبحث عن الذهب الأصفر.. وبذل في هذا الكثير من المال والرجال.. كما إستعان بالخبرات الأجنبية في هذا المجال..

وتركز البحث عن الذهب في السودان في منطقتين رئيسيتين هما: فازوغلى وجبل شيبون.. وأخذت منطقة فازوغلى الكثير من الإهتمام ، وبعد أن سيطر إسماعيل بن محمد علي على سنار قصد فازوغلى في أول عام ١٨٢٢م ومكث بها ثلاثة عشر يوماً.. ثم مضى بعدها إلى القماميل في جبال بنى شنقول وكان يرافقه أخصائي وخبير المعادن الذي يدعى « أليود ».. وكان أهل المنطقة قد حفروا عدة مناجم للذهب، واخذ إسماعيل من ترابها ما يملأ جوربين وأرسلهما إلى والده الباشا الذي إستحضر خبراء في مجال التعدين وأرسل الخبراء إلى السودان ليتعاونوا مع ابنه في الكشف عن الذهب..

ولكن الأحداث تابعت بما يوقف هذا العمل، فلقد أقام حنا الطويل عدة إجراءات ضريبية منفرة، وتطورت الأحداث إلى قتل إسماعيل محمد علي ، وبعدها بدأ صهره الدفتردار في الإنتقام.. ولم يتوقف محمد علي في البحث عن الذهب، وفي عام ١٨٢٥م كلف بروكي مع درويش أغا ناظر المعادن للبحث عن الذهب في السودان، وظل بروكي أربع سنوات ولم يصنع شيئاً.. وفي عهد الحكمدار خورشيد باشا ١٨٢٦-١٨٣٨م تزايد الإهتمام بالتنقيب وذهب هو على رأس المنقبين وأرسل عيسى أغا إلى جبال شنقول، ولكن تأخر هذا الوفد بسبب وصول أخبار تزعم بأن الأحباش يديرون مؤامرة للقضاء على سلطة الحكومة في الجزيرة..



وطلب خورشيد باشا من محمد على أن يرسل إليه ألفى كيس لشراء ذهب، وهذا المبلغ يساوى عشرة آلاف جنيه مصرى، وقبل الباشا الطلب وأرسل نصف المبلغ.. وعندما أتى عام ١٨٣٧ خرجت بعثة علمية مع علماء وأدوات وجنود بلغوا ألفى عسكرى برئاسة مصطفى بك وإثنان من الأجانب هما روسيجر وبوريانى وذهبوا إلى سنجة ثم « ذنبو » وتوجاتو» وتعرضوا لمشاكل فى جبل سنجة عدا وعورة المكان وصعوبة المناخ.. وإختلفت النتائج عند الأجانب، ولكنها واحدة: إن التبر فى هذه المنطقة ليس إقتصادياً.. وتضاربت التقارير مما جعل محمد على باشا يأتى بنفسه فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨م ومعه أربعة آلاف عامل سودانى للتنقيب.. وكُون الباشا لجنة لبحث الأمر وأقام مدينة عمالية سميت باسم محمد على.. ولم ينجح محمد على لا فى سنار ولا فى فازوغلى ولا فى كردفان فى الحصول على الذهب.. كان الذهب موجوداً، ولكن غير إقتصادى، وإستمرت المكاتبات ولكن البحاثة لم يصلوا إلى نتيجة، وآثروا السلامة وقرروا أن وجود الذهب أصبح أكذوبة.. ولكن لم يكن أكذوبة لأن ما تم إكتشافه الآن بواسطة شركة أرياب يؤكد أن السودان لم يزل هو « وطن الذهب »..

## ٦. اليهود فى السودان

الخلفية التاريخية: لقد عاش اليهود فى مصر والسودان والعديد من البلدان.. عاشوا مع الناس فى ود وإحترام.. وكان يهود السودان مواطنون سودانيون يعملون فى التجارة ويعيشون فى وفرة العيش الرخى.. وكانوا موضع إحترام الجميع، فالمسيحية تحترمهم والإسلام يقدرهم.. المسيحية تضع كتبهم وشرائعهم داخل الكتاب المقدس والذى يشتمل على العهد القديم والعهد الجديد.. والعهد القديم يحمل قصة اليهود منذ أن بدأوا بيعقوب الأب الأكبر لهم، والذى هو نفسه إسرائيل، والذى قدم إلى مصر أيام المجاعة عندما كان يوسف ابنه يدير إقتصاد مصر كلها، وكان عدد القادمين سبعون نفساً.. وعاشوا فى مصر وتمتعوا بخيراتها ولكن مع مرور الأيام بدأت مخاوف فرعون من تزايد هذا الشعب، وهنا بدأت المضايقات والسُخرة والمعاملة الرديئة ومحاولة قتل الأجنة من الذكور..

ولكن يبدو أن هذا الغضب والإضطهاد كان من قبل الحاكم فقط.. أما على مستوى

الشعب المصرى فقد كان الناس يتعايشون ويتوحدون والدليل على هذا أن أبناء يعقوب عندما خرجوا حملوا معهم ثروة من الذهب والفضة والثياب طلبوها من المصريين وحملوها معهم، وأعطى الرب نعمة للشعب فى أعين شعب مصر حتى أخذوا معهم ما أخذوا فى آخر لحظات الخروج من مصر.. لقد مكثوا فى مصر منذ الدخول أيام يوسف حتى الخروج بقيادة موسى أربعمئة وثلاثون عاماً.. وعندما دخلوا مصر كانوا سبعون شخصاً، وعندما خرجوا كان الرجال فقط ستمئة ألف عدا النساء والأطفال، وقد قُدر العدد كله بأنهم مليونان من اليهود.. لقد رحلوا إلى فلسطين الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً.. وبعد هذا لم تنقطع علاقة اليهود بمصر..

ويذكر التاريخ إنهم سكنوا جزيرة فيلة العظيمة التى طمرتها مياه السد العالى، وإنه كان عددهم فقط فى هذه الجزيرة فى أوائل القرن الأول الميلادى عدد كبير قدره البعض بمليونين، وإن كان هذا رقم مبالغ فيه فإن اليهود عاشوا فى فيلة بأسوان ومن هناك نشأت بينهم وبين أهل السودان علاقة تبادل تجارى لأن السودان كان يأخذ كل ما يحتاجه من أسوان ولا شك إن تجار السودان القديم نوبة ونبتة ومروى وكوش كانوا على علاقة طيبة مع اليهود..

وعاش اليهود فى آمن وأمان فى مصر والسودان بعد دخول الإسلام، فلقد كان فى قصور الحكام من خلفاء المسلمين وزراء يهود لهم مكاتبتهم وإحترامهم، ونذكر منهم: يعقوب بن كلس وصديقه اليهودى موسى، وكيف أن هذان اليهوديان حاولا أن يصنعا مشكلة ويحكمأ مازقاً ضد الأقباط، وعندما طالبوا المعز لدين الله أن يطلب من بطريك الأقباط نقل جبل المقطم تنفيذاً لآية الكتاب المقدس « من له إيمان مثل حبة الخردل يقول لهذا الجبل إنتقل فينتقل ».. وقد كان.. وشهد المعز لدين الله الأقباط بطريكاً وشعباً وهم يرفعون قلوبهم إلى الله حتى تحرك الجبل وخاف الخليفة على مصر كلها وأعطى الأمان للبابا وتوقفت حركة الجبل.. ولم يكن الإسلام ضد اليهود إطلاقاً لأن القرآن الكريم يمتلىء بأجمل القصص عن أنبياء اليهود مثل إدريس ويونس وموسى ويعقوب والأسباط الإثنى عشر.. ولم يتهم المسلمون التوراة بالتحريف إنما إتهموا المفسرين بلى الكلام والى معنى الإنحراف فى التفسير وتحميل الكلام أكثر من معناه..



اليهود في السودان: وعاش اليهود في السودان وكانت لهم مكائنتهم وأحياء السودان وطناً هادئاً جميلاً.. وأحبوا كل أبناء السودان شركاء لهم في الوطنية.. وكان من الممكن أن يظلوا في السودان إلى أبد الأبدين لولا قيام الحركة الصهيونية التي ألهمت مشاعر اليهود وقدمت لهم حلم العودة إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً..

وهنا أذكر مرجعاً وحيداً بين يدي هو كتاب «اليهود في السودان» قراءة في كتاب الياهو سولومون ملكا، أطفال يعقوب في بقعة المهدي للكاتب والأديب السوداني مكي أبو قرجه مركز عبد الكريم ميرغني ٢٠٠٤م.. وإعجابي شديد بالكاتب الأديب مكي وبتناوله لمواضيع مهمة في مسيرة السودان الوطن ومقالاته متعددة في الجرائد العربية والسودانية.. وكنت أريد أن أقترح أن يغير لفظة أطفال يعقوب إلى أبناء يعقوب، لأن أبناء أشمل وأقيم ولأن الكلمة في الإنجليزية تحتل أن تكون أبناء أو أولاد وليس أطفال.. ولكنه أيضاً مشكور كونه يتحدث عنهم كأطفال لأن الأطفال يتمتعون بالبراءة وشدة الإيمان حتى أن السيد المسيح قال: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات..

وأعتقد إنه مع ثقافة الكراهية التي تتجه نحو اليهود اليوم فإن أبو قرجه سوف يرفض هذا الإجتهد مني.. ويبدأ الكتاب بمقدمة عنوانها «وقفه الشاعر الشاعر في وجه السلطان الجائر» ويذكر حديثاً بين الرئيس الأسبق جعفر نميري وأنيس منصور جاء في العدد الأول من مجلة أكتوبر، وفيه قال نميري: إن اليهود هم الذين جاءوا بالشيوعية إلى السودان وإن الشفيق أصهاره من اليهود.. وقد أغضب هذا السفير السوداني بالجزائر صلاح أحمد إبراهيم وإضرطه هذا إلى أن يترك السفارة عام ١٩٧٤م ويختار باريس منفى إختيارياً له حتى أدرسته المنية عام ١٩٩٣م.. والسفير الشاعر كتب رسالة غاضبة إلى النميري وحمله فيها مسئولية

محاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية والتي راح ضحيتها الشفيق أحمد الشيخ رئيس نقابة العمال وعبد الخالق محجوب، وجوزيف قرنق، ضحايا رعب أعمى عمى الزعيم عن رؤية الحق الصريح.. وعندما نعود إلى أبناء يعقوب في بقعة المهدي سوف نجد الكثير والمثير والذي يؤكد أن السودان هو وطن الأديان.. كل الأديان..

## ٧. التعليم الديني في السودان

الخلاوى والكتاتيب: رغم أن نسبة الأمية بين أجدادنا الأول كانت عالية جداً، ولكن إهتمامهم بالتعليم كان أرفع وأعلى من نسبة الأمية بينهم.. وساد في ثقافتنا ما يؤكد أهمية التعليم مثل المثل القائل: علموهم ولا تورثوهم، لأن الميراث يقنى وما يعمل الجدود يقنيه القروء من أبنائهم.. وعندما تكون الثروة كبيرة في يد جاهل فإن مصيرها إلى الفناء، ولذلك كانت أهمية التعليم معرفة وقراءة وكتابة.. فلقد وصف غير المتعلم بأنه لا يعرف يمينه من يساره وإنه لا يعرف الألف من كوز الذرة.. وبدا التعليم منذ القدم في رحاب الدين المعابد والكنائس والجوامع..

وكان التعليم الأول هو التعليم الديني لكي يكون الجميع متعلمين من الله.. يحفظ المسيحي مزامير السواعي حيث يصلى سبع مرات في اليوم ويحفظ المسلم القرآن الكريم.. وكثيراً ما كان المسيحي يدرس في الكتاب على يدي مرتل القرآن الكريم، وهنا يتخرج المسيحي ولديه ثقافة إسلامية تكون زاداً له في رحلة حياته.. وأذكر إنني في طفولتي تعلمت في الكتاب وحفظت أغلب نصوص القرآن الكريم.. وفي كل خميس كنت أحضر خميسى وهو مبلغ زهيد يأخذه مولانا كمصاريف دراسية..

وأذكر أيضاً أن مولانا كان يرسم لكل الزملاء رسومات بالحبر على أجسادهم حتى في الإجازة لا يذهبون للعوام في ماء النيل خوفاً على حياتهم، وقد إستثناني مولانا من هذا لأنه كان متأكداً من سلوكي ومن طاعتي لوصاياه.. ولقد بدأت الكتاتيب في السودان بجوار الكنائس منذ أمد طويل، ويذكر القبطي الكردفاني يوسف ميخائيل الأمير والمقدم في مذكراته ما كان يحدث له من المعلم الكفيف في الكتاب والضربات التي كان يوجهها إليه على قدمه عن طريق الفلكة وعلى يده.. وكيف إنه تضايق جداً وأوقف الذهاب إلى الكتاب فضربه أخوه الأكبر وأعادته مرة ثانية إلى الكتاب وقال له: إن لم تتعلم سوف تكون «هايف».. وهنا وبخه المعلم وقال له: لا ترفض التعليم لنلا تطلع هايف.. خليك شاطر وإتعلم..

وحكى يوسف ميخائيل كيف كانوا يهربون من الكتاب ويلعبون ويملاون جيوبهم بالبلح والفول ويأكلون.. وكانوا عندما ينام المعلم يحضرون تراباً من الجبابة ويذرونه حوله لكي يثقل في النوم، وعندما كان المعلم يغيب كان اليوم عيد بسبب شدة قسوته.. وعندما مات هذا المعلم جاء آخر إليهم اسمه العريف سعد وإستلم



زماد الكتاب، وكانوا يسخرون به وطلبوا منه إنذاراً إستقبال غوردون باشا، ولما رفض رموا الألواح وقبضوا على المعلم وتدخل أحد الكبار وطلب من المعلم أن يعطيهم إنذاراً لكي يروا الحكماء غوردون باشا.. كان هذا تقريباً في عام ١٨٤٥م. وهذا يعني إن الكنائس القبطية كان بها كتاتيب بجوار كل كنيسة لتعليم القراءة والكتابة وحفظ المزامير..

محمد علي: ولقد إهتم محمد علي بالتعليم في السودان ولكن على ضوء حاجات البلاد الجديدة، وهو أيضاً لم يتدخل في مسار التعليم بالسودان مثلما حدث في مصر، إنما راح يساند القائمين على التعليم الديني في الخلاوي، وعندما طلب قاضي الشرع والعلماء بدفلة من محمد علي إنشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية بالإضافة إلى مدرسة لتعليم القرآن الكريم للأطفال كتب إلى مأمور دنقلة قائلاً: نطلب منكم أن تعملوا على إنشاء الجامع وإقامة المدرسة إلى جانبه.. وعندما زار محمد علي السودان إجتمع بالقضاة والعلماء وأنعم عليهم بالخلع الفاخرة تقديراً لدورهم في التعليم كما وافق على إقتراح الحكماء بتجديد أحد الجوامع وبناء عشر حجرات لسكن الفقراء وتكلف ذلك نحو ثمانية آلاف قرشاً.. ووافق الباشا على منح أهل السودان بعثات للدراسة في الأزهر الشريف، ووافق على رواق السنارية في الأزهر عام ١٨٤٦م كطلب سبعة طلاب سودانيين في الأزهر..

وقد إنتقد محمد علي بسبب إهتمامه بالتعليم الديني في السودان بأنه يرغب في زيادة نفوذ العلماء الذين كانوا يوافقون على آرائه ويسبحون بحمده.. ولكن محمد علي لم يتدخل في مناهج التعليم الديني وإكتفى بالإشراف الفني، ولكنه كان يستبعد كبار السن حتى تكون الفرصة للصغار، لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر.. وإهتم أبناء محمد علي نفس الإهتمام وكانوا يجلسون ويحترمون علماء السودان، وتطور التعليم الديني، وحظي الفقهاء بالأعفاء من الضرائب وتقديم الأراضي الزراعية دعماً لهم وبدون مقابل.. وحاول سعيد باشا أن ينظم الأمر ورفض أن يكون هناك دعاة لتدريس الدين يتمتعون بالمزايا دون أن يعلموا الناس، وكانت بعض المدارس تختار مواعيد من الرابعة إلى السادسة صباحاً ومن السابعة حتى التاسعة لكي لا يتعارض هذا مع العمل..

## ٨. أول إنطلاقة لأطباء السودان

أطباء حكماء: عُرف الطبيب منذ القدم بأنه الحكيم وذلك لأن الطبيب كان بجوار معرفته للطب يفهم كثيراً في الفلسفة.. والفيلسوف كلمة يونانية من مقطعين: فيلو تعني المحب وصوفي تعني الحكمة.. وكان الأطباء والصيدلة عنوانهم « رأس الحكمة مخافة الرب ».. وحتى الآن وفي بعض البلدان يقول الشخص: أنا ذاهب إلى الحكيم أي الطبيب.. وعندما لم يوفق أصدقاء أيوب في التخفيف عن أحزانه قال لهم: أطباء بطالون كلكم.. وقد كان القديس لوقا كاتب إنجيل لوقا طبيباً حكيماً.. وكانت له أوصاف طبية دقيقة لمعجزات الشفاء، فلقد عبر عن شفاء الأعرج الذي كان يستعطي على باب الهيكل الذي يقال له الجميل.. وعندما قال له بطرس: باسم يسوع الناصري قم وامشي وأمسكه بيده اليمنى.. ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه ووقف وصار يمشي ( أعمال ٣ )..

وعند الحديث عن نازفة الدم قال مرقس البشير: إن هذه المرأة قد تألمت كثيراً من أطباء كثيرين وأنفقت كل ما عندها ولم تنتفع شيئاً بل صارت إلى حال أردأ (مرقس ٥).. ولكن لوقا لم يتكلم هكذا عن الطب والأطباء بل قال: إنها تنزف دماً منذ إثني عشر سنة وقد أنفقت كل معيشتها على الأطباء ولم تقدر أن تشفى من أحد (لوقا ٨).. هذه المرأة عندما إلتقت بالسيد المسيح ولمست هذب ثوبه نالت الشفاء..

ويقول الأدب الإسلامي: إن معجزة المسيح له المجد هي معجزة طب وشفاء.. أول إنطلاق: وعرف السودان الأطباء منذ الأيام القديمة ولم تكن في السودان كله كلية طب واحدة.. وقد بدأ هذا عام ١٩٢٣م عندما أراد الإنجليز تخليد ذكرى كتشنر فأقاموا أول كلية للطب في السودان وعُرفت باسمه.. وقد بدأت بجمع تبرعات من كرام الإنجليز.. ثم من السودان حيث تألق المواطن أحمد هاشم البغدادي وقدم ربع ما يمتلك وفقاً لكلية الطب..

وحتى الآن تتمتع جامعة الخرطوم بهذا الوقف الهائل وحاول تجمع الخريجين أن يساهم بشيء ما لأنهم أجدر طبقات الشعب كلها بإحتضان المشروع وفكروا في إقامة مسرحية صلاح الدين الأيوبي ليس لجمع التبرعات فقط إنما أيضاً لنشر الوعي الحضاري، وأقيمت المسرحية في أمسية نادرة ليوم الخميس ٢٧ أكتوبر



١٩٢١م .. واكتظ نادى الخريجين بالحاضرين وشهدوا طه صالح فى دور صلاح الدين الأيوبى ، وروفاثيل إيلياس فى دور ملك فرنسا.. وما بين الفصول كان الشعر يصول ويجول..

إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم....

فإننى فى هواكم صاحب الألم...

ثم أعيدت التمثيلية مرة ثانية وكان البطل صديق فريد الذى كان يتكلم بقوة وصرامة ويقول :

إن لم أضن بمهنىدى ويمينى..

ملكى، فلست إذن صلاح الدين..

وبعد هذا قام نادى الخريجين بتمثيل رواية « عطيل » لشكسبير، وكل هذا كان يصب فى إنشاء مدرسة الطب ويقول حسن نجيله: إنه من حُسن طالع البلاد أن بدأ التفكير فى إنشاء مدرسة الطب قبل ثورة ١٩٢٤م.. والتى قرر الإنجليز بعدها وضع حصار على التعليم حيث حرم السودان ولمدة عشرة أعوام من كل مدرسة تعلم، وأغلقوا المدرسة الحربية ، وأغلقوا مدرسة العرفاء التى كانت تخرج أساتذة المرحلة الابتدائية.. ويسمى المعلم عريفاً.. وعريف هذا هو لقب معلم الكنيسة والذى كان على الأغلب كفيفاً..

وقرر الإنجليز عدم زيادة المدارس الابتدائية ولا يضاف تلميذ واحد فوق المقرر، ولكن الحمد لله مرت السنوات الأربع وفى نهاية عام ١٩٢٧ تم تخريج أول فوج من أطباء السودان وكانوا سبعة أطباء تألق بينهم :على بدرى ، وأمين السيد، والفاضل بشرى، والقبطى داود إسكندر، وأحمد عكاشة، والطاهر يوسف، والنور شمس الدين.. وكانت المطالبة شعراً برقى البلاد من خلال الأطباء والمحامين وقال الشاعر على البنا :

لنا بالطب جهل أى جهل..

وإن الجهل من شعب ممات..

وكيف يجوز قصب السبق قطر..

جفاه مع المحامين الإسائة..؟

أما الشاعر عبد الله عبد الرحمن فقد أشاد بهذه المناسبة السعيدة فى قصيدة خفيفة الظل، طالب فيها الأطباء بالإبتسام، وأن يمزجوا الضحك السعيد بالدواء حتى يأتى فعله فى القناة الهضمية.. وهناك أيام صعبة كصبغة اليود، ولكن علاجها وصفة طبية.. وطالب الأطباء بعدم الإبتزاز المالى من المرضى حتى يكون الطبيب مريحاً وقال :

مهنة الطب مالها من مثيل ..

هى إحدى الوظائف العلوية..

راجعوا كتبته ولا تهملوها..

ولتحيلوا على الزمان رقية..

وأبسموا للعليل فى كل وقت..

فإبتسام الطبيب يحيى الشهيدة..

قد يضر الطبيب مهما تعالى..

شهرة بإبتزازه المالىة..

ليس جسم المريض ياقوم حقلاً..

فيه تجرى تجارب وقتية..

عمرك الله هل سمعت بأحلى..

موقعاً كالنجاح فى العملية..

ويشهدون أن هؤلاء الأطباء أدوا واجبهم أروع آداء وكانوا يخفون لعلاج المرضى فى منازلهم ويرفضون أى أجر على ما فعلوا.. والحمد لله فإن الأطباء من زمان وحتى الآن ملتزمون بالإسانية والعطاء..



## ٩. أول نهضة تربوية سودانية

العملية التربوية: تُعد التربية عملية نفسية ضرورية.. وقبل أن توجد المدارس والجامعات كان البيت هو مهد التربية.. فلقد ذكر إنجيل لوقا: إن السيد المسيح جاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى.. وكانت العملية التربوية قد أخذت لها على مر الحياة طرقاً متعددة.. وكان كبار القوم يحضرون مربين ومربيات، وكان المربي يتفوق علماً على الآخرين.. فلقد كان أرسانيوس فيلسوفاً ومعلماً لأولاد الملوك ثم ترك العالم وعاش للرب مع رهبان البرية.. ويقول سليمان الحكيم: رب الولد في طريقه متى شاخ لا يحيد عنه.. أدب ابنك لأن فيه رجاء.. وأما الذين يؤدبون فينعمون وبركة خير تأتي عليهم..

ويوصى بولس الرسول الآباء: أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره.. ويقول الحكيم: يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذي يحبه الرب يؤدبه وكأب يابن يسر به.. وكانت صفات المرأة الخادمة ولم تنزل أن يكون مشهوداً لها إنها قد ربت الأولاد وأضافت الغرباء، غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، إتبع كل عمل صالح.. وقد بدأت العملية التربوية بجوار هياكل الآلهة.. وفي داخل الكنائس كتاتيب وفي المساجد خلاوى.. وكان التعليم دينياً كله وبعد هذا صار لازماً أن يفتح الذهن لعلوم الدنيا والتي كان التفوق فيها عند الإنسان رصيذاً يرثه الأبناء عن الآباء..

المجتمع الجديد: وفي السودان كانت الخلاوى كثيرة والمدارس الابتدائية قليلة جداً، وبدأ الخريجون طبقة مثقفة حفنة قليلة يعملون في دأب وصبر لمواصلة رسالة التعليم رغم أن الاستعمار وضع أمامهم حجراً كؤوداً عندما قال عنهم: إنهم حكومة الأفندية، وأخذ المستعمر يسجل لهم كل حركة وسكنة.. كل همسة وشبهة.. ويعلمونها ضدهم حرباً عواناً.. ولكن أهلنا صمدوا.. وبدأوا يتحركون..

وكما يضيف حسن نجيله في «ملاح من المجتمع السوداني»، فإن جمعية التمثيل حملت مسؤولية بناء جيل جديد وأعلنت عن مسابقات لبناء هذا المجتمع واحدة للمدرسين وأخرى للمهندسين وثالثة للقضاة ورابعة لذوى الثقافة العامة.. وكانت أولى المسابقات عن «تربية الطفل».. وفي يوم الخميس ١١ رمضان

مارس ١٩٢٦م أعلن رئيس النادي السيد حسين شريف عن الفائز بالجائزة الأولى وهو الأستاذ عبد الرحمن على طه المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية والذي صار فيما بعد مسئولاً عن معهد بخت الرضا، وأعطيت الفرصة له لكي يقدم بحثه عن تربية الطفل.. وقال: إنه يعتمد في بحثه على تجاربه مع أبناء السودان، وإنه ليس غرضه أن يستخلص شيئاً من حديث «ملتون» أو ما رآه «سبنسر» أو ابن المقفع أو أفلاطون، ولكنه يستفيد بما شاهده في المجتمع من معاملة الناس لأطفالهم حتى ينجبوا ما قبح ويعتمدوا الطريقة القديمة.. ويذكر الناس بما جهلوه أو أهملوه حتى يسلم الطفل من جرائم تلك التربية العقيمة..

ويتحدث الفائز بالجائزة قبل أن يتسلمها عن أهداف التربية وواجبات الوالدين، وانتقد عادة الزواج المبكر، والذي كان يبدأ عند الذكور من الرابعة عشر.. وقال: إن هذا مضر جداً بالنسل حيث يولد الطفل عرضة للأمراض.. ثم كان الحديث عن المرأة الحبلية والرياضة لأن المرأة الحبلية عندنا لا تراول عملاً ولا تريض جسماً مطلقاً ولا تعنى بغذائها، بل تظل نائمة على الفراش كل يومها.. وهي تجهل تمام الجهل إن نمو الجنين في هذا الدور يتوقف على حركتها وحسن غذائها، وإن الرياضة البدنية ولو قليلاً كل يوم تؤثر في دورتها فيستفيد الجنين كثيراً من جراء ذلك، ويهاجم الأستاذ بعض الأغاني الشائعة التي تدفع المرأة إلى الخمول والكسل بدعوى أن في ذلك أنوثة وجمالاً..

وذكر بيتاً يقول: خلى شوف تومتى الهلوعا.. تشتكى العتبة الطلوعا.. وهذا يعنى إن المرأة ترفض أن تخطى عتبة الباب وهذا تعطل للجسم.. وأين هذه المرأة من النساء اللواتي يمتطين الجياد.. ويخترقن طبقات الجو على الطائرات ويسبحن تحت الماء بالغواصات ويأتين من الأعمال ما تتدهشن منه الرجال.. ويستمر الأستاذ الفائز وهو يستحق الفوز في شرح العديد من النظريات التربوية، وقد جعلها واقعاً معاشاً في البيئة السودانية.. ويقول: إنه يرغب في أن يرفع مستوى المرأة ويوجهها إلى حياة أفضل.. ويذكر إنه قدم أبياتاً من شعر لأحد أصدقائه الذي يعمل في الحقل الغنائي حتى تكون الأغاني دافعاً لمزيد من الأمانى نحو تربية صالحة



سليمة.. وفي بعض أبيات قال :

ماذا تفيد لبني وسعاد....  
إن لم تكن ذات إقتصاد....  
في المعاش ذات سداد....  
وإحتفاظاً بالوداد....  
ماذا يفيد موت الخدود؟...  
والموت وراء شكل النهود....  
وصغارنا أفلاذ الكبود....  
لا عناية بينهم في الوجود....  
إن شئتموا سُبُل الرشاد....  
كفوا سهام الإنقياد....  
ودعوا التعصب والعناد....  
ربوا البنات ترقى البلاد....

وقد أفاض عبد الرحمن على طه في محاضراته التربوية القيمة وطالب طلبة مدرسة الطب أن يقدموا محاضرات عامة عن العادات الضارة.. وتكلم عن أثر البيئة في تربية الطفل، وإستلم الهدية والتي كانت ساعة جيب ذهبية.. وأعتقد إن بحثه الشيق يصلح أن يكون خطة عمل للتربية والتعليم الآن..

## ١٠. إسماعيل الأزهرى وبئر دنقلا

بئر دنقلا: يحكى الأستاذ حسن نجيله فى كتابه « ملامح من المجتمع السودانى » عن حدث تناقلته الصحف وشغل رأى العام ، نشرته جريدة الحضارة يوم ٢٦ مايو ١٩٢١ تحت عنوان « بئر غريبة » جاء فيه « جاءنا من مكاتبنا من دنقلا ما يلى :  
فى أواخر شهر أبريل الماضى نزل أحد الأهلين داخل بئر مهجورة لحاجة فيها فغاب مدة إستدعت أخاه ليكشف خبره ، ولكن هذا الثانى لم يخرج أيضا فتبعها ثالث فراجع ف خامس فسادس .. والكل لم يخرجوا ، ولما نزل السابع خرج بثلاث جثث ونزل بعده الثامن إلا إنه لم يخرج كما خرج سابقه ، وفى الآخر تدلى ابن شيخ البلد لكى يطلع على حقيقة أمرهم ، ولكنه ذهب أيضا مذهبهم ولم يخرج ، وحينئذ كان الخبر قد بلغ مركز الخندق فحضر الملازم ثانى حمزة أفندى عبد الرحمن فأنزل فى البئر كلباً بقصد التجربة فيه أولا وبعد قليل أخرج الكلب بواسطة الحبل الذى أدلى به فوجده ميتاً فاتبعه كلباً ثانياً فذلك خرج ميتاً ثم أنزل فانوساً ولكنه خرج منطفئاً .. فما قولكم فى هذه البئر الغريبة ؟ .. وقد شاع عن هذه البئر إنها مسكونة بالشياطين وإن الجن قد قضوا على هؤلاء الذين إقتحموا مسكنهم ، وهذا طبعاً فكر غير علمى ولا يوافق الدين الذى يرفض مثل هذا الكلام ..

إسماعيل الأزهرى: لقد قال الناس عن البئر إنها فيها س من الشيطان، بل يسكنها الشيطان، ولكن رسالة جاءت من طالب بكلية غوردون تقول : سيدى رئيس تحرير الحضارة.. بين أعمدة العدد ٤٤ الصادر بتاريخ ٢٦ مايو رسالة من مكاتبكم بدنقلا بعنوان « بئر غريبة » خلاصتها..... وأورد التلميذ الخلاصة ثم إستطرد يقول : كأتى ببعض القوم يذهبون فى السبب لتلك الخرافة بأن البئر مسكونة نفر من الجن تجرى على أيديهم تلك الأفاعيل الغريبة، وما زالت هذه الخرافة فى أدمغة المتهوسين.. أقول لهم: إن السبب هو إختناق أولئك المساكين بحامض الكربونيك وهو غاز لا يخل منه مكان.. وجميع الكائنات تنفثه بحركة الزفير فى الهواء بنسبة أربعة أجزاء منه إلى عشرة آلاف جزء من الهواء وهو ينتج من إحتراق أى جسم يشمل على الكربون ، وهو غاز لا لون له ولا طعم ولا رائحة ولا يساعد على إحتراق..

وإذا تواجد مع الهواء فى مكان رسب إلى أسفل.. وهناك طرق شتى للحصول



عليه ويستعمل في أغراض مخصوصة.. وإذا وضع حيوان في حوض من ذلك الغاز تتضايق أنفاسه ثم تقف حركته ويعقب ذلك الموت.. كذلك إذا وضع في نفس الحوض مصباح أو شمعة متقدة فبأنها تنطفئ لإحتياجها كإلحسان إلى الأوكسجين الذي يساعد على الإحتراق.. وكثيراً ما يوجد غاز حامض الكربونيك في الآبار المهجورة، وهو ليس ساماً وإنما يحصل منه الإختناق لعدم وجود الهواء اللازم للتنفس داخل طبقاته المتكاثفة في قاع البئر، فقبل الدخول في تلك الآبار المهجورة يجب إنزال مصباح أو شمعة متقدة للتحقق من وجوده أو عدمه كما صنع حضرة الملازم ثاني حمزة افندي عبد الرحمن على ما جاء بتلك الرسالة، فإذا إستمرت الشمعة متقدة دل على عدم وجوده، وإذا انطفأت كان ذلك دليلاً على وجوده.. ولإزالته يصب قليل من محلول الجير في البئر ثم تنزل الشمعة المتقدة، وإذا انطفأت صبّ المحلول مرة أخرى وتنزل الشمعة مرة ثانية، وهكذا حتى ينظف من ذلك الغاز ثم تستخرج جثث المساكين..

وهذه الرسالة موقعة بتوقيع: إسماعيل الأزهرى طالب بكلية غوردون.. وهناك من تأمل في الشجاعة الخارقة للرجال الذين ماتوا وهم يحاولون إنقاذ زملائهم.. ولكن الحل الذي قدمه الطالب إسماعيل الأزهرى يؤكد أنه كان يعتمد الحلول العلمية، وكان في نضوج مبكر، ولقد صار الغاز الذي يخنق الهواء هو الإستعمار، وقد أشعل الأزهرى شمعة هي حياته لكي يبدد آثار الإستعمار ويعلن إستقلال السودان، ويظهر آبار الخير فيها، ويرفع عليها علم الحرية خفاقاً، ويموت هو داخل السجن بعد أن أشعل الحرية نوراً وناراً وأشرق بالإستقلال على وطن كبير لن ينسى مآثره الجميلة وفضائله النبيلة..

ونحن ما زلنا نحارب الشيطان الذي يحاول جاهداً أن يخلق كلمة الله فينا ويدركنا الموت الروحي وبعده الموت الثاني..

## ١١. تاريخ السودان القديم

إبراهيم بكر: يُعد كتاب الدكتور محمد إبراهيم بكر وعنوانه «تاريخ السودان القديم» من أكثر الكتب دقة في البحث العلمى التاريخي، وناسر الكتاب مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٨م، وهو أستاذ في الجامعات لمادة آثار وتاريخ السودان، ويهدى

الكتاب إلى الشعب السوداني، ويرى أن المواطن السوداني هو الوحيد الذي يقدر أن يتذوق حضارته تذوقاً سليماً، وهو أيضاً عنده الإحساس بالتراث والتفهم الصادق لتراثنا القديم، وهو يرى أن المكتبة العربية خالية من كتاب في قامة كتابه، ويرى أيضاً إن العصر الحديث لا يتحمل ما كتب ونسب إلى الدراسات القديمة.. كما يؤكد إن دراسة التاريخ القديم لأمة من الأمم من واقع آثارها لهي المدخل الطبيعي لتفهم حاضر شعبها، فلاشك أن كيان كل ما فيه شيء ما من تراث آلاف السنين من الحضارة التي إبتدعها فكر وعمل أجدادنا القدماء، ومحال أن تنطفئ كل تلك الأضواء وتصمت تلك الحياة دون أن تخلف وراءها جذوة أو رجلاً لصدى تلك الأيام في ضمير أحفاد أولئك القدماء خلفاء تلك الحضارة.. والحمد لله فإن عالم اليوم أخذ يتبين أبعاد الدور الذي يمثله تاريخ السودان القديم بالنسبة لتاريخ الحضارة الإنسانية عموماً بعدما توالى أعمال الحفر على يد رجال الآثار في مناطق مختلفة من السودان وعلى الأخص في شمال البلاد وقبل أن تغمر بحيرة السد العالي كثيراً من المناطق الأثرية الهامة..

وقد طبع الكتاب قبل تنفيذ سد مروي والذي تم إكتشاف آثار هائلة وعظيمة فيه قبل أن تغمر المياه هذه المنطقة، وفي إعتقادي إن المكان الذي يحتاج إلى إستخراج كنوزه الأثرية من باطن الأرض هو منطقة مملكة سوبا، ولكن يبدو إننا في إنتظار إقامة سد في هذه المنطقة حتى يأتي علماء الآثار ويخرجون كنوزنا من باطن الأرض ليس من تحت الرمال كما حدث في حلفا ومروي، لأن حضارة سوبا كانت تدفن الموتى في حفرة عميقة في باطن الأرض، وهذا غير ما كان يحدث في المناطق الأخرى، وأريد أن أقدم دعوة للمتحف القومى السودانى حتى يشرف على حملة للتنقيب عن الآثار في منطقة سوبا قبل أن تتحول إلى منطقة سكنية يصعب العمل فيها، وتختفى كنوز حضارتنا ويخبو نورها الذي أضاء على المنطقة، ومنها خرجت الحضارة إلى كل بلاد المسكونة..

ونعود إلى دكتور بكر لنراه منفعلاً منذ الصفحة الأولى بحضارة السودان القديم مستنكراً تطاول البعض على كتابه، وهذا البعض ينقصه الدراية باللغات القديمة والآثار، ويرى أنه لا يمكن لدارس واحد أن يلم إماماً بكل هذا التاريخ المجيد خاصة وإن زماننا هو زمن التخصص بكل ما تعنى الكلمة من دقة في البحث، وإستخلاص



للتناج، وإنه هو نفسه من منطلق مجال التخصص الدقيق والجاد يقدم كتابه إلى المكتبة العربية، ولكنه من ناحية أخرى يقول: إن كتابه ليس من أجل الدارس المتخصص وحده وإنما لكل قارئ مثقف يسعى إلى المعرفة من مصادرها الأصلية، وبهذا وسع دائرة الكتاب لتشمل كثيرين من بينهم كاتب هذا المقال والذي هو شغوف بتاريخ السودان ومؤمن بأن الحضارة بدأت من عندنا من كوش العظيم بن حام الشقيق الأكبر لمصر إرم أبو المصريين..

النوبة وكوش: ويرى الدكتور إبراهيم بكر أن اسم النوبة اسم حديث إذا ما قورن باسم كوش، ويعتقد أن منطقة النوبة الممتدة من جنوب أسوان شمالاً حتى جزيرة تنقستى إلى الجنوب من دنقلة العجوز جنوباً لم تحمل هذا الاسم إلا منذ القرن الثالث الميلادى تقريباً عندما استقرت الهجرات النوبية من حول النيل فى تلك المنطقة، وهو يرى من ناحية أخرى أنه فى الزمن القديم أطلق اسم الواوات على المنطقة الممتدة من أسوان شمالاً حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا، أما المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الشلال الثانى وتمتد جنوباً فسميت كوش، ثم أصبح كوش يطلق على المنطقتين معاً، وعرفت به المنطقة بين غيرها من بلاد العالم القديم فصارت المملكة التى تضم واوات وكوش تسمى بلاد كوش أو مملكة كوش..

ولكن المؤرخين رغبة منهم فى تبسيط الأمور أنشأوا تقسيماً آخر لمملكة كوش، فعندما كانت عاصمة تلك الدولة فى مدينة نبتة جنوبى الشلال الرابع بالقرب من كريمة الحالية أسموها مملكة نبتة، وعندما إنتقلت العاصمة إلى الجنوب وإتخذت من مدينة مروى عند البجراوية شمال شندى موطناً لها أطلقوا عليها اسم مملكة مروى، مع العلم أن هذه التقسيمات لا توجد فى الوثائق القديمة، بمعنى إن أهل البلاد لم يطلقوا على أنفسهم أو على بلادهم تلك التسميات تماماً، كما هى الحال بالنسبة للسكان الحاليين لمنطقة النوبة الذين نطلق عليهم اسم النوبيين، فى حين إنهم لهم فيها بينهم أسماء أخرى طبقاً للتقسيمات النيلية الشائعة..

أما نحن فنشكر المؤلف على كتابه القيم، ونلتزم بنصيحة السيد المسيح: فتشوا الكتب» وليس علينا فقط تفتيش الكتب وإنما تنقيب الآثار والذي يخفى الكثير من الأخبار تحت ما على الأرض من غبار..

## ١٢. اليهود يبنون الأهرامات

مصر والسودان: كان بناء الأهرامات فى مرحلة ما قبل المسيحية دليلاً واضحاً على الإهتمام بالحياة الأخرى، وكان التحنيط فناً لكى يظل الجسد كما هو حتى عندما تأتى الروح تجده جاهزاً، وكان يدفن مع الميت أدوات يستعملها لكى يستأنف إستعمالها فيما بعد الموت، وأشار أيوب إلى بناء الأهرام عندما قال بعد التجربة المرة التى دقت أبواب حياته: لم لم أمت من الرحم عندما خرجت من البطن؟ لم لم أسلم الروح؟ لماذا أعانتنى الركب ولم الثدى حتى أضع لآلى كنت الآن مضطجعاً ساكناً حينئذ، كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم (أيوب ١٤: ٣) ..

وواضح هنا إن أيوب أشار إلى الأهرامات ولكنه لم يتحدث عنه إنه بنى هرمأ له، وفى هذا تلميح إلى أن الأهرامات أقدم من سفر أيوب، أما الأهرامات فلها أثر عميق فى خيال العالم كله لأنها أثر أعظم من كل آثار الفراعنة، أما التسمية فهى كما يرى معجم الحضارة المصرية القديمة من إبتكار الإغريق الذين أطلقوا على الأهرامات مزاحاً الكلمة الإغريقية PYRAMIS والتى تعنى كعكة من القمح، والأهرامات هى مقابر للملوك أقامها الفراعنة كما أيضاً الحكام السودانيين بدءاً بالأسرة الخامسة والعشرين من القرن الثامن قبل الميلاد والذين حكموا السودان حتى القرن الرابع الميلادى..

والأهرامات فى مصر معدودة ومحدودة، ولكن فى السودان لدينا مائتان واحد وستون هرمأ موزعة على أربع مناطق هى: الكرو، نورى، البركل، مروى، ومرتبطة بملوك نبتة ومروى، وقد أخبر الرحالة الفرنسى "فريدريك كاي" إنه فى سنة ١٨٢١ م رأى الطرابيل وشعر بالفرح عندما وقع نظره على حشد من الأهرامات فى مروى أطرافها تتلألأ بجلال بواسطة اشعة الشمس والتى إرتفعت فوق الأفق بينما لمح مجموعة أخرى على مقربة من النيل، أما الطرابيل فهى مجموعة أحجار تهدف إلى إخفاء غرف الذهب فى أهرامات السودان ..

وعند الفراعنة كان أنصار الشمس وهم يعبدون الشمس يعتقدون أن الملك يقضى حياته الثانية إما صحبة إله الشمس أو بصفته إله الشمس نفسه، ولكن يجب عليه أولاً أن يصل إلى المنطقة الشمسية ومن بين طرق الصعود العديدة المذكورة فى



نصوص الأهرام تسلق سلم الشمس وأشعة الشمس ، وكان الهرم المدرج الذي اخترعه " أمنحوتب " كاهن هليوبوليس القصد منه تمثيل ذلك السلم ، وكان يعكس أشعة الشمس النازلة لتضيء الأرض خلال فرجة في السحب ، فإذا ما كان في حوزة الملك أحد هذين النوعين من الأهرام سواء كان مصطبة أم مدرجاً فإنه يستطيع أن يصعد إلى السماء ويود تبعاً لمشيئته إلى قبره كي يتناول من تقدمات الأطعمة التي يضعها الكهنة يومياً في المعبد الجنائزى ..

اليهود والأهرامات: يذكر سفر المكابيين في العهد القديم إن سمعان المكابي شيد على قبر أبيه وإخوته بناءً عالياً منظوراً بحجارة نحتت من وراء ومن أمام ، ونصب على القبور سبعة أهرامات ، واحداً بإزاء واحد لأبيه وأمه وإخوته الأربعة وزينها بفنون النقوش وجعل حولها أعمدة عظيمة مرسوماً على الأعمدة أسلحة تخليداً لذكراهم ، وبجانب الأسلحة سفن منقوشة وكانت منظورة لجميع ركاب البحر ، وقد ذكر هذا في الإصحاح الثالث عشر من سفر المكابيين الأول وقصة المكابيين ترجع للعام ١٦٨ ق.م. حيث قام يهوذا المكابي بثورة ضد أنطيوخس أبيفانيوس الذي اشتهر بإضطهاد اليهود وتمكنت حركة المكابيين من الانتصار عليه ويقولون: إن كلمة مكابي مجموع الحروف الأولى في العبرية للكلمات من مثلك بين الآلهة يارب، وكانت مكتوبة على راية يهوذا من الكاهن « منتيا » المكابي ...

ويقول البعض : إن مكابي تأتي من مكبة وتعني مطرقة وهو وصف لشجاعة يهوذا الذي كان كالمطرقة على أعدائه مثلما أخذ الملك شارل الفرنسي جد شرلمان بطل معركة بواتيبيبه لقب مارتل أى المطرقة بالفرنسية، وفي هذا إشارة إلى ما فعلته امرأة إسمها ياعيل بعدو بلدها سيسرا عندما استضافته وأراحته ثم جعلت المتيدة أو المطرقة في يدها وضربته في صدغه فمات هذا العدو الغازي لبلاده..

ولقد تتبعت بناء هذه الهرامات السبع في كتب تفسير عديدة فلم أجد أى شرح لها، ويبدو إنها كانت صغيرة لا تضاهي أهرامات مصر والسودان، وإنها كانت للتفاخر حتى تكون قبور الأسرة واضحة كمعلم من معالم البلاد، وعلى الأخص إن هذه الأسرة قادت حركة التحرير من العدو الأجنبي والحق إنه لا يوجد مثل أهرامات مصر والسودان والتي كانت فيها مخازن للذهب في أهرامات مصر، وكانت أهرامات السودان فوق كل منها هرم مدبب من ذهب، وكل هذا كان تعبيراً عن حب الحياة الأبدية وطموحاً نحوها..

## ١٣. مجتمع الخرطوم وتباين

### العادات والتقاليد

أوروبا صغيرة: وفد عدد كبير من أهل أوروبا إلى الخرطوم منذ أيامها الأولى سنة ١٨٢٠م ، وتكون مجتمع أوربي في الخرطوم يتفاعل مع قضاياها ، ويعيش أيامها السعيدة، وكانت هناك صالونات أدبية يتم فيها الاحتفال بمناسبات متعددة مثل التآبين والأفراح والندوات والمحاضرات، وكانت العلاقة بين الأوربيين والمواطنين على درجة من الرقي، علاقات طيبة لا يشوبها شائبة، وهذه شهادة للمواطن السوداني الذي يرحب بالأجانب ويكرمهم إكراماً كبيراً ، لكنه يرفضهم متحكمين فيه مستبدين عليه..

ويذكر عن الدكتور ريتز نائب قنصل النمسا إنه استضاف مشايخ قبائل ما بين البحر والنيل بدار القنصلية سنة ١٨٥٢م، وكان من برنامج الحفل استعراض للالعاب النارية، وكان الأوربيون متواجدون في الخرطوم يراهم المواطن السوداني ويحترمهم، وقد ألف رؤياهم في كل مكان، كما استضاف السودانيون بعض الرحالة من أوروبا، ورحبوا بهم في بيوتهم، والسوداني يتمتع بكرم الضيافة ويهتم بإضافة الغرباء التي قال عنها بولس الرسول: لا تنسوا إضافة الغرباء التي بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يعلمون ..

وفي هذا إشارة إلى الثلاث الملائكة الذين زاروا إبراهيم أول المتوحدين وحملوا إليه البشارة بولادة الإبن إسحق، ولا غرو في ذلك لأن الخلفية الروحية عند أهل السودان تختزن مدة ألف عام من المسيحية ومبادئها السمحة، ويذكر التاريخ أن الرحالة « بايارد تايلر » دُعي إلى ولائم متنوعة، تناول الطعام على الطريقة العربية عند مضيفته السلطنة « نصره » ابنة آخر ملوك سنار، والشراب والقهوة على الطريقة التركية عند الحكمدار، والشاي المهيأ على الطريقة الإنجليزية الصحيحة عند الأوربيين..

وكان من مميزات المجتمع القبطي في الخرطوم إنه وكما يقول كتاب « تاريخ مدينة الخرطوم » إن الموظفين القبط كانوا يحاولون لغاية في نفوسهم الارتباط بالموظفين السودانيين، وأنا أعترض على كلمة « لغاية في نفوسهم » لأنها حكم باطل



على قبيلة تعيش في الحق الإلهي وتفتح بيوتها وقلوبها للآخر، وكانت أجمل الموائد في بيوت الأقباط أثناء صوم الميلاد ومدته ثلاثة وأربعون يوماً، والصوم الكبير ومدته خمسة وخمسون يوماً، وكان الأكل الذي يقدم أكلاً صيامياً خالياً من الدسم الحيواني، حيث لم يكن هناك بيت لا يقدم لله صوماً مقدساً في نسك وتقشف..

وبالتالي كان الأقباط يأكلون مع أخوانهم المسلمين في موائد رمضان هذا منذ القدم في الخرطوم وحتى الآن، والحمد لله حيث صارت مائدة رمضان السنوية والتي بدأها من أكثر من عشر سنوات الأب القمص فيلوثاوس فرج في مزرعته، وبعد هذا في النادي القبطي بأم درمان ثم صارت تقليداً سنوياً يقيمه أقباط السودان وأساقفته الأجلاء، ويحضره رئيس الجمهورية..

ولقد كانت موائد القبط في الصوم تزدحم سابقاً في أول أيام الخرطوم بأصناف الطعام المصرية، وقد قرر الشيخ القبانى : إن شعار هذه الموائد كان إذا طعمت فأشبع، وإن المائدة التي تقام لعشرة أفراد كانت تكفي عشرين بل ثلاثين، أما الآن فالأكل السوداني مائة في المائة يبدأ بالتمر والبليلة ثم بما لذ وطاب في مائدة رمضان

جمهورية صغيرة: قال « هجلن » الأوربي : إن الخرطوم هي جمهورية صغيرة قامت تحت ظروف إجتماعية بسيطة غير محددة ، يحيا فيها الفرد بلا مسئوليات كبيرة ومطالب روحية، أما « ليجان » فقد قال : إن الخرطوم أوربا صغيرة غير فاضلة وربما أشار هنا إلى الإنفلات الأخلاقي الذي كان يحياه بعض الأوربيين بسبب أطماعهم في التجارة والربح الكبير أو بسبب عدم السلوك الأخلاقي الذي يتناسب مع مدينة الإستضافة، وما حدث من إفراط للتسرى وبعد عن الفضيلة، وهذا بسبب فئة معينة من التجار المفلسين والمجرمين العتاة الذين قدموا ليحربوا حظهم في جمع الثروة أو ليحفرؤا قبورهم بأيديهم ويموتوا ضحايا الشهوة ، غير خائفين خسارة شيء لأنهم لا يملكون شيئاً ، لهذا عاشوا الغش والخداع والعنف، ولكن لم يكن هذا سمة لكل القادمين من أوربا..

وإذا كنا نذكر هؤلاء فاتنا أيضاً نذكر الرحالة الذين أحبوا الخرطوم وكانوا ملتزمين أخلاقياً، وكتبوا عنها أجمل ما كتب عن مدينة في العالم، وقد حاول بعضهم كشف منابع النيل وعملوا أطباء في الحكومة وجراحين ومهندسين، وقد كتب الأب

« مسايا » وزميله « بلترام » عن رحلتهم للنيل الأزرق مذكرات هي نمرة مشرفة في جبين الكشف الجغرافي ، ويرفع من قيمة هذه المذكرات..

إن المواصلات بين الخرطوم وهذه المناطق كانت مستحيلة في ذلك الوقت كما أن بعضهم وهو « كرشر » kircher درس اللهجة البشارية وحاول وضع قواعد النحو فيها، كما درسوا لغة الدينكا والنوير، بل وقد حاول بعض الحكام أن يطالبوهم بدراسة بعض المناطق مثلما طلب الحكماء « رؤوف باشا » من الأب « كمبوني » دراسة منطقة جبال النوبة لكي يقام فيها نظام إداري ناجح، إن مجتمع الخرطوم كان عالماً مصغراً متعدد الأديان والأعراق والثقافات مثلما كل السودان الآن..

## ١٤. المواطنة ومناهج التعليم

تجربة سويسرا: يحكى أن سويسرا بلد عظيم يدعو إلى الإحترام والتقدير ، وذلك لقدرته على تدعيم وحدته الوطنية على الرغم من الاختلافات الموجودة في تكوين الشعب نفسه، لأن الإتحاد السويسري صار مثالا يحتذى به وعلى الأخص في المناطق التي تعاني من الخلافات العرقية أو الدينية، وفي سويسرا تتعدد اللغات الرسمية، فرنسية، ألمانية وإيطالية ورومانش، كما تتعدد الأديان بين يهودية ومسيحية وإسلام..

وعندما زار رئيس الإتحاد الأوربي سويسرا أعرب عن تقديره وإعجابه بالوحدة الوطنية هناك، ويرى كثيرون إن الوحدة الوطنية في سويسرا لم تأتى من فراغ، ولكنها جاءت نتيجة الإهتمام بتعميق هذه الوحدة الوطنية لأفراد الشعب على مر السنين، وبجميع الوسائل الممكنة من تعليم وتدريب وترغيب ، فالمواطنة لا تولد مع الأفراد والوفاق الوطنى لا ينمو مع نماء الإنسان بل هو نتاج التعليم والتدريب حيث وفي أسلوب حضارى يصبح التنوع الدينى والعرقى والثقافى سبباً فى الإلتواء المشترك للمكان والزمان، وهنا تكون حضارة التعايش رغم التعددية والإتجاه نحو قبول الآخر رغم الإختلاف معه، وقد سارت سويسرا على مر السنين ونجحت فى إذابة عناصر الأمة المختلفة فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإتحاد السويسرى الحالى..



نموذج السودان: وإذا كانت سويسرا تستحق التقدير والإعجاب لأنها صنعت اتحاداً مثالياً فكم وكم يكون السودان، فالسودان هو بلد التعددية الدينية والثقافية والعرقية، وهو البلد المتحضر الذي يحيا مواطنوه معاً في وفاق وطني ليس له مثيل.. ولم يكن الدين سبباً للاختلاف، إنما هو دوماً سبب لتجميع الناس معاً من منطلق أن الله لم يجعل لنا ديناً واحداً، لا لكي نفترق ونحترب، إنما لكي نتفق ونتجاوب ونحيا في ظل الإحترام المتبادل، وبقدر ما أن تاريخ السودان ضارب في القدم بقدر ما نرى أن التعايش قديم وسليم وعميق، ولهذا فإبني أرى دوماً إن السودان هو الجدير بجائزة التعايش في العالم..

والمواطنة مظلة عظيمة تحتاج دوماً إلى الوقاية وتحتاج إلى الصيانة وإلى تعميق هذا المبدأ في قلوب المواطنين، فليس هناك فرق بين مواطن وآخر، لا يتميز أحد على أحد بسبب العرق أو الدين، فكلنا لآدم وآدم لله.. وكلنا لله معاً فهو الذي خلقنا متميزين، وفي الخلقة العجيبة للإنسان لا يوجد إنسان يتطابق مع آخر، هناك فروق تظهر في أشياء كثيرة أوضحها بصمات الإنسان، ولكن أحياناً تطفو على سطح الحياة بعض التوترات وتأتي هذه التوترات من واقع غريب قد يظهر في قهر الأغلبية أو التوجه نحو شعارات محددة لدين بعينه مع تجاهل الدين الآخر أو الثقافة الأخرى، بينما التعددية هي ثروة يمكن أن يغترف منها الكل، ولكن الإنغلاق على ثقافة واحدة يجعل أهل الثقافة الأخرى يعترضون ويرفضون وربما يعتزلون متوترين أو يتوتروا مواجهين لكي يرفعوا عن أنفسهم قهر الثقافة الأخرى..

مناهج التعليم: وعندما نرغب في تعميق الوحدة الوطنية علينا أن نهتم جداً بمناهج التعليم لكي نقود المجتمع إلى السلام والمواطنين إلى تبادل الإحترام، وإذا كان التعليم في الصغر كالنقش على الحجر فإبنا كباراً مع صغار نحتاج إلى حماية وحدتنا الوطنية لنلا يصبح الحديث عن الوحدة الوطنية بكاء على أطلال قديمة أو حديثاً « ماضوياً » أي حديث عن ماضى.. الوحدة الوطنية هي الحاضر وهي المستقبل، وفي السودان تحتاج مناهج التعليم إلى مراجعة وفق مبدأ المواطنة، وقد كانت فيما سبق أفضل من الآن، وإعتقدنا أن التغيير سوف يأتي بجديد مما يساعد على تماسك الوحدة الوطنية، ولكن ما حدث هو العكس، وعندما تقرأ الآن كتب مرحلة الأساس والمرحلة الثانوية تلاحظ وبوضوح تغليب ثقافة على أخرى، ودين على آخر، بل تلاحظ أيضاً غياب تاريخ مجيد في وطننا العظيم..

فالمناهج الدراسية الآن هو عبارة عن آيات متراسة من القرآن الكريم دون أن تجد آية واحدة من الكتاب المقدس، هذا رغم أن الدارس يعلم مدى التوافق بين الكتابين، هذا عدا إهمال لمرحلة هي ألف سنة في تاريخ السودان، عندما كان السودان مسيحياً في كل شيء، كانت هذه المرحلة موجودة في المنهج القديم ثم بعد هذا قاموا بتجميدها، وفي المنهج الجديد تم إلغاؤها.. يأسادة إن الوحدة الوطنية لؤلؤة غالية علينا أن نحافظ عليها، ومناهج التعليم الآن ليست هكذا.. فهل نعد أنفسنا للزمن الآتى؟ هل نراجع مناهجنا؟ هل نجعل الوحدة الوطنية هدفاً لمناهجنا التعليمية؟ هل نأخذ من الماضي عبراً لمسيرتنا المنطلقة نحو المستقبل السعيد؟ عموماً هذه دعوة محبة..

## ١٥. إلى الأمام نحو مائة عام

### لنجم جريدة الأيام

لفت إنتباه: لفت الأديب المرموق دكتور قاسم محمد نور أنظارنا إلى مناسبة سعيدة كان لابد لنا أن نقف عندها وقفة تأمل، وهي بلوغ الأستاذ محبوب محمد صالح الخامسة والسبعون عاماً وهو الصحفي الأمين الناضج الذي يحمل خبرة تزيد عن الخمسين عاماً، حيث بدأ الدخول إلى صاحبة الجلالة وهو في ريعان الصبا.. ويبدو أن أول مقال كتبه كان له من العمر عشرون عاماً، وقد بدأ قوياً، وهو الآن أقوى حيث يستنير برأيه أهل الفكر والرأي، فلقد أوقف هو نفسه للدفاع عن قضايا الإنسان من مساواة، إلى حقوق، إلى وقفة ضد إستبداد الحكام، وكان لابد أن يدفع ضريبة النجاح وتوقف جريدته، وتصادر حريته، ويودع في السجون معتقلاً، ولكنه رمزاً للسلام ورمزاً للمدافع الجسور، ورمزاً للعدالة الإجتماعية، وهو رمز للسودان الواحد والإهتمام بقضايا مثل النزاعات القبلية والعرقية..

ومشكلة الجنوب في وطن تتعدد فيه الأعراق والأديان والثقافات، ويرى هو فيه وطن عظيم يسع الجميع دون إستعلاء من أغلبية على أقلية، أو من دين على دين، أو تسامى من عرق وقبيلة على عرق وقبيلة، فالوطن أعظم من أن نتخاصم عليه، وأنبل من أن ننقسم لأجله، وليس هناك مظلة تجمعنا وتحمينا وتقينا شر أنفسنا



سوى المواطنة والتي سوف تظل هي المقياس والمعيار والنهر الذي منه نرتوي، والخلود الذي إليه نسير ونسعى، والمحبة التي هي قوية كالموت مياه كثيرة لا تطفئ دفنها لأنها محبة حياة أقوى من الموت، وفوق مستوى كل الأحقاد..

نجم ساطع: إن الفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكوكب إلى دهر الدهور، وكثيرون يتطهرون ويبيضون ويمحصون، أما الأشرار فيفعلون شراً، لكن الفاهمون يفهمون، وطوبى لمن ينتظر (دانيال ١٢) .. لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد (كورنثوس الأولى ٤١: ١٥) .. وأستاذنا محبوب محمد صالح هو ليس من الفاهمين فقط، ولكنه نجم ساطع في سماء صحافتنا ونجم ساطع في سماء طموحاتنا الروحية، فنحن نحلم بوطن الرخاء، ونطمح لوطن بلا أعداء، وطن يسع أهله، ويحترم الآخر، ويجادل الجدل الحسن بل يقدم دوماً الأحسن، وطموحنا في وطننا أن نحيا جميعاً في المحبة، وأن نزيل الفوارق التي بيننا، الفوارق التي صنعناها وأرسيناها حجر عثرة في طريق تقدمنا..

ولو لم نعالجها سوف تكون سبباً في سفك دم وطن عظيم وتقطيع أجزائه لا سمح الله إلى أقسام لن نعرف كيف نلمها ونجمعها، ونتصارع شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، مواطنين ومتمردين، أمناء وخونة، ولقد كان قلم محبوب ولم يزل قلماً يحقق طموحاتنا ويطالب بالديمقراطية والمساواة، ويجاهد لكي يحقق كرامة الإنسان في وطن الأبناء والأجداد..

سطور من حياته: لقد ولد نجم جريدة الأيام الساطع في عام ١٩٢٨م وعاش في أم درمان، وتعلم الوسطى في أم درمان الأميرية ثم درس في كلية غوردون، وكان من الرعيل الأول في جامعة الخرطوم، ودخل إلى اتحاد الطلبة سكرتيراً عاماً، وكان لابد أن يكون نصيبه الفصل من الجامعة خاصة بعد إعلان إضراب الطلاب، ومن هنا بدأ حياته الصحفية مثل رجل أمين شجاع في شبابه المبكر في جريدة «سودان إستار» .. وكان نجماً فيها، وجريدة السودان الجديد، وفي عام ١٩٥٣م تلاقى مع نجمين آخرين في تاريخ صحافتنا السودانية وهما المبدعان: بشير محمد سعيد ومحبوب عثمان.. ومن هنا بدأ هذا الثالوث المحترم في تأسيس جريدة الأيام الغراء لكي تكون أول صحيفة سودانية صباحية، وكانت الجرائد يومها مسائية، وولدت «الأيام» في أهم الأيام حوجة إلى «جريدة الأيام»..

## ١٦. يوسف ميخائيل سجيناً ومؤرخاً

يوسف ميخائيل: إن كردفان الجميلة الغرة أم خيراً جوه وبره، لا يمكن أن تنسى هذا القبطي العملاق يوسف ميخائيل الذي أحب كردفان وعاش لأجلها، والذي سجل مذكراته عن ثلاث حقبة تاريخية عاشها هي: المهديّة، والتركيّة، والحكم الثنائي، وقد كتب هذا في مخطوط قيم في تفاصيله قراءة للواقع السياسي والاقتصادي الذي شهدته كردفان قبل ظهور المهديّة، وفيه تسجيل لدينامية الصراع المحلي الذي أسهم في نجاح الثورة المهديّة..

إن يوسف ميخائيل هو شاهد عيان لما يكتب وقد تتبع كل شيء بتدقيق، فلقد وعى عقله الكثير من الأحداث ولم يكن مجرد شاهد عيان، ولكنه كان شريكاً في هذه الأحداث وهو يشبه هنا لوقا الطبيب كاتب إنجيل لوقا، والذي دقق وحقق وكتب الأحداث كلها بدءاً من إنفتاح السماء على الأرض وبشارة الملاك جبرائيل بميلاد يوحنا المعمدان ثم بشارة نفس الملاك لمريم العذراء بميلاد السيد المسيح، ثم زيارة مريم لأليصابات ومولد يوحنا المعمدان ثم مولد المسيح، وتتبع لوقا حركة الملاحة في أحداث الميلاد العجيب تبشيراً وحضوراً وترنيماً..

وحركة الله نفسه الذي يقف خلف كل أحداث التاريخ، وقراءة تاريخ كتبه يوسف ميخائيل تقودنا إلى الخروج من دوامة التفسير الأحادي للتاريخ، فمثلاً لم يكن المهدي وحده وراء نجاح الثورة، وإنما كان أيضاً البنيات المحلية لمجمع كردفان والذي كان أكثر الأماكن ملائمة لاستقبال الثورة المهديّة، وتفعيل آلياتها، فلقد كان ما يحدث في كردفان تمهيداً لقبول ثورة المهديّة، فالصراع بين السلطة الحكومية والسلطة الشعبية صداماً مسلحاً بين «إلياس باشا» والشيخ «على كنونه» ..

ورفض أهالي كردفان للحكم التركي الذي كان قاسياً وعنيفاً في التسلط وجمع الضرائب والمظالم المتعددة، كل هذا جعل الناس يحلمون بالمهدي ويتوقعون على يديه الخلاص من الظلم والجور والغت والمعاونة والخروج إلى رحاب العدالة والحرية، والولوج إلى الحرية شجرة لها ظللا وارفة يستظل بها الناس من الحر اللافح الذي كان كرباجاً على ظهورهم، ومحاولة لسلب ثقافي، ومحاولة لإبهاث قيم روحية، وفرض متاعب ومصاعب تفقد الراحة والأمان..



ومخطوط يوسف ميخائيل يؤكد النظرة الشمولية للتاريخ عندما نقرأه قراءة نقدية مقرونة بأدبيات معاصرة لها مثل كتابات إسماعيل عبد القادر الكردفاني، سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدي، الطراز المنقوش بشري قتل يوحنا ملك الحبوش، وأيضاً أوراق على المهدي جهاد في سبيل الله، ومذكرات الشيخ بابكر بدرى تاريخ حياتي، والذي كان يتسامر مع كتشنر في مجلسه وكان كتشنر ينادى إبراهيم بك خليل بالعم إبراهيم احتراماً لمكانة هذا القبضي العريق الذي عندما ردت إليه أملاكه كان من بينها مكان الجامع القديم وتنازل عن هذا المكان ليظل جامعاً، وهذا احتراماً لأخوانه المسلمين الذين سجدت جباههم لله في هذا المكان ..

وأيضاً يقارن مخطوط يوسف ميخائيل بأدبيات سجناء المهديّة والتي لابد أن تكون مشحونة بعدم الرضا على المهديّة التي أودعتهم السجون، كما من المهم مع دراسة مخطوط يوسف ميخائيل الإهتمام بوثائق المهديّة التي نشرها محمد إبراهيم أبو سليم والتي لم تزل حتى الآن في أضياب دار الوثائق القومية في انتظار باحث مدقق ومحقق يخرجها إلى الوجود وينزلها إلى علماء التاريخ توطئة لتنزيلها للشعب السوداني..

السجين والمؤرخ: ويرى مكي أبو قرجة في كتابه « أصوات في الثقافة السودانية » إن يوسف ميخائيل صار مؤرخاً بمحض الصدفة، وإنه بالرغم من أنه شاهد عيان لأحداث تاريخية مهمة هي فترة عاصفة من التاريخ السوداني فهو لم يفكر في أن يكتب هذا التاريخ، ولكن القصة تبدأ من مطحنة للحبوب بالأبيض كان يديرها يوسف ميخائيل مع شقيقه إسحق، وكان الحاكم الإداري الإنجليزي لمدينة الأبيض صديقاً له، كان يلتقى به وكانا يتسامران في تاريخ السودان، وتاريخ كردفان قبل الاحتلال البريطاني..

ووصف هذا الإداري البريطاني يوسف ميخائيل بأنه كان نحيلاً واهن البدن وأبيض الشعر، والإنجليزي هو مستر « أفسين » نائب مفتش المركز وذات يوم كان الإنجليزي راجعاً من مهمة خارج المدينة ودلف إلى مكتب بلاغات الشرطة وفوجيء بوجود يوسف ميخائيل وزوجته فيكتوريا في الحراسة ضحيتان لعملية « كشة » بتهمة صناعة العرقى، وقد كان يوسف ميخائيل يحب هذا، حتى إنه عندما طلب منه بناء مخزن كبير يسمى الكرنك قال للمأمور: فيها قرارة كونيالك.. ورد المأمور بالموافقة..

ولكن رغم وساطة الكثيرين حكم على المرأة بسجن مع إيقاف التنفيذ، وحكم على يوسف ميخائيل بالسجن لمدة شهر، وشجع البريطاني يوسف ميخائيل أن يعتبر هذه الفترة هي كتابة للتاريخ، وأحضر إليه الأوراق والأقلام الرصاص ليحكي قصة حياته الغنية بالأحداث، وهكذا صار مؤرخاً لمدة ثلاثين يوماً وقدم أفضل خدمة لبلاده، وهكذا كانت سجون السودان وحتى الآن..

## ١٧. رئيس إيران مع المسيحيين في السودان

رئيس إيران: استقبلت الخرطوم عاصمة الثقافة العربية والإفريقية والعالمية سعادة رئيس جمهورية إيران الإسلامية، دكتور محمد سيد خاتمي، كان هذا في يوم الثلاثاء الخامس من أكتوبر شهر الانتصار على المستوى العربي، وشهر الإنتفاضة على المستوى السوداني..

والضيف الكبير لبلادنا هو شخص كبير يرتفع فوق مستوى الصغار ولا يمشى وحده في دروب الكبار، وإنما يريد أن يكون الكل كباراً، وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجساد، عندما تحدث العالم عن صراع الحضارات كان هو كبيراً وقال: لا بل نتحدث عن حوار الحضارات، وعندما كثرت التوترات في العالم حاول خاتمي أن يخفف من حدة التوتر وينادي بالحوار طريقاً للكل..

وعندما صارت التوترات إرهاباً قال: لا إن الإرهاب لن يحل مشاكل، والإرهابي يحيا في خطيئة فادحة بل في ثنائية الخطايا، فهو قاتل من ناحية وهو مستغل للدين إستغلالاً سيئاً من ناحية أخرى، وقد وصل خاتمي إلى رئاسة الجمهورية عن طريق الإنتخاب منذ عام ١٩٩٧ م، وعاد شعب إيران لينتخبه مرة ثانية وبعد هذا وبحسب النظام الديمقراطي في إيران سوف لا تجدد فترته مرة أخرى ويفسح المجال لآخر.. وقد كنت أعتقد إن من يعتلى عرش إيران بعد ثورة الزعيم « خوميني » سوف يستمر على الكرسي لسنين عديدة وآمنة مديدة..

خلفية حضارية: وإيران دولة عظيمة ذات خلفية حضارية مجيدة وتليدة وضاربة بجذورها في عمق التاريخ، فلقد كانت مملكة فارس مملكة متسعة الأطراف تمتد من مملكة الهند شرقاً إلى الأرجنتين الإغريقي غرباً، ومن بحر قزوين والقوقاس والبحر الأسود ونهر الدانوب شمالاً إلى الصحراوي العربية والنوبية جنوباً، وكانت وقتها



مساحتها اثنين مليون ميل مربع، وعاشت تاريخاً سعيداً بملوك مشهورين ، نكر منهم الكتاب المقدس كورش ونبوخذ نصر، وداريوس ، وأرتخشستا ..

ونكر الكتاب المقدس إن الله نبه روح كورش فأمر بإعادة بناء الهيكل، وبهذا يكون حوار الأديان في إيران قد بدأ منذ زمان ، لأن الملك الفارسي أكرم اليهود في إعادة بناء الهيكل، وأيضاً كانت ديانة هذه المملكة القديمة هي الزرادشتية التي تؤمن بالله للخير، وإله للشر ، وتقسم الكون إلى مملكتين، مملكة الأرواح الخيرة الطاهرة، ومملكة الأرواح الشريرة ، وتجدد أن واجب المرء هو إستئصال الشر وزرع الخير والسعى نحو القداسة قولاً وفكراً وعملاً ، حتى يكافأ بالخلود في السماء..

والملاحظ إن هذا الدين لم يفرضه الفرس على الشعوب الخاضعة لحكمهم ، وهذا أيضاً جانب مشرق في حضارة الفرس، هذا عدا القوانين المنضبطة التي تحدد علاقات الناس معاً والتي هي أساس حتى الآن للمشرعين في شرع القوانين ، وبطلها الأول هو « حمورابي »..

ويذكر لنا الكتاب المقدس كلمات فارسية مثل : مرازية، شحن ، ولالة ، نيروز أي أول العام ، وقد حمل بعض شباب اليهود أسماء فارسية بعد أن صاروا وزراء في القصر الملكي، فلقد حمل دانيال نبي الله إسم بلطشاصر.. وحنانيا شدرخ.. وميشائيل ميشخ.. وعزريا عبدنغو.. ولقد فسر دانيال النبي حلم نبوخذنصر وكان الحلم قد نسيه الملك ففهم دانيال الحلم وقدم له تفسيراً..

ومن يقرأ سفر دانيال في الكتاب المقدس يقف أمام ملحمة عميقة بطولتها ملوك فارس ورجال الله، وعندما طرح دانيال في جب الأسود لأنه لم يسجد لتمثال الملك ، كان الملك نفسه متألماً، وقد تمكن دانيال الشاب القوي أن يقول للملك: لذلك أيها الملك فلتنك مشورتى مقبولة لديك، وفارق خطاياك بالبر وأثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال إطمئنانك ، وكتب أحد ملوك فارس وهو داريوس يقول : من قبلى صدر أمر باته في كل سلطان مملكتى يرتعدون ويخافون قدام إله دانيال لأنه هو الإله الحي القيوم إلى الأبد وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى وهو ينجى وينقذ ويعمل الآيات والعجائب..

مبادرة خاتمي: وإذا كنا نتحدث عن خلفية حضارية لجمهورية إيران، فإن هناك خلفية حضارية لرئيس جمهورية إيران، فهو الشاب الغض الذي نشأ في أسرة

متدينة ووالده من علماء الدين المرموقين، وهو طالب متميز في دراسة الفلسفة، حصل على بكالوريوس وماجستير ودكتوراة، وكان مواظباً على حلقات الدرس، وله مشاركات سياسية في النضال الثوري للشعب الإيراني ، وهو مهتم بأن يعرف الكثير عن فلسفة الغرب، وهو ضد الإنغلاق على فكر محدود لبلد محدود أو لدين بعينه، وهو مهتم كيف يستفيد من التقليد وكيف يستفيد من الحداثة..

وبالنسبة لنا نحن رجال الدين المسيحي في السودان يُعد الرئيس خاتمي أول من بادر لكى يلتقى بنا لقاءً خاصاً مميزاً.. وقد قدمت أمامه حديثاً مختصراً وقدمت له تهنئة لأنه يهتم بالحوار، ولأنه يحيا في بلد ديمقراطي فيه كرسى الرئاسة ملكاً لكل مواطن، وهذا يجعل الأحلام لدى الشباب مشروعة وغير مصادرة ، ولقد كان هو وزيراً للإرشاد مما جعله سعيداً باللقاء بالمسيحيين وقد أطل هو الحديث على سجيته، وكان تفسيرى له إنه قد وجد نفسه معنا لذلك أطل الحديث..

لقد أسعدنا بهذا اللقاء وعاصمتنا الآن تستقبل الكثير من الرؤساء ولكن واحداً منهم لم يهتم بنا مثلما إهتم هو ، ولقد كرمته جامعة النيلين ومنحته شهادة الدكتوراة وهو قبل هذا دكتور وعالم..

مرحباً بخاتمي وشكراً لسفير إيران ، وشكراً للملحق الثقافى صادق رمضانى الذى كان صادقاً صدوقاً صديقاً فى مشاعره معنا ، وفى تقديمنا لرئيسه العالم المتحضر..

## ١٨ . عيد الصليب والأمطار

الكنيسة والزروع: تُعد الكنيسة القبطية كنيسة زراعية ، فلقد كانت الزراعة ذات يوم هى المهنة الأولى لكل الأقباط، ولهذا إشتملت صلوات الكنيسة على عدة طلبات روحية من أجل الزروع والعشب ونبات الأرض ، وتنقسم السنة التوتية أو السنة القبطية إلى ثلاثة أقسام هى :

موسم المياه والفيضان: وهو موسم إحتفالى جميل فيه تحيا الكنيسة خيرات الأمطار وتصلى من أجل مياه الأنهار وهطول الأمطار، وتطلب من الله أن ترتفع مياه النيل كمقدارها أى بالقدر المقدر لها، فالزيادة عذاب والنقصان ألم وحيرة ، فعندما تزيد المياه يأكل الفيضان كل الزروع ويهدم المنازل، وعندما ينقص يحدث الجفاف الذى هو الطريق



إلى التصحر لأن النيل يشق طريقه وسط الرمال والصخور ويبدأ موسم المياه من الثاني عشر من شهر بؤونة الذى يوافق ١٩ يوليو والذى هو عيد النقطة، وهذا العيد عيد قديم قدم حضارة الفراعنة، وكان المصريون القدماء يحتفلون فيه بنزول أول نقطة مطر على هضاب الحبشة، وكانوا يعتقدون إن نقطة المطر هذه هي دمعة الآلهة «إيزيس» آلهة الخصب والنماء، والمسئولة عن زيادة مياه النيل وعن رعاية الري، ويستمر هذا الموسم حتى ٩ من شهر بابة أى إنه يمر بالشهور القبطية : بؤونة، أبيب، مسرى، توت، بابة، وهذه الفترة هي فترة الأمطار المبكرة والمتأخرة..

موسم الزروع: وهو موسم يبدأ فيه إلقاء البذار فى الأرض وانتعاش هذه البذور فى الأرض وهذه حياة جديدة ورمز للقيامة وحياة الأبد، ويبدأ هذا الموسم فى العاشر من شهر بابة إلى العاشر من شهر طوبة، وهو موسم خصب يمر بالشهور القبطية : بابة ، هاتور ، كيهك، طوبة ، وهو موسم يميل إلى البرودة، ويوافق ١٠ بابة يوم ٢٠ أكتوبر.. وفى هذه الفترة ترفع الكنيسة قلوب المؤمنين نحو الله فى صلاة من أجل الزروع والعشب ونبات الحقل لكى يأخذ نموه، ويعطى عطاءً جيداً ويكون ثمره متزايداً راحة للبلاد ورخاء للعباد.. وفى شهر هاتور من هذا الموسم يأكل الناس القمح الأخضر قبل جفافه ويسمى «الفريك» ولهذا يقولون: برمهات برمهات فرك وهات.. أو روح الغيط وهات من القمحات للبصلات، فهو شهر نضوج الزروع، ومع صلوات الزروع هناك صلوات من أجل الضرع أى الثروة الحيوانية من أجل نجاة الناس والبهائم..

موسم الحصاد: ويبدأ من الحادى عشر من شهر طوبة مروراً بشهور قبطية هي : أمشير ، برمهات ، برمودة، بشنس ، بؤونة.. والشهور الميلادية: يناير، فبراير، مارس، أبريل، مايو، يونيو.. وفى موسم الحصاد تصلى الكنيسة من أجل أهوية السماء وثمرات الأرض والشجر والكروم ، وكل شجرة مثمرة فى كل المسكونة لكى يباركها الرب ويكملها بغير آفة ويغفر لنا خطايانا..

وهنا نرى الكنيسة ترفع القلب إلى الرب من أجل الآفات التى تهاجم موسم الحصاد وتحول الحصاد إلى مأساة، وكانت أول معرفة لهذه الآفات من خلال الضربات العشر التى أتت على مصر فى زمان موسى ، وعقاباً للملك الذى رفض لموسى أن يأخذ شعبه ويخرج من مصر..

عيد الصليب: ويأتى عيد الصليب فى يوم ١٧ توت لكى يكون خاتمة لإحتفالات أول السنة القبطية أو عيد النيروز، وتستمر الصلوات بلحن الفرع خلال مدة ستة عشر يوماً، وبعد هذا ثلاثة أيام عيد الصليب لتكتمل الأيام تسعة عشر يوماً، وعيد الصليب ثلاثة أيام ويرتبط عيد الصليب بالسنة الزراعية كما إنه يرتبط باكتشاف مكان الصليب على يد الملكة هيلانة، ويُعد الصليب وهو فى سبتمبر هو آخر وقت لزيادة مياه النيل، حيث يختفى خطر الفيضان ولا يمكن للماء أن يرتفع بعد عيد الصليب، ولهذا يقال : إن المياه « صُلبت » ولكن هذا لا يمنع أن تأتى الأمطار بعد عيد الصليب، ولهذا تُعد مناسبة عيد الصليب مناسبة قومية لدى أهل الزراعة، وهذه المناسبة تعيد السلام إلى القلوب وتعطى إطمئناناً بأن نهر النيل لن يزيد، وأن الناس يكونون فى مأمن من خطر الفيضان الذى يكون سبباً فى مشاكل كثيرة تنعكس سلباً على الزرع والضرع وعلى سلامة المواطنين، وإحتفال عيد الصليب لم يقتصر على الصلوات بالحن الفرع فى الكنائس، إنما يحتفل به بمواكب إيمانية يرفع فيها الصليب الذى يملأ القلب بسلام الرب فى إطمئنان القلب..

## ١٩. من ذهب مروى إلى سد مروى

ذهب مروى: قام الدكتور صلاح عمر الصادق بترجمة كتاب « كارل هاتز بريشة » عن ذهب مروى، ذلك الذى إمتلأت به مملكة مروى والذين حكم ملوكها السودان لمدة ثلاثة عشر قرناً من الزمان وبصورة متواصلة من ٩٠٠ ق.م إلى ٣٥٠ م.. وفى متحف برلين وميونخ الآن ثلاث قاعات تمتلئ بذهب مروى والتى شُيدت فى حضارتها ٢٦١ هرمًا، وكان كل هرم يمتلئ من الداخل بذهب الملوك وفوق قمة الهرم كان هناك هرم من ذهب ..

ومر على مملكة مروى ملكات كنداكات، والمرأة لها رغبة لا تتوقف فى إقتناء الذهب، وما وجد عند الملكة « أمانى شيختو » من حلى ذهبية شئ كثير جداً، وجميل جداً تتجلى فيه صور رقى وتقدم وحضارة مملكة مروى فى نقوش ذهبية جميلة تضارع وتتفوق على نقوش اليوم..

وفى تقرير متحف برلين ومتحف ميونيخ حديث عن ملك بافاريا لودفيج الأول الذى إشتري سنة ١٨٤٠م أجمل القطع من الكنز الذهبى غير العادى والذى مثله



مثل قصة خرافية، وكان قراره شجاعاً في نظرهم لأن جذب الذهب السوداني إلى هناك سوف يساعد على زيارة أهل أوربا له..

وعندما نذكر ذهب مروي نذكر أمهر لصوص الآثار سارق الذهب الطبيب الإيطالي « جوزيف فرلينى » والذي قال عنه صلاح الصادق : إنه لص وضيع يسرق ضحيته ويتعالى عليها ، وأما اللص الإيطالي فيقول : إنه عندما فحص الذهب كان الفرح يغمره كلياً وأعجب بصناعة القطع الذهبية وعندما رأى كمية الذهب أدرك إنها تفوق عدداً وعظمة كل ما يوجد في متاحف أوربا، وأحس بأن أعمال نحت الحجر في مروي ليس لها نظير وهي أحسن من أعمال الإغريق بل تفوقها روعة، وإنه عندما فكك الهرم عثر على قطع من الحبل المجدول من أغصان النخيل ومطارق من الخشب يبدو إنها تركت سهواً من نبات الهرام، ونشر فرلينى تقريره عن مكتشفاته لكي يبيعها..

إن مروي حضارة قديمة وأصيلة ذات فن مروي متميز في صناعة الذهب وفي تماثيل الآلهة والملوك ، وفي علامة الحياة والنحت البارز وأختام الدروع وخواتم الصوابع وعقود من الشبب والعقيق وأقراط الذن الصغيرة والجميلة ، والدلايات والخرز، ورؤوس الثعابين والجعارين ، والعين والقلب، والسمة، والفواكه، والتماثيل، والكباش، والأسود الصغيرة، ورسومات الحية ربما ترمز إلى وعد الله لحواء : إن نسل المرأة يسحق رأس الحية، ولأن الحية أحيل حيوانات البرية، ولأن الحية أيضاً تمتاز بالحكمة : كونوا حكماء كالحيات، والحكمة مطلوبة لملوك مروي الذين ينبغي أن يكونوا حكماء وعادلين..

سد مروي: وننتقل من الذهب إلى الذهب، لأن ذهب مروي قد ذهب منا وضاع ، والآن مروي موعودة بما هو أثمن من الذهب، بذهب يأتي إلى السودان بالكهرباء والزراعة من ماء النيل الذى كان يذهب هباءً منثوراً ، وسوف تصبح مروي هي مملكة الزرع والضرع والطاقة حيث تبدأ حضارة بيد الإنسان في مشروع القرن.. سد مروي..

ولقد ولدت فكرة السد منذ ستين عاماً بالتمام والكمال كما يقول إستطلاع العربى سبتمبر ٢٠٠٦ م ، وكان تقرير العلماء: إن منطقة مروي هي أفضل موقع لإنشاء خزان لحماية الأراضي المصرية، لأن التقرير من دراسات مصرية، من الفيضانات

المدمرة وتخزين كميات المياه الزائدة عن الحاجة للاستفادة منها في فصول الجفاف

وأثبتت الدراسة إن ماء يمكن أن يحجز حتى مستوى ٢٩٨ متراً، وقد بدأت منذ أمد عدة دراسات كلها أكدت على موقع السد الحالى، وبدأ العمل والذي يقف وراءه التمويل العربى والحس العربى الذى حوّل حلم السودان إلى حقيقة، وكان التمويل من صناديق عربية، الصندوق العربى للإتصاى والإجتماعى، والصندوق السعودى للتنمية، وصندوق أبو ظبى، ومساهمات حكومة قطر، وما دفعته دولة الصين الشعبية..

وبدأ العمل فى السد على قدم وساق ، وعرض السد الخرسانى ثمانون متراً، وارتفاع سبعون متراً ، وتستخدم فيه الحجارة الطبيعية، وقد تم تحويل مجرى نهر النيل بسهولة لأن السد يقع فى جزيرة صغيرة، وإن كان أمر التهجير ليس سهلاً بل تقابله العديد من المشاكل التى سوف يجتازها الشعب السودانى من أبناء مروي لصالح أخوانهم فى الوطن ولصالحهم أيضاً، وكما تقول مجلة سد مروي إنه مع مضى عجلة الزمن يرتفع جسم سد مروي ويزداد كل يوم شموخاً يحكى ملحمة إلتقت فيها الخبرات المتعددة من أجل نماء السودان..

وخلف الكواليس تعمل اليدى بصمت من أجل بلوغ الهدف والوصول إلى الغاية ببرنامج الكهرباء عبر الأسلاك إلى كل أجزاء السودان، وإننى أرجو وأصلى أن يكتمل المشروع بخير وسلام، وأن يكون خيراً لنا وتخفيضاً لسعر الكهرباء، وأرجو أن لا يكون حلمنا فى كهرباء سد مروي مثل أحلامنا عن البترول الذى رغم إننا ننتجه يتزايد سعره زيادة لا تحتمل..

لقد رأى يوحنا الرانى فى رؤياه سبع منائر من ذهب وآمل أن أرى مروي تنتقل من الذهب الأصفر إلى ذهب هو الكهرباء يملأ حياتنا رخاء ونماء، والتحية لكل العاملين فى السد، وفى إنتظار الخير أتمنى لكم كل الخير..



## ٢٠. النوبة واحدة في الشمال والجبال

النوبة واحدة: أميل جداً إلى الرأي القائل بأن النوبة في الشمال إرتحل البعض منهم وأسس نوبة الجبال، لقد إرتحلوا فراراً من بطش الحكام والضرائب المبالغ فيها ولأنوا بالجبال مأمناً من كل خطر، فالجبال عديدة ربما تزيد عن المائة، والجبال شاهقة ولا يقدر أحد أن يصعد إليها إلا الأقوياء..

وكما يقول الكتاب المقدس: ما أجمل على الجبال قدمى المبشرين بالسلام، وكان السيد المسيح يصعد إلى الجبل ليصلى وعلى جبل التطويبات قدم السيد خطاب العرش، والله هو المنبت الجبال عشباً والذي يوزن الجبال بالقباني، وهو الذي ترتعش أمامه أسس الجبال..

وكان صاحب المزمور يرقب الجبال طالباً المعونة: أرفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى، معونتى من عند الرب صانع السموات والأرض لا يدع رجلك تزل، لا ينحس حافظك، إنه لا ينحس ولا ينام، الرب ظل لك عن يديك اليمنى لا تضربك الشمس فى النهار ولا القمر بالليل، الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك، يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر..

لقد صارت جبال النوبة مركزاً للتأمل، ومأوى للهاربين، وفى رأى الذين هاجروا من النوبة شمالاً إلى الجبال النوبية غرباً كانوا من أبناء العصر المسيحي، ولكن يبدو إنهم لم يأخذوا معهم أحداً من رجال الدين الذين صمموا أن ينالوا إكليل الصابرين فى موقعهم، ولكن هؤلاء الذين وفدوا إلى الجبال كانوا ملتزمين إلى وقت كبير بعبادات بلادهم والتي منها نقش الصليب على البيوت فيما أسماه الكتاب «الخطوط المتعامدة» ..

وفى دفن الميت وجهه نحو الشرق ويذكر هذا الأمر كتاب «جبال النوبة» عند الطروجيين من جبال النوبة بحيث الرأس إلى جهة الشمال والوجه إلى الشرق، وهذه عادة مسيحية حيث ينتظرون المجيء الثانى للسيد المسيح والذي سوف يأتى من المشرق، وقد دعى أيضاً شمس البر والعدل الذى يشرق بغير إنقطاع ليبدد الظلمة ..

ويصلى المسيحيون فى الشرق متجهين نحو الشرق وتبنى الكنائس نحو الشرق

تذكراً للفردوس المفقود وانتظاراً لمجىء الرب من الشرق لأنه يأتى كالبرق المشرق يضىء حتى المغرب، وفى المزمور: أعط مجداً لله الراكب سماء السموات نحو الشرق، حتى صلب السيد المسيح كان متطلعاً هو نحو الغرب ونحن ننظر إليه عن طريق الشرق..

وقد لاحظ أحد الباحثين إنه فى أغلب المدافن بالنمسا إن المقابر موضوعة بشكل فيه تتطلع وجوه كل الموتى نحو الشرق، وقال: فى هذا يشبه الموتى جيشاً عروماً يتطلع إلى الرب القائم من الأموات وينتظرون دعوته لهم عندما يدعوهم إلى القيامة، وفى مدينة «تيرول» أوضح مدخل أحد المدافن الكبرى هذا الرمز بكلمة واحدة هى «القيامة»..

دليل الوحدة: وهناك دلائل أخرى تؤكد إن أهل الشمال والجبال فى النوبة هم أسرة واحدة لأنه أولاً وقبل كل شىء الاسم واحد ويعنى «الذهب».. والنوبة هى وطن الذهب، وهو الاسم الذى أطلقه الفراعنة على جنوب الوادى وذلك تعشماً فى الذهب وتواجده فى النوبة، ولم يخيب الله للفراعنة أملاً، فلقد عثروا على كميات كبيرة من الذهب، وهناك أسماء مسيحية لبعض مناطق جبال النوبة مثل: جبال ميرى، وميرى هى العذراء الطاهرة مريم التى إنتبذت مكاناً شرقياً، وكانت أعرق العبادات فى تاريخ العبادة عند الرجال والنساء..

وأيضاً قرية «مرثا» وهو اسم لإحدى ملكات النوبة الأميرة مرثا والتي يزخر المتحف القومى السودانى بصورة لها وهى فى حماية القديسة مريم العذراء حواء الجديدة، والتي جدت حياة البشرية بفضيلتها وتقواها، حتى أن الله إصطفاه وأصطفاه لتكون أمماً للسيد المسيح والذي هو الشخص الوحيد بين البشر الذى إختار أمه..

ودليل آخر يؤكد إنتقال أهل النوبة شمالاً إلى جبال النوبة يحملون معهم عاداتهم وتراثهم فيما يخص تذكارات الأربعين وتذكارات العام، حيث ذكر عن بعض قبائل جبال النوبة إنه عند وفاة الشيوخ وأعيان القبيلة يسير الرجال بعد أربعين يوماً موكب زفة مصحوبة بالأناشيد ويذهبون إلى مقبرة المتوفى بعد أن يجمعوا شيئاً من الحجارة البيضاء وتسمى «بالمرو» ويضعونها حول مقبرة الميت..

وعادة الأربعين عادة قديمة جداً قدم وادى النيل وهى موجودة حتى اليوم عند



الأقباط وعند المسلمين أيضاً، وتأخذ هذه العادة عند الأقباط مرجعاً لاهوتياً حيث أن السيد المسيح بعد أن قام من بين الأموات في اليوم الثالث صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامته حيث رُفِعَ حياً إلى السماء أمام شهود عيان كثيرين نظروا وهو يرتفع على سحابة حتى اختفى عن أعينهم ، وفيما هم يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان بثياب بيض قالا لهم: ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي إرتفع عنكم إلى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقاً نحو السماء..

هذا عدا أن هناك عادات ترتبط بشرب اللبن ليلة الزفاف للتأكيد على أن المتزوج داخل إلى حياة تفيض لبناً وعسلاً، ولاشك إن هناك دلائل أخرى تؤكد إن النوبة واحدة في الشمال وفي الجبال..

## ٢١. صالون عبد الرحمن المهدي

عبد الرحمن المهدي: في كتاب « معهد بحوث ودراسات العالم الثالث » أصدر بروفيسور أحمد إبراهيم دياب ترجمة لحياة رجل السودان عبد الرحمن المهدي ذلك الزعيم السوداني المميز والذي وهب حياته للسودان علماً وخبرة وعطاءً وقدم للكتاب الدكتور الباهر أحمد عبد الله مقدمتان واحدة في ١٩٩٢م والثانية في ١٩٩٩م.. في الأولى وتحت عنوان « وقفة متأنية أمام مسيرة الأحلام السودانية » ذكر فيها إن بروفيسور دياب فاجأه بالعرض العلمي المتميز والجديد في دراسته التاريخية..

وكانت المفاجأة في الرؤية الجديدة للتاريخ كما يصفه دياب والفلسفة التي يتجاوز فيها البحث النظري، ويمخر عباب باخرة الفلسفة الثورية للتاريخ أي النظرة التأملية لتاريخ ما هو آب، بروح ثورية شابة جبل عليها دياب كعالم متخصص ووطنى وملتزم وأمين لأن التاريخ لا يكتب عنده كتمرين أكاديمي يصبح جزءاً من ثرثرة الأكاديميين وتناطحهم الثقافى..

أما في المقدمة الثانية فيقول : إن دياب أحلامه معه، كانت الحلم بوطن واحد ديمقراطى، حدادى، مدادى، نبنيه بالحلم الذى نحلم به يومئذى.. وإن دياب مقاتل شرس لأجل الوطن، أما كتاب « الوثيقة » عن الإمام عبد الرحمن المهدي فيشمل

على عدة وثائق عن نسبة وعن وطنيته، عن حبه للسودان ورغبته فى علاقة متألقة مع مصر دون المساس بحريته كسودانى ، وفيما كتبه الإمام نيابة عن حزب الأمة إلى الزعيم مصطفى النحاس يعتبر عليه فرض الملك الجديد على السودان فى ديكتاتورية يخضع لها « هتلر » وينحنى إجلالاً لها « موسوليني » ، ديكتاتورية لا تعباً بكرامة السودانين ولا تقيم وزناً لحقوقهم التى يرونها ويراهها العالم..

ويشهد ضمير النحاس بأنه هو نفسه يعتقد إنها غير عادلة وغير مشروعة، وإن أهل السودان ثائرون بصدور مفتوحة لإستقبال الرصاص وتسابق إلى الموت فى سبيل حياة كريمة ، ويقول للنحاس: إن الإنسان حين يرجع إلى حكم العقل والمنطق لا يسعه أن يسخر بجرأة النحاس الذى أعلن الملك الجديد ولم يجرده له سيفاً ويخضع الملوك بقوة النار والحديد، وقد كنا منهم هذه الجرأة ونحمدها لو أن النحاس رجع إلى الشعب السودانى أو إلى مجلس الأمن للإستفتاء..

وإن إعلان ملك مصر ملكاً على السودان بهذه الطريقة السهلة الميسرة ما هو إلا مسرحية يندى لها خجلاً جبين القرن العشرين ، وجبين الديمقراطية التى ينادون بها ويزعمون غنهم من حُماتها، ويمتلىء كتاب دياب بالوثائق العديدة عن عبد الرحمن المهدي وعلاقاته الطيبة بنفر كريم من أبناء الوطن ومن أبناء مصر الشقيقة، والذين يحادثه البعض فيهم طالباً مساعدته فى التنفيس عن كربيه لأن من نفس عن كرب إنسان سلم من كرب أو ضيق يوم القيامة.. وفى رسائل عبد الرحمن المهدي إستككاراً لقول بعض الناس إنه صنيعه الإنجليز لأن له أصدقاء منهم ، وقال : إنه مما يدعو للدهشة أن يقال عن ابن المهدي إنه صنيعه هذه الأمة أو تلك، فإن ابن المهدي مكُون من يوم أن قام أبوه ورفع إسم السودان ، وبني تاريخه الحديث..

صالون الإمام: إننى عندما أتحدث عن صالون الإمام أذكر صالون مطران الخرطوم الأنبا دانيال والذي كان صالوناً وطنياً أدبياً راقياً ، وكان الحديث فيه يختلط الدين بالوطن لأن الله أوصانا بمحبة الأوطان ، وقد قيل عن السيد المسيح: ولما جاء إلى وطنه «.. لقد كان السيد وطنياً مخلصاً لم يترك وطنه ويذهب إلى أى وطن آخر لكى يُعلى من شأن القيم الروحية السماوية فى بلاده قبل أى وطن آخر .. وتحدث مكى أبو قرجة تحت عنوان « موت حلم » عن توماس جراهام الإنجليزى الذى ظروفه أن تقوده يوماً إلى السودان وكيف إنه لم يجد صعوبة فى الولوج إلى مؤسسات



المجتمع السوداني والإرتباط به والإتصال بشخصيات إجتماعية وسياسية وثقافية. وكيف أقام هذا الإنجليزى علاقة وثيقة عراها مع الإمام عبد الرحمن المهدي الذي كان قد بلغ ذروة تألقه وعطائه الغيداق، وكيف كان يتردد على مجلسه العامر الذي ضم الصفوة من كبار المتعلمين والمتفقيين..

فلقد كان الإمام ولوعاً بالعلم والعلماء متصلاً ببقية الكرام ممن عاصروا الدولة المهديّة وعملوا في دواوينها كالشيخ الطيب أحمد هاشم مفتى السودان ، والشيخ محمد عمر البنا العالم والشاعر، والشيخ مدثر الحجاز ، وقد ضمّ صالون الإمام العديد من الأدباء والشعراء الوافدين من مصر والشام مثل المراغي وماضي أبو العزائم، وفؤاد الخطيب، والقبطي الأديب اللامع نسيم قلّس.. ومن خلال صالون الإمام ظهرت الشخصيات البارزة في الحركة الإستقلالية والتي رعاها هو ، ومن بينهم الزعيم محمد أحمد محبوب رائد الدبلوماسية ورئيس الحكومة، وعبد الرحمن على طه وزير التعليم الذي ساهم في التكوين الوجداني لأبناء شعبه يوم كان الوطن هو الأدب وهو القصيدة وهو النشيد وهو الرؤيا، مثلما عضو الصالون يوسف مصطفى التني صاحب « في الفؤاد ترعاه العناية » والتي هي بلسم الجراح كلما ظهرت جراح الوطن.. وكثيرون كانوا من رواد صالون عبد الرحمن المهدي ، وأملى أن تتعدّد الصالونات الأدبية في بلادنا، والتحية وروداً زكية الرائحة لندوة السبت والتي يرأسها دكتور عمر قدور، وأركان حربه الشاعر الفاتح حمدتو ورفاقه، والتحية بركة ونعمة لندوة الإثنين التي تنعقد على نهر النيل العظيم وترأسها الشاعرة بثينة خضر مكي، وإلى صالونات أكثر وأكبر وأعمق وأجمل..

## ٢٢. منصور خالد والقديسة السودانية

ذكرى محبوب: في عام ٢٠٠١ م أقيمت إحتفالية في مركز جامعة كمبريدج بمرور ربع قرن على رحيل الزعيم المرموق، والمهندس الجسور، والمحامي الجريء، والشاعر النائر محمد أحمد محبوب، وفي تلك الذكرى المجيدة كان حديث منصور خالد ذلك الذي وكما كتب عنه مكي أبو قرجه متميز عن أقرانه من السياسيين السودانيين بعمق الرؤية وفخامة الأسلوب الذي يأسر قارئيه متفقيين معه أم مختلفين.. وله كتب قيمة وعظيمة مثل حوار مع الصفوة، والنخبة السودانية، وإدمان

الفشل، وقد إتقنت به وسعدت بما يقدم من أدب رفيع وأسلوب بليغ وثروة ثقافية لا تضاهي ، وتوغل في المعرفة ، وإبداع بما يكتب من جديد، وهو الآن على القمة في وطن القمة مستشاراً لرئاسة الجمهورية مشارك في قضايا الوطن وقضايا الحوار، وكلما كانت له الفرصة أن يتكلم كلما أتى ما يؤكد ثقافته الإنسانية وإعتزازه بتاريخ السودان..

ولهذا فهو عندما تحدث في مناسبة ربع قرن على رحيل محبوب، تحدث عن تاريخ السودان وعن الخلفية المسيحية لتاريخ بلادنا والتي إمتدت في عمر الوطن إلى أكثر من عشرة قرون من الأمجاد الروحية، والتي فيها إعتز الإنسان بإنسانيته، وإعتز السوداني بلاده، وملك ناصية الحوار الروحي ، حتى كان ملوك النوبة المسيحيين يتبنون أخلاقاً سامية رفيعة في التواضع الجم والأدب الرفيع، والسمو الروحاني، وقد رسم الملوك في حماية الله وفي حماية القديسين والملائكة النورانيين..

وهذه المرحلة المسيحية قلّ الكلام عنها ، ولكن منصور خالد وفي كلمته الممتازة تحدث عن الحضارة النوبية المسيحية في تاريخنا المجيد ، ملقياً الضوء على ثروتنا الروحية، وأشار في حديثه إلى تجربة أسطورية لإمرأة سودانية جنوبية خاملة الذكر تدعى « جوزفينا بخيت » عاشت كرقيق في أواخر القرن التاسع عشر، وجيء بها إلى الخرطوم بعد أن تعرضت لعذابات مريرة على أيدي تجار الرقيق، وكان خلاصها على يد القنصل الإيطالي العام في زمن الدولة التركية السابقة، والذي أخذها معه إلى إيطاليا حيث تمت هناك معموديتها وصارت مسيحية وسميت جوزفينا.. إلا إنها أصرت على الإحتفاظ بإسم « بخيت » فخراً وإعتزازاً بسودانيتها، وإنضمت إلى مجموعة الراهبات « أخوات كاتوسيان » وأصبحت معروفة بإسم « الأخت السوداء »، كما كان القديس النوبي « موسى » في القرن الرابع معروفاً بإسم « موسى الأسود »..

القديسة السودانية: إن هذه القديسة وكما ذكر عنها منصور خالد أتت بأعمال إنسانية أثارت الإعجاب حين أنبرت لحماية سكان ستيو خلال عمليات القصف، وهكذا الرهبان والراهبات والمبشرين يقدمون الحماية والرعاية لكل من يحتاج إليها، وهنا أذكر المطران « كمبوني » والذي نال لقب « أبو السودان » والذي أعطاه اللقب هو شعب السودان لأنه كان بطلاً للإيقاد الروحي والجسدي في درء آثار



الفيضان الجارف، والذي كان عام ١٨٧٩ م والذي نكب فيه كثيرون، ولكنه لم يقف مكتوف الأيدي، بل سافر إلى بلاده وجاء عائداً بالكثير من المساعدات الإنسانية لمنكوبى الفيضان، ولذلك لقب بأنه « أبو السودان » ..

ويُعد كمبوني أول أخصائى إجتماعى فى السودان ساعد أهل السودان على الإكتفاء الذاتى بالزراعة لتأمين حياة الناس، وهو ما يعرف الآن بالعون الذاتى، وقد بدأ بهذا فى الأبيض وجبال النوبة وبربر والقضارف، وبعض بلدان الجنوب، وقد إنتقل كمبوني إلى أمجاد السماء مريضاً بمرض الحمى، ومريضاً بحب الوطن السودان والسودانيون الذين أحبهام ومات فى وسطهم ودفن فى حديقة الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت فى موقع رئاسة مجلس الوزراء الآن، وكان هذا فى العاشر من الشهر لعام ١٨٨١م..

أما القديسة « بخيتة » فقد طوبها البابا فى عام ١٩٩٢م وجعلتها الكنيسة قديسة مع مصاف القديسات لتتضم مع نفر قليل من الكاثوليك السود الحبة السوداء، وقد إبتهج العالم كله بها، ما عدا السودان كما قال منصور خالد حيث تجاهل الإعلام الحكومى نبأ إختيارها قديسة، وكان هذا بعد خمسون عاماً من رقادها فى الرب وإصرارها على إسمها السودانى والذي يعنى « الطوباوية » وهو إسم مشتق من مكاريوس، ومكى، ومقارة، وماكرينا، ويعنى « صاحب « الحظ السعيد » وهى صاحبة حظ سعيد ليس معنا كلنا فى السودان إنما مع الدكتور منصور خالد صاحب الفكر الواسع والقلب الكبير والذي يعيش الآن سعيداً فى وطنه..

## ٢٣. الصادق بخيت الإعلام والإرهاب

عرفت الصادق بخيت منذ أمد بعيد، وعندما كان مستشاراً إعلامياً لرئيس الجمهورية، وكنت أحاوره كثيراً فى أن رئيسنا المفدى وفى المحافل العالمية داخلياً وخارجياً يفضل أن يتحدث من خطاب مكتوب حتى لا يأخذه الحماس وندخل فى متاهات وتوترات ورئيسنا يمتاز بالكلام على سجيته، وهذا أمر يحدث بطلاقة وبحرية فى اللقاءات الأسرية مثل إفطار رمضان الذى يقيمه أقباط السودان وما يحوى هذه اللقاءات الأسرية من دفء روحى يستلزم حديثه القيم الجميل..

وقرات للصادق بخيت ورأيت صادق المشاعر فى جبة صوفى فقيه، فكلامه

فقه له معناه، وفقه أدب جم وحب وافر لبلادنا العظيمة التى ما بخل عليها أبناؤها بالفكر أو بالقلم، وها هوذا يكتب كتابه القيم عن الإعلام والإرهاب ويحاور فى جدل التجاذب والإفتراق، وكتابته قليل الصفحات كثير النفحات، وهو يتساءل الإعلام أم الإرهاب ..؟

من يتقدم ومن يسعى منهما وراء الآخر؟ ويقول: إنه حاول توضيح هذا السؤال فى بحثه أكثر من محاولة الإجابة عليه، وهو يرى إن أغلب النظريات الإعلامية قد إستندت إلى جملة من الفرضيات الأساسية فى توصيف ماهية الإعلام من حيث الوظيفة والأهداف وتأثيراته البينية فى العلاقات المجتمعية ووضعه لأجندة حوار السياسة والإقتصاد والثقافة إلا إن هذه النظريات يبدو إنها أغفلت علاقة الإعلام بالإرهاب ولم تضع لها وصفاً أو قياسات موضوعية ..

وإذا كان هنا البعد قد غاب طويلاً عن المباشرة فى الإستخدام النظرى أو الإفتراضى فإن الأحداث والوقائع العالمية تكشف لنا توظيفه بشكل أو بآخر فى الإعلام العربى من خلال عشرات الإستخدامات المدروسة بعناية فائقة، التى ينبغى الإلتباه إليها وتحليلها ووضعها بين يدى العرب والمسلمين.. فقد ساهم الإعلام الغربى فى إضفاء الكثير من التشويه على صورة العربى المسلم وطبع كل أشكال مقاومته المشروعة لصنوف الظلم الواقع عليه بالإرهاب عبر إنتاجه الإعلامى مولداً بذلك موجة من العداء والكراهية من قبل المشاهد الغربى وليس واضح فى معارفه عنهما فى الوقت ذاته..

وأعتقد إن ما كتبه الصادق هو صدق صادق، وأعتقد أيضاً إننا ضحايا وسائل الإعلام، الإعلام الخارجى يقدمنا فى صورة لا تتوافق مع ثقافتنا وهدوء طباعنا ومحبتنا للسلام، والسبب هو إعلامنا الداخلى والتصريحات المتعددة والمتباينة والمتطرفة، وغير المسئولة حيث يقف شخص مسئول وهو غير مسئول ويتحدث: إننا أعدنا لأمريكا ما إستطعنا من عدة وعتاد، وإننا نطالب أمريكا أن تلم الدجاج وإلا، كما يقف آخر ليعلن الجهاد، وهو بهذا يفقد قضية الدفاع عن الوطن قوميتها، هذا عدا الشعارات المتعددة والحماس المتوتر لدين بعينه فى مجتمع متعدد الأديان أو لثقافة بعينها فى مجتمع متعدد الثقافات..

وإن كنت أحس الآن أكثر مما مضى بتباين التصريحات وعلى الأخص فى حكومة



الوحدة الوطنية التي لم تتبنى موقفاً موحداً في القضايا الوطنية، ورغم اختفاء الحديث السياسي الذي كان غير سياسياً ، فإن تضارب التصريحات ينهال أمطاراً أكثر من أمطار موسم الخريف عندنا..

الإعلام والإرهاب: كلما جلست مع الصادق بخيت كلما تمتعت بأرائه الحرة وثقافته العالية، وهو مثقف لا يتعالى على جلسيه ، إنما في هدوء وتؤدة يثبت رأيه الممتزج، ويحاول أن يشرح بأسلوب أبسط مما يكتب به ما هي رؤياه وتطلعاته ؟ وما هو معنى أبحاثه ؟ ، وعندما تتجول في كتابه « الإعلام والإرهاب » سوف ترى أنه كاتب ناجح وموفق ، يأخذك من موقع إلى موقع ويرصد الموضوع رصداً علمياً وأكاديمياً ..

ويتحدث عن أصل العلاقة بين الإرهاب والإعلام، ثم عن رؤية إختزال الآخر وهي أصعب القضايا ، عندما يختزل الآخر من الغرب، وعندما يختزل الغرب من الآخر، والعالم كله يشكو من إختزال الآخر، والمختزلون يتالمون ليس على مستوى دولة لدولة أخرى، وإنما على مستوى التعددية في المجتمع الواحد..

وقد حاولت أمريكا في بيان حقائق حول رأى الحكومة الأمريكية في الإرهاب أن تفك الإشتباك بين الإسلام والإرهاب ، حتى لا يتم تحديد الإرهابى على أساس العرق أو الجنس أو الدين، لأن معظم الأمريكيين والمسلمين يتشاطرون قيماً أساسية..

ولقد قدم بروفيسور الطيب زين العابدين لهذا الكتاب، والذي يرى أن البحث إضافة جيدة لقضية الإعلام والإرهاب التي تؤثر سلباً على صورة العرب والمسلمين، وتمثل تحدياً للسياسيين والإعلاميين في المنطقة لمواجهة بحكمة وذكاء وموضوعية، وأقترح أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية حتى يكون شهادة موضوعية لإعادة النظر فيما تتهم به بلادنا من إرهاب، على أن يستمر كل وطن في تحرير الفكر من انحراف العداء والعدوان على الآخر..

## ٢٤. محمد إسماعيل الأزهرى

بيت الأمة: إلى بيت الأمة دخل الحزن الشديد بالفقد المجيد، وليس بيت الأمة فحسب هو الذى بكى الفقيد ، وإنما كل بيت فى الأمة، فالفقيد هو الزعيم ابن الزعيم، الصوفى ابن الصوفى، النزيه ابن النزيه، يتحدثون اليوم عن الشفافية والتي هي نقاء القلب، والتي قال عنها السيد المسيح فى تطويباته : طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله، وهم يعاينون الله فى كل شيء حولهم، ويتقون الله فى وطنهم وأبناء وطنهم ، ويحاول أهل الدين اليوم أن يدخلوا إلى عالم السياسة لكى يحيا أهل السياسة فى شفافية نقاء القلب، ولكنهم ينكرون فى الصخر الوعر طريقاً للقيم الروحية النبيلة.. ويتحسرون على الماضى المجيد يوم أن كان السياسى نزيهاً، عف اللسان، حر البيان، نقى السريرة، طاهر السلوك..

ويظل أمام امتنا الزعيم إسماعيل نموذجاً يحتذى فى الشفافية ولقد سار ابنه على هدى مبادئه العظيمة، ولكن وبكل أسف رحل إسماعيل الأزهرى وهو سجين فى سجن كوبر، ورحل ابنه محمد أثر حادث حركة صعب وكان هناك قوى ضد إرادتنا تسجن الحق، وتدفعه ميتاً من سجن سجين.. ولكن ثقتنا فى مراحم الله، وإعترافاً منا بان الموت هو المكتوب وبأنه قد كتب على جميع الناس أن يموتوا مرة واحدة وبعد ذلك الدينونة..

هذا يجعلنا نتعزى ونقبل إرادة الله الذى لا يقدر أحد ان يرد قضاؤه، هو الرب وما يحسن فى عينيه يفعل، ولأننا نعلم قول السيد المسيح : الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض فهي تبقى وحدها، ولكن لإن ماتت تأتى بثمر كثير، وإذا كان الموت طريق الأرض كلها فإتنى متيقن إن موت محمد إسماعيل الأزهرى سوف يكون بركة لكثيرين وثماراً روحية لكل أحبائه وعهداً جديداً من العمل والأمل..

ونقطة إنطلاق نحو إنبثاق فجر سياسى جديد يمجد الحرية ويحيا الديمقراطية ويحقق الرخاء لوطن قد قصمت ظهره الحروب وما بعد الحروب، وحتى السلام صار قاصماً لظهر المواطن الذى يدفع كل إمتيازات الذين اتوا بعد السلام يعيشون المناصب والمخصصات والمكاسب، والأمل منعقد على أن يكون رحيل محمد إسماعيل الأزهرى هو بعث جديد لمفاهيم جديدة ، وسوف يحول خريف الخير فى



بلادنا الأشجار العارية والأوراق السياسية اليابسة إلى خضرة وحياة..

أتموت الأوطان؟: ولى مع محمد إسماعيل الأزهرى ذكريات يفوح عيبرها من رائحة وطنية محمد التى كانت وترأ يطو على كل الأوتار، كنت ألقاه فيمتلىء قلبى بالأمل وأرى فيه صورة أبيه ووطنية أبيه، وعندما كنت أتجاذب معه أطراف الحديث أذكره بأننى أملك توقيع أبيه فى وثيقة تدشين كنيسة الشهيد يوم ٦/٤/١٩٦٨م وكنت أقول له: لا أدري لماذا إختار الأقباط السادس من أبريل لهذا الحدث العظيم؟ ولماذا إختار الشعب السودانى السادس من أبريل للإنتفاضة الشعبية الرائعة؟ وهذا توافق إلهى، فالكنيسة بناء روحى يأخذ بيد الإنسان فى طريق الحرية وينقذه من ذل الإستعمار للشيطان..

وقد تحدثت مع محمد عن الصورة القديمة الوقور للزعيم إسماعيل الأزهرى وهو يقف فى وقار على منبر كنيسة الشهيدين والذى رسم عليه صليب المسيح إعتزازاً بآلامه التى كانت عبوراً إلى القيامة المجيدة، وكان قد ألقى كلمة فى الإحتفال وكنت أؤكد لصديقى محمد إنه كان حاضراً للإحتفال، فلقد كان محمد فى طفولته جزءاً من بروتوكول رئيس مجلس السيادة..

وكان محمد إسماعيل يتابع الأعمدة التى أكتبها وكنت ألتقى به فى بيته مع أسرته العظيمة الوالدة والخوات والأسباء ويفيض الشعر رقراقاً على فم البروفسور عبد الرحيم كرار زوج جلاء ابنة الزعيم التى ولدت فى يوم جلاء آخر جندي إنجليزى عن السودان، وقد كان محمد يعبر عن إعجابه بمقالاتى، وذات مرة كان سعيداً جداً بمقال عن الثالوث فى رقم ثلاثة عند المسيحيين والمسلمين..

وفى أحزاني لفقد محمد أقول ما قاله الشاعر الأديب النسيب الفاتح حمدتو: عفواً أتموت الأوطان؟.. فالفقد عزيز يا وطنى.. والخطب يهز الوجدان.. من قال محمد قد مات؟.. أيموت الفكر المزدان؟.. أيموت نضال الفرسان؟.. مهلاً أيموت الفنان؟.. فمحمد روح تجمعا.. قد عاش بحب السودان، ومحمد صار لنا وطناً، عفواً أتموت الأوطان؟..

التحية لذكرى الزعيم ابن الزعيم، أما نحن فسوف نبقى مثل نجم السعد نحيا بالدواخل ريثما تصفو السماء..

## ٢٥. ندوة أم درمان

مركز عمر بشير: أقام مركز عمر بشير للدراسات السودانية ندوة عنوانها « أم درمان » وقامت أمل عمر وهدى مبارك بتحرير هذه الندوة فى كتاب عنوانه « أم درمان مجموعة أوراق للتوثيق » مداولات الندوة الأولى لتوثيق وكتابة تاريخ أم درمان ٢٩-٣١ يناير ١٩٩٤ م، والكتاب يقترب إلى مائة وثلاثون صفحة، ويحكى إن عمر بشير كان يحب أم درمان حباً جماً كان يعشقها عشق أهل الصوفية لعالم الروح..

كانت أفريقيا عشقه والسودان هاجسه قال عنه دكتور إبراهيم دقش: إنه عندما شهد فيلماً وثائقياً عن إحتفال العاصمة الأثيوبية بعيدها المئوى، يحلم بمثل ذلك الإحتفال لأم درمان ويقارن لك ما فى تراب أم درمان ونبضها بمدن أخرى فى أفريقيا.. ولقد بدأ مركز محمد عمر بشير بداية صحيحة كما يرى دقش بأم درمان، وأم درمان ليست مجرد بيت الخليفة وقبة المهدي والطابية والمسالمة وغزال المسالمة الشارد، بل هى ما وراء كل ذلك وما بينه وأم درمان لها عشاق كثيرون يتغنون بها ويبتهجون ويسعدون ويتحاورون ويكتبون الشعر الرقيق لهذه المدينة الوطنية..

ولقد رأيت إن ندوة « أم درمان » تتحدث فقط عن أمجاد أم درمان وكأنه لا يوجد فى السودان غير أم درمان، وربما ما دفع بروفسور عون الشريف أن يكتب عن أمجاد الخرطوم بحرى وحلفاية الملوك وهو عينه كان وراء كتابة بروفسور سعد محمد أحمد سليمان كتابه « الخرطوم عبر العقود النشأة والتطور ١٨٢١م-١٩٧٠م ».. وهو مهندس وأستاذ لهندسة عمليات ونظم التصنيع بجامعة البحرين، ورغم إن الهندسة هى تخصصه الأكاديمى ولكنه من فرط حبه للخرطوم ورداً مهذباً على عاشقى أم درمان كتب كتابه الأدبى الجميل عن الخرطوم..

وفى إعتقادي إنه لا مانع أن يتنافس المتنافسون فى حب مدنهم الجميلة التى تزين وطنهم الأصيل، أما عن أم درمان فلقد رأت الجامعة الأهلية أن تكرم بروفسور عمر بشير بأن يكون التوفيق لأم درمان هو فاتحة أمان لندوة « أم درمان » وكانت خطة مشروع الندوة أن تكون مواضيع البحث « أم درمان والمهدية ».. « أم درمان والحركة الوطنية ».. « نساء أم درمان »، « ظرفاء أم درمان »..



واعتقد إن الظرف ليس قاصراً على الرجال، وأم درمان وتنمية المصنوعات الشعبية وأم درمان ودورها في ترقية الأطعمة الشعبية، وتجار أم درمان وأهل الصحافة وأرباب الطرق الصوفية ومنتديات أم درمان والتي يظهر فيها نجم جورج مشرقى والذي كان دكانه صالون أدبى يلتقى فيه كبار العلماء والأدباء والشعراء، وكان هو فى وقار يراقب تحركاتهم ويقدم لهم التسهيلات، وعندما أعجب مثلاً بالبروفسور على شمو عندما كان فى بداية عمله الإذاعى وعرف إنه المذيع صاحب الصوت القوى ورآه ضعيف البنية كافاه بطعام ومشروب مجاناً ، وأم درمان لديها الكثير من الإمكانيات التى تساند العديد من الموضوعات السياسية والأدبية والدينية والخيرية..

ندوة أم درمان: ولقد انعقدت الندوة وقدمت فيها الكثير من الأبحاث عن أم درمان لأن أم درمان كانت العاصمة الوطنية ويفد إليها من الأقاليم من يرغبون فى العلم والتجارة، وأذكر هنا : إن التجار الأقباط عندما يبدأون عملهم فى الأقاليم ويرسمون خطى كتبت عليهم ، ومن كتبت عليه خطى مشاها وعندما تنجح تجارتهم ويكبر أولادهم يأتون إلى العاصمة ويفضلون أم درمان أكثر من أى مدينة أخرى، ويشتررون بيتاً بجوار الكنيسة فى المسالمة ليطمئنوا على الأسرة..

ويحشرون أنفسهم حشراً فى سوق أم درمان والذي يسمى « سوق النقادية » لأنهم رواد تجارة الأقمشة، ولما ضيقت عليهم الدولة الخناق، ليس دولة السودان فقط إنما دولة الصين الشعبية بالملابس الجاهزة إتجهوا إلى تجارة الأدوات المنزلية وتجارة الخردوات ولكن تبقى أم درمان حتى الآن حلم تجار كل ولايات الخرطوم حتى يتحقق الحلم وتصبح حياتهم فى الأقاليم ذكريات جميلة يردد الدهر صداها وأثراً طيباً فى أخلاقهم وكرمهم وحبهم للآخر وعشقهم لإضافة الغرباء وحياتهم مع أهلهم وكأنهم أسرة واحدة، وينعكس هذا إيجاباً على الكتابات الأدبية والصحفية والتى فيها يعتز المسلمون بصداقاتهم مع أقباط السودان ، تلك الصداقة التى تجعل المسلم يؤمن القبطى على بيته وأسرته عندما يتغيب والقبطى جدير بهذا وحفى بأن يحترم المسلم جاراً له مكانته فى قلبه ، فلقد طلب السيد المسيح أن نحب الجار وقالت الوصية : أن تحب قريبك كنفسك..

إن أم درمان جديرة بأن يكون لها أكثر من ندوة، وأكثر من توثيق وجديرة بأن تحظى باهتمام طلبة الدراسات العليا فى الجامعات إن أم درمان حظيت بالكثير من الاهتمام فالإذاعة عندما انشنت أثناء حكم الإنجليز إختاروا أم درمان وحتى إذاعة الخرطوم تبث الآن من أم درمان.. وأيضاً عندما بدأ تلفزيون السودان بدأ فى وزارة الإعلام أيام طلعت فريد فى أم درمان، وحتى عندما فكرت ولاية الخرطوم فى تلفزيون ولاية الخرطوم جعلت مكانه أم درمان.. ويقول محبى أم درمان : إن ثورة ١٩٢٤م أبطالها من أم درمان وهكذا إشتعلت الحركة السياسية والمسرحية والصحفية من أم درمان..

## ٢٦. مفاهيم يجب تصحيحها

دكتورة نعمات فؤاد: هذا المقال فى هذه المرة للدكتورة نعمات أحمد فؤاد وهى مصرية صميمية ومتميزة وتعرف جيداً كيف تتكلم عن مصر، هى أديبة تعرف كيف تختار الكلمات، وهى صورة للوحدة الوطنية ، فهى تخلص لمصر وطنها قبل كل شىء وترى إن حضارة مصر سبقت كل الحضارات، وهى صاحبة الكتاب الموسوعة « شخصية مصر » والذي طبعته الهيئة المصرية للكتاب فى ١٩٧٨م.. ومنذ صدق هذا الكتاب كتبت عدة مقالات فى الجرائد المصرية ومن بينها المقال الذى سأنقله إلى القارئ السودانى ليرى كيف يعتز المواطن بوطنه وكيف يرى مواطن الجمل فيه، ومعروف عن المصرى إنه يقبل منك أى كلام عن نفسه ، عن أهله، ولكنه يرفض أن تتكلم ببنت شفة ضد مصر لأن مصر هى حبه الأول وحبه المستمر وحبه الأخير ..

وفى أول الكلام لكتابتها قالت عن مصر: شخصية قاهرة، وروح أسرة، وعطاء لا يرضى، ووفاء لا يمن، ورجاء لا يخيب، تمضى الدول، ويذهب أصحابها، وتظل مصر الباقية، شخصيتها هى، هى.. لا تتبدل ، ولا تتبدد، ولا تتحول، إننى أشعر بقوة كلمات الدكتورة نعمات، ولهذا رأيت أن أقدم لقارئى موضوعها هذا الذى نشر فى جريدة الأهرام ١٨ أغسطس ٢٠٠١م..

تصحيح المفاهيم: قالت الدكتورة نعمات: أبدأ بكلمة هى أقرب الكلمات إلينا وهى أبعداها عن المفهوم الصحيح، كلمة قبط.. دائرة المعارف البريطانية الجزء السادس



تقول: إن كلمة قبط معناها « أهل مصر » المصريون منذ القدم، أى قبل أن تسمى الأديان، وفى المعجم المصرى الموسوعى للمصطلحات الثقافية للدكتور ثروت عكاشة الذى شرفت به يوماً وزارة الثقافة إنساناً وقيمة ومحتداً يقول: ترجع كلمة قبط فى الأصل إلى الاسم القديم لمدينة منف وهو « حت كبتاح » ومعناه معبد قرائن الإله بتاح.. وكان اسم العاصمة منف يطلق مجازاً على مصر كلها، أى أن كلمة قبط اسم جنس لا اسم دين..

وتقول الموسوعة الميسرة ص ١٣٦٩ إن كلمة قبط معناها عند اليونانيين « سكان مصر »، أضيف إن اليونانيين وجدوا كلمة جبت المنحدرة عن قبط وأضافوا إليها « OS » أداة التعريف عندهم فكانوا يقولون: جبتوسن، وهكذا تلتقى المصادر كلها على أن كلمة قبط تعنى المصريين وأوقن إن المصريين تمسكوا بها إعترافاً وإستعلاء على الرومان لعنجهيتهم، ثم جاءت المسيحية وإعتنقها المصريون بحاستهم الدينية وإيماناً بها ونكاية فى الرومان الذين عارضوا المسيحية وآذوا فيما قبل إعتناق الملك قسطنطين المسيحية..

وتداخلت الصفات المصرية والمسيحية فظل المسيحيون من المصريين يسمون أنفسهم القبط أى المصريين إعترافاً.. وحين جاء الإسلام بعد هذا أى فى القرن السابع الميلادى ودخل المصريون فيه أفواجاً سائر « التسمية » فى بساطة حتى أثر عن النبی الكريم بقوله: سيفتح الله عليكم مصر فاستوصوا بأهلها من القبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً..

جاءت المسيحية من بيت لحم بفلسطين وجاء الإسلام من الجزيرة العربية ولما كانت مصر بعراقها ونقائها ومسيرة تاريخها متدينة منذ آلاف السنين فقد إستقبلت المسيحية فى توقيتها التاريخى ودافعت عنها كما لم يفعل أحد.. ثم إستقبلت الإسلام فى توقيته التاريخى ووقفت وراءه فى السلم والحرب، كما لم يفعل أحد..

فعلنا هذا باعتبارنا أقباطاً أى مصريين وفقاً لمداول اللفظ لغوياً.. فالمسلمون أقباط إستبقوا الإسلام أى مصريين أسلموا، والمسيحيون أقباط دانوا بالمسيحية، أى مصريون مسيحيون.. الإنسان المصرى المعروف فقط من عمره على هذه الأرض مائتا ألف سنة، وفقاً لما وجد من أدواته فى الصحراء المصرية كما يقول الدكتور جمال حمدان فى موسوعة « شخصية مصر » وعمر هذه الأدوات مائة وثمانون ألف سنة..

الأديان جاءت بعد الإنسان..

ونحن مصريون قبل الأديان..

ومصريون بعد الأديان..

ومصريون لآخر الزمان..

فلا مكان لإدعاء أحد « المصرية » قبل الآخر، أو أعرق من الآخر، أو دون الآخر، فقد إرتبطت مصر بالدينين فى التوقيت التاريخى لهما.. إن التعاطف مع الإنسان والحيوان رمزاً للطيبة والودادة التى تصادق كل شىء، رمز إيمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة وأصحاب النظريات، التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى الفن..

وفى الفن المصرى تعانق الإسلام والمسيحية لأنهما معاً ينبعان من الفن المصرى القديم، وفى مكتبة جوتا فى مدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن الكريم بها زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطى، ويقول الأستاذ شفيق غبريال: إن طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملاً من العوامل المؤثرة فى فنون مصر وصناعاتها، وهكذا تعنى كلمة قبطى كل مصرى، وتظل مصر القبطية رصيذاً لا يفنى من التراث والخلود، ومكانة الإنسان والرفق بالحيوان..

## ٢٧. رائحة الخريف

مجموعة قصص: أهدتنى الأستاذة الأدبية بثينة خضر مكى كتابها الأخير « رائحة الخريف » وفى أسلوب أدبى بليغ كتبت فى الإهداء « إلى أبونا فيلوثاوس فرج، هذه هى رائحة الخريف، رائحة الأرض الطيبة، أرض السودان أهديتها إلى ابن السودان البار محبة وإحتراماً وتقديراً، والكلمات رقيقة رقة النسيم، ومعبرة مثل تعبيرات صادقة تدخل إلى المخاخ وتميز الأفكار، والحقيقة إنها شعرت بمحبتى الشديدة لوطنى السودان الذى أرفض أن أختار غيره مهما كانت الإغراءات..

وفى أول أيام خدمتى كاهناً لكنيسة الشهيد تحركت نحو العالم الخارجى وذهبت إلى بلاد عربية وبلاد أوربية، وكان يعرض على هناك أن أعيش وأخدم معهم ولكنى لم أفرط أبداً فى السودان لأننى اعتبره كنزى وبركتى ووجدى وفرحى وألمى، ولا



أرتضى به بديلاً، فالسودان يعيش فى قلبى نبضاً وحباً وعندما أذهب لزيارة بلاد المهجر وألتقى هناك بأحبائى أقباط السودان أشعر بمحبتهم الشديدة للسودان ولكل ما فى السودان حتى الهبوب وإنقطاع التيار الكهربائى وندرة السلع..

ويتهامس كثيرون بأننى أتصل بالسلطات فى بلاد المهجر لأنظم رجوع الأقباط إلى السودان وهذا لم يحدث طبعاً ولن يحدث، ولكن هو أمل فى قلبى أن يرجع أقباط السودان إلى السودان لأنهم حتى فى بلادهم الأصلية مصر العظيمة يطلق عليهم أقباط السودان لأن السودان هو أمهم وحبهم وعشقهم..

رائحة الخريف: وكتاب «رائحة الخريف» للأديبة الليبية هو تعبير عن حب الوطن فى عدة قصص من بينها قصة «رائحة الخريف»، فهى كما قال الروائى فتحى أمباتى تقدم القص العربى الذى يحمل فى أجد ملامحه الهم القاسى فى الواقع المنهار الذى ما إنفك يبحث عن السلام حتى ينفرط فى الإقتتال الداخلى وعلى كاهل المرأة العربية الكاتبة تجتمع تلال من الهموم بدءاً من التعرف على الذات وفتح مغاليق الهوية الثقافية والاجتماعية وحتى جداول الدم الجارية فى أرجاء الوطن..

وقد عبرت الكاتبة عن السودان الممزق الذى يحاول جمع شتاته على فم أبطالها فى قصة «حجوة» وتقول باللغة العامية على فم عثمانة وعزة: عثمانة تبكى.. وعزة بتحاول تقيف وصوتها يمرق من بعيد.. صوتاً ضعيف، زى هلاهيل توبها، زى بلدأ موحدأ قسموها تحت تحت.. زى شعباً تفتت لكويمات وأصبح صرر.. كل ما يلموه فى ربطة سلام ينبهل.. صرة حراية من الجنوب، وصرة حراية من الغرب.. وصرة حراية من الشرق، وصرة زيادة جاية من الخزان شمال..

وعزة يا خسارة، صوتها أصبح ضعيف من المجاعات والحروب والمرض، صوتها صوتاً ضعيف ومهلل زى توبها، لكنها تتجبر وتتحزم ويمرق صوتها زى مطر الخريف وكيفن يهادن.. النوم حليلو.. سافر خلاص، حتى الحلم بقى لى صعب.. حلم السلام، حلم الأمان بقى لى صعب.. ووبين على يابلداً ممزق بالحروب والهوايل والمحن.. ووب السجم، ووب ووب يابلدا..

وتاريخ كتابة هذه القصة هو مارس ٢٠٠٦ م، ومن داخل الخرطوم وهو تعبير عن أحلامنا الضائعة، وآمالنا المفقودة، ولكن إعتادنا على الله الذى به سوف يعظم إنتصارنا، ولقد تحقق بعض السلام ولكن التوب مهلهل، بل يريدون منا أن

نكره السلام لأن للسلام تكاليف كثيرة ووزارات وبدلات ومصاريف بذخية كانت هى السبب فى زيادة سعر السكر وسعر المحروقات، وما كنا نأمل أن يقول المسئولون: إن هذا هو ثمن السلام، وما زلنا نقول: لا تجعلوا حتى أحلامنا تصبح صعبة وأثواب آمالنا مهلهلة..

وقد إختارت الأديبة بثينة قصيدة للشاعر محمد عبد الحى تفتح بها مجموعة قصصها من ديوان «الله فى زمن العنف» وتحت عنوان «الملاك الأبجدى» وتقول الأبيات:

سورة الليل فوق لوحك أفق..

من كلام إنطوى فى المداد..

فرعته كتابة تتلوى..

كلمة أثر كلمة فى عناد..

يفتح الليل فى الدواة شغوفاً..

بطيرير من زهرة الأباد..

وملاك مستوحش أبجدى..

بين ضوء السراج والحلم غاد..

أما قصة «رائحة الخريف» للأديبة بثينة خضر مكى وفيها تقول الأديبة إنه فى الخرطوم غبار يملأ الأفق، لون السماء ترابى وغائم، أكياس من البلاستيك تحلق عالياً فوق مستوى الرؤية، ويأتى الخريف بعد صيف قانظ، وحرارة شديدة وجفاف فى الجو، وتكون الشمس قرصاً دائرياً شديداً الصفرة بينما يعانى سكان المدينة من إنقطاع الماء والكهرباء لفترات تمتد من ساعات معذبة، نذر الخريف تأتى دون أية مقدمات، فجأة يثور الغبار الناعم ويملأ الأفق، وتحاول بثينة أن تتصالح مع عناصر الطبيعة مهما كانت قوتها..

ويبدأ الخريف هبوباً وتراباً وينكسر غصن كبير من أغصان شجرة المانجو التى تحبها، وتحاول هى أن تعود إلى حجرتها، ولكن نقطة مطر تنزل، بعدها نقطة أخرى باردة كان سماء الخرطوم تصالحها وقطرات المطر تقبل وجهها وتطلب منها السماح



عن جريمة الرياح الهوجاء..مطر، مطر، تتساقط قطراته، دافئة قوية، تغمر الروح بمتعة لا حدود لها، للمطر في سماء السودان نداء غامض يهز أقطار الروح..

صوت الرعد يدوى قوياً ، يتمشى الهوينا بين السحب الكثيفة الملبدة بالسماء والخصوبة، يتدرج عنيماً في صوت هادر ويسيل فوق كتل الأرض البكر وسرعان ما تتفكك بثينة خضر مكي في رائحة الخريف إلى ما يحدث في الساحة السياسية للوطن العظيم حيث تقف اللغة الوضيئة عبر طرق يدلهم فيها المعنى ويفيض أفافاً سامقة في مسارات الظما..

مطر النقع عادت.. والسام يفتك بها في أروقة النقاش المحجوج لينتهي من حيث بدأ في دائرة غبية فارغة، واجتماعات جدل وهمية بين حكومة ومعارضة كلاهما تحصد حرثاً في أرض جدباء هشة غير حقيقية.. وتناجى الأمن والسلام وتقول « يا أيها الأمن الذي استعصى علينا، أيها السلم المجنح بخيار الانفصال، إمتلأت الأرض بالسقيا وبنبت شعيب تشتد حيرتها ولا تزال تبحث عن القوى الأمين..

وأخيراً دخلت الكاتبة إلى حجرتها بعد قصتها مع الخريف، ونحن نأمل أن يكون الخريف هو خريف الفرح ، وأن تكون رائحة الخريف هي السلام لوطن لم يزل يبحث عن السلام، ليس فقط في عودة الجنوب والشرق، إنما في عودة الرخاء والأمان لوطن الرخاء والأمان..

وشكراً للأستاذة الأدبية على قصصها الأدبية الأستاذة..

## ٢٨. بابكر بدرى

تادرس تادرس: إنقبت في سيدنى بواحد من أقباط السودان ، وكان هذا اللقاء شرف لى لأن هذا القبطى العريق تادرس تادرس بحر زاهر بعلم تاريخ السودان، فهو يعرف أغلب الأحداث التاريخية ولديه أهم المراجع عن السودان وهو يمت بصلة قرابة إلى عائلة إبراهيم بك خليل، وأيضاً بصلة نسب فزوجته هى من هذه العائلة المجيدة الراقية والتي ترجع فى الأصل إلى المعلم إبراهيم الجوهري، والذي كان رئيس وزراء مصر، وكان قبطياً فاهماً، وله مكاتنه فى الدولة وبين أقباط مصر..

وعند لقائى مع تادرس تادرس إمتد بنا الحوار حول تاريخ أقباط السودان.. وله هو فى هذا عدة كتابات على صفحات جرائد تصدر فى سيدنى باللغة العربية، وتعرض تادرس إلى عميد العائلة إبراهيم بك خليل وكيف مات مقهوراً من الإستعمار عندما صمم كتشنر الإستيلاء على موقع على النيل وأقام حديقة الحيوان عليه، ولهذا الشعور بالقهر دفن إبراهيم بك ومعه زوجته بعده فى حديقة الحيوان بحسب وصيته، وبعد دفنه بمدة ما نقل جثمانه وزوجته إلى مقابر الأقباط والتي كانت تقع مكان داخلية كلية الطب..

وعند الحديث عن إبراهيم بك خليل ذكر لى: إن بابكر بدرى فى مذكراته الخاصة تحدث عن إبراهيم وعن علاقته بالحاكم الإنجليزى، وكيف كان كتشنر يناديه بالعم إبراهيم إحتراماً له ولمكانته الرفيعة، ومنذ هذا الوقت فكرت أن أحصل على مذكرات بابكر بدرى، وفى إعتقادي إن من يكتب عن تاريخ السودان لا يكون منصفاً إذا لم يتحدث عن بابكر بدرى ويوسف بدرى وما قدماه من خدمة للمرأة السودانية..

فلقد أخرجوا المرأة من دياجير ظلمة الجهل وعبروا بها إلى نور العلم حتى صارت كلية الأحفاد جامعة لها مكانتها فى قلب السودان وصارت خريجة الأحفاد تمثل المرأة السودانية المثقفة صاحبة الفهم الواسع والمعرفة بشئون الحياة، والتي تقدر أن تكون معيماً نظير الرجل مثلما قال الكتاب المقدس فى الهدف من خلقة حواء: إذ لما رآه وحيداً ألقى عليه سباتاً فرقد وأخذ من جنب آدم ضلعاً وخلق من هذا الضلع امرأة وسماها حواء، وحواء هنا معيماً نظير الرجل أى مساوية له فى الحقوق والواجبات، ولم يخلقها إلا من أضلاع آدم ، فهى ليست من فوق لكى لا تغلو عليه ، وليست من تحت لكى لا يعلو هو عليها..

وإننى لا أنسى البروفسور يوسف بدرى ونشأت بيننا علاقة حب وإحترام، وكان يزورنى دوماً فى الأعياد وفى وقت وجيز ملائى بشعور عميق وأشعرنى إننى واحد من أفراد أسرته ودعائى إلى لقاءات أسرته الخاصة جداً، ودعائى أيضاً إلى أن أقدم محاضرات فى التربية المسيحية لبنات الأحفاد وقمت بهذا لعدة سفرات ثم إنقطعت ولا أدري لماذا، فعاد بروفسور يوسف يطلب منى أن أعطي محاضرات عن المسيحية كما يراها المسيحيون، وذلك توسيعاً لمدارك بناته وإزدياداً لرصيدهن ، وإفتاحاً على الآخر، وفعلت قمت بهذا وكانت محاضرتى تتمتع بتجاوب كبير ولكن



صوت تعصب بغيض من البعض القليل جداً عصف بهذه التجربة..

والآن اعتر جداً بعلاقتي بالبروفسور قاسم بدرى والذي هو خير خلف لخير سلف، والذي يقود ركب الأحفاد والذي تنامى وتزايد أفقياً ورأسياً وهو يقول: إن الأحفاد هي خلوته وإنه هو الفقيه فيها، وهو أستاذ مهذب هادئ قليل الكلام كثير العمل، يسعدني في أعيادى بزيارة ومعايدة أتشرف بها..

بابكر بدرى: وفي كتاب بابكر بدرى «تاريخ حياتي» يدون بابكر بدرى بقلمه الساحر الواقعي وفي أسلوب سهل ممتنع قصة حياته وكفاحه لأجل العلم، ولأجل رقى المرأة السودانية، وفي ثلاث أجزاء يأتي الكتاب صفحات تقترب إلى السبعمائة صفحة، ويسجل على الغلاف: إن التاريخ يكتب الحوادث منه العادية للفكاهة وغير العادية من الحقائق للإقتداء بها حسناً وقيحاً.. وفي صفحة كاملة هي الصفحة الأولى يكتب أصدق التاريخ ما كتب في زمانه وصدق فيه كاتبه وصدقه معاصروه فيما روى..

ويهدى يوسف بدرى مذكرات أبيه إلى الإمام عبد الرحمن مهدي وإلى أبيه الشيخ بابكر بدرى في ١٩٥٩/٩/٥م، ويهدى الجزء الثاني إلى أولئك النفر من الآباء والأخوان الذين بنوا السودان اليوم في فترة الخمسين عاماً الأولى من هذا القرن، من لحق منهم بالرفيق الأعلى، ومن لا يزال منهم يسائر تقدم البلاد وتطورها.. ويهدى السفر الجليل الذي كتبه أحدهم إعترافاً بفضلهم في الجهاد وإقتداء بأعمالهم في التضحية والصبر لتكون للأجيال قيساً يستضاء به في حوالك الدجنة وحافزاً للسير قدماً على نهجهم، والمحافظة على ما أسسوا وشادوا.. أما الجزء الثالث فقد أهدى إلى مجلس أمناء مدرسة الأحفاد إعترافاً بفضل السابقين، ومهدى من مجلس أمناء ومعلمي وتلاميذ الأحفاد في ١٩٦١/١/١م..

أما يوسف بدرى فكان يطلب خمسة جنيهاً للثلاثة أجزاء هي ليست قيمة الكتاب فحسب، إنما فيها أيضاً تبرع لبناء مدرسة الأحفاد، ويقول: ولا شك إن ذكرى مؤلفه وما يحويه الكتاب من إمتاع ومعلومات والغرض النبيل من بيعه وأريحيتك المعهودة كل هذه ستجعلك تجود لنا بالخمس جنيهاً والله يجزيك أجراً وخيراً..

ولقد رحل يوسف بدرى عام ١٩٩٥م.. وكان الجنيه السوداني لم يزل في مكانته، ولكن ماذا كان سيقول عنه إذا إمتد به العمر؟ لقد دفن الجنيه السوداني مع هؤلاء العظماء. ونعود إلى بابكر بدرى وإلى ما كتبه عن نفسه لنؤكد إنه من عظماء السودان أصحاب الأهداف العظيمة..

## ٢٩. ملك كوش والشمس

شمس البر: عند أهل الشرق إحترام كبير للشمس لأنها تشرق من الشرق، ولأن شروقها يعنى الأمل والحياة الجديدة، ولهذا تبني الكنائس الشرقية متجهة نحو الشرق وفق إعتقاد بأن الجنة التي طرد منها آدم كانت شرقاً.. وإن المجيء الثاني للسيد المسيح سوف يكون من المشارق لهذا يدفن الميت ووجهه نحو الشرق وهذا وجد ليس في ممالك النوبة شمال فقط، إنما أيضاً في جبال النوبة غرب السودان.. وفي الكتاب المقدس حديث عن الشمس المُنجحة أي ذات الأجنحة، وقد رسم فنان وادى النيل الشمس بأجنحة باعتبارها كوكب سماوى مثل الملائكة يطير في السماء، ويقول ملاخي آخر أنبياء العهد القديم: ولكم أيها المتقون إسمى تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها.. ويرى المسيحيون إن يسوع هو شمس البر الذي أشرق من السماء وفتح قلوب بنى البشر على السماء لكي يكون البشر سمائيون يتطلعون إلى عالم الروح ويتألقون ألق الروح وينشدون السماء لأنهم خلقوا للسماء، ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد بين الكائنات الحية الذي يتطلع إلى السماء..

وكان إعتقاد أهل النوبة بأن الملك هو ابن الشمس وبالتالي فهو إله شمس على الأرض، وعلى هذا كان يتم وصف النشاطات اليومية للملك حسب المصطلحات الشمسية، فعندما يستيقظ في الصباح فإن إستيقاظه يمثل الفجر، وعندما يخرج من القصر فإن هذا يعنى إنه يسطع في الأفق، وعلى قوارير العطر كان يتم وضع عبارات مثل «عرق رع»..

أما المرايا المستديرة فكانت ترمز إلى الشمس وكانت مصممة بحيث ينظر الملك إلى نفسه فيها وتنعكس ملامحه في المرأة فيرى نفسه بصورة والده، وكان الملك لديه في وقته ما يسمى «العزلة الإلهية» وفيها يمكث في القصر ويعتزل الناس ويتعبد للإله، ولاشك إن هذا كان يجعله هادئ الطبع وقور القرار لأن الإختلاء بالله يحقق الإمتلاء الروحي..

نشاطات الملك: وكان ملوك كوش لهم نشاطات معينة مثل الصيد أو الرمي بالقوس أو الذهاب لزيارة المعابد والإحتفال بالطقوس المعتادة التي تقام تحت رئاسته وأيضاً السفر إلى الأقاليم لحضور إحتفالات تقام كل ستة أشهر في مدن أخرى ضمن



المملكة ولكن تقاليد ملوكنا الأولين تقول: إن العزلة الإلهية هي أهم تقليد ملكي، ففيها يستمد السلام والسكينة..

وكان الملوك يقودون جيوشهم بأنفسهم لأنهم قبل العرش كانوا يشكلون جزءاً من المؤسسة العسكرية وكان الملك لديه العديد من القصور في طول البلاد وعرضها، ولكنه يقيم بشكل أساسي في مروي، ويُعد قصر نبتة هو أهم قصر مكتشف حتى الآن.. وكان الملك ينتقل هو وعائلته وحاشيته، وفي القصر يتم تنصيبه ويبدأ حكمه وإليه يأتي باستمرار لممارسة شئون الحكم وطقوس الاحتفالات واستشارة معبد الإله..

وكان القصر ضخماً بأبعاد ٤٠×٧٠ أي ما يعادل ٢٨٠٠ متراً.. وهذه الأبعاد مضاعفة الرقم ٧ عشر مرات وهكذا مضاعفة الرقم عشرة أربع مرات، ورقم عشرة رمز للكمال، ورقم سبعة رمز لأيام الأسبوع الكاملة، ورقم أربعة رمز لجهات الأرض الأربع.. وهذا يعني كمال القصر كما يعني إن الملك يسير في طريق الكمال..

وكان القصر من طابقين ويحوى ستون غرفة والجدران مغطاة بالجبص الأبيض وملونة برسوم وأشكال بثلاث ألوان: الأحمر والأصفر والأزرق، وهناك في القصر صالونات كبيرة فيها تتم الاجتماعات واللقاءات وعندما يستقبل الملك في قصره يستقبله الضباط والعيان والكهنة، وفي أحد الصالات كان مكان للتطهير الشخصي عندما يذهب الملك لزيارة المعبد وأعتقد إن التطهير كان بالماء مثلما يحدث حتى الآن في معابد اليهود وفي الجوامع المقدسة..

وكان في قصر البركل صالون مساحته ٨١ متراً مربعاً وفيه أربعة أعمدة فقط وهذا يعني هندسة بالغة الدقة، وبالصالية تجاويف حجرية مثل حوض الآب الآن في الكنيسة والمحراب في الجامع.. وبهذه الصالة قبة متجهة نحو الشرق لأن ملك كوش هو ابن الشمس التي تشرق من الشرق، وكان في القصر صالات مكشوفة تتعرض لأشعة الشمس المقدسة التي تطهر القصر وكل من فيه..

### ٣٠. زارنا طفل وديع

ترنيمة الميلاد: هناك عدة ترانيم وأناشيد تسجل ذكرى ميلاد السيد المسيح ومن بين هذه الأناشيد زارنا طفل وديع قدره رفيع كل ذا الصنيع من أجلنا، وهو نشيد يتحدث عن الطفل الملك الذي يستوى عنده أن يكون مستوياً على عرش أو مضجعا في مزود.. في مجد العرش يكسبه مثقال حبة من الجلال، ولا هوان المزود يسلبه مثقال ذرة من الجمال، إنه وليد بيت لحم الذي زارنا طفلاً والذي نور جبينه الوضاح يسطع وهو متوج بالمجد والفخار مثلما يلمع، وهو مكلل بالشوك والغار، فعرشه صليب مرتفع وصليبه عرش متضع.. وهو ملك في كل حال، فلن يكبر جرم القمر وهو بدر، ولن يصغر جوهره وهو هلال..

وكان العالم كله قبل مجيئه في انتظار بدر البدر، في انتظار شمس النور وكان الإشراق يوم مولده إشراقاً سمائياً ملائكياً، لقد ولد ملكاً لكن الأرض لم تستقبله استقبال الملوك الفاتحين الذين شقوا كبدها ليسعدوا هم بشقائها مع إنه جاء هو ليسعدنا فاضحى في سبيل إسعادها شقياً، فأعرض عنه يوم مجيئه فانتبذت به أمه مكاناً قصياً وقبلها انتبذت مكاناً شرقياً، فيه تتعبد لله عبادة حقيقية، ولذلك صارت مؤهلة أن يصطفوها الله وتكون هي المصطفية.. وأن يختارها الله لتكون مسكناً للكلمة وتكون هي المختارة..

ومن أجل هذا الإستقبال الفاتر من أرض الشر والمعاثر لا يدرى أحد في أي يوم زارنا هذا الطفل الوديع، أفي السبت أم أحد؟ ولهذا يأتي عيد الميلاد في أي يوم من الأيام بينما القيامة تكون بالتحديد في أحد الأحاد بعد عيد الفصح اليهودي، لأنه كان رمزاً للحمل الوديع الذي حمل آثامنا ولا ينبغي للرمز أن يسبق المرموز إليه، وكان هذا الطفل وبهذا رغب أن ينتفخ بمجد ميلاده كل يوم فيرتفع على سائر الأيام متفاخراً بأنه هو ذلك اليوم الغر..

ولكى يفخر بشرف ميلاده كل يوم، لقد جاءنا كلمة الله طفلاً في بطن مريم، سكن تسعة شهور بالكمال والتمام، جاء كلمة الله قاطعاً كحد السهام ساطعاً كنور شمس النام عندما تشطر قلب الظلام إلى ليل ونهار، وإنشطر قلب التاريخ شطرين متميزين يقال لأولهما قبل الميلاد وللثاني بعد الميلاد.. وأصبحت تواريخ الأجيال أمام أنوار يوم ميلاده نسياً منسياً..



لقد صار يوم ميلاده محور التاريخ كل التاريخ، وصار الحديث فائقاً عن ظلمة ما قبل الميلاد، ونور ما بعد الميلاد كيف لا والميلاد كان نوراً أشرق على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، وكان دعوة لنور الحياة الجديدة نور المحبة ونور التواضع. وعاش التاريخ في النور مع المسيح نور العالم والذي جعل من كل إنسان نوراً للعالم منذ أن خاطب سامعيه « أنتم نور العالم لا تخفى مدينة كائنة على جبل ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال .. »

وإنبعث النور من الإنسان الذي أتى من أجله ابن الإنسان، والنور هنا نور حق ونور فضيلة ونور إيمان حي وضمير مستيقظ، ولهذا كان العتاب موجهاً إلينا إذا كان النور الذي فيكم ظلاماً فالظلام كم يكون ، وأضحينا من نور التعاليم المسيحية السمحاء نستمد نوراً لطريقنا وسراج لسبيلنا حتى نسلك دروب الحياة في نور الطفل الوديع ..

الطفل الوديع: وهذا الطفل الوديع الذي زارنا منذ ما يزيد على ألفى عام ، صار نموذجاً للوداعة ومثلاً أعلى للتواضع ، وطلب من تلاميذه أن يتعلموا منه لأنه وديع ومتواضع القلب، لا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء، إنما يملأ القلب بالبهجة والتفاؤل ويتعامل معنا معاملة رقيقة يشجعنا فيها أن نعمل ولا يطفىء نور حماسنا إنما يشعله أكثر نحو عمل أكبر، ولرب الجنود دوماً على متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع .. وعلى كل الجبال العالية والتلال المرتفعة ..

وقد ترنمت أم الطفل الوديع مؤكدة إن الرب ينزل الأعزاء من على الكراسي ويرفع المتضعين، يشبع الجياع خيرات ويصرف الأغنياء فارغين، وقد سلك سيدنا العظيم الطفل الوديع عظمة الودعاء، ونبهنا إلى إن من أراد أن يكون عظيماً فليكن للكل خادماً ، وخدمنا وغسل أرجلنا مع التلاميذ كنموذج عملي للوداعة، ودخل إلى أورشليم وديعاً هادئاً على آتان راكباً بينما غيره يركب الخيل الدهماء الشهباء ..

فلنحتفل اليوم بذكرى ميلاده المجيد وكلنا توجه نحو الله لكي يملأ تخومنا بالسلام والخصب والنماء، يملأ سوداننا بالأمل الكبير والعمل العظيم والسلام الذي لا ينزع منا، ويكون سوداننا كبيراً وأبناؤه كبار وسياسيون كبار، يعملون لخير الوطن، وسلام لأبناء السودان ..

### ٣١. المعجم يتضخم والمؤلف يتناقص

جان شامبليون: نذكر هنا العالم الفرنسي « جان فرانسوا شامبليون » الذي ولد بمدينة فيجاك سنة ١٧٩٠م ورحل عنا إلى العالم الآخر في ١٨٣٢م ، ويرجع إليه الفضل في إنتشار وإستقرار علم القبطيات، كانت حياته القصيرة التي لم تزد عن الإثنى وأربعون ربيعاً سباقاً مع الزمن، ولقد إهتم بالبحث العلمي وتفرغ للغة القبطية كهواية بجوار عمله السياسي في الإدارة، وعندما عثر على حجر رشيد التقى بكاهن قبطي دارس للغة القبطية وفك رموز حجر رشيد وقرأ أكثر النصوص القبطية وكون لها معجماً كبيراً حتى قال: يتضخم معجمي القبطي كل يوم أما مؤلفه فيزداد نحافة ..

وفي عام ١٨٢٢م نشر خطابه الشهير حول كتابة الرموز الهيروغليفية الصوتية والذي شرح فيه مبادئ الكتابة المصرية القديمة التي إكتشفها منذ فترة وجيزة، وهنا نذكر إنه رغم إختفاء اللغة الهيروغليفية لتحل مكانها اللغة القبطية منذ القرن الرابع الميلادي ولكن ظل الأجانب يهتمون بغوامض هذه الكتابة، ومنذ العصور القديمة فسّر الكتاب الإغريق كثيراً من غوامض تلك الكتابة ومن بينهم « خايريمون » الفيلسوف الرواقى والنحوى والذي عهد إليه بمتحف الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الخامس ..

كما ترك آباء الكنيسة ومنهم أكليمنتوس الإسكندري كتابات إهتم بقراءتها وإستعمالها باحثو العصر الحديث، وقد وجد كيرشر في منتصف القرن التاسع عشر إن معظم الأسماء المصرية القديمة التي يشملها التراث المصري يمكن تفسيرها باللغة القبطية مستنتجاً إن اللغة القبطية صورة من اللغة المصرية القديمة، وكان هذا فتحاً لشامبليون الذي وجد أن الهيروغليفية ليست سوى صورة مبسطة من الهيروغليفية ..

ويُعد هذا من نتائج حملة نابليون على مصر والتي زودت بعدد من العلماء عثروا على حجر رشيد وعلى متون أخرى جعلتهم يتعرفون على اللغة، وقد ظهرت أولى النتائج في سنة ١٨٠٢م على يد « دي ساسي » و « أكربالد » في دراسة النص الديموطيقي ونجحا معاً في التعرف على الرموز وتحليل الأجزاء المكونة للأسماء



وبعدها شرع شامبليون يدرس من جديد وساعده نقش من جزيرة فيلة منظر النوبة..

وأفاد من مؤلف قديم شرح بطريقة غامضة إن القيمة الصوتية للرموز المصرية تؤخذ من الحرف الأول لإسم الشيء الذى يمثله ذلك الرمز، وعندما يتعرف شامبليون على رمز يبحث عن إسمه فى اللغة القبطية كما إستعان أيضاً بالنصوص الإغريقية وأمكنه ملئ الفراغات الشاغرة بتخمين المعنى القبطى للكلمة اليونانية، وكانت هناك كثير من الكلمات اليونانية التى دخلت إلى اللغة القبطية، وحتى الآن توجد الحان فى الكنيسة القبطية باللغة اليونانية وتسمى الألحان الرومية أو لحن رومى..

كما أن اللغة القبطية نفسها تبدو وكأنها لغة يونانية لأنها إستعانت بخمسة وعشرون حرفاً من الأبجدية اليونانية وسبع حروف من الديموتيقية مما جعل الكثير من المؤرخين يخلطون بين القبطية واليونانية وعلى الأخص من يؤرخ للسودان حيث كتبت اللغة النوبية بحروف قبطية ويقولون: إنها باللغة اليونانية التى لم تكن قريبة إليهم إقتراب اللغة القبطية التى كانت تستعمل فى العبادة حيث بدأ التبشير فى بلاد النوبة بواسطة رهبان أقباط نقلوا كل ثقافة وحضارة وكتب الكنيسة القبطية إلى الكنيسة النوبية، وحتى الصور والأيقونات والإتجاه نحو الشرق والدفن نحو الشرق..

المعجم القبطى: وإستمر شامبليون يفتش فى كنوز اللغة القبطية وينسخ النصوص ويضيف كل يوم كلمات جديدة إلى معجمه الذى تضخم بينما هو من محبته للعلم كان يسهر ويتعب وجسده المنهوك يتضائل، وعين أميناً للآثار المصرية بمتحف اللوفر، وجاء فى عدة رحلات إلى مصر وألف أربعة مؤلفات هى: «آثار مصر والنوبة»، «ومخطوط المذكرات التفسيرية» «والمعجم»..

كما نشر مؤلفه المدهش مذكرات عن «مصر والنوب» الذى سجل فيه مشاهداته يوماً بيوم عند زيارته للآثار الفرعونية وتعليقاته المستفيضة وقراءته للأسماء والنصوص التاريخية، وكم أود أن يقوم أحد الباحثين من السودان بتقديم أطروحة دكتوراة عن ما كتبه شامبليون عن بلاد النوبة بالذات لكى يلقى الضوء على مرجع مهم من تاريخ السودان..

فلقد مات شامبليون مرهقاً من كثرة البحث وترك كتبه تذكراً عن نفسه، وأرجو

أن نزيح الستار عنها وسوف نجد منها ما يفيد تاريخنا لأن تاريخ ممالك النوبة المسيحية بالذات لم يزل سफراً مختوماً ونحن نحتاج إلى من يفك ختم هذا السفر النفيس.. وتاريخنا حتى الآن جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم..

وسوف ندخل معاً هذه الجنة، وسوف يهيب الباحث السودانى طريقاً لنا لكى ندخل جنة تاريخنا، ونفك ختم ينبوعنا، وكلما ازدادت الجامعات فى السودان كلما ازداد الأمل أمامنا أن نصل إلى تاريخ ما أهمله التاريخ، ونزيح التراب عن كنوزنا، ومعنا علماء الآثار يكتشفون الأمجاد السودانية المخفية تحت عباءة رمال السودان، وفى انتظار بحثكم، دام فضلكم..

### ٣٢. كرسى التعايش الدينى

كرسى اليونسكو: تقدمت بروفيسور فاطمة عبد المحمود مدير كرسى اليونسكو للمرأة فى العلوم والتكنولوجيا بدعوة نفر كريم مقدر من رجال الدين المسيحى، والدين الإسلامى ومشايخ الصوفية أرباب الحكمة والموعظة الحسنة وأعلنت فى اللقاء مولد كرسى اليونسكو للتعايش الدينى، وذلك بالتعاون مع أعالى النيل، والنيل هو الجامع هو الجامعة حيث كان اللقاء فى كرسى اليونسكو للمرأة والذى يقع على شاطئ النيل سليل الفراديس الذى إختار له أجدادنا السماء منبعاً وينبوعاً والأرض مصباً وإرتواءً..

وتبادل الحديث مسلمون ومسيحيون من بينهم بروفيسور فاطمة وبروفيسور فيصل والسفير والشيخ إسماعيل أحمد إسماعيل والذى أصر الصوفية ان ينضم إلى زميرتهم ويكون شيخاً، وقد وضحت للحاضرين إن شيخ هو لقب من ألقاب القس والأسقف فى الكنيسة مثلما قال يعقوب الرسول: أريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة ليصلون عليه وصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه وإن كان فعل خطية تغفر له..

وكان شيوخ الكنيسة يدهنون المريض بالزيت والذى لم يزل ومنذ القدم فيه شفاء للناس وفيه ترطيب للجسد حيث عندما وقع إنسان بين اللصوص فى مثل السامرى الصالح وكان جسده ملئ بالجروح وضع عليه السامرى زيتاً وخمراً، الزيت للكدمات والخمر مطهراً للجراحات.. وقد توجه الكثيرون بالشكر لبروفيسور فاطمة



التي حازت على إعجاب رجال الصوفية ورئيس مجمع كنائس السودان لفكرتها في كرسى التعايش الدينى، والذي أعتقد إنه سوف يكون منبر من لا منبر له، وكرسى من لا كرسى له، ومظلة من لا مظلة له..

وذلك لأنه رغم تعدد جهات حوار الأديان فى الجامعات وفى الوزارات ومجلس التعايش الدينى إلا إنه وحتى الآن لم يصل الحوار إلى الشعب ولم يدخل الناس فى حوارهم تحت شجر النيم والسيستان حوار الأديان، ولم تعقد لقاءات شعبية فى أحياء شعبية، ولم تعقد لقاءات طلابية فى وسط الطلاب فى الجامعات والمدارس الثانوية، وكرسى تعايش الأديان سوف يكون بعيداً جداً عن الحكومة التى نقدر لها مساندتها دون تدخلها ..

وسوف يجد هذا الكرسى دعماً من الأمم المتحدة اليونسكو، ودعماً من جامعة أعالي النيل محراب علم أصيل، وأمل فى مستقبل واعد وجميل، وقد طالب الكرسى دعم وزارة الإرشاد الدينى وأعتقد دعماً مغنوياً قال دكتور معاوية زروق: إنه سوف يدرس مع وزيره درجة هذا الدعم..

التعايش الدينى: ونحن فى السودان أول من عاش التعايش الدينى، وتعايشنا حتى الآن فوق مستوى الشبهات، وعندما يحدث من الخارج ما يقلق هذا التعايش مثل الرسوم المسيئة للرسول الكريم ومثل محاضرة الحبر الأعظم والذي يقول ويؤكد إنه لا يقصد منها شيئاً فإن هذه الأجواء المتوترة لا تنقل إلينا التوتر بل تجعلنا نتماسك أكثر، وتكون محبتنا أكبر وأكبر، وفى السودان نتعامل بالحكمة التى تجعلنا لا نتسرع ولا نتطرف، نحن فى السودان مثل أعلى فى التعايش الدينى ..

وأعتقد إن كرسى اليونسكو سوف يكون مهامه تقديم التجربة السودانية فى التعايش إلى العالم لنحظى بأعظم درجة رفيعة، لأن تعايشنا فوق مستوى الشبهات، ولأنه يأتى من أعماق أبناء السودان وليس بأوامر الحكومة، فالوحدة الوطنية عندما ليست بدلة أنيقة تلبسها الحكومة وزى دينى يلبسه رجال الدين، ويتبادلون الكلام المنمق، إنما وحدتنا وحدة طبيعية تنبع من قلوبنا التى ما عرفت قط طريق الكراهية، ومنطقنا الذى ما عرف قط سوى العبارات ذات القيم الأصيلة، وسوف نظل نحن هكذا..

ويستكر الكتاب المقدس عدم إحترام الإنسان لأخيه الإنسان ويقول فى صيغة

تعجب : اليس إله واحد خلقنا ؟ اليس أب واحد لجميعنا ؟ .. ونحن نقول: إن البشرية بدأت بآدم واحد وحواء واحدة ومنهم جاء كل الناس فلماذا نفرق بين الناس ؟ لماذا لا نجتمع معاً على توحيد الله وكلنا موحدون وفى هذا فليتنافس المتنافسون..

إننى أهنىء الجميع بكرسى التعايش الدينى فى اليونسكو وأرجو أن يظل كرسياً ساخناً حاراً مثل حر بلادنا، حر مثل حرية شعبنا، يستمد حرارته من الشعب ويكون دوماً فى حرارة مشاعرنا وتأخيننا معاً، لأن التعددية عندنا تميز لنا، تعدد الأديان ليس من الإبتلاءات إنما من البركات حيث نعمل معاً، ونتنافس معاً، ونقبل بعضنا بعضاً فى الله الذى جمعنا، وما جمعه الله لا يفرقه إنسان..

### ٣٣. هل سوف تمطر دارفور ؟

جمال الأمطار: إن أجمل أيام دارفور هى أيام الأمطار، يوم يتطلع الناس إلى الخير القادم من السماء وهم ينشدون ويهتفون ويتهللون ويصرخون : كيل كيل ياميكائيل بالمد الكبير، وفى موسم الأمطار كان يتم تنصيب الملوك، وفى جبل ميدوب وعند الصخرة المقدسة يخرج موكب الأهالى ومعهم الملك الجديد الذى يتم تنصيبه عندما يذبح الكاهن ضحية من الأضاحى خروفاً أو ثوراً يأخذ من الدم ويرشم منه صليباً على جبهة الملك وعلى الصخرة ثم يقوم الملك الجديد والذي بعد تنصيبه صار مسئولاً ويرشم من الدم صليباً على جبينه وصليباً على الصخرة..

وفى موسم الأمطار يصعد الملك إلى تل مرتفع ومعه وفد من الأهالى ويذبحون « عزة » من قطيع الماعز فى قريتهم الكبرى « تورتي » ويقومون بتنظيف قربة الماء وهى من جلود الحيوانات ويملاونها ماء فى عين إسمها « أنويرو » دون سواها ثم يحملون القربة إلى الملك والذي يأخذ قليلاً من الماء فى موكب مهيب إلى كوخه قطية الملك وعلى ألحان النقارة تنشد الأناشيد ويقول الملك: يارب جود علينا بأمطار غزيرة.. ليمنحنا الله المطر، وفى الطريق يرش الملك أرض مملكة دارفور بالماء المقدس، وعندما يصل إلى الكوخ يدور حوله عدة دورات ويرشه بالماء، ويرش النقارة أيضاً بالماء..

وينام الملك مع حاشيته بجوار الكوخ وقبلها يرش الناس كلهم بالماء ووجوههم نحو المشرق الذى هو قبلة المسيحيين حتى الآن، حيث تبني الكنائس نحو الشرق،



ويدفن الميت ووجهه نحو الشرق في انتظار المجيء الثاني الذي سوف يشرق فيه شمس البر من ناحية الشرق.. وتعتبر البركة من هذا الماء إلى بيوت أهل دارفور شفاء للمرضى وإستجاباً للبركة..

ثم يعود الموكب من التل إلى القرية والكل مؤمن إنه بهذه الطريقة سوف تأتي الأمطار لا محالة، فلقد قصدوا الرب، وصلوا إليه، وذبحوا له الذبائح، وتباركوا برشم الصليب والذي كما تقول مديحة الصليب لشعراء النوبة: إن الصليب هو إرواء الجفاف، والأمل لمن ليس له أمل، وحجر الزاوية للرباع الأربع، ولم يزل حتى الآن أهل ميدوب يمارسون هذا الطقس بحسبما أكد لى الأستاذ سليمان الشنقيري زميلي السابق في المجلس الوطني المنحل وهو من أهل دارفور، وكان يرغب في زيارتي ومعه ملك ميدوب ذاته..

ولكن لم نلتق ، وسوف أستقبله يوماً وأفهم منه أسرار هذا الملكوت العظيم الساكن مستقراً في عادات أهل دارفور.. هذا ومن المعروف إن أهل ميدوب يعتبرون النقارة التي تحضر الإحتفال نقارة مقدسة ويجدون جلدتها ويحفظون الجلد القديم لمدة سنة ثم يحرقونه بالنار، مثلما يحدث في الكنائس المسيحية عندما يأخذون من الزيت القديم ويصنعون الزيت الجديد ويحرقون ما تبقى من القديم..

ويؤكد هذا ما ذكره سليم الأسواني سنة ١٩٧٠م عندما زار السودان وحكى له مواطني دارفور عن طقوسهم هذه، وذكر إنهم يسمون « الأحاديين » وهم من سكان دنقلا وهجروها إلى دارفور وربما تعنى الأحديين الذين يحترمون يوم الأحد ويقدمونه للعبادة، وربما تعنى الموحدين الذين يؤمنون بآله واحد، والبحث ينبغي أن يستمر حتى نتعرف على جذورنا الروحية في أيامنا الخوالي والحضارية، والتي تؤكد إن الحضارة المسيحية لها موقع في قلب الحضارة السودانية..

هل تمطر دارفور ؟: إن دارفور الآن ومن خلال أحداث دامية وحروب شرسة لا تمطر سوى التصريحات غير الشفافة من كل أصحاب الشأن، ولكن الأمل مستمر وباق أن تمطر دارفور خيراً ونعمة وتخرج دارفور من مازقها التاريخي وتعيد إلى دارفور أيامها الخوالي وزمنها الجميل وتحيا دارفور معنا وبيننا وفي سوداننا الواحد.. تحيا حياة حضارية ويتسع فيها الرخاء وتكبر الآمال وتتحقق الأحلام السعيدة..

لقد اعتصرت بمرارة الألم عندما زرت دارفور ورأيت المواطن المهمش المسحوق الذي وهو من أغنى الناس يأكل من الإعانات، والذي وهو من أقوى الناس يحيا في قيود خيام لا تتحمل هواء البلاد الذي يمزقها، وأرفع قلبي إلى الله أن تمطر دارفور، إتفاقية سلام كامل شامل، أن تمطر محبة على قلوبنا ، تجعلنا نتعايش معاً ، أن تمطر دارفور برداً وخيراً وسلاماً..

إن تتمتع بالمطر المبكر والمتأخر، وسوف تنزل أمطار دارفور بغزارة، وبمنسوب مرتفع ينسيها قحط الحروب وبلاياها، وهذا سوف يأتي عندما نركع جميعاً أمام من لا نركع إلى سواه والذي له نسجد، وله نعبد، وبه نحيا ونتحرك ونوجد ونفرح عندما تمطر دارفور قلوبنا الحى..

### ٣٤. مستقبل حوار الأديان

أهمية الحوار: أعتز جداً بأننى حظيت بشرف رئاسة أول مؤتمر حوار أديان في السودان.. وكون أن الأعضاء المسلمين ينتخبون رجل دين مسيحي رئيساً لهم يعنى إن الحوار عندنا مولود سعيد يرحب به الكل، وكان هذا عام ١٩٩٢م وكان معى شخصيات ذات معنى من بينهم بروفيسور يوسف الخليفة ، و بروفيسور مدثر سليمان والذي كان رئيساً لجامعة أم درمان الإسلامية ، والأستاذ المهندس عبد الجبار حسين وزير الزراعة لولاية الخرطوم، والذي كان وقتها وطبعاً لم يزل شاباً هادئاً ثائراً وديعاً طموحاً..

وسارت قافلة حوار الأديان وعقد أول مؤتمر لحوار الأديان وقبلها إستقبلنا بابا روما الحبر الأعظم بيننا في السودان ، وأؤكد إنه لم يشعر بالأمان فى أى من الأوطان مثلما فى السودان ، وأعتز به عندما نزل إلى أرضنا ساجداً راکعاً يقبل أرض السودان مثلما يركع أمام الله فى كنائسه الكثيرة، حيث يرأس أكثر من مليار كاثوليكي فى العالم، وصلى البابا يوحنا بولس عندنا فى الساحة الخضراء ورأس أكثر من مليونى وصلى وإرتفع الصليب فى الساحة فوق رأس البابا إجلال لكل مسيحي فى العالم وإحتراماً من السودان بلد تعدد الأديان للرمز المسيحي العظيم، وتطور الأمر والحمد لله إلى ما يسمى الآن مجلس التعايش الدينى والذي يتفاخر بأن نصفه من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، بينما عملياً لا تتاح فرص للمسيحيين حتى فى التعقيب على المحاضرات..



فلقد عقد المجلس لقاءً في قاعة الصداقة بحضور محاضر وهو رئيس مجلس وزراء تركيا وأعطيت الفرصة لأكثر من عشر متكلمين ولم يكن بينهم مسيحي واحد ، وعقد لقاء آخر لمحاضرة للأمير الأردني الحسن بن طلال ولم تعط في التطبيق سوى فرصتان ، ولا توجد فرصة لأي مسيحي فيهم، وقد طلب مني سفير الأردن أن أعتلي المنصة وكان هذا نوع من الديكور أو الزخرف كما يقول الصديق المهدي، وبعد هذا ولد مولود جديد هو « كرسى التعايش الديني » والذي سوف يكون تحت مظلة اليونسكو بإشراف الدكتورة بروفيسور فاطمة عبد المحمود، والأمل فيه أن يكون للمسيحيين كلمتهم ودورهم ولا يكونوا مجرد زخرف أو ديكور.. وسوف تستمر مسيرة الحوار وأعتقد إنه ليس هناك مانع من تعدد المنابر، فنحن وطن التعدد ، والتعدد ثروة لا يستهان بها..

مستقبل الحوار: وعندما تحدث الحبر الأعظم في روما أحاديثاً أكاديمياً وذكر عن الإسلام رأياً لم يقله هو ولم يتبناه ثارت ثائرة الجميع وكنت أول من رفض هذا الكلام لأننا لا نقبل المساس بمقدسات المسلمين، فنحن وهم أسرة واحدة ونعتر بعلاقتنا الأسرية وبمحبتنا المتبادلة، وطالب البعض بإيقاف الحوار وبأنه لا داعي له ولكني أعتقد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً في فرملة الحوار، إنما لا تحل مشاكل الحوار إلا بالمزيد من الحوار، والحمد لله إعتذر البابا لأن الفرق بين الأكاديمي وقيادة الدين فرق كبير وما يصلح للمناقشة الأكاديمية لا يصلح لحوار الأديان، لأن الحوار ساحة محبة وتآخي ولقاء حول القواسم المشتركة وهي كثيرة، ونقاط الالتقاء كثيرة والأديان تتوافق كثيراً ولكن لا تتطابق..

ولقد بدأ الحوار المسيحي المسيحي ، والحوار الإسلامي المسيحي ، والحوار الإسلامي الإسلامي، وسوف يظل حوار الأديان هو الحل لكل قضايا التوتر في العالم لأن الإنسان يتطرف ويظن إنه هو الذي يحمي الدين، ويقولون: جاهزين جاهزين لحماية الدين، ولكن الدين هو لله والله هو الذي يحمي الدين، ونحن مطالبون الآن أن لا يتوقف الحوار إنما أن تزداد الدعوة إليه، ولو كان البابا من رجال حوار الأديان لما حدث ما حدث، وأنا مع المتفائلين بأهمية الحوار وأرفض رأي المتشائمين من إمكانية نجاح الحوار بسبب المشكلات الأكثر تعقيداً.

ولا تخل أي قضية من الإنتقادات وهناك من يدعو ليس إلى وقف الحوار إنما إلى تصحيح مسار الحوار حتى لا يصل إلى طريق مسدود، والحوار لن يصل إلى

طريق مسدود إلا إذا لم يستمر.. وعلى رجال الأديان أن تكون لديهم رؤيا حضارية تعترف بالآخر وتؤكد تواصل التاريخ وتبلور خطاباً حضارياً على ضوء معرفة الذات ومعرفة ما يحمله الآخر من فهم له.. والدفاع عن القيم والأخلاقيات المشتركة بين الأمم وترفض المقولات التي تفسر العلاقات بين الدول والثقافات على خلفية الصدام بين الحضارات والحرص على استمرار مشروع حوار الحضارات والعمل على كل ما يجمع بيننا والثقافات الأخرى والدخول في حوار جاد وذلك رفضاً للإرهاب الذي لا دين له، والإستيعلاء المرفوض لأن الله خلقنا متساوون في كل شيء.. وفي كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده، لأنه بالحق أنا أجد إن الله لا يقبل الوجوه وليس عنده محابة..

### ٣٥. عرس يهودي في الخرطوم

بركات الزواج: يشمل كتاب العهد القديم الذي لليهود على عدة بركات للزواج اليهودي، في التوراة وأسفار الأنبياء والمزامير أو الزبور، والزواج هو إختراع إلهي لأن الله هو الذي أوجد حواء من ضلع آدم وصارت له زوجة ، لم يكن آدم يعرف ما هو الزواج، الزواج إذن هو فكرة الله، هو عمل قدسه الله بنفسه، ويذكر الكتاب المقدس زواج إسحق من رفقة في تكوين ٢٤ وكيف أن أليعازر الدمشقي خطب رفقة لإسحق ولم يكن إسحق حاضراً ووضع الخزامة في أنفها والسوارين على يديها ثم أركبها هودج وجاء بها إلى إسحق، وكان إسحق يتأمل في الحقل عند إقبال المساء..

وكما رفعت رفقة عينيها ورأت إسحق وعلمت إنه هو الرجل أخذت البرقع وتغطت حياء وإستحياء، وهي قبل أن تحضر سألوها عن رغبتها في الرجل قائلين: هل تذهبين معه ؟ وأخذ أخوانها موافقتها لتبدأ رحلة الرحيل إلى الزوج الأصيل ، والزوجية السعيدة، ويذكر الكتاب إن الحب أمر هام للحياة الزوجية لأن يعقوب أبو اليهود كلهم والذي كتب عنه اليهودي ملكاً كتابه « أطفال يعقوب في بقعة المهدي »، يعقوب هذا أكد على أهمية الحب، فلقد كان يحب راحيل والتي كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر، وخدم من أجل راحيل وأعطى مهرأ غالياً هو أربع عشر سنة خدمة عند أبيها، بدأت المدة سبع سنوات فأعطاه أختها بدلا منها فقرر أن يخدم سبع



سنوات أخرى حتى قيل عنه يعقوب أبيكم خدم بامرأة أربعة عشر سنة..

وكانت الأفراح تمر في شوارع اورشليم صوت طرب وصوت فرح صوت عريس وصوت عروس، وكان الطلاق عند اليهود هو أبغض الحلال، كان الرجل لا يطلق المرأة بإرادته المنفردة بل يكتب لها كتاب طلاق، وهذا الكتاب يعنى إن هناك فرصة التراجع عن الطلاق حتى لا يكون إفزازاً لتوتر في العلاقات الزوجية.. ويقول ملاخى آخر أنبياء العهد القديم موبخاً اليهود: بأن الله لا يقبل تقدماتهم ولا يرغب في صلواتهم والسبب هو قسوة الطلاق وخيانة العشرة من أجل أن الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التى أنت غدرت بها وهى قرينتك وامرأة عهدهك، فأحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه..

وأنت القاعدة عند اليهود واضحة لأنه أى الله يكره الطلاق ويكره أن يغطى أحد الظلم ثوبه، فأحذروا لروحكم لنلا تغدروا (ملاخى ٢) .. وتأتى البركات فى الزوجة والأولاد، طوبى لكل من يتقى الرب ويسلك فى طريقه، لأنك تأكل تعب يديك طوباك وخير لك.. إمرأتك تكون مثل كرمة مثمرة فى جوانب بيتك، بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك هكذا يبارك الرجل المتقى الرب، يباركك الرب من صهيون، وتبصر خير اورشليم كل حياتك وترى بنى بنيك (مزمور ١٢٨) والزوجة هى امرأة فاضلة ثمنها يفوق اللآلىء بها يثق قلب زوجها الحسن غش والجمال باطل، أما المرأة المتقية الرب فهى تمدح..

أفراح الخرطوم: وفى يوم من أيام الخرطوم السعيدة فى نوفمبر ١٩٣٤م كان زواج إيلياهو ملكا فى معبد اليهود فى شارع القصر الآن، وإزدان الكنيس، وإرتفعت أغاريد الفرحة من الجالية اليهودية بالسودان، وعلى الأنغام السودانية والتى كان يتقنها اليهود تأخياً مع السودانيين، وقد عاش إيلياهو ملكا أحلى أيامه فى الخرطوم مع زوجته دورا جولدنبيرج شقيقة مورييس جولدنبيرج والذى كان دكانه بالسوق الأفرنجى دكان نظارات له شنة ورنه بين أهل السودان، وزوار السودان حتى الثمانينيات تقريباً..

ويحكى إيلياهو قصة زواجه من دورا، وقد كانت هى أحد أفراد الأسرة لأن شقيقها مورييس كان قد تزوج أخت إيلياهو وجاءت هى لزيارة الخرطوم وترددت على النادى اليهودى بالخرطوم مع شقيقتها، وكانت كما قال محط الأنظار بأناقتهم

وجاذبيتهم، فأخذ شباب اليهود يحومون حولهما مما دفعه إلى أن يستعجل الخطى، وكما يقولون: مشيناها خطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطا مشاها.. وعندما عزم امره وتقدم إليها أبدت موافقتها واتصل بالشقيق فوافق وتمت الخطبة مثلما حدث مع إسحق ورفقه فى العاشر من يونيو، وكان هذا قبل أيام من زيارة ناحوم سوكولوف رئيس المنظمة الصهيونية العالمية للخرطوم، وقد شارك ناحوم فى احتفال الخطوبة بالخرطوم..

ويحكى إيلياهو فى كتابه « أطفال يعقوب فى بقعة المهدي » والذى ترجمه مكى أبو قرجة عن بداية الحياة الزوجية مع دورا والتى هى من بنات حنة، ورغم الخلفيات الثقافية المتباينة فإن الحب والشباب كما يقول هو إختصرا الشقة وقربا المسافات وعاش زواجا سعيداً وتذوق مباحج الحياة فى أقصى درجاتها واتسعت آفاق ثقافة الأسرة من خلال الأسفار المتنوعة والمغامرات واتجبا ثلاثة أطفال، ولكن الإبنة الأولى راحت ضحية لحادث حريق وبقي طفلان ولد وبنت، كان فيهما العزاء، وكانت الزوجة ترغب فى تعليمهما على الطريقة الأوربية، وبدأ هذا فى الخرطوم نفسها فى حضانة بريطانية تحت إشراف سيدات إنجليز..

وعندما أتم جيفرى إيلياهو تعليمه الذى يؤهله للجامعة وكان موازياً له تعليم دينى أتمه فى معبد الخرطوم أقيم إحتفال كبير حضره حوالى ٣٥٠ شخصاً أغلبهم من اليهود السودانيين وبعضهم من أصدقاء اليهود، وبعد هذا ذهب مع اخته إلى بريطانيا، ويذكر ملكا كيف كانت الحياة تسير فى الخرطوم وكيف أن الإقتصادى الشهير مامون بحيرى كان صديقاً حميماً له، وكان يسهل له تحويل مصاريف التعليم إلى الخارج ليس له فقط وإنما لآخرين أيضاً حتى تستمر الدراسة..

فلقد كان مامون بحيرى إنساناً سودانياً يحب كل مواطنيه ولم يكن اليهود سوى جزء من المجتمع السودانى دخلوا إلى بوتقة وعاشوا مفاهيمه وقيمه وصاروا سودانيين حتى النخاع، وعندما سافروا إلى الخارج كانوا يستأنفون علاقاتهم مع يهود الخرطوم الذين إستقروا فى الخارج، وألم أعلن دوماً إن السودان هو وطن تعايش الأديان منذ قديم الأزمان يهوداً مسيحيون مسلمون ؟ وكثيرون من كريم المعتقدات..



### ٣٦. هل تعود حلفا القديمة ؟

تهجير حلفا: قرأت كتاباً عنوانه « هجرة النوبيين » قصة تهجير أهالي حلفا، ومن تأليف حسن دفع الله، وترجمة عبد الله حميدة، طباعة دار مصحف أفريقيا ٢٠٠٣م.. والكتاب عبارة عن مذكرات حسن دفع الله الذي يعتبر إن أعظم إنجازاته هو تهجير أهالي حلفا إلى منطقة خشم القربة، وتحدث الكاتب عن صدمة التهجير كانت عظيمة لأن أهل النوبة عاشوا حياة متميزة ومنعزلة في منطقة متفرقة من القطر.. وعندما تحركوا غاب عنهم نهر النيل العظيم وغابت عنهم حراسة الأجداد الروحية لأعتاب بيوتهم والتي كانت تزين بالصليب على مداخلها طرداً للقوات الشيطانية وطلباً للبركة والحماية..

وهناك مناقشة تدور حتى الآن حول الربح والخسارة في مسألة التهجير، فقد فقد أهل حلفا النوبيين مكانهم وتاريخهم فيه، ولم يستفد أهل مصر لأنهم فقدوا التربة والطمى وصار النيل لا يحمل إليهم الخصب القديم وكأنه ترك لاهوت الخصب والطبيعة.. لقد تم التهجير كما يقولون بكفاءة عالية ومستوى ممتاز ولكن تبقى ذكريات الماضي أليمة مثل ذكريات أبناء يعقوب عندما تمت هجرتهم القسرية إلى بابل.. طغاة بابل وأباطرتها رأوا أن ينقلوا أبناء يعقوب من فلسطين إلى بابل، ورغم جمال بابل وحضارتها وتقدمها فإن آلاماً نفسية كان يقاسيها اليهود حتى إنهم رفضوا الترنيمة في أرض غريبة والتي سجلها صاحب الزابور في المزمور المائة والسابع والثلاثون « على أنهار بابل هناك جلسنا.. بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون.. على الصفصاف في وسطها علقنا أعودنا لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين: رنموا لنا ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة للرب في أرض غريبة؟ إن نسينك ياورشليم تنسى يميني ويلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى..

ويمكنك أن تكتب إسم حلفا بدلا من أورشليم وتتصور عذاب هؤلاء النوبيون وبكائهم على بلادهم التي غمرتها مياه السد العالي ولكن يبدو إن أهل حلفا قد إختاروا النكتة تعبيراً عن آلامهم، ربما لأن شر البلية ما يضحك، وهنا أذكر النكات الجميلة والتعليقات الذكية التي يعبر بها أهل حلفا عن أنفسهم وهم يحتفظون حتى

الآن باللغة النوبية القديمة، وأذكر ما يحكى عنهم عندما طلبوا منهم الزكاة على أموالهم بواسطة أوامر الحكومة قالوا: لقد دخلنا الإسلام لكي لا ندفع جزية والان تريدون منا أن نعكس الطريق.. وأذكر أيضاً إنهم ذات مرة كانوا يناقشون قضية الإنقاذ وسيطرتها على الحكم فقال أحد الحكماء: إن البلد مثل عربة كانت تحتاج إلى من يساندها ويدفرها محركاً لها، وجاء أهل الإنقاذ وقاموا بهذا..

وكان رد الحلقاوى: لا مانع من دفع العربة ولكن هناك مانع من ركوبها، وفي كتاب حسن دفع الله سرد لمذكرات تبدأ بيوم ١٧ أغسطس عندما طلب منه أن يذهب إلى وادى حلفا وأن يقطع إجازته ليقوم بمهمة تهجير أهل حلفا، ويحكى: إنه برغم مرارة أهل حلفا فإنهم تعاونوا معه وقد كان هو مقتنعاً لهم حتى إن مسألة إخراج أجساد العظماء من مرقدها مرت بسهولة ويسر، وعلى الأخص جسد عثمان دقنة، وإبراهيم الميرغنى، وعندما كان لابد من الكشف عن جسد الشيخ البائع القرنى تمكن حسن دفع الله من إقناع الناس بهذا وكانوا يعتقدون إنه من الصحابة ولكن دفع الله كانت حجته إنه بدلا من أن تغمر المياه جسد هذا الشيخ العظيم الأفضل أن ينقل من مكانه، وكانت المفاجأة إن الشيخ القرنى لم يكن سوى كاهناً مسيحياً يحمل الصليب في يده ويلبس ملابس خدمة الكهنوت التي تزينها الصلبان..

وقد تم إكتشاف أجساد محنطة تحنيطاً طبيعياً أى لم يدركها فساد البكتريا وهى ظاهرة روحية متواجدة وحاضرة فى الكنيسة القبطية حيث أجساد القديسين تظل كما هى كدليل على عربون الحياة فى الأبدية، ومن الطريف إن عدداً من أهل حلفا القديمة رفضوا أن يتركوا المكان وقرروا البقاء على ضفة البحيرة بمقربة من بلادهم التى أغرقها النيل، وقد باعت محاولات الحكومات لتهجيرهم بالفشل وهم صنعوا كما أقربائهم الكنوز الذين دمرت ديارهم ورفضوا مبادرة الملك فؤاد لتوطينهم فى كوم أمبو، وأقاموا قراهم على السفوح الصخرية لشواطئ النيل..

وهذا نفس ما حدث عند بناء خزان جبل أولياء على النيل الأبيض عندما رفض أهل القطينة التهجير إلى أبو قوطة وهى منطقة قريبة إليهم وفضلوا بناء منازلهم على التلال الرملية الواقعة خلف قريتهم التى إبتلعها اليم.. وعندما إستقر بعض أهالي حلفا مكانهم قامت الدولة بإعادة تشييد حلفا القديمة وتم بناء دور أهل حلفا على النسق النوبى..



هل تعود حلفاء؟: ويبدو إن حلفا سوف تعود إليها أمجادها القديمة، ويبدو أن أهلي حلفا الذين لم يغادرون ديارهم سوف يشهدون تنمية كبيرة في هذا الموقع القديم ويستعيدون حضارتهم ، وربما بعد هذا يأخذون الآثار التي تم إكتشافها إلى موقعهم ويقيمون هناك متحفاً تاريخياً يمتلئ بهذه الكنوز الثمينة التي ظهرت أثناء الكشف الأثرى المرتبط بالسد العالي، وقد قرأت عمود « كتابات » للصحفي المخضرم أحمد الشريف في جريدة الوطن ٢٠٠٦/١٢/١٩م يوم الإحتفال بإعلان الإستقلال من داخل البرلمان، وكان هذا إعلان بعودة حلفا إلى أمجادها..

ويقول الكاتب: إنه ألغى كل إرتباطاته ليرافق أهله إلى وادي حلفا لأن الزيارة لها بعدها الإجتماعي والإنساني والإقتصادي ، ولأن حلفا لها في أعماقه موقفاً خاصاً وحنين أبدي دائم يتجدد بدون إنقطاع وعنده حب جارف لأولئك الذين قاوموا الطبيعة بكل جبروتها، الصحراء، الرمال، طغيان البحيرة التي ابتلعت أمجاد سبعة ألف عام، وتحدث الكاتب عن أن هناك ثلاثمائة ألف فدان في إنتظار الزراعة.. وأكثر من إثنين مليون فدان تنتظر أهل النوبة ، وإستثمارات لثروة سمكية فيها مخزون هو خمسمائة ألف طن..

ولا أنسى إننى زرت حلفا القديمة في عام ١٩٧٣م أثناء حرب أكتوبر ذاهباً إلى مصر للقاء زوجتى وإبنى مينا الذى أجريت له جراحة قلب فى مصر، وكان معى أكبر الشخصيات العالمية لأن الطيران كان متوقفاً بسبب الحرب.. وفى حلفا كانت أكلة السمك هى الأكلة المهمة ، وكان طلب السمك كاملاً لا يتعدى خمسة قروش وهى جزء على عشرين من الجنيه السودانى الذى سوف يعود إلينا قائماً من بين الموتى، وفى إنتظار العمار لحلفا القديمة ، أرجو لبلادى العظيمة المزيد من التقدم والإزدهار، ولحلفا الخير والبركة وأمجاد النوبة..

### ٣٧. كرمة مملكة النوبة

أحمد الحاكم: أذكر أستاذ الآثار ومديرها بروفيسور أحمد محمد على الحاكم وكان لقائنا فى عام ١٩٩٣م عند زيارة بابا روما يوحنا بولس الثانى إلى السودان، وقد طلب منى رئيس الجمهورية أن أكون قريباً إليه أثناء هذه الزيارة عشماً منه أن لا يقصر فى حق الزائر العظيم، وأذكر إن قداسة البابا أحيط بإجراءات أمنية شديدة

ولماذا لا ونحن فى السودان متهمون بالإرهاب، ولكن الغريب إنه عندما ودعناه كان هادئاً يسير فى المطار بسلام وأمان، وقد غير صفوف الوداع وبدأها من آخرها، وعندما كنت أتحدث فى المطار مع أحد الضيوف لإقتراب منى ولم أكن أتوقع هذا ولكنه رجل ذكى لأنه حفظ إسمى وردده مع من يقدمنى إليه..

وفى هذا اليوم بالذات قابلت أحمد الحاكم والذى كان بدوره فى قاعة الصداقة وقد جهز لوحة جميلة ترجع إلى العصر المسيحى فى تاريخ السودان ، وقد شاركت فى تقديم هدية الرئيس إلى الضيف الكبير ، وقد وقف الحاكم لكى يشرح معنى هذه اللوحة ، وفى كلمات قليلة وبليغة على الهواء مباشرة أقتع البابا بحضارة السودان القديمة.. وبالحضارة المسيحية والتي شهدت مدأ روحياً فى وطننا العظيم..

وبعدها لم ألتقى الحاكم ولكن حبى له تواءم مع حبى لتاريخ السودان وعلمت بأنه رحل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٩٧م وفى نفس شهر فبراير حيث كانت اللقيا، وقد زاره الأستاذ العالم حسن حسين إدريس فى برمنجهام ثم زاره فى بيته وكانت إبنته إيمان وزوجته تحاولان إيقاظه من غيبوبة الموت وفى يد إبنتها الحاتية النص العربى لكتاب « كرمة مملكة النوبة » الذى كان يحلم بإصداره فى حياته، لقد تأخر الكتاب لكى يكون شهادة لهذا العالم العظيم وكأنه بيننا وبين تلاميذه ، وقد حضر اللقاء صلاح الدين محمد أحمد الذى أشرف على إخراج الكتاب وحضر بروفيسور شارل بونيه ناشر الكتاب والذى طبعته شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٧م..

وكان هذا الكتاب قد جاء تحت عنوان « كرمة مملكة النوبة » تراث أفريقى من عهد الفراعنة، وصدر باللغة الفرنسية فى جنيف عام ١٩٩٠م وكان صدوره مصاحباً للمؤتمر العالمى لجمعية الدراسات النوبية، ومصاحباً للمعرض الذى أقيم بمتحف جنيف للفنون والتاريخ، وفى الكتاب إستعراض لنتائج أبحاث جامعة جنيفا للآثار بكرمة تحت قيادة البروفيسور شارل بونيه، ويتزين غلاف هذا الكتاب القيم بصورة جميلة للوجه الأمامى للدفوفة الغربية بكرمة..

والكتاب يقدم لنا بحثاً كاملاً عن الآثار السودانية التى بقيت شاهداً على حضارتنا المجيدة فى عصر ما قبل التاريخ المجموعات فى الحضارة النوبية وحضارة كرمة، وكرمة الدولة وموقع المدينة، والحيوان بكرمة وأصول السكن والعمارة.. والعمارة



الدينية والعمارة الجنائزية.. الصناعات والحرف، صناعة الأحجار المصقولة، وما بقى لدينا من آثار كانت مطمورة تحت رمال السد العالي، والذي كان سبباً في حفظ آثار هذه المرحلة التاريخية المجيدة..

ويرى الحاكم إن كتابه هو موسوعة يحمل قدراً من التفاصيل بدون الإفراط فيها، مع التركيز على العوامل المؤثرة على حضارة الإنسان في بلاد النوبة والسودان عبر ماضيه البعيد، بالإضافة إلى تفسير تطوره الحالي والذي يقود إلى استقراء مستقبله إن لم يكن التخطيط لهذا المستقبل الواعد، وذلك خلال ما تستثيره هذه الدراسات من تساؤلات وتولده من بحوث، والسودان ولود بأبنائه..

واعتقد إن الحاكم لم يضع عمره هباءً منثوراً، إنما كان في كل يوم يقدم لعلم الآثار أبنائه من الطلبة والذين هم الآن أساتذة سوف يلدون أساتذة، وتستمر مسيرة البحث في الآثار السودانية والتي كانت ذات يوم مجرد جزء من الآثار الفرعونية، ولكن على يد الباحثين استقلت وإنطلقت إنطلاقة كبرى لتقدم حضارة كرمه وحضارة مروي وحضارة النوبة من بلاد كوش العظيم الأخ الأكبر لمصر ايم أبو المصريين، والإبن الأول لحام بن نوح، والذي به وأخويه بدأت الحضارة بعد الطوفان..

جنيهاً وحضارتنا: وكتاب «كرمة مملكة النوبة» لم يكن ليخرج إلى عالم المطبوعات إلا بسبب مساندة ومجهود بعثة جنيهاً للآثار والتي بدأت علاقة حميمة بحضارة وادي النيل منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما تكونت أول بعثة للآثار بإسم البارون دي مونوتلي عام ١٨٢٠م، وأقيم أول كرسى للدراسات المصرية بجامعة جنيهاً عام ١٨٩١-١٩١٩م لإدارة صندوق إكتشاف مصر لعدة سنوات، وقد رسمت ريشة الفنان دوقال عدة مناظر عن وادي النيل ما بين أعوام ١٨٧٠-١٨٨٥، وأودعت في لوحات غراميات الرسام وحبه العظيم لبلاد وادي النيل..

وبعد هذا إستمرت المسيرة، وأقيمت المعارض والتي آخرها كان معرض للتعرف على حياة رهبان الصحراء الأوائل، وبعدها جاءت المشاركة في حملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة وقدمت جنيهاً معرض عام ١٩٧٦م بعنوان «عكشة» ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من تاريخ وحضارة النوبة المسيحية.. وهناك معرض دائم لآثارنا في جنيهاً، وكتاب الحاكم هو كتاب حاكم ومحكم لمرحلة تاريخية هامة ويحوى الكثير من صور الآثار القديمة التي تم إكتشافها، ولم يزل البحث مستمراً، فلم يحضر

الحاكم سد مروي وما وجد تحت تراب مروي ورمال دنقلا من آثار غالية توسع المدارك لفترة تاريخية مجيدة في حياة السودان مدخل أفريقيا ورواقها..

### ٣٨. الحضارات السودانية القديمة

سامية دفع الله: قامت بروفيسور سامية بشير دفع الله بكتابة كتاب «تاريخ الحضارات السودانية القديمة» منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة.. والمؤلفة أستاذة التاريخ القديم كلية الآداب جامعة الخرطوم، وهى من أهل الجزيرة خريجة جامعة الخرطوم، ورئيسة قسم التاريخ بها، ولها أوراق علمية وطروحات متعددة عن تاريخ السودان القديم، وقد عرف السودان الحضارة منذ أقدم الأيام فهو يقع في أول طريق النيل، لذا كان أول مناطق وادي النيل، والإنسان منذ القدم أحب أن يستقر ساكناً بجوار الماء إشتياًقاً إليه، ولقد كانت الزراعة بعد الرعى..

وصار السودان نقطة الإنطلاق للحضارة القديمة حتى يرى البعض إن سكان وادي النيل كلهم في الأصل من بلاد النوبة، وعلى هذا يبنون كلامهم: إن موسى كليم الله من مواليد دنقلا.. وإن هاجر زوجة إبراهيم نوبية.. وإن فرعون كان قصره في النوبة، وهذا ليس غريباً، فلقد كانت له عدة قصور أكثر من قصور رؤساء هذه الأيام.. والسودان بهذا هو مهد الحضارة الأولى وفيه إنطلقت شرارة التحضر نوراً عبره إلى منطقة وادي النيل التي وسع النيل مجراها عندما وصل إلى الفسطاط وأخذ فرعان دمياط ورشيد وكوّن شكل حرف الدلتا من الحروف القبطية..

تاريخ الحضارات: وتقول بروفيسور سامية إن فكرة تأليف كتاب في تاريخ السودان فكرة كامنة في ذهنها منذ أمد بعيد، بدأت بمقال التعريف بتاريخ السودان القديم في مجلة الدراسات السودانية عام ١٩٩٠م، وبعد هذا شرعت في الكتاب، ويبدو إن هذا الكتاب شهدت مولده جامعة كتكى بالولايات المتحدة الأمريكية.. وبعد خمسة سنوات وفي عام ١٩٩٥م كان الكتاب قد وصل إلى نقطة الإنطلاق ولكنها تشكو من الظروف المعاكسة والتي تمثلت في سرقة جهاز الحاسوب من منزلها بالعمارات وتعرضت هذه المادة العلمية للضياع، ولكن المسودات التي كانت بين أيديها ساعدتها وهذا يجعلنا نقول: إن جهاز الحاسوب لا ينبغي أن نأمن منه وعلينا أن نحاط وأن نسجل ما نكتب في الحاسوب ونحتفظ به في رقائق، ولا نترك الأوراق



التي كتبنا فيها، وأنا حتى الآن لا أعرف أن أستعمل الحاسوب ولا أعرف أن أكتب إلا بالورق، وهذا تخلف حضارى منى وسوف أحاول أن أتعلم لأننى عندما أجد الوقت أفضل أن أكتب لا أن أتعلم الحاسوب والحمد لله إن الأستاذة لم تحبط بل تحقق حلمها وأودعت المكتبة كتاباً عن هذه الحقبة المهمة بيد سودانية..

ومن أحلامى أن يتهاى لها الوقت لكى تكتب عن تاريخ السودان المسيحى وتمتد من نبته إلى ممالك النوبة المسيحية وتلقى الضوء على عمر وصل إلى ألف سنة، كان السودان فيها مسيحياً على أكمل وجه، عاش الملوك مع الشعب فى عمق الفضائل المسيحية تواضعاً وسماحة، وعرف أهل السودان ما يصنعه أهل الحبشة الآن والذين نعجب كثيراً باحترامهم الآخر.. وإنحاءاتهم.. وسلاماتهم التى تصل إلى الإحناء عند قدم من يحترمونه.. وهذا كله يرجع إلى الثقافة الرهبانية فى ممالك النوبة، والتى كانت تمتد إلى أعماق أفريقيا.. وإلى ثقافى أكسوم الحبشة، وإلى ظهور عواصم روحية وإقتصادية هى دنقلا وكرمة وسوبا وأكسوم.. وثقافة الرهبان تقتضى عندما تلقى أحداً أن تتحنى إحناءة تصل إلى سجد الإكرام والإحترام وتطلب عفوه ورضاه فيما يسمى «المطانية» أو السجود طلباً لإصلاح النية والطوية، وحتى الآن فى الكنيسة القبطية تختتم الصلوات بقول الشعب للكهنة: ها مطانية إغفر لنا، والكاهن يوجههم إلى الله صاحب الغفران.. هل تحقق دكتورة ساميه هذا الحلم؟.. إننى أنتظر هذا وقد طلبته من بروفيسور يوسف فضل ولم أزل فى الإنتظار منها ومنه.. ونحن موعودون من المؤلفات بمجلدات أخرى، وهى فى أول صفحات الكتاب: إن كلمة السودانية إشارة إلى السودان الحديث ولا يقصد بها المفهوم الواسع لإصلاح السودان.. وسودان اليوم هو السودان الألف ميل ولكن سودان الأمس السودان الكبير كان أضعاف هذه المساحة، فلقد كان بلاد القوس وأهله ورماء الحدق، وبلاد النحسو وكوش والواوات، ولم يكن للسودان القديم حدود معروفة إلا حد واحد هو المناخ لمصر..

وكان السودان يقع على البحر الأحمر حداً ولم يكن يفصل البحر الأحمر السودان عن السعودية كانت القبائل الرعوية تعيش معاً فى سلام ضاع الآن من قبائل دارفور فتحولت إلى إقليم للعذاب والصراع.. وحاولت المؤرخة أن تقسم السودان القديم إلى خمسة أقاليم أو مناطق جغرافية هى: وادى النيل شرق السودان، غرب السودان،

وسط السودان، جنوب السودان، وإنها تهتم بالذات بوادى النيل، ولكن هذا التقسيم هو من عنديات المؤلفات إنما كل هذا السودان القديم شهد حضارة قديمة لها كل قوام الحضارات من أرض ومناخ وبيئة.. ورسالة الباحثة هى إنارة هذه الحقبة الحضارية حتى يعرف الجميع إننا سرنا فى دروب الحضارة منذ أقدم الأزمان ولم يزل العالم كله ينتظر منافع حضارتنا وخيرات بلادنا..

### ٣٩. إستثناءات العدالة

قبط السودان: تحت عنوان «إستوصوا خيراً بقبط السودان» عالج الدكتور صادق الفقيه قضية إستثناءات العدالة وهو يرى إن طلب القمص فيلوثاوس فرج مشاركة قبطية فى إدارة شئون الدولة وتعجبه من غياب الأقباط من وزارات الدولة ومجلس مستشارى الرئيس ومعاونون هو لفت إنتباه لمسألة ملحة وقضية حيوية وشائكة فى آن واحد.. تثيرها التطورات السياسية اليوم، وتجترح بإجراءاتها معادلات جديدة للعدالة إذ أصبح تسعير التوترات وأثمان العنف بكل أصنافه وأشكاله، يحسب بقسمة تفاوض تتنزل مقادير مرعية فى ركنى السلطة والثروة كما حدث فى سلام الجنوب وإتفاق الشرق ومحاولات راب الصدع فى دارفور..

فقد كان إدعاء التهميش سبباً فى زيادة الإحتقان، وتم تفجير الصراع طريقاً لمعالجته.. ولم يدع القمص فيلوثاوس فرج تهميشاً للأقباط فى جانب الثروة فقد حباهم الله منها بما تقر به عينهم ويستوجب حمدهم، وإنما قرر حقيقة مؤداها إنهم غير موجودين فى مواقع الإستحقاق الوظيفى العام، وإن قال صراحة بطلب منصب مستشار لرئيس الجمهورية فلا مندوحة لنا أن نقلب معه وجاهة الفكرة وقابلية المقترح للتنفيذ..

أو ليس الأقباط مواطنين يشرفهم ما يشرفنا وقد نالوا منا الرضى بإيجابية الإسهام؟.. لقد جاء التهميش هنا نتيجة غفلة يستسمحها الإستدراك وتشذبها المعالجة وليس فيما أعلم مردداً لعقلية إستبدادية للأغلبية التى تشكو من أخطاء توغلها زعماً مناطق عديدة من السودان، وهكذا فالعنف والتمرد والإحتراب هو الذى أيقظ الخصوصيات بدفع مطلبى، كما أن أخطاء الدولة وشبهة توغلها وسعيها لمعالجات جزئية آتية هو الذى أدى إلى تزامم الطالبين وكثافة المطالب، وعلى هدى



هذا فإن الكيانات والأقليات التي تأسست على قاعدة الوحدة الوطنية مغنية بالوفاء لتوعاتها وتعهداتها..

والعمل الجاد على تحصيل إستحقاقاتها الخاصة، وإن لم تفعل الدولة برء الحقوق بقسطاس العدل فإن مآلها الأخير هو التشظى والتفتت.. وفي التاريخ نماذج صريحة لذلك لا نامل تكرارها في السودان وقد عرفت للقمص فيلوثاوس مواقف شارحة لمطالبته عجلت بتأييدى غير المتحفظ لها.. إذ مضى بيننا زمن إمتد فيه الحوار وتواتقت رؤى وأفكار حول كثير من القضايا التي كان فيها الوطن واسطة العقد وغاية العهد..

وشكرته يوماً عندما زار مكتبى ببعثة السودان بالعاصمة البريطانية لندن على تذكيره لأهل الإنقاذ وهم فى نشوة إنتصاراتهم إن بينهم أقباطاً مسالمون، أخافت بعضهم شعارات عالية النبرة، غالبية الخصوصية، فهاجروا فى صمت ولكنهم لم ينسوا سودانيتهم فعادوا نبرات الصمت والهدوء عندما إستقرت القناعات بطول السلامة فى وطن السلام..

ويرى الصادق إن الدولة يجب أن تبحث عن نظام للتفاعل والتعامل الحضارى مع الأقليات، نظام يلبي مطالبها الدينية والإجتماعية كما يلبي متطلبات الوحدة والإستقرار ويرى إنه كلما قلت وتضاءلت مستويات الإدماج ، كلما برزت فى المجتمع مسألة العدالة وتداعياتها السياسية والإجتماعية والثقافية وحينها يفشل المجتمع فى تكريس قيم التسامح وإحترام الآخر لأن الأداء السياسى الذى يبتعد عن مقتضيات العدالة والمرونة هو الذى سيولد التعصب بكل أشكاله..

ولأقباط السودان علينا حق معلوم أوجبته المساكنة والمواطنة ، وخص عليه الدين بأمتن العبارات ، فوصية الخير الملزمة زادت التأكيد فيها جملة من أحرف الزيادة الدالة على أهمية الأمر..

تجاوب الكثيرين: هذه ليست هى المرة الأولى التى فيها أطلب بأن يتزين ركب مستشارى الرئيس بمستشار قبضى، وأن ينضم إلى موكب وزراء الدولة ووزراء من الأقباط، ولكن فى الحقيقة هذه هى المرة الوحيدة التى يتحدث فيها مثل هذا التجاوب مع القضية المطروحة، وهذا ليس تكريساً للقبلية إنما هو محاولة فى صالح الدولة نفسها حتى لا تتهم بالإستبداد والإستعباد والتشويش والتهميش..

إنها محاولة لإلقاء حجر فى ماء ساكن لكى يتحرك الماء حيوية تشبه الوطن العظيم وأبناء الوطن النجباء، ولقد قال أحد الظرفاء: إن أهل السودان يصلون إلى حقوقهم عن طريق البندقية، ولكن الأقباط يطالبون بحقوقهم بالملعقة والسكين أى فى مآدب الإفطار التى يعدونها لأخوانهم المسلمين ويتشرفون بهم فى محافلهم، وهكذا لابد أن يكون أسلوبهم لأن السيد المسيح رفض أن يدافع عن حقه كمواطن حر عن طريق السيف وقال لحامل السيف: ضع سيفك فى غمدك لأن الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون..

وأشكر من تجاوب مع طلبى وأرجو أن تتجاوب الحكومة، إننى فى إنتظار تجاوبها حتى يتأكد للجميع إنها فعلا حكومة الوحدة الوطنية التى تجعل كل موازينها مرتبطة بالكفاءة والجدية والحرص الوطنى والإلتزام بالعدالة سلوكاً، والنزاهة طريقاً لأن قيم العدالة ينبغى أن تسود على كل مناحى الحياة فى وطننا العظيم، وأرجو أن لا تتأخر حكومة الوحدة الوطنية فى الإستفادة بكفاءة الأقباط، وأرجو أن لا يطول الإنتظار وأن يأتى القرار..

## ٤٠. حكم وأمثال النوبة

التكلم بأمثال: إن المثل هو حديث موجز للموعظة أو للعبارة، وهو القول السائر بين الناس المتمثل بمضربه أى بالحالة الأصلية التى ورد بها الكلام كما إنه قد يكون قصة قصيرة بسيطة تهدف إلى توضيح أمر أو توصيل مفهوم معين، وهو فى الأصل قصة تشبيهية أو إستعارة تمثيلية مستمدة من الطبيعة أو من الحياة اليومية لإلقاء مزيد من الضوء على الحقائق الروحية والإجتماعية وإيجاز عبارته يسهل على الذاكرة إختزانه ..

وتختلف الأمثال بإختلاف الشعوب والحضارات والعصور، والمثل امر شائع فى آداب كل الشعوب.. وعندما كنت طالباً بكلية اللاهوت إستهوتنى دراسة الأمثال المصرية والعربية وحفظت منها ما يقرب إلى خمسة آلاف مثل وكتبتها فى دفتر بخط يدى إعجاباً بها، وفى السودان قام الأستاذ بابكر بدرى بجمع عدد لا يستهان به من الأمثال السودانية ، كما قام محمد متولى بدر بجمع حكم وأمثال النوبة التى لم يزل أبناء النوبة يحفظونها باللغة النوبية، وكانت هذه الدراسة هى من سلسلة دراسات فى التراث السودانى..



معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ١٩٧٨م وجمع فيها الأمثال النوبية مع مقارنة بالأمثال العربية وبيوت الشعر التي هي في مصاف الأمثال، وليست الأمثال أمراً مستحدثاً فهي موجودة منذ القدم في ثقافات الشعوب ويحتوي العهد القديم على عدة أمثال مثل أسطورة الأشجار التي أرادت أن تمسح عليها ملكاً ورفضت كل الأشجار وقبلت شجرة العوسج فقط (قضاة ٩) .. ومثل الأرز والعوسج والكرم الذي أنتج عنباً رديئاً، والكرمة التي غرست على المياه الكثيرة ولكن الريح يبستها، وقد تكلم السيد المسيح بأمثال بل استخدم الأمثال بكثرة في الأناجيل حيث قدم السيد المسيح ما يقرب من ستين مثلاً جاء أغلبها في إنجيل لوقا..

واعتقد إن أغلب الأمثال المتداولة بيننا الآن ترجع إلى أمثال سليمان الحكيم حيث نشرت ترجمة شعبية لسفر الأمثال وصارت في متداول الناس فحفظوها، وصارت مثلاً وتأتى كلمة مثل في اللغة العبرية بنفس ما في العربية ومعناها مقارنة أو تشبيه أو تعميم أول قول موجز بليغ زاخر بالمعاني محدد الهدف يعبر عن حكمة مأثورة.. وتمتلىء صفحات الكتاب المقدس بالأمثال وعلى الأخص في أسفار الحكمة وفي سفر يشوع بن شيراخ، ويحدد سليمان الحكيم هدف الأمثال في الإصحاح الأول من سفره أمثال سليمان لمعرفة حكمة وأدب لإدراك أقوال الفهم لقبول تاديب المعرفة والعدل والحق والإستقامة، لتعطي الجهال ذكاء والشباب معرفة وتديباً يسمعها الحكيم فيزداد علماً والفهم يكتسب تدبيراً لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم..

أمثال النوبة: يشتمل كتاب « أمثال النوبة » على ٢٤٧ مثلاً وهذه مسجلة في الكتاب باللغة النوبية ومترجمة إلى العربية ترجمة أرجو أن تعاد مرة ثانية لإختيار كلمات تزيد المثل إيضاحاً.. وهذه الأمثال هي تراث عريق يؤكد عراقة الحضارة النوبية ويعد كتاب حكم وأمثال النوبة إضافة مقدرة للدراسات النوبية وللتراث الشعبي السوداني عموماً.. ويرى المؤلف إن الأمثال التي جمعت ليست هي كل الأمثال لأن اللغة النوبية غير مكتوبة ولأن اللغة العربية عصفت بالبقية الباقية من الأدب النوبي، ولم يبق سوى البسيط الذي جمع من أفواه الناس عن طريق التقليد الشفاهي، وكان أول الأمثال في الكتاب يقول: شجرة الدوم لا تظل ما تحتها.. ويشرح المؤلف معنى المثل في أن المعروف إن شجرة الدوم ترتفع وتتشعب إلى

فروع، لكل فرع مجتمع من السعف والتمر ويسقط ظل هذه الفروع تحتها متفرقة، فإذا جاء وقت الأصيل تجمعت ظلال الفروع كلها في مكان واحد بعيداً عن الشجرة وهناك تعطى ظلاً كثيفاً، والمثل يقال للرجل الذي لا ينتفع به أهله وذوو قرياه وينتفع منه غيرهم، ويقابل هذا في العامية باب النجار مخلع..

وفي رأيي إن مثل باب النجار مخلع لا ينطبق على مثل شجرة الدوم إلا من ناحية إن النجار يصلح أبواب الناس ولكن لا يصلح بابيه ويقولون: إن باب النجار مخلع يعني إن النجار مشغول جداً بالعمل وليس لديه وقت لتصليح بيته، وهناك مثل آخر يقول: مثل الشجرة العوجة ترمى خارجاً أي يلقي ثمرها في غير موضعه.. ويذكر الكتاب العديد من الأمثال النوبية الجميلة مثل:

الذي يقع وحده لا يبكي، ويقال للرجل الذي يتسبب في إيذاء نفسه ثم يضيق ذرعاً بالذي..

في حي العمى.. الأعور فال..  
المرأة البلهاء تضربها عتبة الباب سبع مرات..

من لدغه الثعبان يخاف من الحبل..

إذا بكى صاحب الميت بكت العيون..

الرماد يعلق بمن تعفر به..

الغريق لا يخاف الموج أو كما يقول الشاعر: أنا الغريق في خوفي من البلل..

أبسطته وهو ساخن.. ويعني عدم تأجيل الأمر وطرق الحديد وهو ساخن، وكقول الشاعر "ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل.. وإلى غد إن يوم العاجزين غد.."

جذر حنظل يفسد بطيخة كاملة، بمعنى لا تحتقر شيئاً صغيراً يحتقر فربما أسالت الدم الإبر..

لا تتزوج البنت، وتزوج أمها، وهذا يعني خذ بنت الأصيل ونام على الحصير..

#### ٤١. استوصوا خيراً بقبط السودان

الدكتور الصادق الفقيه: تحت عنوان « هذا المقال » كتب الصادق الفقيه مقالا، وكان كما عهدته صادقاً في مشاعره جريئاً في غعلان صدقه، وكان فقيهاً للأمر يفهم معناه ويدرك أبعاد الفقه فيه، وهو كما أعرفه الصادق بخيت، وبخيت هنا هو صاحب



الحظ السعيد، وهو اسم قديم من أيام النوبة المسيحية وهو فى النوبة مكي أو مكاريوس أو مكي أو مقار، وكلها مشتقات لإسم واحد يعنى « سعيد الحظ ».. وهذا ما ينطبق على فاتنى سعيد الحظ بما يكتب وبما يقال وسعيد الحظ بصدقات حميمة مع العدد الكبير من كتابنا ومتقينا الذين يطالبون بحقوقنا بقلم طاهر غفيل يحمل الشفافية مكياً والمصادقية قولاً.. ولقد تحدث الصادق بخيت عن قضية طرحها الأب القمص فيلوثاوس فرج أمام رئيس الجمهورية فى إفطار رمضان لعامنا هذا ٢٠٠٦م..

والقضية ترتبط بمشاركة الأقباط فى تمثيل عادل فى إدارة الشأن العام حيث لا يمكن أن تتجاهل الحكومة كفاءات الأقباط وتصبح وزارة الوحدة الوطنية خالية منهم خاوية من كفاءاتهم، تاركة إياهم على هامش المشاركة الوطنية وإدارة شئون البلاد وهم أهل أدب وثقافة وحوار، وهم يحاورون بالمنطق ولا يقهرون الدولة بالسلاح، ويحبون أن يصلوا إلى مشاركتهم باللطف وليس بالعنف..

لأن موقفاً مماثلاً لهذا حدث مع السيد المسيح الذى بدأ يوجه الحواريون إلى أن يحملوا السيف وقال لهم: من ليس له سيف فليبع ثوبه ويشتري سيفاً، وكانت إجابة بطرس: يوجد هنا سيفان.. فقال السيد المسيح: هذا يكفى ولم يكن إغلاق ثنابا الحوار من السيد المسيح إلا لأن تلاميذه لم يفهموا ما يقصد.. إنه لم يقصد إطلاقاً هذا السيف البتار اللامع الذى يقصف الرقاب ويسيل الدماء، إنما يقصد سيف الكلمة دفاعاً عن الحق، ولم يرتفع التلاميذ الحواريون إلى هذا المستوى، ولم يعاود المعلم يسوع الحوار حول هذا الموضوع لأن هناك مسافات كبيرة بين المتكلم والسامع، بين الرئيس والمرووس..

واستمر هذا حتى يوم الصليب عندما تم القبض على السيد المسيح حيث خرجوا عليه كما يخرجون على لص، خرجوا إليه بمشاعل ومصابيح وسلاح، وهنا أخرج بطرس سيفه الذى كان قد أخره بناء على أمر السيد المسيح وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى، ولاشك إنه فرح بنفسه لأنه استخدم السيف فى وقته، ولكن خاب أمل بطرس عندما قال له يسوع: إجعل سيفك فى غمدك لأن الذين يأخذون بالسيف بالسيف يؤخذون، أنتظن إنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من إثنى عشر جيشاً من الملائكة؟ وأمسك يسوع الأذن المقطوعة ووضعها فى

موضعها والتأمت مع الجسد ومعها توقف نزيف الدم (لوقا ٢٢، ومتى ٢٦)..  
ومع هذا الموقف إستدرك التلاميذ إن السيد المسيح يقصد سيفاً آخر هو سيف الحق، سيف الكلمة، فالكلمات سيوف مسلولة، وعند البعض سيوف فى شفاههم، والمصارعة مع الدم واللحم يتطلب أن يكون عند الجندى الروحى درع البر وخوذة الخلاص وترس الإيمان الذى هو كلمة الله وهى فعالة وأمضى من كل سيف ذى حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته..

استوصوا خيراً: ويقول الصادق فى طرحه الصادق: إنه ثمة قضية تستدعى النظر فيما طرح صديقنا القمص فيلوثاوس فرج راعى كنيسة الشهيدين فى الخرطوم فى بحر أسبوع مضى ومقاله منشور فى الراى العام ٢٠٠٦/١١/٢٢ م، وإشارته إلى ضرورة أو بالأحرى مطالبته بتمثيل عادل لأقلية قبطية وطنية فاعلة ومتفاعلة فى إدارة الشأن العام، وما كان له فى تقديرى أن يسأل أو يجرؤ على المطالبة لولا يقين لديه إن الأقباط بأعداد وإعداد يؤهلهم للمشاركة السياسية السلمية، ولن يجرؤ لنيل إستحقاقاتهم سلاحاً، ولن يتبعوا طريق عنف باهظ التكاليف، شاق التصارييف..

ولكنها خاطرة وظن تقديراً على ما آلت إليه ظواهر الأمور التى إحتكرت تفسيراتها القسمة لمن يطلبها عنفاً وعنوة حيث بدأ وكان الناس يتوزعون المقاعد والسلطان بالمدافعة والصراع، لا التنافس الذى يقدم كسب الفرد فى تحصيل المنصب والموقع والنفوذ، ولا منافحة الجماعة والجهة والقبيلة والإقليم فى إنتزاع الحق وتعريف الحقوق..

وجاء الطلب يحذره وخشية المؤدبة ليلفت الإنتباه، وأقول: إن الطلب مستمر، والأدب مستمر، وآلينا على أنفسنا أن نقدم مطالبنا بطريقة حضارية على مادية حضارية وسط حضور حضارى مكثف فى وجود رئيس متحضر سوف يعالج قضايا المجتمع بأسلوب حضارى..



## ٤٢. شاعر أغداً ألقاك.. يلقي ربه

الهادى آدم: فى الشهر الأخير من العام ٢٠٠٦م رحل عن العالم الهادى آدم ، الشاعر الفحل صاحب القصائد الجميلة، شاعر قصيدة أغداً ألقاك، والتي جاءت فى المجموعة الكاملة له والتي هى من ذخائر أروقة الصادرة فى سنة ٢٠٠٢م، جاءت القصيدة تحت عنوان « الغد » فى ديوان « كوخ الأشواق » وهى نفسها القصيدة التى إختارتها سيدة الشرق الأولى أم كلثوم لتتغنى بها بصوتها الرخيم.. ويقولون: إن الهادى آدم كان يرغب أن تغنى أم كلثوم أحد قصائده وعندما شد الرحال إلى مصر لكى يلقاها قالت له : ألقاك غداً .. ومن وقته وحتى الغد صاغ هذه القصيدة حباً فى أم كلثوم وهياماً بها، وكان يردد :

أغداً ألقاك يالهدف فؤادى من غـد..

وأجيك ولكن بفؤادى أم يـدى ؟..

أم بطرف خاشع الملح قليل مجهـد..

لست ادري كيف ألقاك ولكنى صدى..

ظامىء أرهقه البين وطول الأمد..

وتحدث كثيرون عن إعجاب أم كلثوم بقصيدة الهادى آدم.. وبعد هذا تفشى الخبر وعم القرى والحضر كما يقول الكابلى، وانتشرت الأغنية إنتشاراً كبيراً واعتقد كثيرون إن الهادى آدم من فرط حبه للحبيب متمثلاً فى رمزية أم كلثوم جعلها قبلة روحه.. ولهف فؤاده.. وجنة حبه.. ومعبد صمته وصلاته وسكونه..

أنت يا جنة حبى وإصطحابى وجنونى..

أنت يا قبلة روحى وإنطلاقى وشجونى..

أنت يا معبد صمتى وصلاتى وسكونى..

أغداً ألقاك ، يا لهف فؤادى من غـد..

وأجيك ، ولكن بفؤادى أم يـدى ؟..

هذا ما عرفناه عن هيام الشاعر السودانى بسيدة الغناء العربى، ولكن عندما ذهبت بباقات التعازى إلى أسرة الراحل الشاعر رفض أهله هذه القصة وقال أحد اولاده فى جلسة مع كل أفراد الأسرة : إن القصة هى أن أم كلثوم رغبت فى أن تغنى لأحد شعراء السودان وعرض عليها عدة قصائد، ولكنها إختارت " أغداً ألقاك " وعاشت فى إنتظار الغد مع الهادى آدم الذى كان يرجو الغد إقتراباً وعندما كان يستدنيه طالباً قربه إذ به يهابه لما أهاباً دانياً إليه..

أنا أخشى من غد هذا ، وأرجوه إقتراباً..

كنت أستدنيه لكن هبته لما أهاباً..

وتولت دهشة القرب فؤادى فأناباً..

وهكذا إستبطن العمر نعيماً وعذاباً..

مهجة سكرى وقلب مُستهام يتغاباً..

التقى بالغد: وفى إعتقاده إن الهادى آدم كان شاعراً رقيقاً حساساً، تعامل مع الغد بإعتباره الأبدية القادمة إليه، لأن الله وضع الأبدية فى كيان الإنسان لحناً خالداً فى أعماقه كما يقول سليمان الحكيم : بأن الله صنع الكل حسناً فى وقته، وأيضاً جعل الأبدية فى قلبهم التى بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذى يعمل الله من البداية إلى النهاية (جامعة ٣) .. فالشعور بالأبدية هو الذى يعطنا الشعور بأعمال الله الأبدية ، والأبدية هى الموعد الأكبر والعبور من وادى البكاء فوق جسر الموت الذى لا فرار منه لأن المؤمن عن طريق الموت يحطم الخط الترابى الذى هو الجسد ويعبر بالروح إلى ضفته العليا التى هى شاطيء الأبدية.. والزمن الحاضر كله آراء الأبدية هو بمثابة حبة حقيرة بجوار رمال الصحراء، وقطرة بجانب ماء المحيط..

والعبور إلى الأبدية عبور سعيد يسجل المؤمن فى سجل الفخار الخلود، عندما ينقسم جبل الفضة وينسحق كور الذهب، وتنكسر الجرة على العين، وتنقصف البكرة عند البئر، فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها.. إن الهادى آدم عندما قال « أغداً ألقاك »، إنما كان يتحدث عن لقاء الروح مع الله بعد إنحلال الجسد ، لذلك أثار طريق اللقيا بأنه سوف يحييه ليس باليد إنما بالفؤاد ليس إلا..



وهنا يكون الله هو الحبيب في الدنيا والمهيب في الآخرة.. وتصبح الدنيا سماء هو فيها القمر.. وعيون هو فيها البصر.. وليال هو فيها العمر.. والكروم هو فيها السكر.. وهنا يسكر العاشق بخمر حب الله مثل الصوفى فى منسكه.. وهنا تكون النداءات دعاء، والإقتراب إلى الله هو الرجاء، ومن يقترب لا يحفل بمن راح وجاء.. لا اشك إن الهادى آدم كان يحب الغد لقاء مع الله، ويهاب الغد حشراً وحساباً.. إن الشاعر له قلب صوفى متعب، تتغزل فى السماء ويداعب قطرات الماء شوقاً للغد.. هذا هو شاعر «أعدأ ألقاك» قد لقي ربه..

### ٤٣. في بيت لحم أعطينا غلاماً ذكياً

فى بيت لحم: منذ أكثر من ألفى عام وفى عام يتميز على كل الأعوام، وفى يوم هادىء يتفوق على كل الأيام، ولد السيد المسيح طفلاً فى بيت لحم.. أعطانا الرب غلاماً ذكياً اسمه عمانوئيل وتفسيره «الله معنا». إنه يسوع الذى يعنى اسمه «المخلص» وأعطانا السيد نفسه آية الدهور ومعجزة الأجيال، وكانت المعجزة أن عذراء لم يمسهها بشر ولم تك بغياً تلد طفلاً ذكياً.. وتعالى رب الجنود بالعدل وتقديس الإله القدوس بالبر، وإنغلقت أفواه الهاوية التى كانت قد فغرت فاهها، وأكل الحريق كل سلاح المتسلح فى الوغى، وإحترق كل رداء مدرج فى الدماء.. وتمت نبوة أشعيا لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته ولا سلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد غير رب الجنود تصنع هذا (أشعيا ٩)..  
وغير رب الجنود جعلت ميخا النبى يحدد موقع ميلاد السيد المسيح، وأنت يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى الذى خارجه منذ القديم منذ أيام الأزل (ميخا ٥)..  
وتم ميلاد السيد المسيح فى بيت لحم بسبب إحصاء اليهود فى زمان الإمبراطور أغسطس قيصر الذى سمى شهر أغسطس باسمه، وعندما ذهب يوسف هناك ليكتتب فى مدينته تمت أيام مريم لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجته فى المزود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل، وفى أرض بيت لحم كان أول إعلان بمجىء السيد المسيح بواسطة ملاك وجوقة ملائكة..

الملاك بمفرده ظهر للرعاة فى البادية حيث وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً ولكن الملاك حمل إليهم رسالة إطمئنان: لا تخافوا فها أنا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب إنه قد ولد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب، وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضطجعاً فى مزود وهى علامة نادرة لقصة نادرة، حيث إنه لم يحدث فى الدنيا أن ولد طفل فى مزود بقر..

وصارت بيت لحم قبلة العالم عندما أتى إليها حكماء من الشرق يحملون هداياهم وهم المجوس أهل إيران الآن حضارة بابل قديماً.. وقدموا هداياهم ذهباً ولباناً ومرأ.. وصارت بيت لحم مهد المسيح مكاناً يحج إليه الناس من كل صوب وحذب ويذهب إلى بيت لحم من دعى اسم المسيح عليهم، ويذهب إليها أهلنا من المسلمين يكملون أيام حجهم المبارك ولكن بيت لحم الآن تخيم عليها ظلمة الدهور ويغيب منها مسيحيو الشرق والغرب ومسلمى العالم لأنها أضحت مدينة حروب ودمار إحترابات، ولهذا لزم أن نصلى من أجلها..

وفى كل كنيسة شرقية مبنى صغير يسمى «بيت لحم» يصنع فيه القربان المقدس الذى هو رمز للسيد المسيح الذى أعطى ذاته خلاصاً وفداءً، وصار للمسيحيين شركة روحية وغذاء روحياً يومياً لا يستغنى عنه مسيحي..

موكب بيت لحم: وتحدث واحد من أدباء المسيحية وكتابها النجباء هو القس إبراهيم سعيد عن موكب بيت لحم بأسلوب أدبى رصين قال فيه فى ذلك اليوم المغفور بوداعته بين الأيام والمرفوع بمعالمة فوق هامات القرون، مالت الشمس إلى المغيب وراء أفق مدينة جائئة على أحد جبال فلسطين تدعى «بيت لحم» فرسمت بأشعتها الذهبية على وجه الغيوم أشعة تبرية رائعة ننسى عابدى المال جمال الذهب، وأسالت على وجوه جماعة من المسافرين إلى «بيت لحم» صفرة مائعة إلتقت بصفرة وجوههم المتعبة فترجمت عن التعب الذى كابدوه من عناء السفر وكان بينهم رجل تبدو على محياه سيماء المهابة والوقار، ومعه «عذراء طهور» إمتزجت على محياها علائم الخفر بدلال الإعجاب والفخر، لأنها تحمل بين حناياها «سر الدهور».. والأجيال من غير أن يمسهها بشر..

وبعد قليل شرع الليل يرخى سدوله فبدل النقاب الرمادى الذى نسجه الغروب فوق جبين بيت لحم بحجاب كثيف من الظلام غطى به وجه المدينة، فجعلت حقيقة



الضيفين الكريمين فلم يجدا أمامهما سوى « نزل » حقير يقال له « الخان »، وفي ذلك الخان حلا محلا وضيقاً لأنه لم يكن لهما موضع في النزل، وكما هجع الليل ورفد البشر دقت ساعة الزل فوضعت مريم ابنها البكر وهي وحيدة بعيدة عن كل عين تعطف، بعيدة عن كل قلب يواسى ويشجع، فقمطته وأضجعتة في مزود...

وهذا الطفل العظيم، الغلام الذكى، وجيه الدنيا والآخرة، هو الذى نحتفل معا بذكرى ميلاده، وقلوبنا نحو بيت لحم، وهى كل يوم تودع لحماً من البشر يقتلهم الإرهاب ويقتلهم عدم الإنضباط، ويدمرهم عدم حب الآخر، وعدم الاعتراف بالآخر، والذى هو الطريق الوحيد إلى سلام بيت لحم.. وإلى سلام السودان.. وإلى سلام كل البلدان..

#### ٤٤. المواقع الأثرية بالسودان

صلاح الصادق: صدر كتاب « المواقع الأثرية بالسودان » لعالم الآثار والباحث عنها بالتدقيق صلاح عمر الصادق، والكتاب صادر عن مكتبة الشريف الأكاديمية الخرطوم ٢٠٠٦م.. وفي الكتاب أربع وسبعون مقالا عن مواقع أثرية وعمليات نادرة وإقتراحات مهمة مثل تحويل مصنع الشفاء الذى دمر خطأ باعتبار أن به مواد كيميائية سامة أو أسلحة دمار شامل إلى متحف أو مشروع تسميه معالم العاصمة القومية وتسميه شوارع الخرطوم القديمة محصورة ما بين كوبرى النيل الأزرق والأبيض ومحطة السكة حديد، الخرطوم شرق ووسط وغرب المقرن.. ومشروع متحف التراث الحربى ومقترح متحف قباب الأتراك..

وصلاح الصادق باحث آثار يعتز برسالته، وهو مهتم جداً باستخراج ما يبطن إلى القارئ السودانى، وفي أعماق المؤلف العديد من الآثار حباً وشوقاً إلى إرساء ثقافة أثرية تراثية تعتز بالتراث، وتدرس الميراث وتكتب عن حضارة السودان وتؤكد: إن الحضارة بدأت هنا عندما وامتدت مع مسار النيل إلى كل بلاد وادى النيل، ورات عواصمنا الحضارية أمجاد تاريخية وآثاراً هى كنوز غالية أو لقياً أو لقية كما كنا نقول ونحن أطفال « وجدنا لقية » فى منزلنا أو وجدنا كنزاً غالياً ثميناً..

وهو يحاول كثيراً أن ينقذ بعض المناطق الأثرية من تغول المباني، وقد إتصل بى ذات مرة يستجد بى حتى يتم إنقاذ آثار سوبا العريقة، ولكن يبدو أن الدولة أصرت أن تحولها إلى خطط إسكانية لكى تملأ خزينتها دون حتى أن تحاول دراسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بعض الآثار الباقية فى سوبا بلد الأربعمئة كنيسة التى ذكرها صالح الأرمنى المؤرخ الشهير، وبلد الحضارة القديمة والمباني الشاهقة الجميلة، والتى أخذ منها الطوب الأحمر لبناء مدينة الخرطوم، والتى ولدت على يد الأتراك وبواسطة محمد على فى سنة ١٨٢٣م بعد أن صارت سوبا خراباً وهى بلد الجد والحبوبة..

وقد سافر صلاح الصادق بصفته باحث وعالم آثار عدة سفريات وكتب العديد من المذكرات وأخرج هذه المذكرات فى هذا الكتاب القيم جداً، والذى يضاف إلى كتبه القيمة والتى هى ثروة لتاريخ السودان وكنز لصلاح الحضارة السودانية القديمة.. وتسجيل للمناطق الأثرية، وهو يفعل جداً عندما لا يتعامل الناس مع الآثار معاملة الاحترام والتوقير، ولهذا يرفض صناعة الرغيف داخل جزيرة سواكن الأثرية، ويندهش جداً من دخول العربات إليها رغبة فى الحفاظ على هذا الأثر الكبير كبيراً وجميلاً..

وقد حدث مثل هذا التحقير للآثار فى الأديرة القبطية حيث كان عرب البادية أو العربان وقبائل الغجر والبربر يهجمون على الأديرة ويقتلون ساكنيها من الرهبان دون أن تشفع فيهم تقواهم وقداستهم، ثم بعد هذا يجهزون الطعام ويشعلون النيران وتلتهم المخطوطات وقوداً وتضيع منا هذه المخطوطات الثمينة، وليس من رادع لهذه القبائل..

وفى بعض كنائس الأديرة غطى هباب النيران أو صمادها الكثير من اللوحات والأيقونات القديمة والرسومات القيمة والتى حاول بعض علماء الآثار الأجانب منذ مدة بسيطة إستخراج هذه اللوحات وإزالة صدأ الصماد عنها وإعادتها فى نفس مستوى جمالها بعد الهجمة غير المتحضرة عليها..

المواقع الأثرية: ويتحدث عمر الصادق عن المواقع الأثرية فى شندى والنقعة والبحراوية وود بانقا والمصورات وتمثال الأسدين فى النقعة.. وقباب الأتراك،



والطابية، وبوابة عبد القيوم، والخوجلاب والسقاي والكلجر والسروراب والكسير  
وديم القراى والقبلاى وسنار وأم دوم، والمواقع الأثرية بين الخرطوم وسنار،  
وطابية توتى، وموقع الأبريقاب..

وتحدث عن سجن أم درمان والذي كان منزلاً لعثمان شيخ الدين، وينبغي أن  
يتحول إلى متحف للحضارة الإسلامية، وتحدث عن الآثار التي يجدها عمال الحفر  
ويأتون بها إلى المتحف القومى لتنضم إلى ثروته، وتسكن فيه فى مكان آمن..  
وأعتقد إنه ينبغي أن يقدم المتحف حوافز لعمال الحفر تجعلهم عندما يجدون شيئاً  
أثرياً يسارعون به إلى المتحف، وقد جال الصادق ربوع السودان بحثاً عن الآثار  
وإهتماماً بها، والذي لاحظته إن أعظم المناطق الأثرية فى السودان تحت مسؤولية  
الخفر.. خفير أو إثنان بالأكثر فى كل موقع.. وأرى مقترحاً إن كل موقع أثارى ينبغي  
أن يكون فيه مكتب راقى ومتحضر للآثار فيه خريجى آثار يشرحون للناس أهمية  
آثارنا ويبحثون عن وسائل لتنشيط السياحة لأننا أغنى بلد سياحياً وآثارياً.. وربما  
يساعد هذا على المزيد من البحث والتنقيب، ونحن لم نبحث عن آثارنا بقدر ما بحث  
عنها آخرون من بلاد العالم..

عندما بدأت مخاوف العلماء من أن تظمر هذه الآثار تحت ماء السد العالى وخزان  
أسوان، وخزان جبل الأولياء، وسد مروي، والحمد لله وجد الباحثون والمنقبون  
كنوزاً غالية تحت رمال بلادنا كانت ساكنة ساكنة لا يعرف أحد عنها شيء.. إن كتاب  
عمر الصادق «المواقع الأثرية بالسودان» ينبغي أن يوظف مشاعرنا ويستنهض  
هممنا لكي نخرج آثارنا من تحت الرمال كما نخرج كنوزنا من تحت البلاطة، وبهذا  
يكون سوداننا دوماً فوق، يسير فى طريق الأغنياء الودعاء الذين يعطون الحاضر  
مخزناً لغلل وخيرات، ويعطون العالم آثاراً عالمية هى ثروة الماضى المجيد..

## ٤٥. مؤتمر حوار الأديان

كلمة الأب القمص فيلوثاوس فرج رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر الأديان :-  
سعادة الرئيس بشير المحبة.. نذير السلام..  
الإخوة أعضاء مجلس الثورة، والوزراء، والولاة والمحافظين، وزملائي فى  
المجلس الوطنى، أخوانى وأخواتى، من أبناء وطنى العظيم السودان الكريم..  
أقدم إليكم الآن فكرة المؤتمر..  
كيف بدأنا ؟ وكيف خطونا ؟ وكيف وصلنا إلى هذا اليوم التاريخى المجيد  
لنكتب معاً وثيقة مؤتمر الأديان، ونشهد علينا التاريخ.. وسوف يشهد لنا التاريخ  
بمشيئة الله الذى يقف وراء التاريخ ولبركة الإنسان صانع التاريخ.. فالإنسان هو  
القضية، والإنسان هو الحل..  
نحن مجموعة من المواطنين السودانيين.. مسيحيون ومسلمون.. رجال ونساء،  
رجال دين، ورجال أعمال، ورجال علم وثقافة.. نحن قد إتفقتنا معاً، وتلاقينا معاً،  
جمعنا توجه واحد، وأجمعنا على أن نعمل معاً، كرجل واحد، بقلب واحد، وتوجهنا  
نحو الله الواحد، وصلينا إليه وقررنا معاً أن نقيم مؤتمراً للأديان فى السودان..  
وكان أول إجتماع لنا فى يوم الإثنين ١٦/١١/١٩٩٣ م، وكان معنا السيد فضل  
السيد أبو قصيصة، بإعتباره أول المهتمين بهذا العمل الشعبى، وأول الداعين إليه  
، ووضع هو مؤسسة السلام والتنمية لخدمة أهدافنا وهى مؤسسة شبه حكومية،  
ساندت العمل دون أن تتدخل فيه، وأخذت بركة مطراننا المكرم الأنبا دانيال السودانى  
المخلص الذى تبرع جده خليل بك بإقراض الحكومة مرتبات الجند، ونيافته يحفظ  
القرآن عن ظهر قلب من سورة البقرة للناس.. وحددنا أهدافنا وهذه هى أهدافنا..  
تأكيد روح التعايش والتوادر والتكامل، والمعاشية الموجودة فى السودان  
كأمر واقع وتقديمها كنموذج يحتذى لعالم يحترق بنار التعصب والتحزب  
والتطرف، عالم يسقط واقعه المرير علينا، بينما نحن واقعا يؤكد تعايشنا  
وتوادرنا، وتحاببنا، وتجاوبنا فى السودان متعدد الأعراق.. متعدد الثقافات،  
متعدد الأديان، ولكن الأديان فى السودان توحدنا نحو الإله الواحد، إله  
الكل، سيد الكل، ضابط الكل، ويؤكد واقع السودان ما قاله الكتاب المقدس:  
أليس أبو واحد لجميعنا ؟ أليس إله واحد خلقنا ؟..



ومع تأكيدنا للتعايش القائم نوكد إن السودان بلد متميز ، والسودانى شخص متميز، السودان كأنه كوكب آخر هبط من علياء السماء ينشر المحبة، ويزرع السلام، فعلى صعيد الأسرة الواحدة يوجد المسلم والمسيحى، ويوجد أيضا كريم المعتقدات، وفى جنوب السودان تتعايش الأديان، وفى أم درمان تقف المسالمة كنموذج للعيش فى سلام بين المسيحية والإسلام.. ألم أقل لكم إننا شعب متميز ؟.. حباننا الله بقلوب واسعة مثل سوداننا المترامى الأطراف، قلوب تتسع بالحب لكل الناس، وكل الأجناس، وكل الأديان..

وضع إطار لحوار دينى هادف، حوار يكون الإحترام المتبادل أساساً له، ويكون الحب هو نهر عطائه، حوار لا يهدف إلى أن يحول المسيحى إلى مسلم، أو المسلم إلى مسيحى، إنما حوار يقوم على حسن المعاملة، لا تجادل إلا بالتى هى أحسن.. ونبتعد عن المباحثات الغبية السخيفة التى تحاول أن تضيق على الله نفسه عندما نعتقد أن الله لفئة معينة دون غيرها.. أو أن السماء ميراث لشعب دون آخر.. لأن المنازل فى بيت الآب السماوى كثيرة، ولأن حنان الآب السماوى يمكن أن يشبعنا جميعاً.. وهو الراعى الصالح الذى يقودنا إلى موكب ملكوته..

ونحن نؤمن أن الدين هو سرُ نهضة الشعوب، الدين هو خيرُ الشعوب، هو بركة الشعوب، هو برُ الشعوب، لأن البرُ يرفع شأن الأمة، وعار الشعوب الخطية، ولهذا قصدنا أن نجمع الطاقات الدينية لبناء المجتمع، نفجر القيم الروحية لبناء السودان الأصيل، وحيث يوجد الدين لا نفتقد القيم، وحيث يوجد المتدين توجد الأمانة، والوفاء، والنزاهة، والإخلاص، والبذل، والعطاء، والإيثار، والسهر على مصلحة الآخرين، وهنا تتحقق تنمية المجتمع..

وبعد أن حددنا أهدافنا فيما قلنا، حددنا أوراقنا لكى نتسق مع أهدافنا وسوف تسمعون الأوراق.. تسمعون، وتفكرون، وتناقشون، وتقررون، وتستفهمون، خلال جلسات مؤتمرننا، والأوراق ليست آراء لمؤسسات إنما كل ورقة تعبر عن رأى كاتبها.. وتعرض أمامكم للتعايش..

وبعد هذا.. بدأنا ندرس معاً كيف نحافظ على سوداننا ؟ كيف نؤصل التعايش الذى ننعم به ؟ كيف نؤطر الحوار الحسن الذى نجريه ؟ كيف نروى شجرة وحدتنا الوطنية ؟ كيف نحميها ؟ بتقوى تكون نمواً فى النعمة، وبماء هو عرقنا المسكوب للعمل المحبوب والمرغوب..

وأول لقاء لمجموعتنا الشعبية التطوعية التى هى اللجنة التحضيرية لمؤتمر الأديان، كان لقاءنا مع رئيسنا.. مع الفريق عمر حسن أحمد البشير، رئيس مجلس قيادة الثورة والوزراء، تحدثنا معه، عن الأهداف، الأوراق، المدعوين، خطتنا الإعلامية، تهيئة المناخ الداخلى، تأمين مرامينا، تكثيف دعوتنا المقدسة، والوصول إلى جبهتنا الداخلية، إسماع صوتنا لكل العالم من حولنا..

وتجاوب معنا الرئيس.. هكذا توقعنا، لقد سعد بنا، وتحرك قلبه لأهدافنا، وشاركنا أفكارنا، وقدم لنا المساعدة، والمعاذلة والمباركة، لجهدنا الشعبى المتواضع.. أليس هو نفسه واحد من أبناء هذا الشعب الطيب القلب المتألف الودود ؟.. أليست رسالته أن يدعم الوحدة الوطنية ويؤكد دور التعايش الدينى فى بناء المجتمع ؟.. ووجه رئيسنا كل الأجهزة لكى تساهم فى إنجاح مؤتمرننا، مؤتمرننا الشعبى النابع من قاعدتنا الشعبية، وأراد أن يكون مؤتمرننا على أحسن مستوى..

وترك اللجنة تؤدى أعمالها، وهو يساندها، عملت اللجنة التمهيدية، فى حرية، فى تحرك داخلى وخارجى، وإحساساً منه بأهمية هذا العمل العظيم فرّع لنا عضواً من أعضاء مجلس قيادة الثورة وعدداً من الوزراء لكى يصير مؤتمرننا مؤتمراً حكومياً.. إنما لكى تكون الحكومة كلها وعلى أعلى مستوياتها فى خدمة مؤتمرننا الطموح.. وأكرر إن مؤتمرننا مؤتمر شعبى، وطنى، ولمسات الحكومة معنا هى تأييد وبركات وكبير إهتمامات، يا إذاعة لندن..

وبعدها إلتقينا مع السيد محمد الأمين خليفة رئيس المجلس الوطنى، وعرضنا عليه أهدافنا، وتبين لنا إن أهدافنا هى نفس أهدافه.. وطريق كفاحنا هو نفس طريقه، والميناء الذى تبحر إليه باخرة طموحنا ميناء واحد، هو ميناء السلام.. وبارك محمد الأمين خليفة خطتنا وساند فكرتنا..

وبعد هذا إستمرت اللقاءات مع أعضاء مجلس الثورة، مع الوزراء، مع المسؤولين، مع الكبار، مع الصغار، مع رجال الدين الإسلامى والمسيحى، مع رجال



السلك الدبلوماسي، مع كل أفراد شعبنا عبر وسائل إعلامنا، وعبر لقاءات عديدة، في يوم الخدمة، وفي غير يوم الخدمة.. وزرنا بعض الولايات، وخرجنا إلى خارج البلاد في وفود إلى بريطانيا وألمانيا والنرويج وسويسرا وإيطاليا.. ونجحنا كثيراً جداً بصلواتكم..

وشعرنا بأن مؤتمرنا هو مؤتمر الكل، وعقد أهل بحر الغزال مؤتمر الأديان، وعقدت جامعة إفريقيا العالمية الفكرى مع مؤسسة السلام والتنمية الملتنقى حول الأديان والذي حضره عدد كبير من العلماء وطلبة الجامعة، وكلهم من إفريقيا ليكونوا سفراء تعايشنا الدينى بين ذويهم.. وبالأمر كان فى الإستوائية مسيرة شعبية لتأييد مؤتمر الأديان ومؤتمر السلام..

ولكن لا تظنوا أن الطريق كان سهلاً، ومن قال إن زرع الخير سهل؟ ومن قال إن كلمة الحق سهلة؟ وهل يملك طالب العلا إلا أن يسهر الليالى؟ لقد تقابلنا مع الكثير من المعترضين، لقد سمعنا همسات الهامسين، لقد لمسنا سوط الحاقدين فى نعومة الحية وفى شراسة الأسد، والحية والأسد هما شبيهان لشيطان الحق.. وكتبت ضدنا المنشورات تحت الأرض وفوق الأرض، وحاول كثيرون أن يصرعونا فى الطريق، ويكسروا سفينتنا قبل الميناء.. ونقرنا طريقنا فى الصخر.. ولينكم كنتم معنا لكى تروا تعايشنا..

لقد إحتفلنا بعيد الميلاد المجيد، وحول ذكرى ميلاد السيد المسيح أجمعنا وإجتمعا، وإزدانت قلوبنا ببهجة الذكرى، وأشعلت مشاعل الفرح، وإحتفلنا بذكرى الميلاد فى كنائس الجنوب، وطافت مواكب الميلاد فى عواصمنا، والشباب الأسمر يحمل لافتات ويلبسون أقمصتهم المزدانة بالصلبان.. وهتافات النصر من الكتاب المقدس تملأ أجواء عواصمنا، نمجد الله فى الأعلى ونطلب السلام على أرض السلام..

وعلى نفس المستوى تحرك المسيحيون فى عيد الفطر يشاركون أخوانهم المسلمين موائد الإفطار وفرحة عيد الفطر وأبرق رئيس كرسى الأديان الكاثوليكية يهنئ المسلمين، وأرسل رئيس المؤتمر من لندن برقية تهنئة من المسيحيين إلى أخوانهم المسلمين..

لقد كان باب الإعلام مفتوحاً أمامنا، ولم يزل، المقالات.. اللقاءات.. الحوارات.. وكل هذا شحذ الهمم، ووحد القلوب نحو تأكيد أنموذجية التعايش والأحاد والتواصل الاجتماعى فى سوداننا المتميز..

وإستقبلنا الحبر الأعظم، البابا يوحنا بولس الثانى، بابا الفاتيكان، وقضى

معنا وقتاً طيباً فى العاشر من فبراير.. لم يركب عربة مُصفحة، كان بيننا فى السودان فى أمن وأمان، صلى فى كنيسته، صلى فى الساحة الخضراء مشروع ثورة الإنقاذ الذى هو ملك لكل، للمسيحي كما للمسلم.. سجد على تراب أرضنا يقبله، وإلتف بعلم سوداننا يتبارك به ويقبله، فباركه، وباركنا..

وأمس تواكبت مسيرة السلام مع موكبينا، مسيرة شارك فيها المسلم والمسيحي.. وإستقبلها الرئيس مسيرة تأييد للسلام، وتأييد لمؤتمر الأديان، وإحنا حالفين على التأخى.. وها نحن اليوم نؤكد تجاوب الكل معنا، تجاوبكم كوفود أتت إلينا من حوالى ثلاثين بلداً، وفى عدد يفوق المائة ضيفاً وافداً.. وتجاوب شعبنا فى حضوره إلينا ينشد أناشيد الحب، ويرنم ترانيم السلام، ويشدو ويرتل وجود كلام الله..

واسمحوا لى أن أقدم بعض ملاحظات على طريق التعايش الدينى فى السودان.. - نحن لم نقسم الأسماء، لا توجد عندنا أسماء مسيحية، وأسماء إسلامية، إن خريجى معهد الكتاب المقدس بينهم أحمد وصلاح وعلى وخميس، وقساوستنا بينهم إسماعيل وعبد الرحمن، وأساقفتنا فيهم إدريس وحسن وعلياننا، ومسلمونا فيهم جبريل ويوسف وموسى ويعقوب وإبراهيم..

فى تاريخنا، لم تتحول أى كنيسة إلى جامع.. ظلت الكنيسة كنيسة كما هى.. فى كل تاريخنا القديم والحديث لم يحدث أن إعتدى أحد على كنيسة، ولا جامع، أو أى مؤسسة دينية..

لم يتطرف أحد منا إطلاقاً.. وحوادث الإغتيالات دخيلة علينا.. أنوار كنائسنا وجوامعنا تدفعها لنا حكومتنا، وهى الآن فاتورة ثقيلة إذا تحملها المصلون..

عندنا كنيسة فى السجون، أول حكومة تقدم أرض لبناء كنيسة.. أحوالنا الشخصية لم يلمسها أحد، لها قدسيته الخاصة.. نحن تحكمنا فى أحوالنا الشخصية قوانين كنائسنا، ولم تقم الحكومة نفسها فى هذا



الميدان، إحتراماً منها لقدسية الأديان..

تبنى الكنائس والجوامع على أرض تعطى هبة من الحكومة، إن أراضى كنائسنا هي هبة من حكوماتنا، لأنها تشجع تأصيل القيم وزرع الفضائل، وتبنى الكنائس هنا بجوار الجوامع.. وهذا أمر يؤكد التعايش بوضوح..

فى المحطة الوسطى بالخرطوم تفتح مكتبة الكتاب المقدس أبوابها للكل.. وتعمل جمعية الكتاب المقدس فى حرية واضحة، وعلى نهر النيل، وبجوار الفندق الكبير يقام كل عام مهرجان "الكتاب المقدس العائم" .. ويرعاه وزير الثقافة والإعلام..

١٠. للمسيحيين مكان فى الإعلام، مساحتنا الجديدة قدمتها إلينا ثورتنا، فى الإذاعة، فى التلفزيون، ومقالات دينية فى الجرائد، فى السودان الحديث..

١١. عيد ميلاد السيد المسيح إجازة رسمية، وعيد شم النسيم الذى يلى عيد القيامة هو عطلة رسمية لكل البلاد..

١٢. مناهجنا التعليمية الدينية المسيحية أعدتها لجنة من كنائس السودان وهى الآن تجهز لى تطبعها وزارة التربية والتعليم، وتقوم الحكومة بتوفير المعلم المسيحي وتدريب المعلم المسيحي.. بل إننى أدرس الدين المسيحي للمسيحيين فى بعض الجامعات بدءاً بكلية البنات الجامعية..

١٣. نحن لنا كلمتنا ، عندما نشعر بأن شيئاً يمس فكرنا المسيحي نتحاور، وبالحوار نصل إلى القرار، مثلما حدث فى الزى الإسلامى..

١٤. نحن قد إرتضينا أن تكون المواطنة هى أساس المشاركة فى المجتمع..

فلا يعاقب شخص ويميز بسبب دينه، فالمواطنة مظلة يستظل بها كل المواطنين والعمل العام ، والعمل السياسى مكفول أمام الجميع، ومن حق المسيحي أن يرشح نفسه لكل المناصب العليا فى الدولة..

وبعد أيها الأحباء ، إن ما قلناه لا يعنى إننا ملائكة ، أو إننا مجتمع بلا مشاكل، إن الإمعاء فى الأحشاء تتصارع، نحن بشر، ولا يوجد المجتمع الكامل إلا فى خيال

إفلاطون ، والفارابى، ومدينة الله لأوغسطينوس.. ولكن نحن أيضاً لسنا شياطين ، ولسنا إرهابيين، ولسنا متطرفين..

ويا رجال الدين أرجوكم أن تبحثوا، تقرأوا، وتفتشوا، فتشوا الكتب، أخرجوا منها الجدد والعقائد، أبحثوا عن محطات التلاقى بين الأديان، أصلوا التعايش، عمقوا التأخى والمحبة، أنتم مسئولون، السلام ثمرة كفاحكم، الإنقسام يأتى عندما تتغافلون، وتنسون رسالتكم وما أظنكم تنسون؟..

حبابكم عشرة.. وبكم سوف نكون عشرة على عشرة، بلا كثرة..

نحن نمد أيدينا إليكم ، فمدوا إلينا أيديكم..

نحن نفتح لكم قلوبنا ، فافتحوا لنا قلوبكم.. نحن بدأنا معكم المسيرة،

فباركوا لنا مسيرتنا على دروب المحبة نلتقى، وفى زوايا الإيمان

نتعاقق ، ومن نهر العطاء نعطي ، وعلى ينبوع الصفاء نقف..

نحن جزء لا يتجزأ من المجتمع العالمى، ويا وفودنا مرحباً بكم..

إشربوا ماء نيلنا ، وسوف نحبكم وتحبوننا.. ويكون السودان

شوقكم ، وإستراحتكم.. وموضوع صلواتكم ، وبشروا..

وبشروا بما ترون..

أكرزوا بتعايش سوداننا..

وأشروا رؤياكم..

فى إعلام صادق نزيه..

فالإعلام اليوم هو..

أفيون الشعوب..

بارك الله فيكم ، وجمعنا معاً على أرض السودان ونحن نحتفل فى البيت

الكبير بعودة أخواننا إلى صفوفنا ، ومعكم وبكم يبدأ شمس مستقبلنا فى الإشراق..

ويبدأ مشوار تنميتنا فى الإنطلاق.. ونهار أملنا فى الإنبثاق، ونخطو.. ونخطو..

فوق هامات الزمن وليحقق الله آماتينا..

ولكم تحيات أعضاء اللجنة التمهيدية لمؤتمر حوار الأديان..



## ٤٦. في مادبة إفطار رمضان

سعادة رئيس الجمهورية.. أبداً حديثي بالتهنئة لكم ولكل شعب السودان ، بشهر رمضان ، شهر التوبة والغفران، شهر الصوم والإيمان ، الشهر الذي تعتزون به، وتعتزون بنهاره ولياليه.. وتؤمنون بأن ليلة واحدة هي ليلة القدر أعظم من ألف شهر.. وما هي ليلة القدر ؟.. أليست ليلة تنفتح فيها السماء أمام مطالب بنى البشر ؟ ، إن ليلتنا هذه هي ليلة القدر، هي ليلة عظيمة القدر.. لأن السماء لا يفتحها سوى المحبة، ونحن اليوم في ليلة المحبة نطرق أبواب السماء، نطرقها بالمحبة، ندق أبواب السماء بقلوب قد تواددت، وتعايشت ، وتحابت، رغم اختلاف الدين تجمعنا المحبة، ويجمعنا الإيمان بالمحبة طريقاً ليس سواه لحياة هادئة مطمئنة في كل تقوى ووقار، كل واحد يقبل الآخر على ما هو عليه فيما يسمى عندنا « لاهوت القبول ».

نحن اليوم نحتفل بالتعايش في السودان التعايش، نحتفل بالمحبة في السودان المحبة، نحتفل معاً ، مسلمين ونصارى، أتباع محمد الكريم، وأتباع يسوع المكرم، ينبوع المحبة الذي كانت المحبة في أجندته السماوية لأرضنا البشرية.. ولقد علمنا يسوع المحبة، وأحب هو حتى المنتهى، وهكذا أحب الله العالم ، وأحب يسوع العالم ومات على خشبة الصليب لكي يدفع كحبيب ثمن المحبة العجيب الدم الذكي الثمين، ويأتى إحتفالنا لهذا العام.. في هذا الصرح العملاق.. النادي القبطى..

الذى هو صورة حضارية لشعب متحضر.. الذى هو نموذج ثقافى لشعب مثقف.. الذى هو نموذج روحى لطائفة قبطية تعشق الروح وتعالى من شأن الروح.. وهؤلاء ياسيدى الرئيس هم الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط.. الشعب المتمدن.. الشعب المتدين.. الشعب العريق.. وأبناء الكنيسة القبطية يحملون عبق التاريخ.. وعشق الأيام العنيفة.. ورائحة الأزمنة القديمة.. هم تاريخ للحضارة.. وحضارة فى التاريخ.. وهم هنا رواد فى الزراعة والصناعة والتجارة والإدارة والمعمار والمهارة..

هؤلاء هم الأقباط الذين أوصاكم بهم رسولكم الكريم خيراً.. أوصيتكم بالقبط خيراً لأن فيهم نسباً وصهراً.. فلقد بكى الرسول بدموعه على ابنه من مريم القبطية ، ابنه إبراهيم وقال : لو عاش إبراهيم لكان صديقاً نبياً ولأعتق أخواله من القبط..

وإبراهيم كان ابن مريم القبطية زوجة الرسول التى كانت لها مكانة كبيرة فى قلبه مثلما غزال المسالمة الذى تغنى له المغنى : لى فى المسالمة غزال شارد با غنى عليه..

وعندما تحدث القرآن الكريم عن المسيحيين كان يقصد الأقباط فهم أقربهم إليكم مودة.. ومنهم قسسين ورهبان.. والرهبان هم رهابين الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط الذين منذ عام ١٨٩٨م أى ما يقرب إلى قرن كامل قبلكم بمائة عام عقدوا أول زواج جماعى قاده القمص فلتاؤوس قلادة فى منزل يسى تاوضروس فى المسالمة، ونفذوا طموحكم.. هؤلاء هم الأقباط الذين إعترف لهم الأستاذ بدرى ، ومن بدرى فى حفل لتأبين « جيمس كرى » أول مدير للمعارف السودانية، وقف أحد الخطباء يحيى دور هذا الأستاذ الإنجليزى فأنبرى له بابكر بدرى شيخ التعليم وقال للتاريخ: أنا اذكر إن أول من أدخل التعليم فى السودان هم الأقباط بإنشاء الكتاتيب..

أما إسماعيل الأزهرى فلم يكن إفتتاحه لكنيسة الشهداء هو كل مساهماته، إنما عندما كان سكرتيراً للجمعية الأدبية تحدث فى ندوة عن دور الأقباط فى التعليم، وقد كان مدرساً عام ١٩٣٢م وذكر أسماء الأساتذة الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط الذين تغنى بهم شعراء السودان.. تغنوا بجمالهم ، وتغنوا بإيمانهم ، وتغنوا بطهارتهم، وعذوبتهم..

هؤلاء هم الأقباط الذين حملوا هموم الوطن ، وعاشوا فى محبة الوطن ، وأحبوا ترابه ، وعشقوا هبوبة ، وذاقوا حلوه ومره ، وعاشوا الحلو المر ليس فى شهر رمضان ، إنما فى كل شهور العام.. هؤلاء هم الأقباط الذين إستشهدوا فى المهدية ، وإستشهدوا فى أكتوبر ، وشاركوا فى كل تحركات وطنية ، وعبروا عن نبض الشارع السودانى..

شاركوا فى ثورة ١٩٢٤م ، وكان من روادها وهبة حنا الجد الأكبر لعائلة حنا إبراهيم ، وهو شقيق حنا إبراهيم.. والذى يسجل إسمه الان فى سجل رجال ثورة ١٩٢٤م التى اندلعت فى السودان ضد ما عند مستعمر من الطغيان ، وسرعان ما إنطفات وقدم رجلها للمحاكمة فأتى أقباط من مصر محامين نبهاء يدافعون عن إخوانهم المسلمين والأقباط الذين قادوا ثورة ضد الإستعمار.. هؤلاء هم الأقباط الذين يفهمون كيف تكون المشاركة ، هم لا يحبون أن يكونوا



وقوداً لحروب غير عادلة، ولكن يحبون أن يكونوا فداءً للوطن في قضايا النبلية..  
فلقد شاركوا في مصر في ثورة ١٩١٩م ، وفي السودان في ثورة ١٩٢٤م ، بل  
إن أكبر زعيم قبلي في ثورة ١٩١٩ في مصر هو رجل خدم في السودان ، وبدأ  
نهضة روحية فيه ، وهو القمص سرجيوس ..

ودعوني أحدثكم عن القمص سرجيوس ، خدم في السودان من ١٩١٠-١٩١٤م ،  
وطرد من السودان ، طرده الحاكم الإنجليزي لأنه شعر بجرأته ، وبإقدامه ،  
وبجسارته ، وبثوريته ، فأرسله إلى مصر لكي يدق المستعمر بنفسه مسماراً في  
نعشه ، فلقد كان القمص سرجيوس أبرز زعماء ثورة ١٩١٩م ضد الإستعمار..  
وقف يخطب خطباته الوطنية في الأزهر الشريف ، ورفع شعار الصليب مع الهلال  
(المريخ لا يزعل) ، وفي ميدان باب الحديد كان يتكلم ضد الإستعمار ، وسأل سؤالا :  
لماذا وجه الإنجليزي تعلقه الحُمرَة الشديدة ؟ وانتظر الإجابات : البعض قالوا :  
لبرودة الجو.. لأكل التفاح .. للراحة التي يعيشون فيها .. ولكنه قال : كلا لأنهم  
يمتصون دماء المصريين..

لقد عاش سرجيوس حتى ثورة يوليو التي بعد أن إعتقلته تحفظياً ، سمّت شارعاً  
باسمه ، هؤلاء هم الأقباط ، لا يزعمون ولا ينزعجون ، لا يزعمون الحكومة ، ولا  
ينزعجون من الحكومة.. وليست لديهم صراعات ، ولا يرغبون في المناصب ، بقدر  
ما يخدمون ، ولا يرغبون الحقوق بقدر ما يؤدون الواجبات ، ولو كانت الكنيسة  
القبطية لها فروع في الجنوب لتغير الأمر لأن القبطي يحترم الحكومة ، ويحترم  
الحاكم ، وهو ذكي ، لبق يعرف كيف يتعامل مع الحكام ، ولو كنت من الحكومة  
لقدمت مليار جنيه للكنيسة القبطية لتأسيس كنائس في الجنوب..

وسوف تجنى الحكومة ثمار هذا العمل الروحي من كنيسة لا تقحم نفسها في  
السياسة ، كنيسة تتكلم العربية ورجالها أكثر إتقاناً للغة العربية وكأنهم خريجو  
الأزهر.. ولو كنت من الحكومة لمنحت الكنيسة القبطية أرضاً لبناء كنيسة في الثورة  
، وأخرى في أم بدة ، وثالثة في مدينة النيل ، ورابعة في الرياض ، وخامسة في  
أبو آدم ، وكنيسة في جبل الأولياء ، وفي مدن النازحين ، وأنا لست الحكومة ولكن  
الحكومة هنا تسمعي ، وتسمع كلماتي وأمنياتي..

هؤلاء هم الأقباط ، الذين وصفهم محمد حسنين هيكل في « خريف الغضب »

بالأمانة ، إنهم أمناء ، رأسمالهم أمانتهم.. كان العمدة مسلماً ، والصراف قبطياً  
، لماذا ؟ لأنهم أمناء وهم أمناء على السودان وعلى مصالح السودان ، فالمرقب  
المالي للثورة المهدية هو إبراهيم بك خليل ، وصرافو البنوك ، ومدراء المال هم  
من الأقباط.. وهم أمناء ، وخبراء ، خبراء أمناء ، ورواد أوفياء ، فأول طالبة  
جامعية هي أنجيل إسحق ، وأول طبيب أسنان هو الدكتور الفونس ، وأول مهندسة  
سودانية هي هدى حبيب ، وأول تاجر متحضر ، وأول مزارع هو سعد صاحب مدينة  
القضارف قزروف سعد ، وأول نساج ، وأول مصنع نسيج بل صاحب أكبر مصانع  
نسيج هو زميل صباكم في مدرسة شندی بسخيرون إبراهيم ، وأول معلم هو الأبا  
صرابامون ، وأول ناظر هو القمص يوحنا سلامة ، وأقدم خلوة هي خلوة بولس ،  
وأقدم محطة أتوبيس هي محطة مقار بشارع الحرية..

هؤلاء هم الأقباط ، إيجابيون ، ومشاركون ، محبون ، وديمقراطيون.. هم في  
إيجابيتهم يعملون ، ولذواتهم ينكرون ، لا يصيحون ، ولا يجععون ، ولكن يعملون  
في هدوء مثل ندى المطر ، وشعاع الشمس.. هم يعيشون الديمقراطية في كنيسة  
كانت الديمقراطية فيها على أشدها ، بينما الحكام كانوا في أقسى صور الإستبداد  
، هكذا تحدث هيكل عن الكنيسة القبطية كممثل كبير للديمقراطية ذات الممارسة  
المسئولة.. الكنيسة لا تفرض على أولادها فكراً معيناً ، أو حزباً سياسياً ، كلا..  
في الأقباط من كان إتحادياً ، وفيهم من كان شيوعياً ، وفيهم الأنصار الذين  
لبسوا جلابية ذات بابين ، وجهها مثل ظهرها.. والأقباط يتعايشون ولأجل التعايش  
يتهاشم الناس عن قسيس الجبهة القومية الإسلامية ، وهو رجل يعشق المحبة..  
وينادي بالحوار ، ويهتم بالقواسم المشتركة بين المسيحيين والمسلمين لكي يتعايشوا  
، ويتوادلوا في سلام أهل المسالمة..

ونحن مازلنا ياسعادة الرئيس ، أن تعود الأيام ، وتعود الديمقراطية ، وتعود  
الأحزاب ، ويعود الرأي الآخر ، وتعود المعارضة بمقاعد في البرلمان حتى لا يحنطنا  
الرأي الواحد في قوالب مملّة.. والأقباط يتمنوا أن يتوقف الغلاء ويتحقق الرخاء ،  
والوفاق والإتفاق على أيديكم المباركة ، وننتظر عودة الأقباط الذين هاجروا بالآلاف  
مثلاً عاد الجنوبيين بالآلاف ، والأقباط يحبون المسلمون ويتعايشون معهم ، وأنكر  
ذات مرة وفي بيتنا المتواضع ، وفي عيد من أعيادنا كانت في زيارتنا أسرة من



أخواننا المسلمين ومعهم أطفال هم محمد ، وأحمد ، ووقع محمد وهو يهرول في البيت وخافت عليه الأم المسيحية فقالت : بسم الصليب عليك يا محمد ، وهي تعتر بالصليب ، وسمت عليه طالبة أن يستتره الصليب ، وينقذه الصليب..

وأذكر يوم رسامتي كاهناً وعند دخولي للكنيسة لاقاني الخفير : اللهم صلى على النبي ، والأقباط يعتزون بمصر ، وبالعلاقة بمصر ، ويحلمون بأن يتحقق على أيديكم عودة المصريين الذين خدمونا ، عودتهم مدرسين في مدارس البعثة ، وأساتذة في جامعة القاهرة ، وموظفين في الري المصري ، وعلى أيديكم تتم عودة العلاقة بين مصر والسودان.. وتعود الأيام ، وتعود الأملاك المصرية لمصر ، ويعود المصريون يملأون شوارع عواصمنا المتحضرة ، ويساهمون في بناء نهضتنا ، ويملأون كنائسنا وجوامعنا..

#### ٤٧. بطريرك إثيوبيا في بلادنا

الضيف والمضيف: بدعوة كريمة من السيد رئيس الجمهورية عمر البشير جاء إلينا الضيف الكبير أبونا باولوسن بطريرك إثيوبيا والذي يرعى رعاية روحية لشعب قديم أصيل، ولعدد من المواطنين يصل إلى الخمسين مليوناً يحترمون ويجلونه ويستقبلون منه نفحات الروح القدس، وكانت الزيارة لمدة أربعة أيام من ١١ - ١٥ يناير ٢٠٠٧ م ، لقد أسعد الرئيس مليوني إثيوبي في السودان ، كما أسعد ملايين السودانيين الذين رأوا في هذا الرجل العظيم صورة حياة للملك المسيحي النجاشي الذي لا يظلم أحد عنده، والذي استضاف المسلمون الأوائل أثناء هجرتهم إلى الحبشة في الأيام الأولى للإسلام..

وقد كان البطريرك متعاطفاً جداً مع قضايانا الوطنية، فقد قال : إنه ابن أفريقيا ، وإن أبناء أفريقيا وحدهم القادرون على حل مشاكل أفريقيا ، كما قال : إنه يؤمن بدور دول الإيقاد ومقدرتهم على تجاوز الاختلافات ورسم خطى السلام ودعم المحبة في أفريقيا.. وبطريرك إثيوبيا هو الآن رئيس مجلس الكنائس العالمي وعضو فاعل في مجلس كنائس كل أفريقيا ، ولقد كان يؤكد دوماً إنه في وطنه وبين أخوانه، وإن أفريقيا كلها كان يطلق عليها إثيوبيا أي ذوى الوجوه المحروقة، ولهذا الحديث مراجع تاريخية عديدة من بينها ما كتبه نعوم شقير، وما كتبه بروفيسور العقيد ، وغيرها من أساتذة التاريخ..

ولقد زار البطريرك المتحف القومي ، وكان في إستقباله حسن حسين إدريس مدير المتحف وجمال البطريرك ليرى تاريخنا الخالد في آثارنا المجيدة ، ورأى في آثارنا عصا الرعاية التي تشبه عصاه ، ولوحة البلاد الممتلئة أسراراً والتي ترسم المسيح طفلاً في قمة اللوحة تأكيداً لمكانته اللاهوتية العظيمة ، ولوحة الثالوث المقدس التي أبدع فيها الفنان النوبي الإثيوبي القديم والتي يتميز بها الفن الإثيوبي، ولم يرسم مثلها أي فن مسيحي آخر..

وقام الضيف الكبير بزيارة مجموعة جياذ وقال: إنه قد تملكته الغيرة أن يكون في بلاده مثل هذا الصرح الصناعي العظيم ، وأجابه مدير المجموعة الأستاذ أحمد عبد الرحمن : بأن هذا هو الهدف والرؤيا أن تتكرر التجربة في كل بلدان أفريقيا بل في مختلف ولايات السودان ، وإستقبل رئيس الجمهورية ضيفه الكبير بالحبور والسرور والسعادة والرضا، وكان الحديث فياضاً مشوقاً عابراً إلى التاريخ القديم مؤكداً العلاقات الطيبة الحميمة بين شعبي السودان وإثيوبيا..

وقد التقى البطريرك بوزير الخارجية الدكتور لام أكول الذي أوفد سفيره حسن فقيرى ومساعدته عبد الدائم للإشراف على رحلة الضيف الكبير.. والتقى أيضاً بمستشار الرئيس الدكتور بروفيسور أحمد على الإمام والذي كان الحوار معه لطيفاً طاهراً نقياً نظيفاً مرحاً.. وإستقبلته وزارة الإرشاد وكان معه ملازماً له الأسقف إيدى أمبروز مدير مكتب الكنائس بالوزارة ، ورسالة البطريرك كما حددها هو رسالة السلام ونشر ثقافة السلام ، وإيجاد أرضية قوية للسلام ، والذي هو عطية إلهية جاءت إلينا من الله رئيس السلام وملك السلام ، والذي وهبنا سلامه الذي يفوق كل عقل ..

ودعى قداسته إلى تضافر الجهود من أجل السلام لأننا إذا حققنا السلام فقد ملكنا كل شيء ، وقال : إنه يثق وبشدة في حكومة السودان وسعيها نحو السلام وتعاطفها مع قضايا السلام..

كرسى اليونسكو للتعايش: وقدمت بروفيسور فاطمة عبد المحمود رئيس كرسى التعايش الدينى لليونسكو ضيفنا الكبير في محاضرة عنوانها « المسيحي والآخر » وسط لفيف كبير من المسؤولين والمواطنين ، وأبناء إثيوبيا بالسودان والذين عطروا قاعة الصداقة بأجمل الترانيم بصوت أفريقى عذب ، وقال قداسة البطريرك



: إنه سعيد أن يلتقى باهله لأننا كلنا إخوة ، وإن الله قد خلقنا جميعاً لكي نعبده ونمجده ، وكلنا من دم واحد وطبيعة إنسانية واحدة ، وإن الناس يختلفون ولكن كلهم واحد ، وقال: إن إيمانه ودينه وعقيدته يطلبون منه إحترام الآخر ، وحب الآخر.. وعدم إدانة الآخر ، وإننا نحتاج إلى أن نكون متحضرين ونعترف بالآخر ، وبأننا لسنا أحسن ولا أقوى ولا أعظم من الآخر ..

وينبغي أن تهدف التربية الأسرية إلى حب الآخر لكي نبرهن أننا جميعاً أولاد الله ، وقام البطريك بالتجاوب مع دعوة نيافة الأنبا إيليا أسقف الخرطوم إلى المطرانية ، وهناك أستقبل البطريك إستقبالا حافلا وصمم أسقف الشباب الأنبا موسى والذي حضر لتقديم جوائز مهرجان قداسة البابا شنودة لأبناء المطرانية ، أن يقوم البطريك الإثيوبى بتقديم بعض هذه الجوائز بنفسه ، وتحدث الأنبا باولوس عن العلاقة الطيبة الدافئة الحنون التى تجمع كل أبناء مارمرقس كاروز أفريقيا من أقباط وإثيوبيين.. وعاد البطريك بالسلامة تمتلئ حقيقته بالإستعداد لزيارة أخرى

## ٤٨. أم درمان الأصالة والتراث

وحى الإستفزاز: زميلى وصديقى خريج جامعة القاهرة فرع الخرطوم إستفزه شعار الخرطوم عاصمة ثقافية وهو من سكان أم درمان التى سكنت مشاعره وقلمه وعرقه وأدبه.. وكان الإستفزاز بالنسبة لعالم فى قمة بروفيسور أحمد إبراهيم دياب وحياً وإلهاماً للكتابة عن أم درمان ، فأخرج كتابه الصغير « أم درمان بقعة الأصالة والتراث والثقافة » وليس هناك أى مانع أن يتحمس الإنسان للمكان ، فانا حتى الان أزور بيتى القديم الذى ولدت فيه وأستعيد أجمل الذكريات.. وأقف فى وقار وإحترام أمام بيت أنسابى فى الخرطوم بحرى وأقول : مررت بدار ليلى.. وطبعاً زوجتى ليس إسمها ليلى إنما بحسب تأوهات الشاعر العربى..

وهنا أذكر كلمات عبد المنعم على الأمين فى رسالته الحميمة لصديقه حسن أبشر الطيب ، والتى يذكر فيها إنه دلف بلده بربر من مدخلها العتيد المخيف منتصف نهار رمضان وكانت المدينة ساكنة كعهدها ، حبلى بسرها الأزلى ، لا تبوح بعبقها إلا لمن يعرف سره ، وأخذت أفكر كثيراً فى سر ذلك الارتباط الذى لا أدرك كنهه بين الإنسان والمكان.. ويستمر مؤكداً إنه كان كثيراً ما يخفى عن أصدقائه تحركاته

مثل أن يكون من بين أهدافه زيارة أم درمان الذهاب إلى مدرسة التجارة الثانوية القديمة والداخلية التى كان يسكن فيها أو التسلل إلى المدرج ١٠٢ بكلية الآداب جامعة الخرطوم..

كان يخفى هذا بحسب ما قال: لنلا يظن أحد أن به مس من جنون أو يوصف بأن هذه حالة مرضية ، ولكنه يعلن دوماً إنه متيم بحب بربر.. وهنا أتذكر حديث بروفيسور عون الشريف عن السودان وعبقريته المكان.. وفى قلب كل واحد فينا أماكن لها رائحة ذكية نطلق العنان لخيالنا لكي نذكر كيف عشناها ؟ وكيف كانت ولم تزل لها مكانة فى قلوبنا ، وهنا نعطى عذراً للشاعر الذى قال ك إنه يقبل ذا الجدار وذا الجدار..

وهناك أماكن يحج إليها الإنسان لكي يتذكر ما فيها من أحداث غيرت مجرى التاريخ مثل : القدس الشريف ، والكعبة المكرمة.. وأملى أن يمتد بى العمر لأرى القدس الشريف وأسير فى خط سير المسيح، وفى دربه المقدس.. وهذا لن يحدث إلا إذا وجدنا الحل لمشكلة فلسطين ، وتمكن العالم أن يقتنع الناس بالعيش المشترك فى إحترام متبادل فى أقدس مكان عرفه الإنسان..

وله الحق بروفيسور إبراهيم دياب فى محبته لأم درمان وحماسه لها وكلما دخلت أم درمان شعرت بهيبة المكان ، ووقار الذكرى ، وعظمة الأحداث.. فهى ملاذ الغريب ، سياج الضعيف ، عليها من الحق نور مبین ، يا عطرها الشفيف ينشق النهار من شذاه أواه لو مرة أشمه.. أضمه.. ألمسه.. أراه..

الأصالة والتراث: والأصالة هى رائحة ذكية إنبعثت منذ أجيال ، وهى مستمرة لم تنتهى رغم قدم الزمان ، إنما شذاها يعطر الأجواء حتى الآن.. وهكذا تعتز أم درمان بالأصالة والتراث كما يعتز السودانى بلون بشرته ويؤمن إنه حبة سوداء فيها الشفاء من كل داء.. وتميز السودانى بنفسه بلونه الأسمر: أنا سودانى وسودانى أنا.. سودانى سود.. ليس السواد عيب للأسود.. أو كما يقول الشاعر الراحل محمد المكي إبراهيم :

هذا عصير الشمس فوق جبهتى..

هذا كساء أمتى..



هذا أنا قبل عامين كنته..

وبعد ألف عام أكونه..

حتى إذا أبيته أصونه..

وفي مقدمة كتاب دياب عن أم درمان يكتب قصيدة الشاعر فاروق جويده ويعتبرها تنطبق على أم درمان وفيها :

عشقتك صدراً رعتاً بدفء وإن طال فينا زمان الحنين  
فلا تحزنى من زمان جحود أذقتك فيه هموم السنين  
تركنا دماءك فوق الطريق وبين الجوانح همس حزين  
ثقافتنا فينا هي بين الحنايا لتحمى العرين فلا تستكين  
سبقتك تراثك رغم الجراح يضيء الطريق على الحائرين  
ستبقى أصالتك بيت الغريب وسيف الضعيف وحلم الحزين  
سبقتك فكرك رغم الليالي ضياء يشع على العالمين  
وتمتلئ صفحات الكتاب عشقاً وولها.. وحماساً ملتهباً.. وغيره غير عمية

على أم درمان.. ويبدأ بالتوجيه لنا أن نكتب أم درمان ولا نلصق أم بدرمان أى نقول : أم درمان وليس أم درمان.. ويرجع هذا الاسم إلى أن أهل مملكة علوة كانوا يسمون « درمان » DERMAN... وإن سيدة نوبية أو نوبوية كانت تسكن في المشرع التجارى أو الموردة التى تقع غرب ملتقى النهرين فى الشط الغربى للنهر ، حيث يأتى أهل وسكان غرب النيل بتجارتهم لبيعها أو تبادلها مع سكان شواطئ النيل وخاصة سكان توتى الذين يأتون بإنتاجهم الزراعى من الجزيرة للشط الغربى، بينما يدفنون موتاهم فى الشرق ويصلون فى الشط الجنوبى..

وقد وجد هؤلاء الذين يقدون للتجارة هذه المرأة " أم درمان " والتي هى أم لإبنها " درمان " وما زالت بعض قبائل النوبة حتى الآن تسمى درمان.. وتمر الأيام وتأتى مملكة الفونج فى أوائل القرن السادس عشر وتصبح أم درمان سوقاً تجارياً تمر به القوافل القادمة من سنار فى طريقها شمالاً لدنقلا لتلتقى بدرب الأربعين.. ويحكى عن السلطان تيراب فى القرن الثامن عشر إنه نزل إلى أم درمان لكى يعد العدة والعتاد للزحف على سنار ، ولكنه لم يتمكن ، مات فى يارا فى طريق عودته

لدارفور ، وبعدها حل الركاب السعيد للملك إسماعيل ابن محمد على الذى نزل بام درمان عام ١٨٢١ م ..

أما ثورة المهدي فقد قامت بدك الخرطوم دكاً ، وهدمها هدماً.. لتكون أم درمان هى العاصمة الوحيدة ، وقد فقدنا الكثير بسبب هذا، فقدنا تراثاً وتاريخاً وكنائس وجوامع.. وأذكر إن الكنيسة القبطية كانت فى مقر وزارة الكهرباء الآن.. ونحن مع بروفيسور دياب فى حبه وعشقه ووليه بام درمان..

## ٤٩. مأمون بحيرى الحكيم الساهر

العالم الآخر: رحل إلى العالم الآخر السيد مأمون بحيرى ، وهو رجل والرجال قليل.. لقد كتب عن نفسه إنه رجل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين ، والرواد هم حكماء هذا الجيل.. وثروتهم يربحها الأجيال القادمة ، ولأنهم يحملون هموم جيلهم والأجيال التى تاتى بعدهم فهم حكماء وهم ساهرون ، وهكذا كان مأمون بحيرى ، كان حكيماً وكان ساهراً.. والحكمة هى أم الفهم ، وأم العلم، وهى أيضا مخافة الرب لأن رأس الحكمة مخافة الرب..

ولأن الحكيم يهتم بالوطن بناءً وتنمية ورفعة وعزة ، فالحكيم يحيا حياة البر أمام الله، ويرى الله فى كل خطوة يخطوها ويعمل لله حساباً فى كل تصرف وسلوك لأن البر يرفع شأن الأمة وعار الشعوب الخطية.. والحكيم يتوجه نحو السماء طالباً الحكمة، وكقول يعقوب الرسول: إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يُعَيَّر ، ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخطبه الريح وتدفعه ( يعقوب ١: ٥ )..

والحكيم دوماً مسرعاً فى الإستماع مبطناً فى التكلم، مبطناً فى الغضب.. عندما ينفعل بهموم بلده ينفعل بحكمة وبدون توتر.. وفى ثقة وغير إرتياب أو شك لأنه يقصد مصلحة بلاده، والحكيم إنسان ساهر على حياته يقظ على المستقبل.. كان مأمون بحيرى هكذا كان يستيقظ مبكراً عند مطلع الفجر، ثم يصلى ، وبعد هذا يقرأ ويقرأ ، كان قارئاً فاهماً ، كان يخزن ما يقرأ فى أعماقه، وبعد هذا وجد خزناً يجعله يكتب فيكتب كتاباً قيماً هو « لمحات من تجارب رجل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين »..



وكتابه يُعد سجلاً تاريخياً حافلاً لأكثر من نصف قرن ، وعندما تقرأ كتابه تشعر إن هذا الرجل أمامك يحكى ويحكى، ويصور لك الأحداث التاريخية تصويراً بسيطاً جداً.. وكتابه يُعد مرجعاً تاريخياً لشاهد عيان يكتب إليك تجاربه فى تواضع العلماء، وحياء الحكماء..

أول تعارف: وكانت أول مرة ألتقى فيها بالسيد مأمون البحيرى قد جاءت بناء على طلبه، فلقد إتصل بى مكتبه عدة مرات يطلب منى مقابلة هذا الرجل العظيم ، وعندما كنت أتصل بمكتبه لا أحظى بلقياه على الهاتف.. فيعود يسأل عنى ولا يلتفتنى، ورأيت أن أتغلب على كل هذه العقبات فذهبت بنفسى إلى مكتبه ووجدته.. وقدمت له التحية والإحترام فقال لى : أبونا.. أنا الذى أريد أن أتى إليك فكيف تأتى إلى ؟.. وقلت: واجب على أن أتى إحتراماً لمأمون بحيرى ولمكانته فى قلوب المواطنين السودانيين وأنا معكم.. ورهن إشارتكم.. وتحت أمركم..

قال لى: أنا معجب جداً بما تكتب فى الجرائد اليومية وأنا أتابع ما تكتب.. وأحى لك هذا الدور المهم فى نشر المحبة فى قلوب كل الناس، وتعجبني جداً طموحاتك نحو وطن متقدم ، ونحو سلام كامل.. ولقد أعجبنى مقالك الأخير عن الفداء وحقوق الإنسان لأنك قدمت واقعة جميلة تؤكد إحترام الإنسان لأخيه الإنسان.. وأرجو أن لا تتوقف مقالاتك..

وكان حديث الأحد وقتها إتخذ من جريدة السودان الحديث عموداً إسبوعياً، وكان رد الكلام منى: إننى معجب أكثر بسعادتك ياسيد مأمون بحيرى ، ومعجب بالتوقيع الذى فيه إسمكم على الجنيه السودانى، فلقد كان الجنيه جنيهاً قوياً معافى..

بيت الحكيم: وبعد هذا صرت عضواً فى أسرة الحكيم الساهر، وكنت أذهب إلى بيت مأمون بحيرى لى أتمتع بأحاديثه وبسرده التاريخى لذكرياته السعيدة مع الوطن.. وعندما رحل عنا تألمت جداً ، وحضرت كلمات اليوم الثالث لرحيله وقد كانت كلمات مؤثرة، لم يقدر مندوب السلطان على دينار أن يكمل الكلام لأنه أجهش بالبكاء، ولم يقدر والى الخرطوم أن يستمر فى الكلام لأن الدموع كانت تحبس الكلام، فلقد كان هذا الرجل وسط أسرته رجلاً صادقاً أميناً كما كان هكذا مع وطنه..

ووالى الخرطوم الدكتور عبد الحليم المتعافى هو النسيب الحبيب لمأمون بحيرى،

فهو زوج إبنته « هند » وهى امرأة مثقفة واعية أخذت عن أبيها حكمته، فهى مثله حكيمة ساهرة على راحة زوجها وأسرته.. ولقد أهدتنى كلمات رثاء لأبيها قالت فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات رثاء لأبى مأمون

سيد الخُلم والأخلاق مفخرةً بكتك هند فما أقسى الزمان  
فى كل الرجال لا أرى لك مشابهاً ولا أظن وجود الزمان بشأن  
من كل الورى لا أرى مثل أبى يُشار إليه بالبنان  
ركيزة للعلم والأخلاق مجتمعة وبكل حُسن خصال هو مازدان  
فأنت يامن بكته عيني حزناً قلله دُرّك من حُسن معان  
وهبت جُل وقتك بل كل عُمر كل راحة غيرك حتى ذهبت للرحمن  
فَنَم قريـر العين هانيها فما جزاء الإحسان إلا الإحسان  
إلى جنات ربى بإذن بارئها وعزائى فيك يا عفيف اليد واللسان  
هو (لمحات) كتابك الذى سطرته قبل الرحيل من هذا الزمان الفانى  
وأن فقدك ليس صعب على وحدى بل على كل من عرفك من بنى الإنسان

وإلى لقاء

إبنتك المُحبة

هند



## ٥٠. يوسف ميخائيل

كتاب للسودان: في عام ٢٠٠٤ م أطل علينا مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى بكتاب قيم من السودان وللـسودان عنوانه «مذكرات يوسف ميخائيل».. التركية والمهدية.. والحكم الثنائى فى السودان شاهد عيان.. وقام بتقديم هذا الكتاب وبالتحقيق فيه الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، ولأجل هذا الكتاب سار المحقق على الشوك فى متابعة وتدقيق وتحقيق لكى تخرج المذكرات بصورة ممتازة.. وأبو شوك السائر على الشوك لكى يخرج جواهر ولآلىء نفيسة هو حقوقى وأديب ومؤرخ وهو الآن أستاذ التاريخ والحضارة فى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.. وله كتب أخرى منها: «خزانة المسلمين العامة الميزانية الشهرية لدولة المهدية فى السودان».. محمد إبراهيم أبو سليم محققاً ومؤرخاً.. ومصدر هذا الكتاب ليوسف ميخائيل هو مخطوط خطه المؤلف بيده.. وقد أعد هذا المخطوط عام ١٩٣٤ م من ١٣٨ صفحة مرقمة بأطراد من واحد إلى ١٣٨..

ويرى البعض إنه لم يستعمل رقم ١٣ ولكنه كرر رقم ١٢، وربما هذا بسبب تشاؤمه من رقم ١٣ ويرى أبو شوك إن هذا الكلام مردود، وإن هذا الرقم موجود فى الأصل.. وفى المخطوط صفحة غير مرقمة وتحمل عبارات تقول: وما توفيقى إلا بالله، بمديرية كردفان، غردون السودان يوسف ميخائيل تحريراً فى ١٥/١٢/١٩٣٤م.. وإعتبرها صالح محمد نور من أوراق المخطوط وأخذت رقم ١٣٩.. وقد إستعمل يوسف ميخائيل القلم الرصاص وأحياناً قلم الكوبيا، وهو قلم يشبه قلم الرصاص ولكن كتابته لا يقدر أحد أن يمسحها بسهولة مثل قلم الرصاص..

والخط خط رقعة واضح ومقرؤ، وقد كان القدماء يجيدون الكتابة بخط مقرؤ، وأخشى على هذا الجيل ضياع هذه المقدرة، فلا توجد فى مدارسنا حصة خط وطبعاً خط هذا الجيل أن يولد فى تقدم الحاسوب الذى سوف يخلف جيلاً يقرأ ولا يكتب.. والمخطوط خال من علامات التنوين وإصطلاحات الضبط المختلفة، ويظهر على متن المخطوط وهوامشه بعض الكلمات الإنجليزية التى تبين أن هناك شخصاً قد إطلع عليه وحاول أن يترجم بعض مفرداته إلى اللغة الرئيسية..

وليس لهذا المخطوط عنوان رئيسى غير أن هناك إشارة ضمنية إلى عنوان المخطوط يقول فيها: إن محرر هذا التاريخ هو يوسف ابن المعلم ميخائيل مليكة القبطى السودانى، وإنه بعون الله وحسن توفيقه قد تم تاريخ حياته على جميع الوقائع التى حصلت على يديه والتى كانت فى زمن حياته.. وعلى صفحة الورقة عبارة «غردون السودان».. ولهذا حمل الكتاب عدة عناوين فيطلق عليه «أقلن» «السيرة الذاتية» «ليوسف ميخائيل» ويسميه «هولت» «غردون السودان»..

أما صالح محمد نور فينعت «مذكرات يوسف ميخائيل».. وقد تبنت طبعه دار النصيرى غير المحققة هذا المقترح وأضافت عليه عنواناً توضيحياً آخر «مذكرات يوسف ميخائيل عن أواخر العهد التركى والمهدية بالسودان».. أما أبو شوك فإنه يحبذ هذا العنوان ويضيف إليه «مذكرات يوسف ميخائيل شهادة شاهد عيان على التركية والمهدية والحكم الثنائى فى السودان».. وقد شملت فعلاً هذه المذكرات كل هذه الحقب الثلاث..

لغة المخطوط: ومخطوط يوسف ميخائيل كتب بلهجة عربية عامية تغلب عليها سمات اللسان الكردفانى، والذى يُعد موطناً خصباً لتنوع مفردات اللهجة العامية التى إتخذت من العربية الفصحى قاعدة لها، ثم جمعت بين دفتيها ألوان طيف شتى من اللهجات المحلية والمفردات المتنوعة بتنوع طبيعية الأنشطة البشرية وثقافة العنصر الوافد إلى كردفان من داخل السودان وخارجه، لأن كردفان كانت تعرف بأنها كردفان الغرة.. أم خيراً جوه وبره.. وطبعاً لو كان يوسف ميخائيل بيننا الآن لكان له دور كبير فى إسكات إحتراب دارفور، فلقد كانت له فى زمانه كلمة مسموعة..

وفى هذا المخطوط إبدال حروف بعض مفردات العربية الفصحى بحروف أخرى مثل الهاء محل الحاء، والتاء محل الشاء، والصاد محل السين.. وهناك إدغام فى حالات إلتقاء بعض حروف الجر، وحذف للهمزات بكل أنواعها وتحويل للحركة القصيرة إلى حركة طويلة وبين ثانياً المخطوط بعض المفردات التركية مثل: باشا، باشكاتب، إنما جبخانه، دفترخانه، طبرخانه.. وبعض المفردات السودانية مثل: عنقريب، وقربة، وبرمة، وفلقة، ومركب، وراكوبة.. وبعض المفردات اللاتينية المعربة مثل: كونتراتو، مكنة، ورشة، إستباليا.. والمخطوط فحواه قيم للغاية، وشكراً لأبو شوك، وشكراً لمركز عبد الكريم الميرغنى لإضاءة حول هذا المخطوط المهم والنافع والمفيد لكل مواطن سودانى..



## ٥١. أطفال يعقوب في بقعة المهدي

يهود السودان: عاش اليهود في السودان منذ أقدم الأزمان.. يحبون السودان وطناً وثقافة ومعايشة إجتماعية، وكانوا قد تكاثروا فيه، وكانوا يمارسون طقوسهم الخاصة ويحتفلون بأعيادهم اليهودية في عواصم الخرطوم، وكان إحتفال عيد الفصح يقام في منزل الحاخام اليهودي وكان يحضره كل اليهود تقريباً، ويأتى إليه زوار المدينة من اليهود وكل الذين لا يجدون مكاناً للإحتفال، وكان الطعام يقدم لهم أطباقاً يهودية مع التقاليد والأناشيد اليهودية.. وعندما هاجر اليهود إلى الخارج كان السودان لم يزل يعمر قلوبهم بمحبة أهله وكانوا يلقون كل سوداني بالترحاب والبشاشة.. وعندما خرجوا من السودان صودرت جوازاتهم ولكن لا أحد يقدر على مصادرة محبة لوطن عزيز عاشوا فيه وعاش فيهم.. وما زلت أذكر مورييس جولدنبيرج اليهودي أخصائي النظارات في السوق الأفرنجي..

وأذكر جارا لأهل زوجتي هو شاوول وابنه طيب خريج جامعة الخرطوم، وأذكر إن شاوول كان يأتى لزيارة مطران الخرطوم الأنبا دانيال، وكان المطران يداعبه قائلا: ألا يمكن أن تتغير من شاوول إلى بولس، وهذا إشارة إلى بولس الرسول الذى كان يهودياً مدققاً فريسياً، وكان ضد المسيح له المجد وضد المسيحية، ولكن عندما كان ذاهباً فى طريقه إلى دمشق ليحصل على أمر من السلطات بالقبض على المسيحيين وزجهم فى السجون ليس لسبب إلا لمسيحياتهم وكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلا على تلاميذ الرب، لاقاه السيد المسيح وظهر له عياناً بيانياً وخاطبه: شاوول شاوول لماذا تضطهدينى؟ صعب عليك أن ترفس مناخس أى من الصعوبة أن تتحرك ضد إرادة الله.. وبغثة أبرق حوله نور عظيم وقال: من أنت يا سيد؟.. فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده.. فقال وهو مرتعد ومتحير: يارب ماذا تريد أن أفعل؟، فقال له الرب: قم وأدخل إلى المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل..

ووقف الذين معه صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً، أما هو فكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً.. وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب، بعد هذا فتح عينه على الطريق الجديد وصار مقدام المسيحيين وأستاذ اللاهوت عندهم.. لقد كان مطران الخرطوم يتمنى أن يتحول شاوول اليهودي إلى المسيحية مثل بولس

الرسول.. ولكن هذا لم يحدث وإلى أن إختفى أمام ناظري شاوول اليهودي كان يهودياً، ولكنه يحب أن يجالس مطراننا ويشارك فى صالونه الأدبي الذى كنا نحن فيه تلاميذاً نسمع الكبار يتكلمون ويتحركون ويختارون الكلمات الجميلة والسير العطرة والتاريخ المجيد لبلادنا المجيدة التى عاشت على أرضها الأديان فى ود وإحترام ومحبة وإنسجام..

أطفال يعقوب: عندما وصل اليهودي الدين، السوداني الجنسية إلياهو سولومون ملكا ابن الحاخام اليهودي فى السودان سولومون ملكا الثامنة والثمانين من العمر بدأ يؤرخ لليهود فى السودان ويحمل المؤلف إسم « أطفال يعقوب فى بقعة المهدي » اليهود فى السودان ورغم إعتراضى على كلمة أطفال ورغبتي فى إستبدالها بكلمة أبناء فإتنى أعتز بجهود الباحث المحترم مكى أبو قرجة وإهتمامه بإضاءات حول هذا الموضوع وهو يقول: إن المؤلف كان فى السودان فى ثلاثينيات القرن العشرين، وكان يغادر الخرطوم فى عطلاته فيزور فلسطين وهناك يلتقى بأناس معينين وينضم لتنظيمات شبابية تؤدى مهامها فى إطار الأهداف الصهيونية..

ويذكر مكى: إن إلياهو كان شديد الإهتمام بمشاركة السودانيين الأفراح والأتراح، وإنه شارك بكلمات فى حفل تأبين المرحوم محمد حاج الشيخ عمر المحامى وإنه ظل يحتفظ بذكرى الوطن الذى ولد ونشأ فيه وعاش حتى كهولته حاملاً جنسيته السودانية وشديد الإعتراز والإفتخار أن يقول: أنا سوداني.. ويقول إلياهو فى كتابه: إنه عاش حياة مترفة فى الخرطوم حيث كان موظفاً كبيراً فى شركة جلاتلى وإستمتع بأيام وليالى الخرطوم وهى فى عنفوان عزها الإجتماعى، وأتاحت له وظيفته السفر فى العطلات إلى أجمل بلاد الدنيا وتعليم طفليه فى أرقى الجامعات العالمية.. وتعد تجربته الشخصية هامة جداً فى تاريخ السودان حيث يقدم لنا معلومات عن اليهود وحياتهم فى الخرطوم، كما يفتخر بخدماتهم ويزهو بوطنيتهم وبأنهم قدموا أجل الخدمات للسودان.. وتحدث عن اليهود عند هجرتهم وكيف كانوا يحبون السودان حتى النفس الأخير ويعتزون بالأيام الجميلة التى عاشوها فى روع السودان، وطبعاً لولا الظروف السياسية لكانوا قد عادوا إلى بلادهم مثلما عاد كثير من أجناس غيرهم ليحيوا أمان السودان وآماله خاصة بعد دخول السودان مرحلة إنتاج البترول والذهب واليورانيوم، والتى لولا الحروب الداخلية لكان السودان فى مصاف الدول



العظمى، وأعرف أن السودان لا يرفض أحداً من أبنائه.. ومن يقبل إليه لا يخرج به خارجاً..

لقد كتب إليهم عن أجمل أيام العمر في الخرطوم بادئاً بعودة اليهود إلى اليهودية بعد انتهاء المهديّة على يد الإنجليز، ثم تكلم عن وصول الحاخام ملكا والده إلى أم درمان وتشيد الكنيس اليهودي بالخرطوم، وإن اليهود الهاربين من النازية لجأوا إلى الخرطوم مدينة الملجأ الآمنة.. وذكر رؤساء الجالية اليهودية خلال سبعة عقود، والنادي اليهودي بالخرطوم، وإن زعماء الصهيونية العالمية كانوا يزورون السودان.. وتحدث عن اليهود الأثيوبيين ويهود عدن وأرتريا ومصر، وكان له وقفات عند إحساس اليهود بتغير الأحوال والشروع في المغادرة وتتبع يهود السودان في المهاجر في إسرائيل، في الشتات، في جيش الدفاع الإسرائيلي، وعن تجربته في جلاتلي هانكي وزواجه وحياته في أمريكا وفرنسا والاحتفال بميلاده السبعين وعن المحاولات التي قام بها لإقامة نشاط تجاري مع السودان، وهذا هو السودان، وهذا بلاغ لكل الناس عن السودان الوطن الذي تعايش فيه كل الناس، مهما كانت الأحوال...

## ٥٢. المكتبة القبطية بالخرطوم

### وإفطار رمضان

أيها الأحباء.. نجتمع اليوم معاً في دار المكتبة القبطية بالخرطوم لكي نحتفل بمناسبة رمضان في دار عريقة لشعب عريق.. في دار الأقباط ذلك الشعب المتدين، والذي تدينه لا غبار عليه، تدينه تدين طاهر موجه نحو الله الذي بيده أمر حياتنا.. شعب ينتمي لكنيسة هي الكنيسة القبطية العريقة في التاريخ، العميقة في الإيمان، القوية في التقوى، الكنيسة القبطية التي صدرت للسماء أكبر الشهداء وأعظم الشهداء، الكنيسة التي زرعت الفضيلة، وعمقت المحبة، وجعلت للتوادم جذوراً وجسوراً..

فالأقباط هم سلالة الفراعنة العظماء، وهم سلالة حافظت على نفسها ولم يلوثها الاختلاط بالمستعمر وما أكثر من إستعمار الأقباط، فقد كان الأقباط يدفعون

الضرائب للإستعمار أمواله وجباية.. ولكنهم لا يتعاملون مع الإستعمار ولم يكن لهم في المستعمر نصيب ولا حسيب.. كنيسة متدينة، متمدنة، متحضرة، كنيسة هي أول من صلى لأجل الحكام، وأول من ركع أمام الله من أجل الحكومة، رسالتها هي الصلاة.. الصلاة لكي يحفظ الرب حكومتنا.. ويرخص أسعارنا.. الصلاة لكي يرفع الله عن العالم الغلاء والوباء والجلاء وسيف الأعداء وقيام الهراطقة..

وأقباط السودان هم حضارة في السودان، وهم تاريخ في السودان، هم تاريخ التقدم، فلقد حملوا أول ما حملوا لواء العلم، الذي هو في نظرهم أعظم ميراث حيث يقول المثل: القبطي علموهم ولا تورثوهم: وبنى الأقباط المدارس، وكانت المدارس في أروقة الكنائس، وكان التعليم كعبادة لله.. ولكن التعليم لم يقتصر عليهم، إنما كان تعليم لكل مواطن سوداني، مسيحياً كان أم غير مسيحي.. ودليلنا على هذا إن أول وزارة وطنية بعد الإستعمار كان منها خمس وزراء خريجي مدارس الأقباط..

ودخل الأقباط إلى ميدان التجارة، كافحوا بأمانة المؤمنين، وصدروا، وإستوردوا، وكانوا هم رواد إقتصاد السودان قبل أن يدخل المرض إلى إقتصادنا، وهم الآن ينتظرون تأشيرة الرئيس لكي يعودوا إلى ميدان الإقتصاد ويسيروا جنيها المريض ويضمّدوا جراحه.. ويوقفوه أمام الدولار العاتى الذي تسبب في الغلاء، الذي دمر طموحاتنا، وفتك بسلامنا، وحول أحلامنا إلى كوابيس مؤلمة حزينة..

ودخل الأقباط إلى ميدان الزراعة.. فالقصارف هي منطقة زراعية إفتتحها قبطي معروف يسمى سعد.. وسعد هذا هو جد مزارعي القصارف من الأقباط، وتسمى القصارف قضراف سعد، أي المكان الذي هاجر إليه سعد نظراً لبعد المكان.. وقد ساهم المرحوم دانيال رافائيل المزارع القبطي ببناء بنك الدم، وكان عندما ينزل إلى سوق الغلال في العاصمة ترتفع أسعار المحاصيل أو تنخفض تبعاً لإنتاجه..

ولقد إفتتح العم جريس غبريال مشاريع سمس خارج التخطيط وأبو سبكة وصار حامياً لحدودنا مع الحبشة، فالزراعة حضارة يفهما الأقباط جيداً من خلال شهورهم القبطية وفهمهم الكبير لمواسم المياه.. وذات مرة إنهمرت الأمطار في مشاريع سمس وإنقطع الطريق أمام العم جريس غبريال فأرسل إليه قائد اللواء الرابع «العميد ذهب» طائرة الإنقاذ.. وعندما بدأت ثورة الإنقاذ وأقامت أول عيد الحصاد إختارت مزرعة سعد رياض أرضاً للإحتفال..



وقد نال المرحوم الشاب إميل ميخائيل « كاس المزارع » الذي ما زال في حوزة أسرته حتى الآن.. وأذكر إن المرحوم إميل كان أول من أدخل وسائل الراحة إلى العمال ، وكان العمال في مزرعته يسمعون الإذاعة ويرون التلفزيون ويشربون ماء نظيفاً.. ويهتم برؤوسهم «جنيف» اهتماماً خاصاً بالعم جريس غبريال والد المزارع الكبير مكرم جريس.. وقد قام برؤوسهم « قتياف » بتشجير حزام الهشاب باسم جريس غبريال راغباً في أن يكون هذا تاج تكريم على رأس المزارع..

وإن نسينا لا ننسى رائد الزراعة المرحوم الدكتور وديع حبشى القبطى الأصل الذى ترك إغترابه وعاد إلى وطنه وزيراً للزراعة.. وهكذا أيضاً المرحوم منير إسحق أول وزير للزراعة لولاية الخرطوم.. ودخل الأقباط إلى ميدان الصناعة ، وإن نسينا لا ننسى المرحوم لبيب دميان ذلك الشاب الذى أعجب الإنجليز بذكائه ، فدرس الميكانيكا وبرع فيها ، وأيضاً المرحوم بسطا شاكر الذى كان أول رائد من رواد الصناعة فى عطبرة مدينة الحديد والنار..

وأقباطنا هم صنّاع حضارة.. وصناع مستقبل.. فلقد إمتلأت بهم الواوورات والسكة حديد بكل محطاتها المنتشرة فى ربوع السودان.. وبنى الأقباط حضارة السودان ، وبنوا الوزارات بما فيها من إرشادات ، وإرتفع البناء على النيل لأن الأقباط يعرفون كمهندسين كيف يثور نهر النيل أحياناً.. ولم يغمر بيت فيه قبطى من السيول لأنهم مهندسون متحضرون..

وقد شيد الأقباط الكنائس والجوامع، فجامع فاروق بنى بيد الأقباط، وجامع جوبا بنى بواسطة مهندسين أقباط ، وكنيسة الأقباط كاتدرائية العذراء مريم بنيت تحت إشراف مهندس مسلم هو « حمزة أحمد حمزة ».. هذا عدا الأطباء والصيادلة ودور العلاج ، وهم الآن يخططون لبناء أكثر من مستشفى قبطى فى أم درمان والخرطوم وعطبرة، وعدا أساتذة العلماء أجلاء فى المدارس والجامعات..

يا سعادة الرئيس : هؤلاء هم الأقباط ، حملة السلام ، دروع المحبة ، وسند الإقتصاد ، وهم رجال إدارة ، وبنوك لما عرفوا به أمانة واضحة.. ولقد أوصاك الرسول الكريم بهم خيراً لأن له فيهم نسباً وصهراً.. وأنت أهل لأن تصنع هذا الخير ، إرضاء لرسولك الكريم ، وتجاوباً مع وطنيتك الصادقة وإحقاقاً للحق إن الله يحب المقسطين

سعادة الرئيس :حول مائدة إفطار رمضان اليوم نلتقى.. وطعام الذين هم من أهل الكتاب حل لكم.. ونكتب معاهدة أهم بنودها ، المشاركة ، والتعاطف ، والتوادر ، والتراحم ، والتكامل ، أهم بنودها المحبة التى هى أساس البنيان ، والتى بها نبني السودان ، محبة لكل الناس ، محبة لا تجعل لنا بين الدول أعداء ، فأكثر ما يجرح ضمير المسيحي العداوة مع الآخرين ، لأن المؤمن ليس له عدو سوى الشيطان ، لهذا نحن نرفض أن يكون لنا أعداء فى أى مكان ..

نحن شعب سودانى يتغنى بالمحبة.. ويسرع إلى الميل الثانى ، ويصلى من أجل الأعداء لكى يبطل الله حسدهم ونميتهم ووشايتهم ، ويبدد مشورتهم مثلاً بدد مشورة أخيتوفل..

سعادة الرئيس: إن وثائق التعايش بين أهل السودان هى وثائق عديدة ، فالتعايش عندنا ليس بدلة أنيقة يرتديها الحاكم لىغضى على عدم أناقة عدم التعايش.. إنما التعايش طبيعة الشعب السودانى.. فأجدادنا زمان وصونا على الوطن.. وشعراؤنا وأدباؤنا يتغنون بالتعايش قبل أن يتغنى الشاعر بأن له « فى المسالمة غزال نافر يبقنى عليه »..

لقد إنتفت أزمنة النفور فى كل العصور.. إنها ليست فى أى من الدهور لأننا متعايشون.. والوثائق التى عندى عن جذور التعايش وجسور التوادر كثيرة.. هى فى تاريخ المسيحية ، وفى تاريخ الإسلام ، وأقدم لكم بعض نماذج منها :-

الوثيقة الأولى: المسيحية تستضيف الإسلام ، عندما بدأ الإسلام أعزلاً ، ولقى الرسول الكريم عنناً من أهله ، ومضايقة ومقاومة ، فغادر الرسول مكة ، وكانت مكة فيها فتنة على دين جديد ، ما جاء لكى يكون خلفاً للموحدين إنما جاء لينذر بالعقاب أمة جعلت الصنم رباً وإلهاً لها.. وذهب المسلمون إلى بلد فيها حاكم لا يظلم عنده أحد ، وكانت الهجرة إلى الحبشة ، وهناك لدى النجاشى سيد أقصوم وجد المسلمين مؤئلاً يقيهم فى ساعة البؤس ظلم بنى قومهم ، وحل المسلمون عند المسيحيين.. حلوا مكرمين على سعة فى ظل الملك ، ولما خمدت الفتنة فى مكّة رجع المهاجرون الأولون ومنهم من طاب له المقام هناك فظل مقيماً.. وحين قضى النجاشى حتفه صلى الرسول الكريم على نفسه فى البقيع معلناً أول حداد إسلامى على نصرانى مات ليلقى ربه ، وأحب الرسول وأتباعه نصارى مكة حباً



لا غش فيه ، وحفظ القرآن الكريم آيات كانت صدى تلك المودة الأولى..»  
ولتجدن أقرب الناس مودة الذين قالوا إنا نصارى ذلك إن منهم قسيسين  
ورهبانا وهم لا يستكبرون ..» وهذا اليوم مائدة الإفطار يزينها القسيسون  
والرهبان ، وهم لا يستكبرون ولا طاقة لهم أن يكونوا من المستكبرين بل  
هم إخوة لكم صمموا على ضيافتكم فى شهركم المبارك فى دارهم العامرة  
دوماً بمشيئة الله..

الوثيقة الثانية: وكفانا أن نقف عندها حتى لا تجرنا الوثائق إلى بطون  
التاريخ فى وقت يمل فيها الإنسان سريعاً من دروس التاريخ ، ووثيقتنا  
الثانية تقول : إن المسيحيين صلوا صلاة الفصح فى أول جامع إسلامى فى  
المدينة المنورة ٦٣١ م ، عندما أتى وفد نجران للتفاهم مع الرسول وأنت  
أيام عيد الفصح المسيحى فأعطاهم الرسول فرصة أن يصلوا عيدهم فى  
الجامع فى المدينة المنورة..

إنتهوا أيها السادة: المسيحية إستضافت الإسلام .. والإسلام إستضاف المسيحية..  
المسيحيون صلوا صلواتهم ورنموا ترانيمهم وأقاموا قداسهم فى الجامع عندما لم  
يكن لهم كنيسة يصلون فيها.. والمسلمون ذهبوا إلى الحبشة عند الملك المسيحى  
لكى يهربوا من غضب أهلهم من عباد الوثن..

وختاماً يا سعادة الرئيس..

كل عام وأنت بخير..

كل عام وكل السودان بخير..

كل عام والوطن صائم نحو الله..

متوجه نحو مواطنيه..

كل عام وسوداننا واحة للحرية والديمقراطية..

كل عام وسوداننا واحة أمن وسلام..

كل عام وسوداننا ينبذ الخصام..

ويبنى جسور المحبة والسلام ، فابتما عليك البلاغ وعلينا الحساب..

وأختتم بعبارات قالها دكتور عمر فى إحدى الليالى الثقافية فى نادى المريخ وهو  
طبعاً مريخابى.. وعندما حضرت للإحتفال رحب بى دكتور عمر بكلمات هى ترحيب

بكم وهى مسك ختام كلامى .. لقد قال :-

نحن أولاد الوطن الواحد..

متحابين من يوم ما قمنا..

عشنا حبايب..

ولسه حبايب..

لا إخصمننا ..

ولا إصادمننا ..

فينا مساجد بى تهليلا..

وفينا كنائس بى إنجيلا..

وفينا معابد يسرح ليلا..

ربنا واحد.. وشعبنا واحد..

وحبنا واحد.. لا يتجزأ ولا يتفرع ..

إن كل هذا يعنى إن السودان هو أطيّب أرض.. وأنسب مناخ.. لحوار الأديان..  
تحية من جمعية حوار الأديان ، إلى سعادة الرئيس.. إلى كل المسلمين.. إلى طائفة  
الأقباط.. إلى أسرة نادى المكتبة القبطية ، طالبين الشفاء لرئيسها السيد فاروق  
نظيم الذى وقع بالأمس هنا بسبب إرتفاع فى الضغط..

## ٥٣. المكتبة القبطية بالخرطوم بحرى و

### إفطار رمضان

سيدى الرئيس: ها نحن اليوم نقيم إفطار رمضان فى الخرطوم بحرى وناكل معاً  
أكلا حلال مائة فى المائة بحسب المواصفات القرآنية ، أولاً طعام أهل الكتاب حل  
لكم ، وبحسب المواصفات العالمية حيث يؤكد العالم إن السودان هو محطة التآخى



والتآلف ، وما فى السودان اليوم من تعايش أديان نموذج حى مشرق لعالم يحيا فى ضلال الإفتراق ويلتهب بنيران الإحتراب ..

الكل حريص على أن يكون معنا فلقد ألغى سفير الإمارات موعداً فى بيته لكى يكون معنا ونكون نحن معه .. هذه هى بحرى .. الخرطوم بحرى .. الحلفايا التى امتلأت يوماً بحلفاء النيل ، والتى تتمتع ببركات النيل ، ها هى بحرى ، مقار سيدهم ، وإسطفانوس سيدهم ، وزكرى بطرس ، وطانيوس موزه ، وعزى بطرس ، وفيلبس وفخرى سدره ، ووديع حبشى ، وونجت عبد السيد ، ويعقوب عبد السيد ، وعبد الشهيد واسخيريون الناسك العابد المتصوف الشفاف ..

ها هى الخرطوم بحرى التى شهدت أيام رهينة ... فهمى تادرس الراهب الوقور إيليا الأنطونى الذى صار معلماً من معالم بحرى ، والذى ساهمت ثورة الإنقاذ فى شهرته وإقتراب الناس إليه ، فعندما اندلعت الثورة وصدر البيان الأول وأعلن حظر التجول بدأ الناس يتفنون فى الحصول على تصاديق لكى يزوروه ويسمعوه ويسمعهم حتى مطلع كل فجر ، ويصلى لمرضاهم ، ويحل مشاكلهم الأسرية ، ويكتبوا اسمه على الركشات والحافلات ، وبعدها أشارت كل أصابع الناس إليه لكى يكون أسقفاً وعلى أسمى طراز للديمقراطية وافق البابا شنودة على رسامته أسقفاً بالرغم من أنه لا يعرف عنه شيئاً وفضله تجاوباً مع الديمقراطية على الذين يعرفهم من الرهبان ، وهذا نزولا على رغبة شعب السودان ..

ها هى الخرطوم بحرى التى إستقبلت ومنذ أربعون عام ، فى عام ١٩٦٤م شباب طموح نحو الروح .. ساهر نحو الأبدية الساهرة .. بدأ نشاطاً روحياً فيها وإستمر حتى الآن ، وهو الشباب الإكليريكي خريج اللاهوت الشماس سمير فرج واصف ، والذى خدم الخرطوم بحرى ، وقد عاش السودان الأحلام ، وهو لا ينافسكم اليوم فى الكلام ، إنما يشاغلكم ويثرى الحوار .. الخرطوم بحرى كانت تهرب من الدعوة لشعب ضيق المكان ، وأملنا سعادة الرئيس أن توسع تخوم المكتبة شرقاً وغرباً وشمالاً ويميناً أو تنقلها لمكان آخر ..

سيدى الرئيس: لماذا إخترتم الخرطوم بحرى ؟ هل لأنها فى جمال هواء بحرى ؟ هل لأنها تروق لكم ؟ هل لأنها رمز للسخاء فى العطاء ؟ هل عدالة فى توزيع الفرص ؟ .. كنت أسأل : لماذا يحب الرئيس بحرى هكذا ؟ وجاءتنى إجابات وإجابات ، وظننت

أن للرئيس فيها مآرب أخرى كأن يسير الخطوة الثالثة فعلا بعد مثنى حيث تاتى ثلاث .. ولكن ...

سيدى الرئيس: أنتم نموذج للسودان .. ويقولون: إن أصلح شخص يقود سفينة السودان فى المرحلة القادمة هو سعادتك .. وهذا رأى أوربا والأمريكان والعرب وأغلب ما فى العالم من بلدان ، ونحن نعتر بكم .. وبوجودكم معنا .. وسوف تستمر أحلامنا بمستقبل طموح ومجيد .. وسوف نستمر فى مطالبكم بحسم قضية دارفور مثلما حسمت قضية الجنوب .. وأنتم مستعدون لدفع ضريبة السلام حتى لو كانت ترك كراسى الحكم .. وقد بدأ النائب الأول متنازلاً عن مكانه لأخيه جون قرنق .. وسوف يستمر العطاء ليتحقق السلام فى السودان ..

سيدى الرئيس: كانت أحلامنا فى العام الماضى أن يكون معنا جون قرنق ، وأحلامنا فى العام القادم أن يكون معنا جون قرنق ورفاقه ، وأن يكون معنا أهل دارفور الذين لديهم قضية ويحاولون لفت الأنظار إليها ، ولا تدع سيدى الرئيس البقرات الضعاف تأكل السمان ، ولا السنابل الجوفاء تأكل السنابل الهيفاء ، ونحن من حقنا أن نحلم .. كان يوسف يحلم الأحلام الكبيرة رغم الظروف المؤلمة التى كان يحياها .. أخوانه باعوه .. ثانى رجل فى حكم مصر أودعه فى السجن ، ولكن الحمد لله خرج من السجن إلى العرش ، وسوف يخرج السودان من سجن المآزق والإحتراب إلى عرش الرخاء والطمأنينة بكم ..

سيدى الرئيس: نحن هنا السودان .. نحن كلنا أفريقيا .. أرض الخير أفريقيا .. وكأنى أقيف فى الدنيا وأقول : أنا سودانى .. ونحن نطالب سعادتك بتشكيل لجنة علمية لدراسة التاريخ المسيحي للسودان ، والذى أخذ من الزمان ألف عام .. ولدينا من العلماء من هم أكفاء لهذا مثل : دكتور يوسف فضل .. ودكتور ضغفرون .. ودكتور على عثمان محمد صالح .. وعون الشريف .. دفع الله الحاج يوسف .. والأب فانتينى .. ونحن مستعدون للتعاون مع لجناتكم العلمية ، وأقترح أن يرأس اللجنة دكتور حسن الطيب أبشر وهو سوف يكون الرئيس والعضو والكاتب والمؤلف .. لقد آمنت .. لقد آمنت بالمحبة والسلام .. بالتآخى تعايشاً ، طريقاً ، هدفاً بالأحلام السعيدة ..



سيدى الرئيس: لقد آمنت.. نعم آمنت.. آمنت بالحسن برداً.. وبالصباية ناراً.. وبالكنيصة عقداً منضداً من عذارى.. وبالمسيح ومن طاف حوله واستجاراً.. إيمان من يعبد الحسن فى عيون النصارى.. عيون النصارى التى تتطلع اليوم إليكم لتسمع كلمتكم وأنتم تتكلمون بالحسن وبالأحسن.. ويتعابنون الحسن فى عيون النصارى وهم حولكم فى مائدة إفطار رمضان مع إخوانهم المسلمين قلباً وقالباً.. تفضل سعادتكم..

## ٥٤. الشاعر توفيق جبريل

هنرى رياض: فى كل يوم يمر يزداد إعجابى بمولانا هنرى رياض ذلك الرجل العظيم الذى قدم للسودان كنوزاً من الفكر والرؤى.. وكتب فى القانون وهو قانونى ضليع، وكتب فى الأدب وهو أديباً متفوقاً ومتميزاً.. وله الفضل فى الكتابة عن بعض الشعراء مثل: التيجانى يوسف بشير، وتوفيق صالح جبريل، ولقد رحل عن عالمنا هنرى رياض عام ١٩٩٥م وأذكر إننى فى تأبينه قلت: إننا فى الشرق نضع الزهور على قبور العظماء بعد رحيلهم، ولكننا نضيّق عليهم الخناق فى حياتهم، وكانت هذه الكلمات جاذبة لمندوب صحيفة خليجية هو نور الدين مدنى وأتى بها فى الصفحة الأولى..

وأذكر يوم رحيله وكان مسجى فى كنيسة السيدة العذراء بالخرطوم وحضر عدد كبير من محبيه ومن رجال القانون، وكنت أقوم بإدارة الكلمات، وتحدث الأستاذ الأديب عبد الباسط سبدرات وكان وزيراً للإعلام وهو رجل قانون، وكان كلامه مهماً ومفيداً فى ذكرى القانونى هنرى رياض.. وقد أعجبت بكلمة سبدرات وقلت عنه: إنه خطيب الثورة، وبعد هذا وضعت ذكره فى بحر النسيان ولم يعد أحد يذكره بعد، وأذكر هنا ما ذكره سليمان الحكيم عن مدينة صغيرة فيها أناس قليلون جاء عليهم ملك عظيم وحاصرها وبنى عليها أبراجاً عظيمة ووجد فيها رجل مسكين حكيم فنجى هو المدينة بحكمته وما أحد ذكر ذلك الرجل المسكين..

وتعليق سليمان الحكيم هو: الحكمة خير من القوة، أما حكمة المسكين فمحتقرة، وكلامه لا يسمع (جامعة ٩).. وأعتقد أن هنرى رياض كانت حكمته فى أن يكتب ويترجم ومعه شريكة حياته أحياناً، وهو بهذه الكتابة وقف أمام الحصار، بل رفع

الحصار عن العقول والأفكار وحمل النجاة لمدينة الخرطوم وجاهد ضد إستبداد الملك العظيم وتمكن من هدم أبراجه العالية.. وكنت أتوقع وما زلت أتوقع أن نذكر معاً هنرى رياض، فى شارع بإسمه، فى كتاب يجمع فيه مؤلفات وإسهامات هذا الرجل العظيم الذى عندما رأيته إعتقدت إنه أحد النساك رهبان العلم، وقد كان هكذا دوماً يهتم بأن يقدم فكراً ويلقى الضوء على مسائل أدبية تشبع رغبة القارىء السودانى المثقف..

لقد كنت ومازلت متحمساً للكتابة عن الشاعر السودانى توفيق صالح جبريل ولكنى تحمست لمن كتب عن هذا الشاعر وأطالب الأستاذ إدوار رياض شقيق هنرى أن يجهز ملفاً قانونياً وثقافياً عن هنرى ويقدمه للسيد رئيس القضاء، وأنظر من رئيس القضاء أن نستفيد من هذا الملف..

توفيق جبريل: لقد كتب القاضى هنرى رياض كتاباً عنوانه: توفيق صالح جبريل شاعراً وثائراً صدر عن دار الجيل ببيروت ١٩٨٦م.. والكتاب كلمات ناصعة البياض على صفحات ليست ناصعة البياض.. وتوفيق جبريل من مواليد ١٨٩٧م فى دنقلا فى دار الهجانة، هناك حيث كان يعمل أبوه وكان له دور وطنى مرموق فى واقعة أمبقول عام ١٨٩٣م، وقد نجى بلده بحكمته، وقد رحل عن العالم الفاتى فى ٢٦/٤/١٩٦٦م.. بعد أن إشتد عليه المرض ولكن المرض لم يقعه عن النظم، بل إنه كتب أجمل قصائد شعره وهو على سرير المرض ولم يفقد روح السخرية حتى عندما تنبه إلى إنه تناول الدواء فى ذات الكوب التى كان يستعملها للشرب إذ قال:

لى ثلاث ما تذوقت سوى الماء القراح

وتجرعت الدواء المر فى أكواب راح

لا يقينى إن أتى البرد يقينى أو نواحى

وله صديق طبيب هو إسماعيل تايرى الذى كان يشرف على علاجه، وله مكان فى شعر توفيق فهو يقول له:

فلماذا لا تواسينى وداء الروماتزم

صير الجسم الذى قد كان عملاقاً كقرم



وقواماً سمهرياً عاد من نصب لجزم

كاد يقضى اليأس لولأملى فيك وحزمى

وكان توفيق جبريل وطنياً ثائراً وعندما زار اللورد النبى السودان فى أبريل عام ١٩٢٢ م لكى يؤكد لأهل السودان مساندة إنجلترا لهم ووقوفها فى صف السودان، وهنا أبدى شعراء بالترحيب الوقور به ضيفاً عظيماً وطالبوه بالتنمية والتعمير، ولكن توفيق جبريل كان له صوت شعراء عصره، ولكن كان الإستعمار يحكم قابضاً زمام الأمور، فكتب جبريل إلى جريدة الأهرام قصيدة دون أن يذكر اسمه ونشرت فى ١٩٢٢/٥/٢٦م يطالب فيها قومه أن لا يجرؤ الذيولا ويندهش من زيارة النبى وهو متشكك فى أهدافه لأن اللورد يريد أن يفصم جيلا موصولا بين مصر والسودان.. وأن اللورد سياسى ماهر كل يوم يبدو بثوب جديد.. وكان رأيى ضد رأى البنا وطميل الذين رحبوا باللورد وفى قصيدته يقول:

أيها القوم لا تجرؤا الذيولا

يأفف الحر أن يعيش ذليلا

ستمونا العذاب ضيقتم الأرض

علينا حتى هويننا الرحلا

ما إكتسبنا إلا الشقاء كسانا

سلا باليا وحسبما بخيلا

ويح قلبى ماذا يريد النبى

يوم وافى يجر سيفاً ثقيلا

جمع الجمع أهرب القوم حتى

أصبح السيد النبيل ذليلا

أتراه يريد يفصم حبلا

بين مصر وبيننا موصولا

## ٥٥. السفير الأديب جمال محمد أحمد

السفير الأديب: فى سفراء السودان الذين جابوا كل البلدان يحملون السودان فى قلوبهم العدد الكبير من الأدباء والشعراء ويتألق بينهم السفير جمال محمد أحمد الذى عندما قرأت له أسعدنى ما قرأت وشعرت بقوة الكلمة نثراً وشعراً ورواية وترجمة.. العالم كله محكوم بالكلمة... ومخلوق بالكلمة.. وفى البدء كان الكلمة.. والكلمة كان عند الله.. وكان الكلمة الله.. وكلمة الإنسان تحمل قوة المتكلم وبقدر ما يكون الشخص عظيماً تكون كلماته عظيمة..

وأذكر ذات مرة أن السيد رئيس الجمهورية كان يداعبنى فى حفل إفطار رمضان ويقول: إننى ينبغي أن أعطيه فرصة ليتكلم.. وذات مرة لم يحضر الأنبا دانيال مطران الخرطوم لإنتقال شقيقته فطلب الرئيس أن يذهب إلى المطران لتعزيته وكان معه وزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان، وهنا بدأ الرئيس قائلاً لمطران الخرطوم: إن على المطران أن يهوى فرصاً للأب فيلوثاوس فى محاضرات وندوات حتى يكون هذا له متنفساً لأنه لا يعطى للرئيس وقتاً للحديث.. وهنا قلت له: ياسيادة الرئيس إن كلام الرؤساء رؤساء الكلام.. إننى أتكلم كثيراً لكى أكون مقتعاً والمساحة متاحة لى للإقناع ولابد أن تكون كبيرة، أما سعادتكم ففى كلمات موجزة يمكن أن تكون معبراً لأن كلام الرؤساء رؤساء الكلام..

والكلمة دوماً تعبير عن قوة المتكلم، يقول المزمور: بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها.. وقد كان السفير الأديب متكلماً وكاتباً حتى رسائله إلى بيته وإلى أولاده كانت تعد قمة فى أدب الرسائل الذى كدنا أن نفقده اليوم مع تطور وسائل الإتصال.. وأذكر إننى منذ أمد بعيد لم أكتب رسائل وأكتفى بالحديث التليفونى، وقد صار التليفون تلفزيوناً ينقل الصوت والصورة.. إن جمال محمد أحمد من جيل الأدب والأدباء، جيل الكلمة، فلقد ولد فى عام ١٩١٥م فى سرة شرق ووافاه الآجل المحتوم فى عام ١٩٨٦م.. أما سرة شرق فقد إبتلعها النيل لأنها إحدى قرى وادى حلفا.. وقد بكى عليها جمال ورثاها بمشاعر صادقة، وعندما بنى بيتاً ليسكن فيه أعطاه إسم «سرة شرق».. كان جمال متوقد الذهن.. يقرأ ويكتب بشغف ونهم.. وكان يعطر أجواء لقاءاته بغزير ثقافته وأحاديثه الشجية وأروه الحكيمة، وروحه



العذبة المستتيرة، وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجساد..  
 اللغة الباهرة: قال مكي أبو قرجة: إن جمال محمد أحمد كان الألق الأفريقي واللغة  
 الباهرة، فقد كتب بلغة ذات ألق وبهرة، كانت مفرداته تأتي جديدة كان لم يكن  
 يتداولها الناس ولم تزخر بها المعاجم، كان يشحن كلماته بدلالات جديدة تختص  
 في يسر أفكاره ورؤاه فيتلاشى الشكل في المحتوى ليبرز نص إبداعي محير، كان  
 جمال عجباً متمهلاً في كل شيء.. كان يتقوى الكلمة بيديه، يتحسسها كأنما يعجن  
 صلصالا ويشكل.. حين ترجم أفريقيا تحت أضواء جديدة لبازل ديفيدسون ترجمها  
 ترجمة تجزم بأنها أغنى أسلوباً من الأصل أضاف بها إلى إسهاماته الكبرى في  
 الحياة الثقافية والكتاب ينطلق من تاريخ مروي والذي هو إنطلاق لحضارة أفريقيا،  
 وعندما تقرأ ترجمة نتمنى أن لا نفرغ من مطالعة ما تراه عيناك.. يجسد المعاني  
 فتتفجر الكلمات لتلف الأحاسيس جميعها كأنك ترى وتلمس وتسمع وتشم الشذى  
 والعبير لذلك الماضي التليد..

وإذا كان جمال قد رحل عن العالم الفانى عام ١٩٨٦م فإن أحداً لا يقدر أن  
 ينساه وقد سعدت جداً عندما بدأت أقرأ كتاب وليم آدمز « النوبة رواق أفريقيا »  
 والذي ترجمه بأسلوب جميل وقوى محبوب التيجاني محمود، ويعد أكبر تراجمه  
 المنشورة، وهو إصدار مطبعة الفاطيما إخوان عام ٢٠٠٥م.. والترجمة العربية  
 مهداه إلى روح المعلم جمال محمد أحمد ابن سرّة شرق.. سفير السودان، الكاتب  
 العربى، والمفكر الأفريقى الإنسان.. لقد كان جمال محمد من أوائل مثقفى نادى  
 الخريجين وساهم فى إعداد التصورات الخاصة بأهداف المؤتمر، وأبدى نشاطاً لفت  
 الأنظار وإستطاع أن يفوز بثقة الجميع، وكان صاحب وعى أفريقى مبكر..

كتب عن أفريقيا بقلبه وقلمه وكأنه شريك فى الأحداث، ولماذا لا يكون شريكاً  
 وهو الأفريقى المتطلع لأمجاد أفريقيا، وهو السفير الذى عاش فى أفريقيا، ووزير  
 خارجية السودان، والذي هو « بوابة أفريقيا ».. قال الطيب صالح عن جمال: إن  
 حديثه كان ودوداً وطريقته عجيبة فى الحديث ينسج غلالة رفيعة من المحبة، ويخلق  
 مناخاً من الآلفة، يستحضر أصدقاءه الغائبين، ويداعب الحاضرين، ورغم غزارة  
 علمه وتوقد ذهنه ورحابة آفاقه الفكرية فإنه لم يكن يتحدث عن الثقافة والأدب إلا

نادراً، وإذا فعل يلقي إليك بالأفكار العميقة جزافاً فى ثنايا كلامه العادى.. كان فى  
 سلوكه على سجيته تماماً لا يفعل شيئاً لا تألفه نفسه..  
 إن جمال محمد ثروة للحياة الأدبية والثقافية وله العديد من المؤلفات كتباً  
 ومقالات، وأذكر من كتبه « وجدان أفريقيا ».. « عرب وأفارقة ».. « سالى فوحر »..  
 « فى الدبلوماسية السودانية ».. وأذكر له مقال « السودان فى الفاتيكان » وكيف  
 رسم صورة جميلة للفاتيكان عندما ذهب بعد قرارات نوفمبر فى عهد عبود بإقصاء  
 رهبان الكاثوليك وإبعادهم عن السودان.. لقد ذهب جمال محمد أحمد لرأب هذا  
 الصدع فى العلاقات مع الفاتيكان الذى قدم للسودان شهداء فى نشر المسيحية ومن  
 بينهم دانيال كمبونى المدفون عندنا..

## ٥٦. أسير المتمهدى

جرجى زيدان: هذا عنوان رواية كتبها جورجى زيدان والذي عاش من ١٨٦١-  
 ١٩١٤م والذي كتب مجموعة روائية حول الأدب وتاريخ الإسلام، وكان نصيب  
 السودان من رواياته الإثنيين وعشرون رواية، روايتان وهما: « المملوك الشارد »  
 « وأسير المتمهدى ».. ورغم أن تعبير المتمهدى تعرض للنقد الشديد، ولقد  
 إستعمله أيضاً نعوم شقير ولم يسلم به جورجى زيدان من سهام الناقدين الذين رأوا  
 فى تلك المجموعة إفتراءات على الإسلام، ولكن مكي أبو قرجة لا يرى فى روايات  
 زيدان ما يشكل إساءة لمعتقدات والدليل عنده هو صدور عدة طبعات لمؤلفات زيدان  
 التى تحتل مكانها فى جميع المعارض بمختلف العواصم..  
 ويرى إنها قد ألهمت خياله فى مرحلة الطفولة وعبأت شعور ووجدان أجيال من  
 الأطفال العرب خلال العقود المتتالية للقرن العشرين، وقربت إلى الأذهان أحداث  
 التاريخ، ويقولون: إن جورجى زيدان عمل فى مخابرات الجيش البريطانى مثل نعوم  
 شقير، وهكذا تسنى له معرفة الكثير من تفاصيل الحياة السودانية وعلى الأخص  
 أحداث الثورة المهدية التى قدم لها وصفاً تمثيلاً لا تكاد تجده فى معظم المصادر  
 التاريخية..

ويرى أبو قرجة إن رواية « المملوك الشارد » والتى دارت أحداثها ما بين  
 مصر والشام وبلاد السودان كانت وقتها الرواية العربية فى مهد طفولتها وقتذاك



مجرد بناء سردي وحبكة تعتمد على العقدة التي تنفك عن نهاية سعيدة.. وإعتمد فيها الكاتب على روايات شفوية وتقارير مبتورة، ولكن رواية «أسير المتمهدين» جاءت نصاً متماسكاً توزعت الأحداث فيه ما بين مصر والسودان حول الثورتين العرابية والمهدية، ويبدو إنه قد توفرت لدى الكاتب المصادر والروايات الشفافية والصحف التي رصدت الأحداث، وبهذا جاءت الرواية كلاسيكية تتقيد بوقائع التاريخ، والطريف إن أحد أبطالها كان هو حسن حبشى الذي عمل كاتباً للأمير عبد الحليم مساعد، ويبدو إنه كان موظفاً مصرياً في ديوان المديرية بمدينة الأبيض قبل الثورة المهدية..

ولقد وجد جورجى زيدان فى شخصية حسن حبشى الذى فرّ إلى مصر بعد موقعة توشكى منجماً غنياً لرواية الأحداث.. ولا ننسى إنه كان هناك تعاطف بين المهدي وعرابى، وكان المهدي يرغب أن يقبض على غوردون حياً ويتفاهم مع الإنجليز لإستلامه وإطلاق سراح عرابى ولكن جنود المهدي قتلوا غوردون فى غمرة ثورتهم وأفسدوا خطة المهدي.. ولقد أبدع جورجى زيدان مؤسس مجلة الهلال التى لم تزل تصدر حتى الآن فى روايته «أسير المتمهدين»، وما حدث من حركة فى الأحداث التى إنتهت أخيراً بعودة كل واحد إلى مكانه..

أسير المتمهدين: ويلخص نظير عبود فى كتابه «جورجى زيدان» الصادر عن دار الجيل ١٩٨٣م روايات زيدان، وهى إثنان وعشرون رواية، وتأتى رواية «أسير المتمهدين» تحت رقم ١٨ حيث يتحدث عن مصر ١٨٧٨ ويرينا الخديوى إسماعيل وقد جعل من القاهرة زهرة مشرقة فى أفريقيا وكان يشجع العلم تشجيعاً عظيماً وفى كل سنة يحضر إسماعيل الإمتحانات المدرسية ويختار أنجب التلاميذ ويرسلهم إلى مدارس أوروبا للدراسات الجامعية ولا سيما الطب والمحاماة..

ويرينا زيدان رفيقاً يحاول الغدر برفيقه حسداً، وهذا المشهد هو عقدة الرواية، وينقلنا منه إلى مشهد هام هو مطاعم الإنجليز فى مصر تعاونها فرنسا، وقد أصبح مركز الخديوى فى خطر، ويبقى الخديوى صامداً وتضطرب السياسة المصرية وبات الناس فى هرج ومرج من أمورهم وراح بعضهم يتوقع تنازل الخديوى، وإنقلبت حكومة الخديوى إلى حكومة شورية يسيرها مجلس النظار بعد أن كان مطلق التصرف..

ومما نعرفه عن إسماعيل باشا إنه كان غارقاً فى الديون وإنه كان أول من غير التقويم القبطى إلى التقويم الميلادى سنة ١٨٧٥م حتى يتم جدولته الديون وفق التاريخ الميلادى، والمعروف عند أصحاب الديون، ويتنازل إسماعيل عن العرش إلى ابنه توفيق والذى رفع من قدر الضباط المصريين، وكان وطنياً مخلصاً.. ثم يرينا مشهداً آخر وهو إتفاق ثلاثة من الضباط المصريين على إستلام البلد بدلا عن الأجانب وهم: عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال.. وكان الخديوى توفيق يساعدهم.. وهنا تبرز مطالب عرابى بدعم الجيش عديداً ومالياً ويتفاوض قتصل بريطانيا معه، وقد توصلوا لحل، ثم تنحل الوزارة وتأتى وزارة البارودى ويأخذ عرابى منصب وزير الجهادية..

وبعد هذا تقوم فتنة فى إسكندرية ويعود كل شىء إلى الأول، ويحتل الإنجليز مصر ويحكم على عرابى ورفاقه بالإعدام ويعفو عنهم الخديوى.. وتنقلنا الرواية إلى مشهد دينى سياسى وهو ظهور محمد أحمد فى السودان والذى قال: إنه المهدي المنتظر وهذا فى أواسط ١٨٨١ وجمع حوله جماعة آمنوا به وخرجوا على الدولة وترسل بريطانيا حملة بقيادة هكس باشا، وتنقطع أخبار الحملة، ويفتك مرض الكوليرا بأهل مصر، ويدعو المهدي إلى الحرب والجهاد ضد الأجانب ويهدد بجلد المخالفين، ويحاول أحدهم أن يقتل رفيقه المدعو شفيق ولكنه ينجو ثم يقع أسيراً لدى جماعة المتمهدين، وهنا يكون بناء رواية زيدان ويدعى الأسير الدخول إلى جماعة المتمهدين.. ثم تأتى حملة ثانية للخرطوم بقيادة تشارلس ولسن.. وتنتهى الرواية بعودة الإنجليز إلى موقعهم وتنكسر جماعة المهدي..

## ٥٧. من السودان إلى لبنان

من مصر إلى لبنان: عندما بدأت الحركة الوطنية فى السودان إعتمدت التعليم طريقاً للحرية والإستقلال، ولكن الإستعمار لم يرق له هذا، وكان ينظر بعين الريبة إلى مصر ومن يذهبون إليها على الأخص إن مصر كانت تكره الإستعمار وتعلن هذا علانية رغم سطوته وقوته.. وعندما تقدم ثلاثة من شباب السودان بطلب إلى عمر طوسون ليتعلموا فى مصر وصل خبرهم إلى المخابرات ومنعوا من السفر وكانت حجة وكيل المعارف الإنجليزى إن بريطانيا تهتم بالتعليم فى السودان، وكان رد



أحدهم: إن بريطانيا تصرف على تعليم شعب السودان من أموال شعبه.. وبعد هذا بدأ الاتجاه نحو إيفاد بعثات تعليمية إلى لبنان وطبعاً أخطأ المستعمر في حساباته فلم تكن لبنان أقل وطنية من مصر ، وإذا كنا نتحدث عن عظمة مصر فإن شموخ لبنان شموخاً مقتدراً مثل أرز لبنان، وقد وصفت فلسطين بأن غطى الجبال غصنها وأغصانها أرز الله، ووصف الصديق بأنه كالنخلة يزهر كالأرز في لبنان ينمو (مزمور ٩٢: ١٢) ..

وفى مزمور باركي ياتفسى الرب يقول: تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذى نصبه.. إستراحت إطمأنت كل الأرض هتفوا ترنماً حتى السرو وفرح عليك وارز لبنان قائلاً: منذ إضطجعت لم يصعد علينا قاطع.. وكلمة أرز نفسها تعنى ثابت أو راسخ، وكان تهديد سنحاريب إنه سوف يقطع أرز لبنان الطويل، وأرز لبنان شجرة قوية كما يبدو من القول: صوت الرب بالقوة، صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الرب أرز لبنان ، وشجرة الأرز قوية شامخة، جميلة الأغصان رائعة الجمال ويقال عن طويل القامة : قامته مثل الأرز.. وشجرة الأرز هى شجرة خشب عظيمة القدر.. وهى رمز للشموخ وهكذا عندما حرك الإستعمار أبناء السودان للدراسة فى لبنان كان قد حفر حفرة لنفسه أو كما يقول العرب: من مأمته يأتى الحذر..

العودة من بيروت: ويذكر حسن نجيلة عودة ثلاث طلاب من بيروت وكيف أعد نادى الخريجين الإحتفال بمقدمهم ويحدد تاريخ سفرهم بأنه سبتمبر ١٩٢٤م وتاريخ عودتهم سبتمبر عام ١٩٢٨م، وكيف إهتزت القلوب فرحاً بعودتهم.. والثلاثة هم: عبد الفتاح المغربى، ومحجوب الضوى، وعبيد عبد النور، وكان العدد الذى يذهب لتلقى العلم فى بيروت قليل جداً.. وخلال عشرة أعوام لم يزد عدد الذين أوفدهم الإنجليز عن أربعة عشر معلماً فقط، وبالكاد سمح لإثنين أن يذهبا على نفقتهما الخاصة..

وفى عام ١٩٢٧م ذهب ثلاثة هم: إسماعيل الأزهرى، ومحمد عثمان الميرغنى، وحمزة أحمد الذى توفى فى ريعان شبابه ولم يكمل بعثته.. ولاشك إننا نعلم من هو الأزهرى؟ إنه الذى رفع العلم، علم الإستقلال وأنزل علم الإستعمار.. ويذكر حسن نجيلة الإحتفال بالوفد الأول العائد من بيروت عام ١٩٢٨م حيث فى يوم الجمعة ١٤ سبتمبر من نفس العام أقيم فى نادى الخريجين إحتفالاً مهيباً سعيداً وكان عدد من

كبار رجال الإنجليز فى الإحتفال من بينهم المستر يودال وكيل المعارف السودانية.. وهنا تبادل الشعراء القصائد الشعرية تحية وإكراماً وتكريماً وإجلالاً، كان أولهم المهندس مهندس المباني ومهندس الكلمات عبد الرحمن شوقى الذى قال:

أنا مضى بهوى هند وصب  
وهوى هند على القلب وصب  
لا تلمنى فى هواها إنه  
ليس يدرى الحب إلا من أحب  
إنما هند بلادى لا أرى  
غيرها خلا ولا حباً يحب  
جبتكم الأفاق فى نيل العلا  
وجلبتم شطر دهرى فاحتلب  
بكم طارت دمشق فرحاً  
وسروراً بكم إهتزت حلب  
وبلبنان تغنى بلبل  
وفروع الأرز مالت من طرب  
وسرت فى النيل من منبعه  
فرحة الظافر تجرى للمصب

وبعد هذا تحدث الشاعر عبدالله عبد الرحمن وهو يقول للمحتفى بهم: إنه سيدخر ثنائه وتقديره حتى يرى ما يؤدون من أفعال نافعة لبلادهم، وينتظر بنطق الحكم حتى يرى لهم فى الخير مجاناً..

أما المهندس على نور شاعر المؤتمر فإنه يقول :  
هز اليراع وألف  
وإذا عرفت فعرّف



والعلم ليس كمثله

ما يقتنى فتتق

إن العلوم حياتنا

وبها نشيد ونحتفى

وطالب الشاعر أن يرسل جيشاً ضخماً من الطلبة ليتعلمون في لبنان ، وقد طالب الشاعر أن يتكون هذا الجيش من خمسة وأربعون ونيف وكانت هذه مداعبة من الشاعر تجاوب معها وكيل المعارف الإنجليزي وقتها فقط... وتوقفت منح لبنان عام ١٩٣٤م..

## ٥٨. الطيب صالح يقدم لرسائل جمال

رسائل وأوراق خاصة: قام الأستاذ عثمان محمد الحسن بجمع رسائل وأوراق السفير والوزير والأمير جمال محمد أحمد في كتاب واحد تحت عنوان « جمال محمد أحمد رسائل وأوراق خاصة » مكتبة دار الجيل ١٩٩٢م.. وكانت مهمته صعبة جداً ، وأكد إنه لم يتمكن من جمع كل الرسائل، فقد كانت رسائل جمع الكتابات ضعيفة جداً، ولو كان جمال حريصاً على جمعها فلم يكن أمامه سوى أن يستعمل الكربون للاحتفاظ بنسخة من رسائله، ولكن هذا أمر قد يفقد الكاتب إحساسه بالتلقائية وربما عندما يكتب لا يجد قلماً قوياً وكربوناً..

ولا غرو في ذلك فإنه حتى رسائل الكنيسة الأولى لم تجد حفظاً وتعرضت كثيراً للتلف والفقدان ، فالرسول بولس يشير مراراً إلى رسائل كتبها ولكن لا وجود لها اليوم، كما كتب الرسول بولس إلى الكنيسة التي في كولوسي رسالة طلب فيها منهم: أن يتبادلونها مع رسالة أرسلها إلى الكنيسة في لاودوكية والتي من لاودوكية يقرأونها هم أيضاً ( كولوسي ٢: ٤ ).. ورغم إن رسائل بولس كانت ممتعة وشيقة وأيضاً كانت مركز اهتمام الكنائس لأنها رسائل روحية لهم فلم تتج من الفقدان..

الطيب صالح: ويقدم الروائي الرائع الطيب صالح لكتاب رسائل وأوراق جمال محمد أحمد، ويبدأ بأن يقول وبدون تردد بادىء ذى بدء، إن هذا الكتاب مهم ليس للقارئ السوداني وحده بل للقارئ العربي لأن الكاتب شخصاً معروفاً في دنيا الأدب، ودنيا

العرب فزيادة على إنه عمل سفيراً في عدة أقطار عربية ثم صار وزيراً لخارجية السودان، فقد كان مفكراً كبيراً وأديباً صاحب رؤية طريفة وأسلوب لا يشبه أسلوب احد من الكتاب، ورغم إنه كان كاتباً مقلداً فإن المقالات التي تنشر له في المجلات والصحف والكتب التي صدرت له، كانت تلفت النظر دائماً وتحرك الإهتمام، وكان حين يكتب في الشؤون الأفريقية أو الأدب الإنجليزي أو في علاقات العرب بأفريقيا يكاد لا يرقى إلى مستواه إلا القليلون، هذا بالإضافة إلى إنه كان شخصاً جذاباً له حضور واضح، فكان له شأن في الاجتماعات الثقافية والمنتديات الفكرية..

والكتاب مهم أيضاً لأنه جديد في بابيه ، فانا لا أعرف إلا القليل من كتب الرسائل في الأدب العربي المعاصر، أذكر منها الكتاب الذي أصدره توفيق صائغ عن رسائل جبران المتبادلة وخاصة مع ماري هاسكل ، وكتاب الأستاذ رجاء النقاش عن الناقد أنور المعداوي.. هذا لون ممتع من ألوان الأدب يكثر في اللغتين الإنجليزية والفرنسية وهو نادر في الأدب العربي..

وأذكر شخصياً رسائل على أمين التي كان يرسلها من السجن إلى أخبار اليوم والتي جمع بعضها في سنة أولى سجن ، وسنة ثانية سجن، وهي رسائل حية بليغة مؤثرة، وهي مؤشر لأيامه ولذكرياته ، وهي ترمومتر لقضايا الوطن..

ويكتب الطيب صالح : إن جمال كان نشطاً للرسائل تربطه مثل خيوط متينة مع أفراد أسرته ومع أصدقائه شرقاً وغرباً ، في الرسائل يكون جمال على سجيته تماماً يذهب من موضوع إلى موضوع ، وينتقل من الخاص إلى العام ، من المهم إلى العادي بأسلوبه العجيب الذي تميز به وهو أسلوب إذا تعوده القارئ فإنه يستعذبه ويقبل عليه بمتعة كبيرة..

كان جمال إنساناً بشوشاً على الدوام منطلق أسارير الوجه رغم الإحاسيس التي كانت تمرور في أعماقه ذاته، ولابد كان إنساناً أثلج كما وصفه صديقه بشير محمد سعيد ولكنه في السنوات الأخيرة كاد يستسلم لليأس لكثرة ما رأى من محن تحقيق بالسودان أغلبها من صنع أبنائه.. كان جمال رجلاً محظوظاً إلى حد كبير فقد أنعم عليه الله بهبات جمة..

كان حسن السميت ، عذب الحديث ، متوقد العقل ، ذكي الفؤاد ، لذلك سار شاؤوا بعيداً ونجح في كل عمل إضطلع به، وقد يقول أناس وأنا واحد منهم : إنه كان



يستحق أكثر ولكن في بلد كالسودان لا يحفل كما ينبغي بأبنائه لم يكن ما حققه جمال أمراً هيناً ، ما أبعد الشقة بين « سرّة شرق » وجامعة أكسفورد ، وما أطول الطريق بين صبي يردف أخاه على حمار إلى المدرسة وبين وزير الخارجية .. وما أشق الصعود من بخت الرضا إلى جامعة « هارفارد » ..

وكان محظوظاً في أبنائه وبناته .. ووهبه الله زوجة صالحة من أهله ظلت ترعاه وتسهر على راحته ، وكان يحلق في أفاق بعيدة ، ويعود إليها كما يعود الغريب إلى وطنه ، والمهاجر إلى جذوره ، وهو يذكرها بسعادة وطيب خاطر في رسائله إلى أبنائه وبناته ، وكان يقول عنها : الأم الطيبة الصالحة التي تمطر الدعوات الصالحات بالخير العميم والنصر المؤزر ، تقفز بها قفزاً جميلاً في حلقات النقاش الأسرى أو في مؤتمر مائدة الغذاء في البيت ..

## ٥٩. جمعية الإتحاد السوداني

عام ١٩٢١م : في عام ١٩٢١م وفي ظل التحرك نحو الإستقلال التام قامت مجموعة من أبناء السودان بتأسيس جمعية الإتحاد السوداني والتي كانت تتكون من خلايا متعددة ورائد الفكرة هو محيي الدين جمال أبو سيف ، وشعار الجمعية « السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف » .. وبدأت الجمعية السرية تحت الأرض تصدر المنشورات وتحث على طرد الإستعمار من مصر والسودان وتهتم بنشر التعليم ..

وخفية عن أعين الرقباء والمخابرات تحركت منشورات الجمعية ترسل إلى الشخصيات الكبيرة وتعلق على الأعمدة والجدران في أنحاء السودان وكانت الجمعية ترسل مقالات ومنشورات إلى الصحف المصرية والتي لم تتخل عن نشرها ، وفي يوم ١٠/١١/١٩٢٢م أرسل الإتحاد رسالة إلى الأمير عمر طوسون ورد فيها : إن في السودان حركة وطنية أساسها القومية الصادقة ، وغايتها تأييد الشعب المصري ، وأن لا ينفصل السودان عن مصر بأي حال من الأحوال ..

وكانت الاجتماعات السرية تعقد في منزل الشاعر الأمين على مدني ، وكان من بين عضوية الجمعية الشاعر توفيق صالح جبريل ، والذي إعترض سراً أيضاً على زيارة اللورد اللنبى إلى السودان عام ١٩٢٢م ، وجاء إعتراضه قصيدة شعر نشرت

بدون إسم في جريدة الأهرام المصرية .. وفي تاريخ الحركة الوطنية في السودان يذكر محمد عمر بشير أن من بين أعضاء الجمعية عبدالله خليل ، ومحمد صالح الشنقيطي ، وخلف الله خالد ، وخليل فرح ، وبابكر قباني ، ومحمد عبدالله العمرابي ، وعلى عبد اللطيف ، ومحمد صالح جبريل ، وصالح عبد القادر .. وقد إستمرت الجمعية

في دعايتها وإثارتها حتى عام ١٩٢٣م عندما تكونت جمعية اللواء الأبيض .. في تطوير التعليم : كانت جمعية الإتحاد السوداني تهتم بالتعليم لأن التعليم فعلاً طريق التحرر ، وكان من أمل رجال الله أن تمتلئ الأرض من معرفة الرب ، وفي حديث سفر يونان النبي يعتب الله على يونان ويقول له : هل إغظت من أجل اليقطينة التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت ؟ .. أنت شفقت عليها ، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من إثنتي عشر ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم ؟ .. وكما يقول الحكيم : إن مخافة الرب رأس المعرفة ،

كل ذكي يعمل بالمعرفة ، الأغبياء يرثون حماقة ، والأذكياء يتوجون بالمعرفة .. وكان التعليم في السودان لقلة من الناس ، وبهدف تخريج موظفين في الإدارة ، وكان الإتجاه نحو التعليم يعنى الذهاب إلى مصر للحصول على فرص هناك ، وعندما إتفق ثلاثة من الشباب السوداني وكتبوا خطاباً إلى الأمير طوسون كشف أمرهم ووقع الخطاب تحت يد المخابرات وسلم إلى المستر يودال وكيل وزارة المعارف الذي إستدعاهم ولوّمهم على فكرة الهجرة إلى مصر ، في حين إن الإنجليز قائمون بالصرف على التعليم في البلاد ، ولكن أحد ثلوث الشباب وهو توفيق أحمد البكري قال لوكيل الوزارة : إن ما يصرف من مال الشعب وليس من مال الإنجليز ، وهنا إستشاط غضباً وحظر كتابة أى خطاب إلى مصر ..

وبعدها سافر إثنان منهم إلى مصر رغم نصيحة الوكيل وعاشا في مصر عيشة الكفاح ، وكانت جمعية الإتحاد السوداني ترسل لهم مساهمة يسيرة ، وبعد هذا إنضم إليهم ثالثهم وتعرضوا للعديد من المشاكل وقبض عليهم بعد إغتيال السير ستاك ثم أفرج عنهم .. ويعتبر كفاح جمعية الإتحاد السوداني لنشر التعليم هو البذرة الأولى للدعوة العامة والتي لاقت تشجيعاً من المثقف السوداني الذي يرى إن التعليم سلاح حديث للثقافة ، وطريق حاسم إلى تحرير البلاد ..

وقد كتب عن هذا محجوب وعبد الحليم في كتابهما « موت دنيا » قائلين : ألم يوجه



الرأى العام لمطالبة رجال التعليم بالكف عن تخريج الموظفين والعمل على تنقيف العقول وتوجيه التعليم ليكفل للفرد عيشة الحلال، وفي الوقت نفسه يربى الروح ويخلق من الطلاب مواطنين صالحين يعملون للخير العام وينمى فيهم حب الخير والأزكية والنبيل وحب كل ما هو جميل...؟ ويستمر محبوب ورفيقه في القول: وما أنت ترى نتائج كفاحنا وترى التعليم يتجه في الطريق التي دعونا لها مخلصين.. وبعد هذا ومن خلال بداية جمعية الإتحاد السوداني إتخذ التعليم طريقه وحقق الكثير من أهدافه وتعددت المدارس، وطالب أحمد خير تخصيص يوم للتعليم قصد منه كسب تأييد أفراد الشعب حتى يعرفوا حاجتهم إلى تعليم فلذات أكبادهم.. ويصف حسن نجيلة سفر الشباب السوداني إلى مصر وتشجيع جمعية الإتحاد السوداني لهم تحت عنوان «الهاربون إلى مصر» فيقول: في خريف عام ١٩٢٣م شهدت محطة الخرطوم للسكة الحديد خمسة شبان يتجاذبون الحديث همساً ويرقبون ما حولهم في حذر بالغ، وقد إنتبذوا مكاناً قصياً عن المسافرين والمودعين، وأذن للقطار أن يتحرك فامتدت أيادي ثلاثة منهم تشد على أيدي الفتيين الآخرين في حرارة وتأثر، ثم وثب الأخيران وثبة اللص الحذر إلى عربة من عربات الدرجة الرابعة وإندسا في غمار المسافرين، وتحرك بهما القطار متندراً يبتعد شيئاً فشيئاً عن محطة الخرطوم ثم أسرع منطلقاً وهو لا يعلم إنه يحمل طلائع ثورة وإستهلال عهد جديد.. والمسافران هما توفيق أحمد البكري، وبشير عبد الرحمن، والمودعون عبيد حاج أمين دينامو الحركة الوطنية، وتوفيق جبريل الشاعر، وسليمان كشة، جمع كل هؤلاء عضوية جمعية الإتحاد السوداني حيث كان التعليم هدفاً نحو الحرية والإستقلال..

## ٦٠. السودان كما رآه سرجيوس

القمص سرجيوس: يُعد القمص سرجيوس من أعظم زعماء الأقباط في مصر والسودان، فلقد كان في السودان من عام ١٩١٠-١٩١٤م.. وفي الخرطوم أصدر أول مجلة قبطية في السودان وصدر العدد الأول منها في ١١ سبتمبر ١٩١٢م.. وكان يوم أربعاء، وبدأ النهضة في السودان وكان قلمه قلماً عفواً نظيفاً، ولكنه كان حاراً مثل شدة الحر في السودان، ولم تحتل الخرطوم قوة هذا الرجل، وإنتهى به الأمر إلى حكم بمغادرة السودان في ساعات محددة، وكان السبب إنه وقف ضد

الحاكم العام الإنجليزي في قضية داخل أسرة قبطية، ورفض الأب تدخل الحاكم العام لأن هذا هو اختصاص الكاهن..

ولكن كيف يعترض أحد على الحاكم العام؟ ولو كانت لدى الحاكم معرفة بالمستقبل لقبل يد القمص سرجيوس وقدم له التسهيلات والحوافز لكي يظل بالخرطوم، لأنه ما أن ذهب إلى مصر إلا وبدأ حربه ضد الإنجليزي في كل موقع، واحتل هو نفسه موقعاً عظيماً في قلوب الناس مسلمين ومسيحيين، وكان أول من خطب ضد الإنجليزي في الأزهر الشريف، وكان أيضاً أول من شجع رجال الأزهر على مخاطبة الأقباط في الكنيسة، وعلى يد هذا القمص نهضت بلاد وادي النيل ضد الإستعمار..

وقاد القمص سرجيوس ثورة ١٩١٩م والتي إنتصرت وحولت الأنظار إلى حب الوطن وإلى رفض الإستعمار بكل صنوفه، وقد كان له طول باع في الخطابة خطيباً، وفي الكتابة أديباً، وفي الصحافة ألعياً..

السودان كما رأيناه: وفي العدد الثالث من السنة الأولى من مجلة المنارة المرقسية الصادر في ٢٥ سبتمبر ١٩١٢م كتب القمص سرجيوس في القسم الأدبي مقالا عنوانه «السودان كما رأيناه»، ويبدأ حديثه بأن الكتابة في هذا الموضوع شبيهة بالبلاد التي يكتب عنها والتي هي لا أول لها ولا آخر مترامية الأطراف، واسعة الأكفاف، يحار الكاتب الخبير من أين يبدأ، وعن أي شيء يكتب؟ أعن تاريخه قديماً وحديثاً؟ أم عن شعبه وسكانه وما يتبعهم من قبائل مختلفة وأمم متباينة وعادات غريبة أم عن حكومته...؟

عموماً فإن المدة التي قضيناها على قصر مداها كشفت لنا حقائق لذيذة ومفيدة نسردها هنا، وقال القمص سرجيوس: إنه قد زار السودان لأول مرة في فبراير ١٩١٠م وكان الرسم الذي رسم عنه في مخيلته منذ الصغر غير حسن، والحقيقة إن هذا الرأي كان عند أغلب أهل مصر فقد كانوا يظنون إن السودان غابة كبيرة يقفز فيها القروء على أشجار ضخمة، وتتعدد فيها الحيوانات المتوحشة وغير المتوحشة، وهذا هو عين السبب الذي جعل الراهب المرشح للسودان ليكون أسقفاً عليه سنة ١٨٩٨م يهرب خائفاً مذعوراً، ولم يعتذر عن الرسامة، ولكنه فرّ هارباً خائفاً، وما كان من البابا كيرلس الخامس إلا أن أمر تلميذه أن يحضر له أي راهب صائم يقابله، وقابل التلميذ الأب يوحنا السرياتي رئيس دير السريان والذي حضر



سريعاً ليمثل أمام الرئاسة، ووافق أن يرسم أسقفاً للسودان ، وصار هو أول أسقف بعد الفتح المصري الإنجليزي وسمى الأنبا صرابامون..

وقد حاول القمص سرجيوس أن يقول: إن السودان أجمل مما فى مخيلته ، ومما فى مخيلة كثيرين ، فلقد بدأت فكرته تتغير عندما وصل إلى حلفا وياخذ تصوره للسودان لوناً بديعاً عندما وصل إلى الخرطوم والتي فيها كما قال دلائل المدينة ومبادئ التقدم المبني على أساسات متينة قد لعبت دوراً مهماً فى بلاد فتحت حديثاً ، لم تلعبه فى أقطار مرت على مدنيته ألوف من السنين..

ولما كانت مأموريته دينية صرفة لم يتمكن من البحث والتحري ، ولكنه بعد أن صار خادماً لله وسط أقباط الخرطوم بدأ يشيد برجال الخدمة المدنية والذين يتم اختيارهم أحسن اختيار.. وتحدث عن رقى الخرطوم وإن هذا الرقى ليس قاصراً على الرجال فقط ولكن على المرأة السودانية وهى من الطراز الحديث ، ولها شأن يذكر فى عمران هذه المدينة الجديدة ، وقال: إنك إذا زرت بيتاً أو عقدت اجتماعاً فى كنيسة أو جمعية إلتف حولك نخبة من الجنسين اللطيف والنشيط بما يسر فؤادك ويقر عينيك..

وإذا أفضت فى حديث خصوصى أو ألقى خطاباً عمومياً وجدت قوماً يسمعون ويفهمون وينصتون ويتأثرون ويحبذون أو ينتقدون تحبيذاً صحيحاً ونقداً مقبولا معقولا.. ناهيك عن أسباب الآفة والإتحاد ودلائل المحبة التى أوجبها التهذيب الصحيح ودعت إليها عوامل الإغتراب ، والتى جعلت كل غريب للغريب نسيب.. ويقول الأب الذى ترجع كتابته إلى عام ١٩١٢م إن الخرطوم جمعت عينات معظم البشر الموجودين على ظهر الكرة الأرضية ، بل إن الخرطوم إمتازت عن القاهرة بأن النماذج الموجودة فيها من الصنف الجيد لا يتدرج فى سلوكها ذوو العاهات والمتشردون والسارقون لأن الحكومة تدقق كثيراً فى الذين يفدون إلى هذه البلاد..

وبعد هذا تحدث الأب عن قوانين ولوائح السودان مشيداً بمجهود مستر بونهايم كارتر ، والذى كان مسئولاً عن القضاء وقال: إن قوانين السودان تتناسب جداً مع أهل السودان ، وقال الأب: لو كانت لديه فرصة لعقد مقارنة عن إزدياد الجنايات فى أرض فرعون وندرته فى أرض حام.. ووعد بأنه رأى فى السودان أموراً يحلو ذكرها ويُسَر نشرها ، وسوف يأتى على سردها عند سنوح الفرصة لذلك..

## ٦١. الصحافة فى السودان زمان

حتى ١٩١٢: هذا المقال كتبه رئيس تحرير المنارة المرقسية وهى جريدة سودانية بدأ ظهورها فى سبتمبر ١٩١٢م وقد أراد رئيس التحرير أن يسجل تاريخ الصحافة فى السودان بعد الفتح.. وعندما كتب كثيرون عن الصحافة فى السودان تجاهلوا أمر هذه الجريدة الغراء التى كانت توزع على كل المواطنين ، وكان لها دورها الكبير فى إرساء قواعد الوحدة الوطنية ورغم إن رئيس التحرير رجل دين فى الكنيسة القبطية ولكنه كتب تحت عنوان « العידان العظيمان » يقول: إن الخرطوم إحتفلت بعيد النيروز أول السنة القبطية يوم الأربعاء ١١ سبتمبر ١٩١٢ ، وفى يوم الخميس ١٢ سبتمبر إحتفلت بعيد سعيد آخر هو عيد الفطر الميمون والذى إحتفلت به الدولة تحت رئاسة نائب الحاكم العام..

وشارك المسلمون فى إحتفال النيروز القبطى ، وشارك الأقباط فى إحتفال عيد الفطر المبارك ، وهذا يعنى بحسب رأى رئيس التحرير تبادل المودة الطبيعية بين الأخين ، والتى لا تستطيع الزوابع الوقتية أن تفصمهما ، وكان المختلفون يقابلون زائريهم أينما كانوا وعلام البشر والسرور تطفح على وجوههم.. الصحف السودانية: وتحدث الأب عن الصحافة قائلاً: إن الصحافة فى السودان حديثة العهد مثل غيرها من وسائل العمران التى أدخلت إلى هذه البلاد بعد الفتح الأخير ، وهى مثل كل وسيلة عمرانية أصبحت من ضروريات الحياة ومستلزمات التقدم..

إن أول جريدة طبعت فى السودان هى « الغازيتة السودانية » أصدرتها الحكومة سنة ١٨٩٨م وهى بصفتها الرسمية تحتوى على ما تحدثه الحكومة من قوانين ولوائح ومنشورات وأوامر وتعليمات وغيرها..

« السودان » هى الجريدة السياسية الأولى وقد صدرت ١٩٠٣م لحضرات أصحاب جريدة المقطم بمصر ، وهى تصدر مرتين فى الأسبوع باللغتين العربية والإنجليزية..

« جريدة الخرطوم » صدرت فى سنة ١٩٠٩م وهى جريدة سياسية أسبوعية رأس تحريرها المواطن القبطى أسعد أفندى يسى ولم تطل مدتها.. فى عام ١٩١١م أصدر صاحباً مطبعة ومكتبة فيكتوريا بالخرطوم وهما يونانيان جريدة أسبوعية سياسية إسمها « السودان هيرالد » تكتب باللغتين



الإكليزية واليونانية معاً ، وما زالت تنتشر حتى الآن، والآن هنا ١٩١٢..  
صدرت بعد هذا جريدة " رائد السودان " وقد أيدھا الأب سرجيوس وقال: إن  
البلاد في إحتياج إليها ، ويتحدث الأب سرجيوس في نفس المقال عن : إن وسائل  
ال عمران أدخلت إلى السودان وإن حكومة السودان لم تترك من مخترعات المتمدنين  
إلا وأحدثته حتى إنك إذا سافرت في أنحاء السودان يُخيل إليك إنك مسافر في أهم  
البلاد المتمدنة، ليس من حيث السكان، ولكن فيما يختص بطرق الراحة والتسهيل،  
حتى إن السائح أصبح يخف إلى السودان في زمن الشتاء وهو مطمئن البال على  
راحته وصحته.. والذي يخطر في عاصمة السودان نهاراً يرى الأوتومبيل ينساب  
في شوارعها كالأفعوان، وأرتال الترام تخترق أكثر أنحاءها وتربطها بالمدينتين  
المجاورتين لها، ويقصد هنا بحرى وأم درمان، هذا عدا عدد وافر من العاجلات  
والدراجات الحديثة الطراز، أما بالليل فيرى السائر في شوارع الخرطوم إنها قد  
طرزت بطراز معلم هو نور الكهرباء الجميل يتلألأ من فوق أعمدة عالية فيحول  
الظلام الدامس ضياء يكاد يزرى بضياء البدر ليلة ثمة أى عند إكتماله..

وهذا هو بعض ما وصل إليه السودان من الرقى المادى وحرى بالرقى الأدبى  
أن يسير معه جنباً إلى جنب، وهذا من الاسباب التى حدث بنا إلى القيام بعمل كبير  
كثير الصعوبات كهذا ويقصد هنا إصدار مجلة الكرازة، ويستمر القمص قائلًا: إن  
السودان على حداثة عهده بالمدينة يضم بين لابتيه جماعة من أولى الفضل والأدب  
من الذين وفدوا عليه من القطرين المصرى والسورى بداعى الحاجة إلى الشغل،  
هذه الفئة الراقية على قلة عددها.. والكرام قليل عددهم.. تميل إلى الوقوف على ما  
يدور في البلاد من عوامل المدنية والوسائل المتخذة لإستحداث نهضة أدبية متينة  
الأركان محبوكة الأطراف وهم مع مطالعتهم لمعظم المجالات العلمية التى تصدر في  
العالم المتمدن لاشك إنه يلذ مطالعة مجلة تنتشر بين ظهرانيتهم تكون سهلة التناول  
ولو لم تبلغ شأن هاتيك المجالات وهذا سبب يضم إلى سابقه..

وبعد هذا يقول رئيس تحرير المنارة المرقسية : إنه يرحب بأقلام الكتاب والأدباء  
ويسألهم أن يأخذوا بناصره، ويشدوا من أزره حتى يصل إلى ضالته المنشودة وهى  
إحداث ثورة علمية بين ناشئة البلاد حتى إذا ما شتوا عن طوقهم وإستتارت إذهانهم

بنور المبادئ العلمية التى يتلقونها فى المدارس وجدوا أمامهم مجلة تسجل لهم  
ما وسع هذا القلم العاجز - يقصد قلمه هو - من علم وأدب والله ولينا وهو نعم  
النصير..

وقد نجحت فعلا مجلة المنارة فى هذا ويشهد كثيرون هذه الشهادة، لقد حدثت  
ثورة فكرية، وثورة سياسية ، ويعد القمص مفجراً لثورة ١٩١٩م ، ويعد دافعاً قوياً  
ومؤازرة لثورة ١٩٢٤م بالسودان ، فهو الذى بدأ قوياً وإستمر ثائراً..

## ٦٢. الصحافة السودانية والوحدة الوطنية

فى بيت الزومة: بمناسبة المولد النبوى الشريف تشرفت بالذهاب لزيارة بعض  
المراكز الصوفية بالسودان ، وأنا أحب الصوفية لأن الصوفيون يحبون المحبة  
ويعشقون السلام، وهذا أجمل ما أتمناه.. وذهبت إلى مجمع الزومة فى حى جبرة  
وإستقبلنى بروفسور إبراهيم عثمان الزومة إستقبالا حاراً وشعرت إنه فى مناسبة  
سعيدة ، وأسعده حضورى المفاجئ، فلقد رزق بابن ذكر وكان سعيد به جداً وطلب  
منى صالح الدعوات له..

ولكن ما أسعدنى أنا أكثر جداً ترحيب زوجته المحترمة السيدة ناهد حمزة محمد  
صالح التى قالت: إنها تحب مقالاتى وتساند محبتى للصحافة السودانية، ورغم  
آلام الولادة فإن محبتها جعلتها فى قمة النشاط، وكان الحديث الجميل عن المحبة  
الأصيلة التى تجمع أهل السودان معاً.. وأهدتنى الأستاذة مؤلفات لها وهى تعد أول  
إمراة سودانية تحصل على الماجستير فى الإعلام، وعلى الدكتوراة أيضاً.. وقد

حظيت بجائزة مصطفى أمين لأوائل طلاب كليات الإعلام بالوطن العربى..  
والدكتورة ناهد إمراة سودانية بكل ما تعنى الكلمة من محبة وطيبة وجراة  
وإتساع أفق وتطلع.. وسوف نسعد كثيراً عندما يرى كتابها يوميات صحفية فى  
السودان نور طباعته والذى سوف يكون ثرياً وثنياً ومفيداً وجديداً، وأهدتنى مؤلفاتها  
والتي يتألق بينها كتاب « دور الصحافة السودانية فى تكوين الإطار الفكرى للوحدة  
الوطنية »..

وهو كتاب عميق يحمل فكراً عميقاً يؤيد الوحدة الوطنية الموجودة فعلاً فى بلادنا  
والتي هى شجرة خير نرونها نحن باهتمامنا ومحبتنا ، وينبغى أن نحافظ عليها لأن



الله هو الذى وحدنا فيه، والله هو الذى جمعنا بتعدد أدياننا تحت ظل السودان الوطن العظيم ، وما جمعه الله لا يفرقه إنسان ..

وترى ناهد: إن الوحدة الوطنية هي الرقم الصعب فى أى معادلة سياسية وهي المحك للنجاح أو الإخفاق الذى يمر بالبلاد والصحافة لها مجهودها المهم فى إنجاح الوحدة الوطنية، ولقد قال الأزهرى: أنا أشعر بأن رجال الصحافة زملاء لنا فى الجهاد والوطنية، ولكنها ترى أن تأخر النمو الإقتصادي والاجتماعي والحضارى كان سبباً فى تأخر الإنصهار القومى والشعور بالغبن ظمناً لدى المواطن وعلى الأخص فى المناطق الأقل تطوراً والتي ندفع اليوم الثمن لأننا تركنا مناطق مهمشة.. وشعب يحيا على هامش المجتمع وركزنا فقط فى العاصمة وجعلناها جاذبة حتى صار ثلث عدد السكان يقيم فى ولاية الخرطوم بحثاً عن التقدم المنشود والذى لا يسعد به كثيراً بسبب تردى الخدمات وغياب الكهرباء رغم ما يدفع فيها من ثمن كثير من خلال أجهزة حساسة تحسب على المواطن ، حتى سماها الجمرة الخبيثة..

وأيضاً غياب الماء والعاصمة المثلثة تقع على أعذب أنهار العالم ماء، وهو النيل الأزرق وأكثر أنهار العالم ماء وهو النيل الأبيض، وتحاول الصحافة أن تؤدى واجبها للتشجيع على وجود أكبر قدر من الوحدة الوطنية لأنه فى غياب جد أدنى من الوحدة تصبح كل القيم الإنسانية الأخرى فى المجتمع أمراً مستحيلاً وتصبح الحرية والعدل عندئذ لا معنى لها، وتصبح الحياة غير آمنة ورسالة الصحافة هي رسالة الوسيط فى الوصول إلى السلام ونبذ الخصام وتحقيق الوحدة الوطنية..

والحق يقال: إن صحفنا السودانية كلها عن بكرة أبيها تهتم بالوحدة الوطنية اهتماماً كبيراً، وقد لاحظت مثلاً إن أحد كتاب الأعمدة طالب الحكومة بأن يكون سبعة يناير إجازة رسمية لأنه عيد الميلاد عند الأقباط.. وعندما تحدثت عن أن الأقباط خلال عصر الإنقاذ لم يأخذوا أماكنهم المناسبة فى الخدمة المدنية مستشارون للرئيس، ووزراء، ومعتمدون وقف معي كثيرين وناقشوا القضية وقالوا: إنها قضية منسية ولكنها عادلة ، وطالبوا الدولة أن تعطى اهتماماً لهذا..

وأعلن الدكتور الصادق فقيه المستشار الإعلامى السابق للرئيس تحت عنوان «استثناءات العدالة إستوصوا بالقبط خيراً».. وقال الصحفى اللطيف لطيف: إن الأقباط يحاولون الحصول على حقوقهم بالمعلقة والسكين وهذا طبعاً لأننا لا نحمل السلاح

ولن نحمل السلاح.. وإذا كانت الدولة حتى الآن لم تقدم حلاً، ولكن الصحافة إهتمت بأمر الأقباط تأكيداً للوحدة الوطنية ولأن الأقباط قبيلة سودانية إهتمت بالواجبات قبل الحقوق..

## ٦٣. العُمارة فى العصر المسيحى

العصر المسيحى: كتب صلاح الصادق عالم الآثار المتألق والذى يخرج إلينا من كنوز آثاره جديداً وعتقاء عن الحضارات السودانية القديمة.. وفى كلام مختصر تحدث عن العصر المسيحى من ٥٤٠-١٥٠٤ م، ورغم أن المسيحية لم تبدأ تماماً عام ٥٤٠ م إنما قبل هذا بكثير منذ عام ٣٤٠ م عندما آمن وزير الملكة كنداكة ونال المعمودية.. ورغم أن المسيحية أيضاً لم تنته عند عام ١٥٠٤ م بل إستمرت، لقد إختصرت وأختزلت أمام قوة الفونج، ولكنها كانت قائمة حتى أن الأنسة لويز بوتشر كتبت فى كتابها قصة الكنيسة المصرية: إن محمد على عندما فتح السودان فى القرن التاسع عشر كان فى السودان أسقف قبطى وثمانية كنائس، كما يقول القس منسى يوحنا فى كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية» صفحة ٩٨: إنه كان بالنوبة سبعة عشر أبروشية أيام كان أهلها يدينون بالمسيحية ، فلما خضعت لمصر بعد الفتح العربى سقطت حكومتها المسيحية وأبدلت بحكومة إسلامية ..

ولما تم محمد على باشا فتحها سنة ١٨٢٠م كان لا يزال بها ألوف من الأقباط وعاد الذين تظاهروا بآتيكار الديانة المسيحية إلى الإعتراف بها وطلبوا أن يرسم لهم أساقفة فرسم البابا بطرس أسقفين على التعاقب وأرسلهما مع فئة من الرعاية برضاء الهيئة الحاكمة.. وهذا يعنى إن المسيحية فى السودان عاشت فى عدم إنقطاع تاريخى لمدة تبدأ من القرن الأول حتى الآن، وقد إنتعشت كنائس النوبة فى زمن ما وهى على غرار الكنائس القبطية.. وبعدها إنتعشت الكنائس القبطية وعندما بدأ تكوين الخرطوم عاصمة للسودان على يد محمد على وساعده فى الإختيار السفير الإنجليزى والسفير الفرنسى قرر محمد على أن يقيم كنيسة قبطية للأقباط ولكنهم إعتذروا وبنوا بعد هذا كنيستهم على نفقتهم الخاصة..

فن العُمارة: ويذكر الصادق إنه من المخلقات الملموسة للحضارة النوبية المسيحية ما عثر عليه من كنائس عديدة منها آثار ستون كنيسة مبعثرة ما بين الحدود



المصرية فى فرس إلى جبل « سقدي » بالقرب من سنار عاصمة الفونج جنوباً، وجبل « موية » موطن الفونج الأول حيث إكتشفت آثار بناية من المحتمل أنها كانت كنيسة، والكنائس التى وجدت كانت من الحجم الصغير على الطراز البازليكى، ويرى صلاح إن هذه الكلمة لاتينية وتعنى القاعة المستطيلة ذات الأعمدة فى البناء الرومانى.. ويرى القمص تادرس ملطى إن كلمة بازيليكى تعنى ملوكى، وإن هذا كان مبنى ساحات القضاء والكنيسة ساحة العدل.. وملوكى بمعنى إنه مبنى الملوك والكنيسة بيت ملك الملوك، وقد كانت بعض الكنائس القبطية تبنى على الطقس البازيليكى باعتبارها سفينة تمخر عباب بحر العالم نحو الأبدية..

ويرى صلاح عمر: إن كنيسة فرس بنيت على غرار الطقس البازليكى، وقد بنيت كنيسة الشهيدين بالعمارات سنة ١٩٦٨م على غرار كنيسة فرس النوبية، وقد قام نيافة الأبا دانيال بتغيير شكل منارة واحدة، وإقترحت على كنيسة أن تبقى المنارة الثانية وهى صورة طبق الأصل من كنيسة فرس، وفى كنيسة فرس وهى مستطيلة الشكل مثل السفينة بها ممرات من الجهة الشمالية والجنوبية تفصلها عن صحن الكنيسة سلسلة من الأعمدة، وعند طرف الكنيسة الشرقى نجد من الداخل المذبح وهو خلف حامل الأيقونات، وقد بنيت كنيسة فرس نحو الشرق مثلما تبنى كل الكنائس القبطية نحو الشرق فى إنتظار المجيء الثانى للسيد المسيح من المشرق..

وفى كنيسة فرس منبر ويسمى بالقبطية « الإمبل » ويقع بالقرب من آخر عمود فى الناحية الشرقية من الممر الشمالى، وهكذا منبر كاتدرائية السيدة العذراء، ومنبر كنيسة الشهيدين.. ويقول الصادق: إن هذه الكنائس بنيت بالطوب اللبن بينما نعلم أن كنائس سوبا كانت مبنية بالطوب الأحمر، وعند تأسيس مدينة الخرطوم إستخدم الناس طوب سوبا لبناء بيوتهم وساعدتهم الحكومة على ذلك، ومبانى الطوب اللبن تصلح فى المناطق غير الممطرة، ولكن هناك فى النوبة كانت عدة كنائس مبنية بالحجر أو بالطوب الأحمر..

وتدلنا الكنيسة الصغيرة القائمة فى عبد القادر على تصميم أكثر دقة إلى حد تلك الزيادات التى أضيفت للبناء الأساسى سلام المبنى من الجهة الشمالية والجنوبية، وتلاحظ الصادق إن معظم الكنائس فى قرى بسيطة متواضعة لم تكن تدل على مهارة

معمارية عكس الكنائس التى وجدت فى المدن مثل فرس ودنقلا العجوز وسوبا.. وأرجو أن أقدم المعنى اللاهوتى للمنبر فى الكنيسة، فهو يقف على ثلاثة عشر عمود، والثالث عشر أسود اللون رمزاً ليهودا صاحب الخيانة السوداء، والإثنى عشر رمز لتلاميذ السيد المسيح.. كما أن السلام لكرسى الأسقف أو لدخول الكنيسة رمز إلى الجهاد والإرتفاع درجة درجة حتى يصل الأسقف إلى مكانه أو يدخل المصلى إلى كنيسته، والإرتفاع هنا يرمز لتسامى الروح ونموها فى الفضيلة..

أما عن الزخرفة فإن كتاب « الحضارات السودانية القديمة » يرى أن زخرفة هذه الكنائس مقصورة على الرسوم والنقوش، وأن الجدران الداخلية تغطيها مشاهد دينية مرسومة، ولكن لم تبق هذه الرسوم، كانت الرسوم تزين حجاب الهيكل فى مواجهة الناس وتشتمل على صور الإثنى عشر من فوق والسيد المسيح على اليمين والعذراء على الشمال والجنوب.. وقد وجد فى كنيسة فرس وعبد القادر لوحات جميلة إكتشفت حديثاً. وملابس الأسقف نفسها هى نفس ملابس الأسقف فى الكنيسة القبطية، من عصا الرعاية، والحية النحاسية، غير أن ما يعلق على ملابس الكهنوت من أجراس ليس له أصل فى الكنيسة القبطية، ولكنه معتمد فى الكنيسة النوبية، والآن فى الكنيسة الأنثيوبية حتى الآن باعتبار تنبيه الناس للعبادة ومخافة الرب، وهذا جرس إنذار للغافلين وغير الساهرين روحياً..

## ٦٤. المرأة فى الصحافة السودانية

مساهمة خجول: المرأة السودانية امرأة خجول.. وهى دوماً حيية وهذا الحياء عندها يعد نوعاً من أنواع الجمال، والمرأة السودانية تعتر بنفسها، وتمشى فى هدوء جميل، وترى دكتورة ناهد حمزة إن مساهمة المرأة العربية مساهمة خجول وهى تمشى الهوينى فى دروب السياسة والإقتصاد حيث إن مشاركة المرأة العربية فى الإقتصاديات الوطنية لا تتعدى ٢٩٪ مع وجود عدد كثير من النساء عاطلات عن العمل، وسجل أعلى تمثيل برلمانى للمرأة فى سوريا إذ بلغ ١٢٪..

وهناك دراسات كشفت الإنجازات التى أحرزتها المرأة على أرض الواقع، صحيح أن الوضع قد تحسن ولكن هناك فجوات كثيرة تقف عائقاً أمام الإرتقاء ودرجاته، ولو حظ التحسن فى مجالات التعليم والصحة حيث شهد معدل الوفيات عند المرأة



انخفاضاً شديداً خلال الفترة من ١٩٩٩-٢٠٠٠م، في عدد من الدول العربية على رأسها لبنان، لكنه ارتفع في عدد من الدول الأخرى مثل العراق واليمن، وعلى الصعيد التربوي تبدو المرأة مالكة لزام الأمور مع ارتفاع الإلمام بالقراءة والكتابة من ٣٥٪ إلى ٤٧٪» لدى النساء البالغات إلا أن عدد النساء الأميات مازال يبلغ ٤٤ مليوناً..

وترى دكتورة ناهد إنه من الظواهر اللافتة للنظر ظاهرة عدم التوازن بين عدد قوى العمل النسائي وبين نسبة تمثيلها في المواقع القيادية ومراكز صناعة القرار، رغم الإنجازات التي حققتها المرأة العربية في بلاد السودان ومصر ولبنان والمغرب والجزائر وتونس وسوريا وفلسطين والأردن والبحرين.. وقد حصلت المرأة الكويتية على حقوقها السياسية منذ ريب في عام ٢٠٠٥م وهذا يفتح الباب لتغيرات اجتماعية وسياسية مهمة في منطقة الخليج ذات التقاليد المحافظة..

وتورد بروفيسور ناهد الأمثلة وتقول: إن نقابة الصحفيين المصريين التي تشكل أقدم وأكبر نقابة عربية للصحفيين بأعضائها الخمسة آلاف والتي تتشرف بعضوية قداسة البابا شنودة الثالث، والذي يفتخر بأنه عضو نقابة الصحفيين والذي قدم العديد من المحاضرات من بينها «المسيحية في القرآن».. «والمسيحية وإسرائيل».. وقدم آراء قوية ذات وزن كبير..

في نقابة الصحفيين ٣٢٪ من الصحفيات، ولكن هذه النسبة المميزة لم تستطع إيصال صحفية واحدة لمجلس النقابة الحالي أو السابق أو الأسبق في حين شهدت الخمسينات من القرن الماضي إفتحام المرأة لهذه النقابة، وتتساءل ناهد: هل نحن نتقدم أم نتأخر؟.. ماذا جرى؟ لماذا تراجع مكانة المرأة في قيادة العمل النقابي وصناعة القرار وهذا ليس في نقابة الصحفيين فقط، إنما أيضاً المحاميين والمعلمين والأطباء والمهندسين، حيث لا عضوات في مجالس إدارتها بينما هن بمئات الآلاف في سجلات العضوية الكاملة؟..

ماذا جرى فأدى إلى هبوط عضوية المرأة بصفة عامة في تسعة عشر نقابة مهنية مصرية وكيف يقارن هذا بمكانة المرأة في الإعلام المصري حيث ترأس المرأة الإذاعة والتلفزيون، وترأس المرأة عدة شبكات إذاعية وقنوات تلفزيونية؟..

المرأة والصحافة: ولقد كتبت الدكتورة ناهد حمزة محمد صالح نائب مدير مجمع الزومة، والمدير هو زوجها بروفيسور الزومة كتاباً عنوانه «المرأة والصحافة والاتصال» وهو بحث قيم في هذا المجال يطالب بحرية التعبير ويعتمد قوة التغيير ويطالب المرأة الخجول أن تكون امرأة جسور مدافعة عن حقوقها، فلقد وصلت المرأة عندنا في السودان إلى عرش الملك سواء كانت مستشارة هادئة حنون بجوار الملك القوى الصلب أو سواء كانت هي نفسها ملكة كنداكة مثل كنداكة سفر أعمال الرسل الإصحاح الثامن والتي كان وزيرها هو أول سوداني يؤمن بالمسيحية سنة ٣٤٠م..

وتطالب أن يكون هناك التزاماً بالقيم الإعلامية والتي يأتي على قمتها القيم التي تربط بالجانب الروحي نقاء للضمير وشفافية للسيرة وصلاًحاً للسيرة ونية طيبة وطول آناة وصبر طويل.. ودكتورة ناهد تتبنى نظام تحرير الأخبار، وهذا لا يعني عدم المراجعة حتى لا تكون الحرية فوضى وهجوم على الآخر.. وهي ترى أن القيم الإعلامية عبارة عن مزيج من القيم الأخلاقية والتي هي قيم دينية وجمالية وسياسية واجتماعية واقتصادية وقيم نظرية ترتبط بالإيديولوجيات..

وعن القارئ والمستمع الأفريقي تقول ناهد: إن النتائج الدراسية أثبتت أن ٨٣٪ من الأفارقة يستمعون لإذاعات عالمية، ٣١٪ يضعون الإذاعة في المرتبة الأولى بين وسائل الإعلام، ٣٣٪ منهم تكونت معلوماتهم الثقافية عن الدول الأفريقية بفضل الإذاعات العالمية.. وأعتقد أن هناك أمور أخرى تستحق الدراسة، فلقد صرنا نهتم بالقنوات الأجنبية مع إتساع الاتصالات، وتغربنا عن وسائل الإعلام في بلادنا، وعلاج هذا لا يكون بإغلاق القنوات الأخرى، لأن الهواء ليس ملكاً لرقابة الحكومة، إنما هو ملك مشاع لكل البشر..

إنما يأتي الحل بتجويد إعلامنا، ما نكتب، وما نشاهد، وما نسمع، وتجنب العثرات والإنغلاق عندما نغلق أنفسنا على دين دون غيره رغم أننا وطن متعدد الأديان والثقافات.. التحية لابنتي الأستاذة ناهد والتي سوف تقدم للإعلام أبحاثاً بعد أن يكبر الطفل في يديها، وتكبر القيم والأواصر المتينة حباً وتعاطفاً..



## ٦٥. القمص سرجيوس والإستعمار

الحركة الوطنية: عندما نؤرخ للحركة الوطنية في السودان لا يمكن أن ننسى هذا الرقم الكبير وهو الأب القمص سرجيوس مرقس والذي عاش في الخرطوم في أول أيام حياته وكان يخدم في كاتدرائية العذراء المطلة على نهر النيل، ومن الخرطوم بدأ مجلته « المنارة » منطلقاً في خطى الإصلاح منادياً بالتضامن والتآخي، ولم يعجب الإستعمار بلهجته وعلى الأخص إنه كان يطالب بالإستقلال وغضب عليه الحاكم العام وأمر بعودته إلى مصر في أربع وعشرين ساعة، وكانت آخر كلماته للمدير الإنجليزى هي: إننى سواء كنت في السودان أو في مصر - فى بلادى، ولن أكف على النضال وإثارة الشعب إلى أن تتحرر بلادى من وجودكم..

لقد عاش القمص في الخرطوم من سنة ١٩١٠-١٩١٥ ، وعندما عاد إلى الخرطوم برز نجمه في سماء السياسة المصرية حتى سمي « خطيب ثورة ١٩١٩م ».. على أن من يؤرخ للصحافة المصرية أيضاً ينبغي أن يذكر مجلة المنارة وهى الآن موجودة فى « دار الوثائق السودانية » ومنها على الأخص السنة الأولى والثانية اللتان صدرا فى الخرطوم، وقد أهديت مجلدها لدار الوثائق وكانت مجلته تصدر أسبوعياً ووجد فيها أدباء ذلك الزمان مكاناً ليكتبون وساحة ليجاهدون، كتب الأدباء مسلمون ومسيحيون حول التآخي، وكتب سعد ميخائيل صاحب كتاب « شعراء السودان » عدة قصائد فى مجلة المنارة لأنه فى كتابه نسى نفسه ولم يكتب سوى خمس أبيات..

وكان ذهاب سرجيوس إلى مصر شقاء كبيراً للمستعمر فقد كان وطنياً مخلصاً، حراً جسوراً.. كان يخطب فى الشوارع والميادين ويخطب أيضاً من نوافذ القطارات أثناء سفره وعلى الأخص عندما سافر إلى المنفى ليظل فيه مع الشيخ القيايى ثمانون يوماً فى رفح بسياء، ولم ينسه المصريون فلقد كتبوا عنه بإيفاضة عندما احتفلوا بمناسبة ذكرى مرور خمسون عاماً على ثورة ١٩١٩م، فى مجلة المصور عدد ١٩٦٩/٣/٧م، وكان هو قد وصل إلى مقره الأخير عام ١٩٦٤م الخامس من سبتمبر، وإعترفت حكومة الثورة التى إعتقلته إعتقالاً تحفظياً فى أول أيامها به زعيماً وطنياً، وأطلق إسمه على أحد شوارع مصر الجديدة..

وعندما ترك العالم أبت الجماهير الشعبية إلا أن تحمله على الأعناق نعشاً مسجى فى تشييع جنازته، وكان عمره واحد وثمانون عاماً، وظل حتى آخر أنفاسه يخطب الخطب الوطنية، وفى الوقت نفسه يجول فى كنائس الصعيد سعياً نحو الإصلاح، وكان عندما يعتلى المنبر لا يقوى أحد على الإلتفات إلى غيره، وأذكر عندما كنت طفلاً إنه زارنا فى سمالوط وأخذ ثلاثة ليالى وهو يعظ عن زكا العشار ذلك القصير القامة الذى قرر أن يلقي يسوع ويغير حياته، ولما كان الجمع مزدحماً حول يسوع، وكان هو قصير القامة صعد على شجرة جميز لكى يرى يسوع..

وبعد هذا صار القزم عملاقاً فى موكب التوبة وسجل التائبين، ووعظ سرجيوس عن زكا.. وأصعده فوق الجميزة، وقال له : يا زكا لن تنزل عن الجميزة فى سمالوط سوف تنزل فى مطاى وذهبنا جميعاً إلى مطاى وهناك قرر أن لا ينزله إلا فى بنى مزار وذهبنا إلى بنى مزار وهناك أنزل هذا الخطيب المفوه زكا من فوق الجميزة وتحدث عن حياته الجديدة، لقد كانت ثروته الروحية كبيرة حتى إنه يتكلم عشرة ليالى عن موضوع واحد..

على منبر الأزهر: وكان سرجيوس على جانب كبير من فصاحة اللسان وله أسلوبه الخاص فى هذه الفصاحة إلى حد جعل سعد زغلول يسميه خطيب الثورة، وهو أول كاهن يعتلى منبر الأزهر وغيره من منابر المساجد الإسلامية، وهو الذى نادى بوحدة الهلال مع الصليب، وعندما دخل ذات مرة إلى الأزهر مع الشيخ محمود أبو العيون وإعتلى المنبر معلناً إنه مصرى أولاً ومصرى ثانياً ومصرى ثالثاً وأن الوطن لا يعرف مسلماً ولا قبطياً بل مجاهدين فقط دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء وقدم الدليل للمستمعين إليه بوقفته أمامهم بعمامته السوداء، وذات مرة وقف فى ميدان الأوبرا عند واجهة فندق الكونتinentال يخطب فى الجماهير المتزاحمة وفى أثناء خطابه تقدم نحوه جندى إنجليزى شاهراً فى وجهه فهتف الجميع: حاسب يا أبونا حاي موتك، وفى هدوء أجاب أبونا: ومتى كنا نخاف من الموت؟ دعوه يريق دمائى لتروى أرض وطنى التى إرتوت بدماء آلاف الشهداء، دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين.. وأمام ثباته وإستمراره فى الخطابة تراجع الجندى عن قتله..



ولقد أصدر عدداً من الكتب دفاعاً عن عقيدة كنيسة كما وجه الأنظار نحو القرآن الكريم الذي كان يحفظه غيباً وكيف إن القرآن أكرم السيد المسيح واحترم المسيحية ولم يتهم الإنجيل بالتحريف لأنه سنة الله وليس لسنة الله تبديلاً، لقد حول هذا الرجل منبر الكنيسة ومنبر الجامع إلى وسيلة وطنية مقدسة لطلب استقلال البلاد، واعتقد إنه لو لم يترك السودان لكان من أبطال ثورة ١٩٢٤م وأحد رجالها الأفذاذ، ولكن وربما ندم المستعمر على طرده من السودان ولكن لا يقدر أحد أن يطرده من قلوبنا أو أن يزحزح مكانته في تاريخ كفاحنا في سوداننا العظيم..

## ٦٦. الفرعون أمنحوتب وخزان سنار

أمنحوتب والماء: اشتهر الفرعون أمنحوتب والذي حكم مصر منذ أكثر من ألفي عام قبل الميلاد بأنه أول من حاول بصفة جدية ضبط الماء من أجل رى الأراضي رياً حسناً.. وتقول بعض القصص الفرعونية القديمة إنه أول من أنشأ بحيرة موريث أى إن له تاريخ مجيد فى تخزين الماء للرى، ويرجع هذا إلى القرن العشرين قبل الميلاد وحكم أمنحوتب هذا لمدة تزيد عن الخمسين عاماً وظل محفوراً فى ذاكرة مصر لمدة ألف عام بعد وفاته وهو من ملوك الأسرة الحادية عشر كما إنه أدخل نظاماً خارجاً على النظام الموروث عندما بنى معبداً للموتى بالدير البحرى ذا شرفة ومتصلاً ومندمجاً فى هرمه أمامه فناء زرعت فيه أشجار الأثل والجميز..

ولقد قدس الفراعنة نهر النيل وإهتموا بالماء وحافظوا عليه وقاسوا الفيضان ، وكما تقول دكتورة نعمات أحمد فؤاد: إن النيل علم الفراعنة الدين فالمصرى يتضرع يوم الحساب فتكون وسيلته الشافعة إنه لم يقطع قناة فى ممرها، ولم يخالف نظام الرى، ولم يتلف الأراضي الزراعية ويعد نفسه سعيداً لأنه قاس الفيضان الذى يجعل مصر مخصبة بمحض الهبة الإلهية..

وتمر الأيام ويأتى إحتفال إفتتاح خزان سنار، ويحضر أمنحوتب الإحتفال فى شكل تمثال وضع على منصة متصلة كهربائياً بفتحات الخزان، وكان هذا التمثال هو اليد التى أدارها اللورد لويد إيداناً بإفتتاح الخزان وبعدها تدفق الماء فى ترعة الجزيرة، وفى اللحظات التى أدار فيها المندوب السامى تلك اليد وأخذ الماء يتدفق هادراً من أبواب الخزان إلى الترعة الجديدة وقف مطران السودان الأسقف جوين وإلى جانب

مفتى السودان الشيخ إسماعيل الأزهرى فوق العين التى يتدفق منها الماء وتليها عبارات التبريك، لهذا الماء الخصب المندفق إلى أراضى لم تكن تعرف الخصب، ولا الزراعة من قبل ويقول هيكى الذى حضر الإحتفال: وقف الحضور جميعاً أثناء تلاوة صلاة التدشين التى فاه بها الأسقف جوين والخطبة المباركة التى ألقاها المفتى ومنهم من يبتهل إلى الله مخلصاً أن يبارك هذا العمل الفنى المجيد، ومنهم من ينظر بعين الحذر إلى ما سيكون من نتائجه وبين ضوضاء الماء المنحدر إرتفع صوت الأب جوين والشيخ إسماعيل الأزهرى وهما واقفان على الخزان حيث الماء الهادر والريح تعبث بملابسهما الفضفاضة يتلوان الصلوات والأدعية، وأقول: إن لسان حال السودان يقول ما قاله شاعر النيل:

وقف الخلق ينظرون جميعاً

كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر

كفونى الكلام عند التحدى

إن مجدى فى الأوليات عريق

من له مثل أولوياتى ومجدى

وعندما يشهد السودان إفتتاح خزان مروى سوف ترتفع الأدعية المقدسة من المسيحي والمسلم نحو الله.. وترفع كوش يديها نحو العلى القدير الذى أنعم عليها بهذا وسوف يتغنى السودان أغنية شاعر النيل:

أى شعب أحق منى بعيش

وارف الظل أخضر اللون رغد؟

كلمات الإفتتاح: تحدث فى إفتتاح خزان سنار الحاكم العام ودعى اللورد لويد بإفتتاح المشروع قائلاً: ولى الشرف أن أدعو فخامتكم إلى تكريس هذا العمل الهندسى العظيم لخير السودان وشعبه، وعندها نهض اللورد لويد وألقى خطاباً قال فيه: إن خزان سنار كما تعلمون ليس سوى جزء من مشروع عام لأجل ترقية وتحسين



موارد النيل، وقد أثبتت المباحثات الدقيقة التي أجراها الخبراء في الماضي : إن مياه النيل إذا أحسن صيانتها وتوزيعها بالعدل والإتصاف يجب أن تكفى وتزيد عن احتياجات مصر والسودان الحالية والمنتظرة في المستقبل ، ومن دواعى سرورنا الخاص أن يكون معنا سعادة الوزير إسماعيل باشا سرى أحد أبناء مصر المعروف بالنبوغ والشهرة، ولقد إشتراك شخصياً فى إعداد هذا المشروع كما نتفاعل بوجود عبد الحميد باشا سليمان، وإنى واثق فى قدرته وسعة نظره، وأنه سوف يزيل مابقى عالقاً من سوء الإدراك للمسائل العلمية الخاصة بالمشروع..

وللسودان فى أحوال كهذه أن ينظر للمستقبل بعين الثقة والطمأنينة، وإختتم راجياً أن لا يكون هذا التحسين المتعظم سبباً فى ضياع أو إحطاط الأفكار والتقاليد التى هى أساس أخلاق الشعوب.. ثم وقف إسماعيل سرى باشا يحيى الحاضرين ويقول عن الخزان: إنه سوف يحيى موات جزء عظيم من أراضى السودان بالرى المستديم، والذي ما دخل أرضاً إلا وزادها إنتاجاً، وقال: إن مصر ساهمت فى خزان سنار بمهندسيها ودراساتهم فى تحضير المشروع، وقال: إن مصر يسرها أن ترى السودان فى بحبوحة من الرغد والسعة، وأن يزداد أهله رفاهية وتقدماً فى العرفان، وإن ماء النيل يكفى مصر والسودان.. وبعدها تقدم اللورد لويد لإفتتاح الخزان بيد الملك القديم الأصل أمنحوتب وسط صلوات المسيحيين وإبتهالات المسلمين وفرحة كل الحاضرين..

## ٦٧. صلوات على محراب النيل

خزان سنار: فى يوم الخميس ٢١ يناير ١٩٢٦م كان الإحتفال الكبير بإفتتاح خزان سنار وسط حشد كبير من أبناء شعب السودان وهم يحملون الأعلام وتم تبادل الكلمات من الحاكم العام جوقرى أرشر، واللورد لويد وإسماعيل سرى الوزير المصرى، وعلى المنصة وضعت يد على شكل تمثال أمنحوتب فرعون الذى ضبط الماء وأنشأ بحيرة مورييس وأمسك اللورد لويد باليد وأدار الماء وفى نفس الوقت بدأت صلوات مفتى السودان والمطران الإنجليزى على محراب النيل وسط الماء الهادر والرياح الهادئة..

مفتى السودان: وقف فضيلة الشيخ إسماعيل الأزهرى مفتى السودان عند الماء المتدفق من عين الخزان وإبتدأ يتلو دعاء قال فيه: أنا أقف هذا الموقف لنرفع أكف الضراعة بالحمد والشكر لله الذى جلت قدرته وتعالى عظمتة وإرتفع شأنه وعز سلطانه على ما أولانا من النعم الجليلة التى منها إتمام هذا البناء الشامخ ومشروع رى الجزيرة العظيم، فإن الشكر على النعم واجب وبه تزداد.. قال الله تعالى فى كتابه العزيز لنن شكرتم لأزيدنكم.. الحمد لله نعمده ونستعين به ونشكره فهو منشئ الكائنات بارئ السمات مقدر الأقوات ، ونصلى ونسلم على رسوله الذى أتى بالهدى والبيانات لإصلاح حال الناس فى الحياة الدنيا والآخرة، فقد ورد : إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً..

أما بعد فإن الله خلق الإنسان محتاجاً إلى الطعام والشراب واللباس وهياً له من الأمور الكونية ما يكفل له بقاءه فى هذه الحياة على أصلح الوجوه متى إستعمل فيها فكره ومواهبه التى فطره عليها، خلق السحاب والأمطار ممدة للعيون والأنهار التى بها حفظ حياته فقال فى كتابه العزيز وجعلنا من الماء كل شئ حى وخلق له الأرض مستعدة لإنبات جميع النباتات التى يحتاج إليها لنفسه وأنعامه..

ألم تر إن الله يزرع سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الورد يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء، وترى الأرض هامة فإذا إنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، الذى جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وأرعو أنعامكم إن فى ذلك لآيات لآلىء النهى، الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم..

علم الإنسان ما لم يعلم، وأتاه الحكمة والعلم النافع، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، فهو اه إلى أنجح الطرق للإستفادة من هذه الأنهار، وستصير هذه البلاد بواسطة هذا العمل العظيم من أكبر البلاد إنتاجاً وثروة وسيصير الشعب السودانى فى رغد من العيش ونعمة ورفاهية، اللهم إجعل هذا القطر آمناً مطمئناً فى سخاء ورخاء وعدك وإشمله بعنايتك ورعايتك وأمطر عليه شاييب خيرك بفضلك وكرمك إنك سميع قريب مجيب الدعاء، والله ذى الطول والإكرام الذى بيده الخير وهو على كل شئ قدير الثناء والشكر الخالص على هذه النعم التى لا تحصى، ونسأله جل



شأنه أن يبارك في هذا العمل ويدعم النفع به لخير البلاد والعباد - آمين..  
صلوات المطران: وتلى الأب الأسقف جوين المطران الإنجليزى صلاة روحية وإبتهاً إيمانياً قال فيه:-

اللهم القادر على كل شيء الأزلى الأبدى مبدع العالم وخالقنا جميعاً، من جعلت نظاماً يسير عليه العالم أجمع وبلاد السودان أيضاً، نشكرك اللهم من أجل عبيدك غوردون وإستاك، ومن أجل كل الذين عملوا فى خدمة هذه البلاد وضحووا بحياتهم فى سبيل تنفيذ خططك..

إنا نشكرك للحكمة والنباهة الذين وهبتهما إلى أولئك الذين ابتكروا فكرة تسخير مياه النهر لخدمة الإنسان، وأنا أذكر أمامك بنوع خاص عبيدك ولیم جارسنتين وكتشنر، اللهم إنا نشكرك أيضاً من أجل جميع الذين استعملوا لإنقاذ هذه الأعمال، ومن أجل الذى وضع رسومه ومن أجل مهندساه ومن أجل المقاولين والصناع وأصحاب الحرف من جميع الملل والنحل، ومن أجل العمال الذين حفروا الأرض ومن أجل البنائين الذين بنوا الأحجار وبالإجمال من أجل جميع الذين وهبوا قواهم البدنية وخدمتهم وعقولهم فى سبيل هذا العمل وساعدوا بإنجازه إن كان ذلك بمعرفة أو بغير معرفة..

إنا نشكرك اللهم ونحمد العناية العمدانية التى وهبتها بنوع خاص فى أشد أوقات الخطر أثناء أدوار البناء، ونحمدك فوق كل شيء من أجل الأمطار التى ترسلها على الجبال فتسبب الفيضان وتهبنا المياه التى نروى بها الأرض.. كل ما فى السماء وما فى الأرض هو لك، الملك لك يا إلهنا، بيدك القوة والجبروت، وبيدك تعظيم وتشديد الجميع، نتضرع إليك بكل خشوع أن تقبل شكرنا هذا بإسم وبواسطة ربنا يسوع المسيح الذى علمنا أن نصلى قائلين: أبانا الذى فى السموات..

وهكذا كانت صلوات المفتى وصلوات المطران، شكراً وتسبيحاً لله الذى وهبنا ذلك وسخر لنا كل هذا، له المجد إلى الأبد..

## ٦٨. المعاش ورجال الدين والعلماء

أساتذة الجامعات: يعتز السودان الآن بأن لديه عديد من الجامعات التى ملأت كل الولايات، وهذا أمر لم يكن ممكناً أن يتم إلا بناء على وجود أسرة كبيرة من العلماء أساتذة الجامعات وهؤلاء العلماء يسندهم الله والذى هو بكل شيء عليم، وهم

ينشرون العلم ويقفون بحياتهم على أداء هذه الرسالة المقدسة.. وهم يعيشون فى خوف الله، إنما يخشى الله من عبادة العلماء، ولكن هؤلاء العلماء يتعرضون الآن لما يسمى «المذبحة الأكاديمية» لأن قراراً صدر بأن يعفى الأستاذ الجامعى محالاً إلى المعاش عندما يصل إلى عمر الستين، وهذا هو سن المعاش وطبعاً هذا قرار لم يدرس دراسة جيدة لأن لدينا كثيرون من أساتذة الجامعات فى هذا السن وهذا القرار سوف يدعوهم إلى الفرار من السودان إلى بلدان الله الواسعة التى ترحب بهم أساتذة

فى جامعاتهم يثرون العلم ويوسعون دائرة المعرفة ويستفيدون بخبرتهم..  
وكان من الممكن أن يبحث القرار عن بدائل حتى يكون لدينا من يحل مكانهم من جيل الشباب فى الجامعات، كان يعملوا بالمشاهدة أو يستمروا مستشارين فى كراسى العلم، ولا أدرى كيف يحدث هذا ونحن نعلم أن حكومتنا والحمد لله تجامل كل الناس حتى إنها من الممكن أن تخلق وظائف غير موجودة حتى تتم الموازنات والقرضيات، ولقد توسعت بهذا دائرة كبار الموظفين حتى صارت عبئاً على الدولة وحتى قيل لنا: إن أسعار البترول قد زادت لتغطى زيادة المنصرف على المقاعد والوظائف الجديدة والتى إستحدثت بعد إتفاقية السلام، وكان السلام الذى كنا فى إنتظاره ليحقق الرخاء الإجتماعى صار سبباً فى الغلاء الطاحن الذى منذ أمد طويل نصلى من أجله، ولكن..

ونصلى أن يرفع الله عنا الغلاء والبلاء والجلاء وسيف الأعداء، والجلاء هنا هو الهجرة إلى خارج البلاد، والتى سوف تكون ديدن أساتذة الجامعات بعد هذا القرار غير المدروس.. ولقد اضطرت بعض الجامعات أن تستبقى عدداً من هؤلاء الأساتذة اعتماداً على موارد الجامعة الذاتية إنهاء هذه المأساة، لأن الجامعة لا تحتل أن يتقلص أساتذتها هكذا، وهذا ما حدث فى جامعة الجزيرة والتى كان قرارها صائباً ومحموداً ومسئولاً ويستحق منا كل إشادة وتشجيع، وربما يكون هذا سبباً فى أن تتخذ الجامعات الأخرى مثل هذا القرار حفاظاً على المستوى الأكاديمى وإستفادة بخبرات هؤلاء الأساتذة الأجلاء الذين صقلتهم التجربة وتعمقوا فى المعرفة، وهذا يعنى عدم الإحناء لهذه العاصفة وعدم الموافقة على هذه المذبحة الأكاديمية بإيجاد المخرج لها..



## ٦٩. النهر والرجال

الوزير المؤمن: لا أقدر أن أخفي إعجابي بالوزير قلواك دينق قرنق فهو رجل مؤمن حقاً، وكلما التقيت به كلما تعرفت على سمو الروح فيه، ونحن أرواحنا تنن في أحشائنا نطلب الفرصة للنمو، وهو من الذين أعطوا فرصة للروح.. أعجبت جداً بصلواته عندما نجتمع معاً، وأذكر في مؤتمر من مؤتمرات الأسرة الذي تقيمه الكنيسة الأسقفية إنه كان حاضراً معنا وطلبت منه أن يقدم كلمة بصفته وزير في الدولة ولكنه أجاب: إنه حضر بصفة شخصية من أجل الحصول على روحانية أكثر، قدرت فيه هذا وطلبت منه أن يتكلم بإعتباره أحد أبناء الكنيسة، وكان كلامه روحانياً لأن الروح هو الذي يشهد في دواخلنا ولأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا..

وخلال هذا الأسبوع من مارس ٢٠٠٧م قدم لي الوزير المؤمن كتابه القيم «النهر والرجال» والصادر سنة ٢٠٠٦م.. وقد قرأت الكتاب وهو عبارة عن مذكرات عن حياته وجهاده وصبره وإصراره على المسيحية وإصراره على التعليم، وربما يقصد بالعنوان إنه ورجال أسرته وكل أفرادها كانوا يعيشون على ضفاف نهر السوبات الجميل، ذلك النهر الذي يعد مورداً من الموارد الرئيسية لمياه نهر النيل العظيم، لقد كَوّن قلواك نفسه روحياً وجسدياً وعلمياً وسط جو أقل ما يقال عنه إنه جو صعب بين الشمال والجنوب، بين العساكر والشعب، بين المدرسين والتلاميذ.. وعرفت أولاً إصراره على أن يظل مسيحياً رغم إن أستاذه كان لا يرغب في ذلك، وظل مدة شهر كامل يضربه كل يوم صباحاً في أول الحصص ثلاث جلدات، وكانت الحصّة للدين الإسلامي وكان أول من يحفظ آيات القرآن الكريم ويقوم بتلاوتها أمام الأستاذ بعدها مباشرة يجلد بثلاث جلدات قاسيات كمقدمة لجلدات أخرى أثناء النهار، كان الأستاذ ومع إحترامى له لا يفهم روح الدين الإسلامي الذي يحترم المسيحية أكبر إحترام والذي يعتبر المسيحيون أقربهم مودة والذي أبدأ ما طال الإنجيل بأى إتهام تحريف بل إعتبره حكماً للمسيحي كيف يحكمونك وعندهم التوراة والإنجيل فيها حكم، وأيضاً مرجعاً للمسلم إن كنت في شك مما أنزل إليك فأسأل الذين أوتوا الكتاب من قبلك..

لقد كان أستاذ الدين الإسلامي بكل أسف لا يدرك ما هو الإسلام والذي أوصى وصية صريحة إنه «لا إكراه في الدين»، وكان من الذين يرغبون في الإستيلاء على الآخر وكان يرى أن قلواك خسارة في النصارى، ولو كان أستاذه فاهماً للإسلام لما حدث كل هذا النزاع، ولما كانت كل تلك المعاناة، ولكن قلواك دينق يخرج من هذه المعركة منتصراً ملتزماً بمسيحيته متعمقاً فيها أكثر وأكثر..

أبو الدنيا: ويبدأ قلواك كتابه برأى جميل ومميز يقول فيه: إن السودان «أبو الدنيا» وهذا لقب يستحقه السودان، وقد أعجبنى لدرجة إنى ربما أخذه عنواناً لأحد الكتب التى أكتبها، فلقد كتبت النيل أبونا، والجنس سودانى، وأيضاً أنا سودانى، وهذا التعبير الجميل مدعوم بالدليل من تاريخ الحضارة، ومن الكتاب المقدس والأدلة التى ذكرها الوزير هي: إن أقدم إنسان وجد في السودان وإن هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى رجل لا يظلم الناس عنده، وإن هذا الرجل كان الملك السودانى الجالس على عرش سوبا، وإن السودان هو موطن كوش وأبناء كوش وهو موطن أقدم إنسان في الآثار التاريخية وهو وطن يمتلىء بالثروات والموارد الطبيعية وهو يستحق لقب «أبو الدنيا» لأن الكثير من الممالك قامت على ثروات كوش ولا يزال السودان أمل العالم بإعتباره سلة غذاء العالم، والسودان أحب الشعوب إلى الله الكريم الذى يعطى بسخاء ولا يعير، والذي أعطانا الكثير من الثروات الطبيعية..

ويقدم قلواك بعض نصوص الكتاب المقدس وعلى الأخص ما ذكر في الإصحاح الثامن عشر من سفر أشعياء النبى والذي يرجع إلى عام ٧٤٠ قبل الميلاد، والذي يقول: يا أرض حفيف الأجنحة التى فى عبر أنهار كوش المرسلّة رسلا فى البحر وفى قوارب من البردى على وجه المياه، ويقول: إن هؤلاء الرسل يحملون رسالة إلى أمة كوش والتى هى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف، أمة قوس وشدة ودوس قد خرقت الأنهار أرضها، والسودان أهله هم رماة الحدق وهذه تسمية العرب لهم بعد أن ذاقوا قوة قوس أهل كوش..

ويعتبر قلواك إن هذا دليلاً يخرس من يقول: إن أهل السودان أتوا من موضع آخر، وهو يرى إنه ينبغي أن ننشر هذه الحقيقة التى تؤيد مكاتنتنا عند الله، ويبدأ قلواك الكتاب بلوحة فنية جميلة فيها جمع غفير من الناس عنوانها «أرفع اسم يسوع فى كوش كله» وهى ترنيمة ردها أبناء كوش عند إستقبال مبشر مسيحي



هو « بونكى » يوم ٢٤/٤/٢٠٠٠م.. والكتاب يمتلىء بالذكريات الجميلة والطريفة. وفي الختام أرجو أن أهنيء رئيس الجمهورية على عنايته بهذا الرجل العصامى المؤمن المسيحى الملتزم ووضعه على قمة وزارات عديدة، لاشك إن هذا هو نكاه رجل محترم يرأس بلادنا ويقود الركب نحو الأمان والإطمئنان..

## ٧٠. أرض الطيبين

طيبوا القلب: نحن فعلا فى أرض الطيبين كما يقول عنوان المقال، وهو عنوان لكتاب كتبه الأستاذ الدكتور فتح العليم عبد الله طباعة هيئة التربية للطباعة والنشر ٢٠٠٧م، وهو مجموعة مقالات صحفية أحسن المؤلف أن جمعها، ومقالاته مقالات طيبة ذات رائحة طيبة مثل الطيب الغالى الثمن الذى سكبته المرأة الخاطئة عند قدمى السيد المسيح، وكانت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها فاستحقت الثفافة المسيح إليها ودفاعه القوى عنها أمام صاحب البيت الذى إستضيف فيه يسوع، ودخلت هى متطفلة إليه..

وتحدث السيد المسيح إنه كان لمدائين مديونان على الآخر خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون، وإذا لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً، أيهما يكون أكثر حباً له، فقال: أظن الذى سامحه بالأكثر، وكأنه يقول للفريسي المضيف هذه المرأة حسابها ثقيل، ديونها ضخمة، ولكنها جاءت تائبة وقدمت حباً أكثر، وإنت حسابك خفيف ولكنك لم تحسن الأمر لأن مقابلتها هى وإنسكابها جعلها أغنى منك عطاءً، والكاتب يسكب الطيب وينسكب هو نفسه يقرأ ويقرأ ويفهم ويعلق ويتابع ويخرج العتيق بأسلوب جديد ويكتب عن الجديد بأسلوب جذاب، وكل هذا من أجل القارىء..

وأعتقد إنه ليس هناك كاتب لا ينسكب من أجل القارىء، ونحن نبحث عن الطيب ونقدم الطيب فى أرض الطيبين، والطيب كلام تعزية، طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، إن إثمها قد عفى عنه، إنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطايا.. عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم ( أشعيا ٤٠ ).. ويحاول سليمان الحكيم أن يجعل الناس طيبين حتى يستحقوا العيش على أرض الطيبين فيقول: كل أيام الحزين شقية أما طيب القلب فوليمة دائمة ( أمثال ١٥: ١٥ )..

فالطيب غذاء مستمر وإشباع دائم لنفسه ولمن حوله لأن نور العينين يفرح القلب والخبر الطيب يسمّن العظام، والغم فى قلب الرجل يحنيه والكلمة الطيبة تفرحه، مياه باردة لنفس عطشانة الخبر الطيب من أرض بعيدة ( أمثال ٢٥: ٢٥ ).. ومن كتب عديدة ومن إختبارات الناس حتى يحيا الطيب حياة طيبة، وترتوى النفوس وتشبع بالكلمة الطيبة، ولقد دعى موسى النبی كليم الله، كان يتكلم معه كثيراً، وأغلب كتب موسى الخمس تتكرر فيها عبارة « وكلم الرب موسى قائلاً » وكان على موسى أن ينقل هذا الكلام كما أنزل لى شعبه الذى كان يستنير بكلمة الله..

أرض الطيبين: وكتاب « أرض الطيبين » يقدم عدة مقالات عن أرضنا الطيبة وعن شعبنا الطيب، وهذه المقالات تتسم بالطرافة وعذوبة الكلمات وتمتلىء المقالات المنثورة بالشعر الجميل تعبيراً مهذباً قصيراً ومعبراً.. وهو ينتقد أوضاعاً فى المجتمع هدفاً منه إلى إصلاح المجتمع، وأسلوبه كما قال عنه بروفيسور محمد عبد الله الريج هو أسلوب لا يجاريه ولا يشبهه فيه كاتب آخر.. هو مزيج من مخزون هائل من القراءة فى كتب التراث والقراءة المعاصرة، ويجد عنده القارىء مثقف لأفكاره لأنه يعبر نيابة عنه، وهو عندما يتكلم عن هموم التعليم يقول: إرجعوا بالمناهج إلى الوراء لأنه يرى مناهج اليوم خواء فى خواء، ويرى إن ضعف الطلاب اليوم ليس بسببهم إنما هو محصلة حتمية للمناهج غير المتجانسة ذات الجرعات غير المحسوبة، ويقول: إن الغريب فى الأمر إن الأجيال السابقة ذات الأداء الأكاديمي المتميز كانت سلبية أسر أمية ومع ذلك نجح هذا الجيل وتشرب قيماً نفيسة ونبيلة..

وهو مندهش الآن لأنه كلما إرتفع مستوى الأبوين أكاديمياً ووظيفياً كلما هبط مستوى الأبناء.. وصاحب « أرض الطيبين » يهتم بالشعر وعندما يكتب أذل الحرص أعناق الرجال بمعنى الذل الذى تنوء تحته الأعناق يورد شعر الشاعر:-

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه

فلا خير فى وجه إذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك فإتما

يدل على وجه الكريم حياؤه



وتتنوع المواضيع في الكتاب من إتحاد أصحاب الصلح ونزوى الفلجات الصغيرة إلى أن ٧٥٪ من الناس مرضى نفسياً الشيء بالشيء يذكر، السكرتيرة أخطر شخصية في الدولة، ألحان المآتم، الجمال أشد النعم ابتلاء، التخلف إلى الأمام، الأبناء يؤدبون الآباء، إن النواة فراخها الأشجار، العود في أرضه نوع من الخطب، وهكذا في خمس وسبعون مقال نهايتها «منوع لأقل من ١٦ سنة» وفي ذيل كل مقال يكتب حكمة أو حكاية.. ومن بين حكم آخر العمود: العجب لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفه، عير شريف رجلاً بأنه ليس ذا نسب عريق فقال الرجل: إن أسرتي ابتدأت بي، وأسرتك انتهت بك.. إن أرض الطيبين «كتاب يستحق القراءة، وليس المعلم أقل إنتفاعاً بالعلم من المتعلم، ولا الناصح أولى بالمديح من المنصوح له، وليس من يأمر بالخير أسعد به من المطيع له..»

## ٧١. لوطني وللتاريخ

الشريف الهندي: صدر عن مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى كتاب «لوطني وللتاريخ» مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندي ١٩٢٤-١٩٨٢م.. أعداها للطباعة والنشر محمد الأمين الشريف عمر الهندي أبو الحيران الأمين العام الخادم والحافظ الموثق لتراث آل الشريف الهندي وناشره، وقام بالتحريير والمراجعة اللغوية بروفيسور إبراهيم القرشى، والطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م وقد وقفت أولاً عند كلمة «الشهيد» وهى صفة لا مانع من أن يوصف بها الشريف الهندي وعندما نعود إلى المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية، إن كلمة شهيد تطلق على من قتل فى سبيل الله وجمعها شهداء..

أما دائرة المعارف الكتابية فتقول: إن الشهيد هو من يقتل فى سبيل ما يؤمن إنه حق لأنه يموت شاهداً للحق الذى يؤمن به، وتطلق هذه الكلمة فى الكتاب المقدس على من بذلوا حياتهم فى سبيل إيمانهم بالرب يسوع المسيح، وكان إسطفانوس هو أول شهداء المسيحية وعندما تكلم بولس عن إسطفانوس قال: وحين سفك دم إسطفانوس شهيدك كنت أنا واقفاً وراضياً بقتله وحافظاً ثياب الذين قتلوه (أعمال الرسل ٢٢)..  
٢٠٢

وقد قال سفر الرؤيا عن أنتيباس شهيدى الأمين الذى قتل عندكم حيث الشيطان يسكن (رؤيا ١٣: ٢)..  
ويذكر يوحنا الرائي: إنه رأى بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض، سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع (رؤيا ١٧: ٥، ٦)، أما قول أيوب أيضاً: الآن هوذا فى السموات شهيدى وشاهدى فى الأعلى (أيوب ١٩: ١٦)..  
ففى الأصل العبرى هى شاهدى أو الشاهد على، ولا أستكر على الشريف الهندي أن يكون شهيداً ولأنه كما قال عنه عبد الرحمن مختار فى «خريف الفرح» : إنه الخطيب الأول والمناضل الأول وعدو النيميرى الأول والأسطورة الخارقة التى لم تعرفها الروايات ولم تقدمها المسارح والشاشات.. خرج من السودان يوم إنقلاب نميرى وبعد خمسة عشر عاماً من الكفاح عاد فى صندوق الموت أى عام ١٩٨٤م..  
٢٠٣

وأذكر أيضاً إننى حضرت برنامج محاكمات ثورة مايو لرجال الوطن، وأذكر أن المحامى محمد زين العابدين عندما تحدث عن إسماعيل الأزهرى قال: الشهيد إسماعيل الأزهرى مما أثار حفيظة المحكمة وطرق القاضى والذى لم يكن يعرف شيئاً عن القضاء ولا القانون وقال للمحامى: إننى أمتنع أن تقول شهيد.. وأنا ومن خلال محبتى للشريف الهندي ولكل رفقاء الوطن فى جيله لا أمانع أن يعطى لقب شهيد لأنه يستحق أعظم الألقاب، وقد سعدت جداً بمذكراته وأيضاً سعد زملاى فى الجامعة، والذين كانوا لا يجيدون فرصة عمل بابتكار الشريف الهندي لنبذ العطالة الذى تعينوا عليه وإن كانوا لم يجدوا كراسى للجلوس فى المكاتب، ولكنه رفع عن كاهلهم العطالة وجعلهم موظفين فى الدولة دون وظائف، وتوجهوا نحو العلم وقرأوا وذاكروا ودرسوا وصاروا بعد هذا فى خدمة الوطن العظيم..  
بطولة الشريف: لقد قال «خريف الفرح» وكاتبه زميل للشريف يوسف الهندي: إنه ولد وفى فمه ملاعق عديدة لا ملعقة وحيدة من ذهب، وكان بالطبع لا يعبا فى إجازاته أو فى حياته اليومية أن يخرج ليشتري جلباباً أو حذاء أو يكافح مثل عبد الرحمن مختار وغيره.. وإنما صب كل إهتماماته فى القراءة والإطلاع وعندما كان عبد الرحمن يزوره فى غرفته الخاصة يجده سابحاً فى بحور وأمواج من الكتب والمجلات والقصاصات، ولكنها لم تكن كلها فى الأدب والشعر والثقافة، ولكن معظمها وبالقفه (فى مقطف المعرفة قصصاً لأرسين لوبيين وشارلوك هولمز العريقين فى حوادث الأساطير الخرافية)..  
٢٠٣



## ٧٢. تحية لمن رحب باللورد

### ومن لم يرحب

اللورد في الخرطوم: في يوم ٢٦ أبريل ١٩٢٢م وفي سراي الحاكم العام احتفل السودان بالزائر الكبير اللورد اللبني نائب جلالة ملك بريطانيا العظمى في مصر، وقد كان الاحتفال مهيباً والحضور وقوراً زعماء الروح ثلوثاً متكاملين حاضراً وهم: على الميرغنى، عبد الرحمن المهدي، والشريف يوسف الهندي، وفي الخرطوم داخل القصر وخارج القصر إزداد التهامس تعالياً لماذا هذه الزيارة؟ ولماذا هذا الوقت بالذات لقد كانت مصر تنادي بالإستقلال وكان سعد زغلول مرموقاً محبوباً في مصر والسودان..

وكان معه خطيب لبق يعرف كيف يتعامل مع الكلمات ويجذب الإلتفات، وهو الزعيم القبطي مكرم عبيد خطيب ثورة ١٩١٩م.. وكان زعماء الوفد يحبون السودان، فلقد كتب مكرم عبيد تهنئة رقيقة في عيد الأضحى لأبناء السودان، وكان سعد زغلول يعلن دوماً بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وكانت قلوب أبناء السودان تتجه صوب مصر تعزز بثورتها وتؤمل فيها الكثير..

وكان الناس في السودان يعرفون الكثير عن سعد زغلول، ويحكي بروفيسور أحمد دياب قصة زيارة مفتش إلى المدرسة الأولية بكوستي، وإتجه المفتش يسأل التلاميذ: من أعظم رجل في الدنيا؟ وتوقع أن تكون الإجابة: ملك بريطانيا أو الحاكم العام، ولكنه فوجيء بتلميذ يلوح بأصبعه في حماس يستأذن في الكلام.. وسمح له وكانت إجابته: إن أعظم إنسان في الدنيا هو سعد زغلول..

وهنا خجل الناظر وأعلن المدرس إنه لم يتكلم قط عن سعد زغلول، في هذا الوقت يتساءلون: لماذا جاء النبي؟ ويستمر الاحتفال ويخاطب النبي شعب السودان ويقول: إن الحكومة البريطانية سوف لا تتوقف عن مساندة السودان، وسوف تبذل مع مصر مجهودات كبيرة لإنقاذ هذه البلاد الواسعة الأرجاء من الخراب والدمار.. ونؤكد لمصر إنها سوف تحصل على مقدار ما تأخذه من ماء النيل وحكومة بريطانيا مستعدة لتقديم الضمانات.. وكان هذا يعني إن بريطانيا سوف تطلق سراح مصر من سلطتها، ولكن سوف لا تطلق السودان ولن تنطلق منه، وهنا وقف الرجل

وقد تأثر الشاب الصغير بهذا فأصبح فيما بعد مغامراً ومقاتلاً وشرساً، ولكنه في نفس الوقت كان خفيف الظل.. حلو المعشر.. وكان أديباً وبليغاً وخطيباً وساخرأ لأبعد الحدود وما إعتلى منصة إلا وكان سيدها وفارسها وبطلها، فقد كان يعرف كيف يتصيد آذان وعيون الناس ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ويؤثر على عواطفهم تأثيراً يأخذ الألباب، وقد كانت للشريف عدة خطابات ومجموعة خطب وكان رجلاً وطنياً حماسياً غيوراً على تراب أرضه، وكان يكتب كثيراً ضد مايو ويحاول أن يجعل من عيد الإستقلال فرصة للمراجعة كما كان يعتز برجال الوطن العظماء مثل: إسماعيل الأزهري، وقد أعطاه أيضاً لقب الشهيد ذلك اللقب الذي أعطى أيضاً له، رغم أنهما ماتا ميتة الله كما يقولون، وأذكر هنا بعضاً من كلماته :-

تحت عنوان « أين الإستقلال؟ » يقول: وهكذا.. مضى ربع قرن من الزمان وأطل علينا عام جديد ولا بد أن نحتفل باليوبيل الفضي لذكرى إستقلال السودان، ولكن، أين الإستقلال؟ أين الإستقلال الذي يحتفل به وبذكره الخالدة؟ وما هي معاني الإستقلال الحقيقية لأي شعب من الشعوب؟ أين هذه المعاني معاني العزة والكرامة والحرية والديمقراطية والسيادة الوطنية للشعب السوداني؟ أين هي؟ أين ذلك الإستقلال النظيف الذي جاء على أعقاب معركة نضالية وطنية شريفة قادها جيل وطني إتسم بقدر ما إتسم بالولاء والوفاء للسودان وحده، وإتسم بقدر ما إتسم بالحصافة والسياسة والكياسة والسمو الوطني الأصيل، ذلك الجيل الذي إنتزع من المستعمرين وببراعة سياسية نادرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً حق تقرير المصير..

من حسين الهندي إلى إسماعيل الأزهري في ذكرى إستشهاده العاشرة قال: يحتفل السودانيون بإجماعهم بذكرى إستشهادك في يومها وآخرون في شهرها وبعضهم في سنتها، أما نحن فلا أنت ولا ذكراك تفارقنا أو نفارقها لحظة واحدة، فهي تعاشنا.. نحن نعيش بها ومعها ولها ومنها يومنا وساعتنا وشهرنا وعامنا وعمرنا، ومهما تعاقب الزمن وإستطال فلا يمكن أن أنسى يوم أن قلت لي: يوماً ما.. ولا أظنه بعيداً.. سأسقط بينكم فهل سيكرمني الله ولو لحظة بأن أسمع منكم وعنكم بعد عشر سنوات .. وأردف ياعسى ولعل.. وبعد أن شكا الشريف حاله قال: أبى الشهيد.. ياأبا الشهداء لقد شكوت لك حالنا وليس في شكوى الإبن غضاضة لأبيه..



الحكيم على الميرغنى والحكمة نعمة تأتي من الله الذى يعطى بسخاء ولا يُعبر،  
والتزم الميرغنى بالحكمة لأن رابح النفوس حكيم، وكما يقول الحكيم بن شيراز:  
إحسب فضتك وذهبك وإجعل لكلامك ميزاناً ومعياراً، ولفمك باباً حصيناً ومزلاجاً،  
واحذر أن تزل به فتسقط أمام الكامن لك ( ابن سيراخ ٢٩: ٢٩ ) .. وقالت حكمة  
الميرغنى: إن السودان بلد قائم بنفسه، وشعبه قائم بنفسه على الأسلوب الذى  
يلتزمه..

الترحيب وعدم الترحيب: ورحب البعض شعراً بزيارة اللورد وطالبوه بزيارة  
الإصلاح ، بينما رفض شاعر آخر هذه الزيارة ، لم يعلن عن نفسه وقتها، ولكن  
الأهرام نشرت قصيدته والشاعر هو توفيق جبريل والذى كتب عنه الأستاذ  
هنرى رياض شاعراً ثائراً.. والذى رحب مشكور والذى لم يرحب مشكور أيضاً،  
كلهم يتنافسون فى حب السودان، كل واحد على طريقته..

لقد رحب الشاعر عبد الله عمر البنا باللورد وطالبه بالتعاطف مع السودان  
وتساءل: كيف يمكن أن ينهض قطر ليس فيه تعليم ؟ ويطالب اللورد أن تكون  
معاملته مع أبناء السودان معاملة ود ولين، ولطف وحسن تفاهم حتى يتحول موات  
الديار إلى حياة جميلة ورخية، ويتغنى العرى ويحارب الفقر والجهل وهو يقول:

تراعت مشكلات الدهر فينا

وإرجفت المعابد والجهات

وجاء اللورد يرفل فى ثياب

تضم بها المنافع والشكات

ألا يا حاملاً السيوفين إننا

نفوس للمعالى جائعات ؟

مررت على الديار وجزت فيها

بـواد أرض ساكنة موات

فبعض من تكاتفهم غـرارة

وبعض من ملابسهم غـرارة

أما الشاعر الذى أخفى اسمه فقد جاءت قصيدته فى الأهرام المصرية تحت  
عنوان « المسألة السودانية » والذى كان يكتب عنها الأديب محبوب ثابت وتقول  
القصيدة :-

أيها القوم لا تجروا الذيولاً

يانف الخـر أن يعيش ذليلاً

إن أردتم إصلاحنا، قد فعلتم

فاعذرونا إذا ملكننا الدخيلاً

ويح قلبى ماذا يريد النبى ؟

يوم وافى يجد سيفاً صقيلاً

ويرى الدكتور المليك: إن ترحيب البنا كان ترحيباً وقوراً، وأرى إن البنا لم يكن  
سلبياً.. وإن توفيق جبريل كان ثائراً ولكن سرياً.. والتحية لمن رحب باللورد، ولمن  
لم يرحب به، وكلاهما سار فى درب المجد طالباً تقدم السودان..

### ٧٣. دار الثقافة بالخرطوم

أول محاضرة: نرجع مع القارىء العزيز عقارب الزمن إلى زمن الثقافة فى السودان  
ونبدأ بيوم ٣٠ مايو ١٩٤٠م عندما تم افتتاح دار الثقافة بالخرطوم وبدأت الدار  
بمبادرة من كبار رجال الإدارة البريطانية وعلى رأسهم السكرتير الإدارى المثقف  
« سير دوجلاس نيوبولد » والسكرتير الإدارى الذى سبقه « سير أنجس جيلان  
» والسيد « بيلى وليامز » مساعد مدير المعارف والعميد السابق لكلية غوردون  
التذكارية بالتعاون مع عدة شخصيات سودانية، وتمكنت هذه المجموعة من إقناع  
الحاكم بأهمية « دار الثقافة » باعتبارها تلبية للإحساس بالأمان لدى المواطن  
السودانى عندما يجتمع حول الثقافة والتى هى أكثر الحاجات الإنسانية رفعة  
وسمواً..

وبدأت أول محاضرة فى دار الثقافة عنوانها « الوجه الإنسانى للثقافة » ولقد  
أهدانى بروفيسور حسن أبشر الطيب ترجمته لهذه المحاضرة والتى فيها وقف



بروفسور حسن على أخلاق البريطاني السير دوجلاس نيوبولد الذى كان مديراً إدارياً للسودان من ١٩٣٩-١٩٤٥م.. ويرى الطبيب إن نيوبولد قد وظف مقدرته الفكرية والإدارية البارزة للتأكد من تأسيس دار الثقافة على دعائم سليمة، فهو سياسى موهوب وباحث شديد الإلتزام بالمبادئ الإنسانية، وهو مثقف واسع الإطلاع ذو علاقات محلية ودولية متينة، وقد أهدى مكتبته الخاصة والتي تضم أكثر من ثلاثة آلاف كتاب هى الآن نواة المكتبة الحالية لجامعة الخرطوم.. والحمد لله إن بدأ ركب الثقافة فى دار الثقافة منذ سنة ١٩٤٠م ولكن طبعاً الثقافة موجودة بكثرة وثقافة فى ربوع السودان منذ الأيام القديمة..

وأجدادنا ربما كانوا لا يقرأون ولا يكتبون ولكنهم كانوا على قسط كبير من الثقافة والمعرفة، ونحن هنا لا ننسى مثلاً ثقافة الأصدقاء العرب الأربعة الذين أتوا إلى أرض عوص يشاركون أيوب الصديق ذلك الرجل العربى الذى كان يحيا فيما يسمى الآن سلطنة عمان والذى دفن هناك، وقد كانت ثقافة الأصدقاء العرب ثقافة رفيعة المستوى وكل واحد منهم قال قطعة أدبية عن الألم مشاركة فى آلام أيوب ومواساة له فى مأساته..

وأذكر هنا فقط حديث أليفاز التيماني عن رأس الكواكب ودائرة السماوات وحياة التجرد التى هى طريق التلاقى مع الله عندما يتنازل الإنسان عن ذهب الأرض ويكون الله هو تبره وفضة أتعاب له فهو يقول: هل ينفع الإنسان الله؟ بل ينفع نفسه الفطن، هوذا الله فى علو السماوات وأنظر رأس الكواكب ما أعلاه.. السحاب ستر له فلا يرى، وعلى دائرة السماوات يتمشى، تعرف به وأسلم بذلك يأتيك خير، إقبل الشريعة من فيه وضع كلامه فى قلبك وإن رجعت إلى الله القدير تبني إن أبعدت ظلاماً من خيمتك وألقيت التبر على التراب وذهب أوفير بين حصا الأودية يكون القدير تبرك وفضة أتعاب لك حينئذ تتلذذ بالقدير وترفع إلى الله وجهك تصلى له فيسمع لك (أيوب ٢٢)..  
وأرجو أن تعلموا إن هذا الزخم الثقافى بهذا المستوى الرفيع يرجع إلى العام ألفين قبل الميلاد..

الوجه الإنسانى للثقافة: كان عنوان أول محاضرة فى دار الثقافة عنوانها « الوجه الإنسانى للثقافة » فلقد بدأت الدار بقوة ثقافية وقاد نيوبولد منبر الثقافة فى السودان حتى قضى على دار الثقافة لا لسبب إلا لوهم مؤداه إنها صنعة الإستعمار، ولكن

أول محاضرة قدمت تشخيصاً باهراً وبليغاً قوى الأثر لمكونات الشخص المثقف الذى عرفه نيوبولد بأنه رجل رفيع التعليم يعرف ويتذوق الكتب والأسفار واللغات القديمة والحديثة والعلوم والآداب.. ويتمتع بصفة فى غاية الأهمية هى الإنسانية تتمثل فى الخيال والتسامح والفكاهة والبساطة..

ولقد كانت دار الثقافة معرضاً لكل ثقافة، فلقد شارك فى المحاضرات مصريون وسوريون ولبنانيون ونخبة من أبناء السودان، ونخبة من الموظفين الإنجليز الذين كانوا فى ذكاء وثقافة يخدمون السودان، وكانوا يسجلون خواطرهم وتأملاتهم ويبثون حبهم للسودان العظيم فى تقاريرهم ومقالاتهم وكتاباتهم، وقد اضطلع المثقفون من

أهل السودان ومن رواد دار الثقافة بدور كبير فى إستقلال السودان.. وقال محاضر أول محاضرة فى دار الثقافة : بودى أن أعتبر دار الثقافة مكاناً بعيداً عن المدرسة، بعيداً عن الكلية، بعيداً عن المكتب، مكاناً لا يفعل المتعلمون فيه شيئاً سوى شحذ أذهانهم وتحسينها وجعلها إنسانية التوجه، أما المعدات المتاحة لهم فهى مكتبة وكتب ودوريات ومحاضرات ومناقشات وجدل وحديقة، وأخيراً وليس آخراً بعضهم البعض، أذهانهم وحوارهم، وفى إعتقادي إنه حتى لو كانت القراءة للإبتهاج والتفاخر وتنمية القدرات كما يقول « بيكون » فإن هذه أهداف سامية..

## ٧٤. خلود الديمقراطية

دار الثقافة: ما أكتبه اليوم عن الديمقراطية هو ما تناوله إدوارد سليم عطية فى محاضرة أقيمت فى يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٠م، وإدوارد هذا هو ابن طبيب لبنانى مسيحى كان يعمل لدى الحكومة السودانية، وكان يعمل فى المخابرات البريطانية، وكان مهتماً بإطلاع الحكومة على أفكار المثقفين السودانيين، وكان فى السودان يتمتع بدائرة واسعة من الأصدقاء والمعارف من جميع المشارب هو وزوجته الإنجليزية « جين ليفنر » والتي أنجب منها إبنان أحدهما السير مايكل عطية عالم الرياضيات فى كمبردج، والثانى باتريك عطية أستاذ القانون الإنجليزى فى أكسفورد..

وقبل أن أبدأ بحديث عطية عن الديمقراطية أورد كلمة جديدة اخترعها الأديب أنيس منصور تسمى « الديمقراطية » وتحت عنوان « من الدينىوقراطية إلى الديمقراطية إلى الدينىوقراطية » فى جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٠٠٥/٤/٦ م، قال أنيس :



إن كلمة ثيوقراطية معناها حكم الله، وهى من كلمتين يونانيتين : ثيوس يعنى الله وكراتين حكم، وطبعاً دخلت الكلمات اليونانية إلينا أسماء وصفات، فكلمة فيلسوف تعنى « محب الحكمة » وإسم فيلوثاوس الذى أتشرف به يعنى « محب الله... وكلمة ديموقراطية تعنى « حكم الشعب » وأول من إستعمل كلمة ثيوقراطية هو المؤرخ اليهودى فلافيوس جوزيفوس (٣٧-١٠٠م) ..

وأراد بهذا التعبير أن يقول: إن اليهود يحكمهم الله نفسه ويدير حياتهم وينصرهم ويعذبهم، ولكنى أعلم أن اليهود هم الذين طلبوا ملكاً لهم أيام صموئيل، وكان النبی صموئيل متضايقاً من هذا حتى إن الرب أوحى إليه قائلاً: إفعل لهم ما يشاؤون لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى قد رفضوا.. وبعد هذا بدأ نظام الملكية عند اليهود وكان أول ملك هو شاول ابن قيس، وكان الملك يمسح من الكاهن ويكون مسيحاً لله، وكانت الحضارات القديمة ترى إن حكمها ثيوقراطى فالملك هو الإله والحكم إلهى ربانى والملوك عند الفراعنة آلهة.. ويعتبر أنيس منصور إن كلمة ثيوقراطى يمكن أن تكون دينوقراطى أى الحكم باسم الدين..

أما إدوارد عطية محاضر سنة ١٩٤٠م فإنه يقول: إن محاضرة عن الديمقراطية تعد أمراً مهماً وحيوياً والملابسات تمنح الموضوع أهمية تجعله غريب الصعوبة فى اللحظة الراهنة لأن الديمقراطية تحاسب وتمتحن الآن ويظن البعض إن هذا هو اختبارها النهائى الحاسم، إنها تقاتل من أجل البقاء فى مواجهة أشكال حاسمة إجتماعية منافسة ومهددة فيما يتعلق بالنفوذ والسلطة وتخيم على الأفق سحب كثيفة وتهجم شياطين الشك على عقول كثير من المؤمنين بالديمقراطية..

هل فعلت الديمقراطية ما يبرر وجودها ؟ هل هى صالحة للبقاء ؟ هل ستبقى وتتجو ؟ إن هذه الأسئلة تجعل من يحاضر عن الديمقراطية كأنه يدافع عن شخص أمام المحكمة.. ويسرع عطية ليعلن فى محاضرة خلود الديمقراطية فيقول: إنى أحذركم بأننى أتيت لأمدح الديمقراطية لا لأرثيها، إنى قادم لكم وبإقتناع صادق وشديد أن موكلتى أبعد ما تكون عن الإحتضار والموت لأنها فى الأساس خالدة، وإن بدت أحياناً واهنة وعليلة بالمقارنة مع النظم الجديدة الصاخبة، ذات رصيد من القوة وذات مبادئ أدبية لتجديد الشباب تضمن شفاءها وبقاءها فى الدنيا حتى بعد أن ينتهى منافسوها بغرورهم ويطويهم النسيان..

إن جسد الديمقراطية وأعنى بذلك المؤسسات التى تعيش فيها قد تموت إذا أساء الناس معالجتها أو شوهوها ، أما روحها فهى شأنها شأن روح وطموحات البشر لا تموت لأنها ليست إلا تعبيراً عن أداة لتحقيق تلك الطموحات..

التعريف والبدايات: ويقول عطية: ثمة تعريفات كثيرة للديمقراطية لكن التعريف الذى إنطبع فى خيال وقلوب البشر هو ذلك التعريف الذى ذكره الديمقراطي العظيم إبراهيم لنكون عندما قال: فلنعلن فى هذا المكان تصميمنا الجازم أن لا يكون أبطال الحرب الأهلية الأمريكية قد ماتوا سدى، وإن هذه الأمة ستشهد وعين الله ترعاها مولداً جديداً للحرية، وإن حكومة الشعب بواسطة الشعب ولصالح الشعب سوف لن تزول من الدنيا..

ويذكر عطية النموذج اليونانى للديموقراطية عندما كانوا لا ينتخبون نواباً للشعب بل كانوا يلتفون جميعاً فى ساحة واسعة ويتفقون على القوانين التى تحكمهم، وكان للمواطنين جميعاً حق حضور تلك الإجتماعات كانت تلك حكومة مباشرة وديمقراطية خالصة فيما يتعلق بمواطنى أثينا، ولكن ديمقراطية أثينا لم تستمر كما لم تعطى فرصة للأجانب أن يتمتعوا بحقوق المواطنة كما كان الرقيق لا حقوق لهم، وإنهارت ديموقراطية أثينا ولم تؤثر على التطورات السياسية ولكنها بداية مهمة..

لقد نشأت الديمقراطية بحسب المحاضر كفكرة دولية شاملة وكنظام حكم موسع فى الأزمنة الحديثة فى أوربا بداية بتاريخ البرلمان البريطانى الذى يعتبر أعظم مساهمات إنجلترا فى الحضارة، وعبر حدود بريطانيا إلى أمريكا ثم إلى كل قارات العالم، وصار نهر الديمقراطية نهراً يعبر قارات العالم ويواجه أرضاً صخرية أو يضل طريقه وسط تلال الرمال مما يستلزم جهداً أكبر للحصول على بركات هذا النهر العظيم..

لقد هبت رياح الديمقراطية بداية ضد حكم الملك جون فى بريطانيا عام ١٢١٥م وكانت تلك أول مناسبة ينظم فيها إحتجاج وطنى ضد حكومة سيئة وأنت الثمار فى شكل « الماخنا كارتا » والتى هى أول محاولة ناجحة ككبح جماح النزوات الملكية، وأول إنتصار لحكم القانون فرض بإرادة الشعب، إن محاضرة إدوارد عطية عن «



الديمقراطية» طويلة وعميقة، ولكننى لأتخيل إنها كانت سبباً ودافعاً أن يحلم أهل السودان بها، وقد جاهدوا حتى حققوها وإنطلقوا من دار الثقافة ثم نادى الخريجين ينادون بالديمقراطية التى وإن كان قد خبا نورها ولكنها باقية خالدة، وسوف يكون لها الإنتصار بمشيئة الله..

## ٧٥. السودان تحت الحكم البريطانى

مصطفى عابدين: قام السيد مصطفى عابدين بترجمة كتاب « السودان تحت الحكم البريطانى» المباشر إلى فجر الإستقلال وقد ساهم فى إخراج ترجمة الكتاب إسكندر فهمى الذى كتب هو نفسه كتاباً عن السودان، وخرج الكتاب فى عام ١٩٩٦م من مطبعة دار الجيل التى كانت متعاونة جداً مع صاحب مكتبة مروي إسكندر فهمى والأمل معقود على ابنه فهمى إسكندر لكى تستمر المسيرة لأن الكاتب دوماً لا يملك إمكانيات، وقد طبع إسكندر فهمى الكثير من الكتب المهمة عن السودان ولا أعتقد إنه جمع حتى ما دفعه من تكاليف ولكنه كان دوماً سعيداً بما يعمل لأنه يصب فى خدمة الوطن العظيم..

والسير جيمس براون مؤلف الكتاب كان آخر سكرتير إدارى للسودان ويرى المترجم إن السودان لم يكن مستعمرة بالمعنى التقليدى للكلمة، فقد كان وضعه فريداً بين المستعمرات إذ إنه كان يقع تحت سيطرة الحكم الثنائى مصر وبريطانيا، وكانت للأخيرة السلطة الحقيقية والكلمة النافذة بالرغم من أن العلمين البريطانى والمصرى كان يرفرفان جنباً إلى جنب فى كل أنحاء السودان، وكان يسمى السودان « الإنجليزى المصرى »..

ويرى المترجم أيضاً إن عدد الموظفين البريطانيين يقل كثيراً عن الأربعمئة ، وكانت إدارة تتميز بالإنضباط والحزم والصرامة، وكان مفتشو المراكز يسافرون لعدة أيام يمتطون الجمال والخيول للوقوف على أدق التفاصيل فى نطاق المناطق التى كانت تحت إشرافهم وبعضها أكبر مساحة من بريطانيا، وكان روبرتسون معروفاً فى السودان ومشهوراً ويعرف كيف يتعامل مع القيادات ومع الشعب، وكان له دور فى القضايا الساخنة الخاصة بالإستقلال ولعب دوراً كبيراً وبارزاً فيها..

وقال المؤلف يبرىء ذمته: حقاً إن الأسس التى عملنا بمقتضاها كانت تعتمد على نظرة أبوية حيال الناس الذين تحكمهم، وإن التغييرات التى كنا نبحث لهم عنها كانت هى المناسبة فى نظرنا نحن وليس فى نظرهم هم.. إن إنجازات عملنا حتى لحظة التسليم الأخير كانت واضحة للعيان وفى اعتقادى إننا لا نحتاج أن نخجل منها، ولقد جاء روبرتسون إلى السودان مروراً بالقاهرة التى لم يشعر فيها بالراحة..

وعندما أتى إلى السودان عاش برنامجاً مكثفاً من اللقاءات والمحاضرات وركب الجياد للتمرين لأنها سوف تكون وسيلة مواصلاته والتقى بالحاكم العام السير لى ستاك وقال عنه: إنه رجل ودود وهادىء وحكيم، وتحدث معه عن العمل فى السودان وكيف يكون التعامل وشجعه على أن يكون قدر المسئولية ويحترم الناس ويعرف واجباته والتى أهمها تقدير الضرائب وجبايتها وحفظ أموال الحكومة فى أمان بخزائن المدنية ومراجعتها فى فترات متقاربة..

ويقول المؤلف: إنه من الصعب أن يتذكر الشعور الذى يكنه للبلاد التى قضى فيها أكثر أيام عمره، ولكنه يقول: إنه كان يعمل من أجل مصلحة الناس بناء على التقاليد التى تعلمها وبدأ العمل بها، وكان الولاء لبلاده مع الإهتمام برفاهية المواطن السودانى ، ولم يكن يهدف إلى خدمة الأهداف البريطانية إلا إذا كان ذلك يتعلق برفاهية السودانىين ، كما قال: إنه بكل حال مع غيره خدماً للسودانيين وتدرجياً وعلى كل حال جننا نشهد التقدم الإجتماعى ورفع مستويات المعيشة، وكانت هى النواحي الهامة لعملنا لرفاهية السودانىين ، كما إنه فى الجانب السياسى والإدارى قد أصبح إعطاء السلطة للوطنىين من هموم الخدمة السياسية منذ حوالى عام ١٩٢٧م، ولقد إستمر المؤلف فى السودان منذ عام ١٩٢٢م حتى عام ١٩٥٣..

مارجرى برهام: ذكر المؤلف عدد من الشخصيات ذات التأثير عليه عندما كان بين ظهرانينا فى السودان، ومن بين من ذكر: ديم مارجرى برهام والتى كانت له صديقة دائمة ومستشارة وإلهاماً عظيماً لعمله، وقال « إنه مدين لها مرتين، مرة بسبب مساندتها له فى العمل وأخرى لأنها كتبت مقدمة الكتاب، وقد قالت : إن التصفية السريعة لإمبراطورية بريطانيا الإستعمارية المترامية الأطراف كانت ترجع بصورة كبيرة إلى تأثيرات الحرب العالمية والثانية، وذلك بدفع طموحات المحكومين وإضعاف قوى الحاكمين وثقتهم بأنفسهم، ولم تأت التصفية نتيجة لقرار شامل



لبريطانيا نفسها، كما لم تكن نتيجة لتحرك مرتب بين المحكومين وإن كنت لا أوافق على هذا لأن فيه تجاهل لما قام به رجال السودان من مطالبة الإستقلال من خلال نادى الخريجين والمنتديات الثقافية حتى دار الثقافة التى أسسها الإنجليز فى كل هذه الدور كان هناك مطالبة بالإستقلال ووصل الأمر إلى ثورة ١٩٢٤م ورجالها الذين وضعوا اللبنة الأولى للإستقلال..

وتستمر مارجرى فى الحديث عن تصفية الإمبراطورية البريطانية فنقول : فى أفريقيا فإن كل الدول التى نالت إستقلالها ما بين عام ١٩٥٦ و ١٩٦٨ م إتبع طريقها وحدها نحو الحرية فى أوقات مختلفة ويبدو إن إنجاز الإستقلال كان قد إتبع بميل من الحكام والمحكومين.. وإن الجانب الأفريقى كان لديه شعور بالكرهية نحو الإستعمار وهو شعور غير معترف به، ولكنه شىء طبيعى يركز على حقيقة إنهم مستعمرين، إن الذين قاموا بترتيبات إنهاء السلطة يحتاجون إلى إختيار الوقت المناسب ليروا عملهم الماضى على حقيقته..

إن هذا الكتاب هو دليل كاف على إن السير جيمس روبرتسون قد إختار وقته تماماً.. ومقدمة الكتاب وهى إمراة لم تغفل أن تصنع شيئاً فى ففة إمراة أخرى هى زوجة المؤلف والتى كانت له مؤنساً ومعيناً ونظيراً ومشجعاً جعله يعتبر أيامه فى السودان سعادة وهناء معها على أرض السعادة، فلقد عاشا على الأراضى الفاتنة على حد تعبير آدمز الأمريكى الذى أحب السودان وكتب عن تاريخه وأمجاده..

## ٧٦. السودان عند روبرتسون

السكرتير الإدارى: كان السكرتير الإدارى فى السودان وهو بريطانى أكبر سلطة فى البلاد بعد الحاكم العام، وقد كانت بريطانيا تختار من ترسله إلى السودان وترسله إلينا شاباً غضاً يبدأ موظفاً صغيراً ثم يرتقى حتى يصل أكبر المناصب، وكان من يأتى إلى السودان يدرس السودان قبل أن يصل إليه ويدرس اللغة العربية لكى لا ينقطع تواصله مع أهل السودان ويتألق بين السكرتارية والإدارية شخصان هما: السير هارولد ماكمايكل والسير جيمس روبرتسون والذى هو آخر سكرتير إدارى فى السودان ، وكلاهما كان يسجل ذكرياته، وكتب ماكمايكل كتاب عنوانه « السودان ..

وكتب روبرتسون كتابه الذى عربّه مصطفى عابدين وأعطاه عنوان « السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى فجر الإستقلال » وهنا نرى إن ماكمايكل وروبرتسون كتباً معاً عن فترة واحدة فى تاريخ السودان، ولاشك إن لكل منهما وجهة نظر خاصة، فالسودان لؤلؤة الزمان متعددة الألوان وكل من يكتب عنها يرى لوناً من هذه الألوان الفريدة والجميلة ونحتاج إلى دراسة مقارنة بين السودان عند ماكمايكل والسودان عند روبرتسون..

واعتقد إن الخدمة المدنية كانت موضوع درس ومحاسبة وتدقيق وكان كل موظف يعتبر إن عمله فى السودان هو خدمة للتنمية والرقى والحضارة، وإنه وكيل ومطالب أن يعطى حساب وكالته.. وإنه أوّتمن على وزنات ينبغى أن يستثمرها لما فيه الخير، ومثل الوزنات موجود فى الكتاب المقدس وله مكان فى أعماق كل مؤمن.. ويقول المثل والكلام هنا للسيد المسيح: وكأنما إنسان مسافر دعا عبده وسلمهم أمواله، فأعطى واحداً خمس وزنات وآخر وزنيتين، وآخر وزنة ، كل واحد على قدر طاقته وسافر للوقت، فمضى الذى أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخرى، وهكذا الذى أخذ الوزنتين ربح أيضاً وزنيتين أخرتين، وأما الذى أخذ الوزنة الواحدة فمضى وحفر فى الأرض وأخفى فضة سيده..

وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم فجاء الذى أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات آخر قائلاً: ياسيد خمس وزنات سلمتني ، هوذا خمس وزنات أخرى ربحتها فوقها، فقال له سيده: نعماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً على القليل فأقيمك على الكثير أدخل إلى فرح سيدك، ثم جاء الذى أخذ وزنيتين وقال: ياسيد وزنيتين سلمتني هوذا وزنيتان ربحتهما فوقهما، فقال له سيده: نعماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً فى القليل فأقيمك على الكثير أدخل إلى فرح سيدك..

ثم جاء الذى أخذ الوزنة الواحدة وقال: ياسيد عرفت إنك إنسان قاس تحصد من حيث لم تزرع وتجمع حيث لم تبذر، فخفت ومضيت وأخفيت وزنيتك فى الأرض هوذا الذى لك، فأجاب سيده وقال: أيها العبد الشرير والكسلان عرفت إنى أحصد حيث لم أزرع، وأجمع من حيث لم أبذر، فكان ينبغى أن تضع فضتى عند الصيارفة فعند مجيئى كنت آخذ الذى لى مع ربا.. فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذى له عشرة وزنات، لأن كل من له يعطى فيزداد، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه، والعبد



البطل إطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.. والوزنة هي جزء من المال وهي رمز لكل ما يملك الإنسان من مواهب وقدرات وتقنيات.. جيمس روبرتسون: ومؤلف الكتاب كان يخطط منذ سنوات شبابه الباكر، قبل أن يبارح مدينته في أسكتلندا للعمل في الهند مترسماً خطى والده وجده اللذين عملا هناك لعشرات السنين، ولكن تواتر الأنباء عن حدوث اضطرابات بالهند جعله يعيد النظر في خطته، لذا بدأ يعد العدة للعمل بالسودان بعد تخرجه من أكسفورد، والتحق بالخدمة السياسية في السودان عام ١٩٢٢م وبدأ عمله مساعداً لمفتش مركز رفاعة والحصاحيصا ثم عمل في الكاملين والقطينة ومنطقة جبل الأولياء للإعداد لتشييد الخزان والدويم والروصيرص، كما عمل مفتشاً لمركز النهود كردفان وعمل لفترة قصيرة حاكماً بالإبابة لمديرية الجزيرة في مدني..

وفي سبتمبر ١٩٤١م نقل إلى الخرطوم ليصبح مساعداً للسكرتير الإداري ثم نائباً له ثم سكرتيراً إدارياً في مارس ١٩٤٥م حتى سنة ١٩٥٥م، وعاصر خلال هذه الفترة قمة التطورات السياسية في السودان والتي توجت بتكوين أول حكومة وطنية برئاسة الزعيم إسماعيل الأزهري، وذهب روبرتسون إلى نيجيريا حاكماً عاماً قبل إستقلالها..

وودع «روبرتسون» العالم راحلاً إلى العالم الآخر في عام ١٩٨٩م وأودع ما في رأسه خبرة وإدارة ومواقف في مذكرات عن السودان وقدم في كتابه هذا ملامح السودان وأكبر ما قدمته صفحات الكتاب إثارة هو الصراع المجنون الذي جرى بين الخرطوم والقاهرة ولندن ونيويورك للتأكد إن السودان سوف لا يخرج من السيطرة الإنجليزية ليقع تحت السيطرة المصرية، والغريب إن إسماعيل الأزهري مع الأشقاء كان يرى إن مصر سوف تبقى في السودان في وحدة معه، ولكنه في لحظة ما حقق رغبة الشعب في الإستقلال وأعلنه من داخل البرلمان، وفي أدب جم أنزل العلم البريطاني والعلم المصري، ورفع مع محبوب علم السودان المستقل..

ويتحدثون عن روبرتسون إن زوجته كانت وراء عظمته، لأنها بذكانها وأنسها وإنسانيته قد استطاعت أن تكون شريكة مثالية له، ويرى البعض إنه أشرف على تسليم السودان راية الإستقلال تجاوباً مع الشعب، وإنه ذهب إلى نيجيريا لكي يقدم لها أيضاً علم الإستقلال..

## ٧٧. السودان عند ماكمايكل

السودان: منذ أكثر من خمسين عاماً كتب «هارولد ماكمايكل» كتابه العظيم تحت عنوان «السودان» وفعلاً السودان هو كل الكتاب كل صفحة فيه، كل فقرة، كل عنوان.. لقد كتب الكتاب في ديسمبر ١٩٥٣م وخرجت الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية ١٩٥٤م ومنذ ذلك الحين صار هذا الكتاب مرجعاً، ولم أقرأ كتاباً إلا واحد إشارة من ماكمايكل..

أما المؤلف نفسه فقد عاش ما يقرب من سبعة وتسعون عاماً فهو من مواليد أكتوبر المحبوب عند أهل السودان، ولد في عام ١٨٨٢ وترك هذا العالم عائداً إلى الأمجاد السماوية في عام ١٩٦٩م، وهو عالم عميق وزميل شرف في جامعة كمبردج، وقد تم إختياره للعمل في خدمة عام ١٩٠٥م، بدأ شاباً في كردفان ثم النيل الأزرق ثم الخرطوم والبحر الأحمر ودارفور..

وهذا يعني إنه طاف كل ربوع السودان الحدادي مدادي الوطن الكبير، وتقلد ماكمايكل السكرتير الإداري في الخرطوم من عام ١٩٢٦ حتى ١٩٣٤م لينتقل إلى وظائف أخرى خارج السودان، ولقد حمل السودان في قلبه وفي فكره وسجل الكثير عنه في مذكراته ثم جمع هذا كله في كتابه «السودان».. ولقد حاز الكاتب على الكثير من الأوسمة، وسام الخدمة الممتازة، وسام نجمة إثيوبيا، ولقب فارس لجماعة القديس جون المقدسي، ولقب فارس الصليب الأعظم للقديس مايكل والقديس جورج، وكل هذا يعني إن هذا الرجل كان مسيحياً مؤمناً مخلصاً يحيا في ضمير صالح أمام الله والناس..

وقد عاش القيم المسيحية وكان ساهراً على روحانيته أميناً في رسالته مثلما بولس الرسول الذي قال: صلوا لأجلنا لأننا نثق أن لنا ضميراً صالحاً راغبين أن نتصرف حسناً في كل شيء.. ولقد كان ماكمايكل هو زمن الإهتمام بالكتاب المقدس قراءة وفهماً، ولاشك إن الكتاب له أثر كبير في حياة هذا المؤلف، وقد ألف هارولد العديد من الكتب عن السودان غير هذا الكتاب منها: قبائل كردفان، تاريخ العرب في السودان، السودان الإنجليزي المصري، وكتب عدة مقالات في موضوعات شتى، وكان عارفاً لأحوال السودان فاهماً طريقة أهله بارعاً في التحاور والتفاوض، صارماً



فى الإلتزام القوانين والأعراف، وله حضور متمم بالتحفظ والترفع والبرود..  
وكان يُعرف بأنه الزعيم الأبيض العظيم.. وأرجو أن نفهم إن البرود كان مدحاً  
وليس قدحاً لأنه يعنى ضبط النفس وعدم التسرع والتأنى فى إتخاذ القرار، وإن كان  
بعض المؤرخين قد وصفوه ظلماً بالعبرى الشرير فإن هذا لا يقتل من شأنه، لقد  
كان واقعياً وربما هذا جعله يبطئ فى إتخاذ القرارات ولكنه كان يتسم بالتوازن  
حتى عندما يهاجم زملاؤه الذين كان بعضهم يراه مستبدأ بينما يراه الآخرون  
متردداً، ولكنه كان يعطى وزناً أكبر للآراء السائدة حوله..

## ٧٨. ترجمة كتاب السودان

عن السودان: كتب ماكمايكل كتاباً عنوانه « السودان » باللغة الإنجليزية والتي هى  
اللغة الأم له، والتي يجيدها إجادة الأدباء والفهماء، كتب الكتاب عام ١٩٥٣م وترجم  
خارجاً إلى اللغة العربية فى عام ٢٠٠٦م.. وتبدأ قصة الترجمة كما يقول المترجم  
بأنه ترجم بعض فقرات من الكتاب وعرضها على بعض أساتذته من الأدباء والعلماء  
والذين شجعوه وقالوا عنه: إنه قدر هذه المهمة وطالبوه بترجمة الكتاب كله، وقال  
هو: إنه من ماثور الفولكلور السودانى إن أحدهم إبتاع حذاء من السوق ورجع  
مختالاً به إلى منزله، وهنا لاحظت زوجته إن الحذاء أوسع من قدميه وإستفسرته  
عن ذلك فرد قائلاً: عندما أدخلت قدمى فى الحذاء لقياسه إذا بجميع من كان فى  
المتجر يصيح بى « قدرك قدرك ».. أى مقاسى بالتمام فصدقت وإشتريته..

وإن المترجم صدق إنه قدر مهمة الترجمة وأرى مع الآخرين إنه فعلاً قدر  
الترجمة لأن ترجمته نابعة من معرفته لدروب التاريخ ودهاليزه فهو مؤرخ على  
أرقى مستوى، ولقد كتب إليه أحمد إبراهيم أبو شوك يقول له: إن إختيار المترجم  
للكتاب كان إختياراً موفقاً ويضم صوته إلى صوت الذين باركوا له الحذاء الجديد،  
وإن صوت إمرأته نشاذ فيما أجمعوا عليه، فالترجمة جيدة وحاذقة وإستوفت كل  
الغرض والشىء بالشىء يذكر..

وأذكر إننى عندما زرت جمهورية إيران عام ٢٠٠٦م خلال تواجدى توفى والد  
رئيس الجمهورية الإيرانية الرجل الذى حاز على إعجاب الجميع لأنه رجل عصامى  
وكانت كل آماله أن يجد ابنه معقداً فى المدرسة الابتدائية، ولكن تشاء إرادة الله أن

ياخذ هذا الابن مقعد رئاسة الجمهورية عن جدارة.. وذهبت للتغزية وكنت فى صحبة  
سفير السودان فى إيران.. وكان العزاء فى الجامع ودخلت بعد أن خلعت حذائى فى  
الخارج وعندما خرجت لم أتعرف على حذائى فأخذت حذاء آخر قدر مقاسى ولكن  
عندما عدت قالت لى زوجتى: هذا ليس بحذاءك.. قلت لها: ربما يكون حذاء وزير  
من وزراء إيران أو سفير من السفراء.. فقالت لى: إن ماركة هذا الحذاء لا تتناسب  
إطلاقاً مع الحذاء الذى فقدته، وقد قال أبو شوك: إن كتاب ماكمايكل كتاب مهم فعلاً  
فى تاريخ السودان لو إطلع عليه حملة لواء الإستقلال بمنعرج اللوى لأدرك أهل  
السودان الصبح قبل أن ينجلي ضحى الغد..

لكن هيهات لوطن أضحى عرضة للتشظى والتفطر، وضعف فيه الطالب والمطلوب،  
وإختلط نابل المصالح الخاصة بحابل المصالح العامة.. وما يقوله أبو شوك هو  
نفسه مايقوله المترجم فى مقدمة كتاب « آراء وأفكار من الخرطوم »، حيث يتحدث  
عن فترات الحكم العسكرى بعد الإستقلال وكيف كانت سبباً فى هجرة الكثيرين وفى  
موت الكثيرين.. والذين هاجروا نفدوا بجلودهم إلى اللجوء إلى بلدان أخرى حيث  
إنه الآن يوجد أكثر من مليون مثقف سودانى فى الشتات يرعون الإبل فى السعودية  
أو يقودون سيارات الأجرة ومحطات الوقود أو يوزعون البيتزا ويغسلون الأطباق  
فى بلاد المهجر، ويتحدث عن: إن الثقافة فى السودان تعاني ما تعاني، وكان حكامنا  
يتفقون مع هيرمان غورنغ: تمتد يدي تلقائياً إلى مسدسى عندما أسمع شخصاً  
يتحدث عن الثقافة، أو يتفقون مع « موسولينى » الذى يرى إن ما يسمى بالثقافة  
هو فى نهاية الأمر كماليات لا فائدة منها..

ويرى المترجم: إن الحكام منعوا المناقشات والحوار، وأحرقوا الكتب ومنعوا  
إستردادها، وحظروا تعليم اللغة الإنجليزية، وكمموا أفواه الصحافة، ووضعوا قيوداً  
على حرية السفر، كما إستبدلوا الأدب بشعارات خاوية وغامضة، وكانت دار الثقافة  
فى الخرطوم والتي تأسست عام ١٩٤٠م هى أول الضحايا، ورغم هذا يرى  
بروفسور صالح: إن هذا لا يدعو إلى الإكتئاب إنما إلى الصحوة والإستيقاظ من النوم  
العميق والمحاولة للحاق بركب الحضارة، وهو يرى: إن مثل السودانييين كمثلى  
نهرهم العظيم الذى دار على عقبه بلا سبب ظاهر وتهادى بكسل وضل الطريق قبل  
عشرات الآلاف من السنين.. هكذا أبناء السودان ضلوا الطريق بعد الإستقلال ومر



منهم العمر دون أن يصنعوا شيئاً يفرحون به جيل الإستقلال..

أقسام الكتاب: وكتاب «السودان» لماكمايكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: سرد تاريخي وجغرافي مختصر للسودان وأهله بأسلوب روائي أدبي رفيع..

القسم الثاني: يتعلق بكل الإنجازات التي حققها البريطانيون في السودان منذ الأيام الأولى التي تلت واقعة أم درمان في ١٨٩٨/٩/٢ وإلى نهاية ١٩٥٣م وهو تاريخ نهاية الكتاب كتابة، وهنا ذكر المؤلف ما تم في مجال البناء والتعمير والري والزراعة والتعليم والصحة والإدارة والإقتصاد وتطور المؤسسات الدستورية، ويؤكد ماكمايكل: إنه ما من عمل أنجز إلا سبقته الدراسة المتأنية والتمحيص واستشارة كل الأطراف داخل السودان وخارجه والإستعانة بخبراء من بريطانيا وبلاد العالم الأخرى، وكان التخطيط يعنى تنمية الموارد الزراعية والثروة الحيوانية والتعليم والصحة حتى إن مدير أبحاث القطن في باكستان عندما زار مشروع الجزيرة قال: إنه أعظم تجربة رائعة لحل المشاكل الإقتصادية والإجتماعية في هذا القرن، وإنه مشروع مدروس لهذا فهو مشروع ناجح..

القسم الثالث: خصصه المؤلف للمسائل السياسية ومرحلة إلى ثلاث فترات حسب تواتر الأحداث وضمه بفصل كامل عن «دور مصر» من ناحية سياسية، وهذا القسم هو الأمتع لأنه يروي كيف تسببت الأحداث الداخلية والمؤثرات الخارجية والصراع المصري البريطاني في تمكين السودان من الوصول إلى مرحلة الحكم الذاتي، ومن ثم تقرير مصيره، والذي تم بعد عامين كاملين من إنهاء ماكمايكل لكتابه هذا..

## ٧٩. أمير الصاوي ودار الثقافة

إلى أمير الصاوي: أصدر مركز عبد الكريم الثقافى كتاب «آراء وأفكار» من الخرطوم ٢٠٠٥م وجاء في مقدمته: إن الكتاب مهدى من المركز إلى أمير الصاوي لأن الكتاب يحتوى على عدة محاضرات ألقى في دار الثقافة بالخرطوم، وكان أمير محتفظاً بها وإليه يرجع الفضل في نشرها، وأمير الصاوي كان مساعداً لوكيل الخارجية ونائباً لحاكم الشمالية ووكيلاً لوزارة الخدمة العامة ثم سفيراً للسودان في بريطانيا وهو من مواليد ١٩٢١م في سنار وله ست بنات وثلاث أولاد..

ويقول بروفيسور حسن أبشر الطيب: إن أمير كان دؤوباً على متابعة كتابات حسن وشغوف بها، واعتقد أننا جميعاً هكذا فإنتاج بروفيسور حسن ممتاز جداً ومفيد جداً، وقلبه محب للوطن ولأبناء الوطن، وهو من أهل إطلاقة على عشق الوطن وكان رايه أن يعود المواطن السودانى إلى السودان ويعمل شيئاً، ورفض فى الخارج تدمير أى مرفق سودانى لأنه تدمير للسودان، وهو يقدم حقيقة ذهبية هى إن المدفع لا يبنى بيتاً ولا يشفى مريضاً، ولا يزرع حقلاً، ولا يحصد إلا دماراً، وإن الأوطان تبنى بالمحبة والتعاطف والإحترام المتبادل للرأى والرأى الآخر، والسعى الموصول لتعظيم عناصر الاتفاق ونبذ مؤسسات الفرقة..

وانذكر ومن خلال نفس دوافع بروفيسور حسن إننى كتبت مقالا منذ أعوام عنوانه «بالمحبة نبني وبالمحبة نعيد البناء» فالسودان ينبغى أن يكون دوماً وطن المحبة، وأن يكون محفلاً يجمعنا جميعاً ويوجد بيننا فى محبة صادقة وعشق الوطن يجمعنا وحب الله يجعلنا نتأخى معاً.. لقد وعد أمير الصاوي أستاذنا الطيب بهدية خاصة تعبيراً عن إعجابه بإنتاجه، وكانت المفاجأة هدية رائعة ملفان يحتويان على نصوص المحاضرات التى قدمت بدار الثقافة، والذي بدأ فى سنة ١٩٤٠م..

وهذا كنز ثمين يعرف قيمته حسن أبشر والذي كان يوزع علينا أول محاضرة عن «الوجه الإنسانى للثقافة» وهو يعتز بها، وعندما قرأتها رأيت إنها تصلح لكل وقت وشاركنى كتابة فى هذا الرأى بروفيسور محمود صالح عثمان صالح عندما قال: نطالع الآن نص تلك المحاضرة بعد مرور ستين عاماً فترك فينا أثراً بالغاً و أرى إنها ستترك الأثر نفسه فى أجيال لاحقة خلال الألفية الثالثة، وهذا طبعاً لأن الثقافة قديمة ومتجددة ولأن الكلمة القوية تبقى قوية حيث تحمل الكلمة قوة روحية دافقة لأن الله نفسه هو الكلمة وفى البدء كان الكلمة وكان الكلمة الله، ولأن الله هو

كما كان وهكذا يكون من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين.. دار الثقافة: والكتاب الذى يقدمه لنا مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى والذى ساهم فيه أمير الصاوي وحسن أبشر ومحمود صالح هو تراث زاخر لكل الأجيال، وكما قال فرانسيس بيكون: ثمة كتب تصلح لمذاق وأخرى للإبتلاع وثالثة قليلة تصلح للمضغ والهضم، أى إن بعض الكتب تستحق أن يقرأ المرء أجزاء منها فقط، وأخرى تستحق أن تقرأ لمجرد حب الإطلاع، وكتب قليلة جديرة بأن تقرأ كاملة وبإمعان وتركيز..



## ٨٠. إفتتاح خزان سنار

ويقع هذا الكتاب تحت المجموعة الثالثة، الكلام الذى يؤكل أكلاً، وأكله لن يأتى بضرر حتى عندما يكون كثيراً لأنه سهل الهضم، وكما يقول الحكيم: قلب الحكيم يرشد فمه ويزيد شفتيه علماً، الكلام الحسن شهد وعسل حلو للنفس وشفاء للعظام (أمثال ١٦: ٢٣، ٢٤).. ناموس الرب كامل يرد النفس أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطر الشهاد.. أما أرميا فيقول: وجد كلامك فأكلته فكان كلامك لى للفرح ولبهجة قلبى (أرميا ١٥: ١٦).. وهذا يعنى إن الناس من زمان يأكلون الكلام الجميل ويضعونه فى بطونهم ويجرى أنهار ماء حى..

والكتاب المحاضرات أوكل تحريره إلى السير «رونالد هولى» لكى يقوم بتحقيقه وكان سعيداً بهذه المهمة على الأخص إنه معاصر للدار ومعاصر للمحاضرين، وهو يرى إن هذه المحاضرات لا تحتوى على مادة هامة للتاريخ فحسب، ولكن تضم أفكاراً فلسفية وتعليقات على صعيد السياسة الدولية الأوسع فى تلك الحقبة لأن دار الثقافة كانت منتدى يؤمه السودانيون والبريطانيون وغيرهم سواء كانوا من موظفى الحكومة أو العاملين فى قطاعات أخرى مثل القانون والطب والأعمال التجارية، يلتقون فى الدار لمناقشة قضايا فكرية وإجتماعية تثير إهتمامهم، وقد وفر هذا جسراً مهماً بين الحكام والمحكومين فى فترة تصاعدت فيها النزعة الوطنية..

لقد كان مؤسس دار الثقافة على علاقة طيبة مع الرواد السودانيين وهى علاقات شكلت بعداً سياسياً مهماً فى تلك الأيام.. ومن الطريف إن دار الثقافة صارت معقلاً وطنياً أوقد فتيل حب الوطن ومنه كان النداء ضد الإستعمار، ولكن الخطأ الكبير قرار إلغاء هذا النادى الثقافى المميز، وهكذا يتسرع صاحب القرار بحجج واهية تجعله يهدم داراً يمثل هذا العطاء ويحرم أهل السودان منها، لقد نشأت فيما بعد أكثر من دار للثقافة مثل: نادى الخريجين والنوادر الثقافية الأخرى مثل: نادى المكتبة القبطية بالخرطوم، ودار المكتبة القبطية بالخرطوم بحرى، ودار المكتبة القبطية بأم درمان، ونادى ناصر الثقافى..

ومما نذكره بالفخر والإعتزاز إن أحد خريجي الأزهر من مسلمى مصر كان سكرتيراً للمكتبة القبطية بالخرطوم.. ولقد تناقص عطاء هذه الدور الثقافى ونحتاج إلى صحوة ونهضة لكى تتعدد دور الثقافة فى كل ولايات السودان حيث تقدم نوراً لا يخبو، وأملاً لا ينقطع، ومستقبلاً مجيداً..

رحلة الإفتتاح: تحرك قطار الأمل فى أمسية الأربعاء ٢٠ يناير ١٩٢٦م من محطة الخرطوم متجهاً إلى موقع الإحتفال وإمتلاً فناء المحطة بجموع زاخرة من الرجال والنساء وارتفعت أصواتهم بالتهليل والهتاف والزغاريد، والوصف هنا بقلم حسن نجيلة والذى يقول: إن سبب هذا الزخم من الفرح ليس إبتهاجاً بإفتتاح الخزان والذى ما زال مجهول الأثر فى أذهانهم وتفكيرهم بل لأن القطار قد إزدحم بالزعماء الروحيين وكبار رجال الدين والأعيان.

وهنا إحتشد مؤيدو هؤلاء وأتباعهم يترنمون ويهللون ويهتفون ويصوتون ويصرخون تكريماً لعظماء القوم.. وفى صبيحة الخميس ٢١ يناير يصل القطار إى مكوار، ومكوار هو الإسم الذى يطلق على القرية التى أقيم فيها وهو إسم منشئها، وبعد الخزان تغير إسمها إلى سنار المدينة، وتهادى القطار يمشى متمهلاً يسير الهوينى كما الوجى الوحل.. وتمتلئ القرية الصغيرة «مكوار» بجماهير عديدة تدفقت من كل حذب وصوب لا لتشهد هذا البعث الجديد فحسب بل لتشاهد أيضاً هؤلاء السادة زعماء الروح والذين سعوا إلى هذه المدينة إحتفاء بإفتتاح الخزان.. وسعت هذه الجماهير الغفيرة لتسعد برويتهم..

ولقد إندھش الكاتب المصرى حسنين هيكل وهتف تعبيراً عن الحشد الكبير لليوم العظيم يقول: ماذا أرى؟ ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو؟ وما هذا العيد الذى لبس فيه أولئك السود الأبيض الجديد؟ ما هذه الأعلام المصرية والإنجليزية يلعب بها نسيم الصباح العليل؟ ما أظن أكبر مدن أية دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها؟ أفحق إن أولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعون لرؤية الماء ينزل فى ترعة الجزيرة؟ أم إنهم حشروا إليه كما حشر المزغردات والهاتفون فى الخرطوم؟ وكما يحشر الناس فى مصر زمراً للقاء كبير أو تحية أمير..

وهناك موكب وديع مهيب حدث فى السنوات الأولى من القرن الأول عندما تقدم السيد المسيح صاعداً إلى أورشليم، وإذ قرب من بيت فاجى وبيت عنيا عند الجبل



الذى يدعى جبل الزيتون أرسل اثنين من تلاميذه قائلا: اذهبا إلى القرية التى أمامكما  
وحيث تدخلتها تجدان جحشا مربوطاً لم يجلس عليه أحد من الناس قط، فحللاه وإتيا  
به ، وإن سألكما أحد لماذا تحللاه؟ فقولا له هكذا: إن الرب محتاج إليه، فمضى  
المرسلان ووجدا كما قال لهما ، وفيما هما يحلان الجحش قال لهما أصحابه: لماذا  
تحلان الجحش؟ فقالا : الرب محتاج إليه ، وأتيا به إلى يسوع وطرحا ثيابهما على  
الجحش وأركبا يسوع وفيما هو سائر فرشوا ثيابهم فى الطريق، ولما قرب عند  
منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم  
لأجل جميع القوات التى نظروا قائلين: مبارك الملك الآتى باسم الرب، سلام فى  
السماء ومجد فى الأعالي.. وإرتجت المدينة كلها قائلة : من هذا والجموع قطعوا  
أغصاناً من الشجر وفرشوها فى الطريق، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا  
يصرخون قائلين : أوصنا لابن داود مبارك الآتى باسم الرب أوصنا فى الأعالي..  
وإنتقد الموقف من الفريسيين وقالوا للسيد المسيح: يامعلم أنتهر تلاميذك.. فأجاب  
وقال لهم: أقول لكم إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ ( لوقا ١٩ ، متى ٢١ ) ..

مراسم الافتتاح: وفى الزمن المحدد، وتحت مظلة ضخمة أعدت للزوار،  
والحشد الحاشد يحيط بهم من كل جانب ، جلس المدعون وفى منصة خاصة جلس  
المندوب السامى والحاكم العام وكل بجواره قرينته، فللمرأة مكان مميز بجوار رجلها  
العظيم، وجلس معهم الوزير المصرى إسماعيل سرى باشا ومن ورائهم الشيخ  
محمد الطيب هاشم قاضى مدينة النيل الأزرق الذى كلف بقراءة ترجمة الخطب  
من الإنجليزية إلى العربية، وكان حاضراً للاحتفال الأسقف جوين أسقف الكنيسة  
الإنجليزية وكان عالماً فى الدين وفى تاريخ الكنيسة، وكان خطيباً مفوهاً، وأذكر  
له خطاباً روحياً عن أمجاد الكنيسة القبطية قدمه فى كاتدرائية العذراء بالخرطوم،  
وأملك نص هذه المحاضرة الجميلة، وكان الشيخ إسماعيل الأزهرى حاضراً للاحتفال  
ومشاركاً مع الأسقف جوين فى الصلوات..

وبدأ الاحتفال بخطاب من السير « جوفرى أرشر » الحاكم العام جاء فيه بعد  
الترحيب باللورد لويد وبقية المدعوين والزوار: إن العمل العظيم الذى نشاهده كاملاً  
أمامنا فى هذه اللحظة ما بلغ هذه النهاية إلا بفضل جهاد أناس كثيرون.. فقد ظل  
مشروع رى سهول الجزيرة موضوع بحث المستشارين البريطانيين الذين تعاقبوا

فى وزارة الأشغال المصرية من عهد السير وليم جارستين.. فالأبحاث الأولية  
التي بدأها المستر ديبوى أكملها السير مردوخ ماكدونالد بمساعدة كتشنر وونجت  
وستاك، وقد وصلت برقية من ونجت وماكدونالد تقول: عسى أن يكون إفتتاح  
الخران ومشروع الجزيرة فاتحة عصر جديد للسودان وشعبه..  
وقد تكلمت وزارة الأشغال المصرية فوضعت بغاية السخاء تحت تصرف حكومة  
السودان كل ما كان لديها من المواهب للقيام بتخطيط وإنفاذ هذا المشروع العظيم..  
وشكر الحاكم العام الوزراء والمهندسين المصريين الذين كان لهم مجهود كبير  
لإتمام مشروع خزان سنار..

## ٨١. السودان أبو الكل

### والنيل أبو الحضارة

أب الكل: نعتز بأن السودان أبو الكل ونعتز بأن كل مواطن سودانى ينتمى إلى  
قبيلة بعينها، ولكن هذا لم يجعله يرفض القبائل الأخرى ، وعندما يأتى نداء الوطن  
يلبى الجميع النداء، وقد تعاونت كل القبائل لأجل درء عار الإستعمار عن أبو الكل،  
وإشترك الكل متعاونين وفى ثورة ١٩٢٤م قاد الثورة على عبد اللطيف وهو من  
الرقيق الذى كان يعانى شظف إستعباد الآخر.. إنه من أصل زنجى عاش فى الشمال  
لكنه كسر الحاجز النفسى وقاد ثورة شعب..

وهذا الحاجز النفسى كان يحتاج حسمه إلى مواجهة حاسمة وجراة تخرج  
القضية كلها إلى دائرة الضوء بدلا من التستر عليها والتحرر من الإستعلاء أو  
الإستحياء ومواجهة الواقع ، لقد أراد على عبد اللطيف أن يتلاشى الحاجز الذى  
يطل من فوقه أهل الشمال على العناصر الزنجية باعتبارهم « عبيداً » بينما العبودية  
وضع إقتصادى إجتماعى وليست صفة عرقية ملازمة للعناصر الزنجية..

لقد بيع يوسف كعبد رقيق وهو ابن ليعقوب أبو الأسرة الممتدة وهو ليس زنجياً  
بل لقد جذب جمال بشرته البيضاء زوجة عزيز مصر فوطيفار ومعه إندهشت سيدات  
نساء المجتمع المصرى، وعندما مر أمالهم جاروا بالسكين على أيديهن الرقيقة



لأنهن أنبهرن بجمال هذا العبد العبراني، ولقد باع توما أحد تلاميذ المسيح نفسه كعبد لكى يذهب ويبشر فى الهند..

ويحكى مسيحو الهند أعضاء الكنيسة التوماوية : إن السيد المسيح هو الذى ظهر ووقع على عقد الرق، ولم يكن توما زنجياً إنما كان أبيض البشرة وهو من أبناء يعقوب وتلاميذ المسيح.. وشاركت كل القبائل تحت زعامة هذا الزنجى المناضل لأنه قبل كل شئ ابن للسودان والسودان هو أبو الكل.. ولقد شاركت كل قبائل السودان فى هذا العمل الوطنى، فالأقباط مثلاً شاركوا بعدد من الرجال فى ثورة ١٩٢٤م يتألق منهم وهبة إبراهيم خليل وهو من أقباط أم درمان وهو أيضاً خال إلى السجن عام ١٩٢٦م وحضر الإحتفال بمقدمه والذى أحيته الشاعرة السودانية شريفة بنت بلال غناءً حياً ونشيداً راقصاً..

ومن قبيلة يهود السودان ، كان اليهودى إبراهيم إسرائيل داود مهندس المساحة من مؤسسى جمعية اللواء الأبيض ومزامل لكل من عبد الله خليل بك، ومحمد صالح الشنقيطى، وأحمد خير المحامى، وعندما تحرر السودان وجاء أول إنقلاب عسكرى بقيادة عبود كان ألياهو بن اليسار اليهودى السودانى أثناء دراسته فى جامعة الخرطوم عضواً فى الحزب الشيوعى السودانى، وكان كادراً نشيطاً يجيد تحريك ماكينات الطباعة السرية الخاصة بالحزب وتوزيع المنشورات..

وقد عرفه كثير من الناس مناضلاً جسوراً ضد ديكتاتورية عبود ، وهو رغم إنه ترك السودان وترأس الكنيسة اليهودى مجلس الشعب عندهم فهو حتى الآن عندما يرى سودانياً فى مطارات وعواصم أوربية يندفع نحوهم معانقاً فى إنفعال ومحبة.. وعندما تحرك المثقفون ضد إنقلاب نميرى كان سمير جرجس زعيم قبيلة الأقباط مناضلاً جسوراً فى الحزب الشيوعى يكتب ويفكر ويوزع المنشورات حتى تقوّمت أركان النظام.. وعندما إستشهد القرشى معه إستشهد لورانس وهو يمت لأسقف الخرطوم الأتبا إيليا بقرابة شديدة..

النيل أبو الحضارة: يمتاز السودان ليس بنهر النيل فقط، إنما بعدة أنهار ولقد وصف أشعيا شاعر فلسطين الجميلة أرض كوش» قد إخترفت الأنهار أرضها وركب أهلها البحر فى قوارب من بردى، ونهر النيل هو أبو الحضارة فى السودان، بل هو الذى

ربط حضارة الدنيا بأمل الآخرة.. فلقد ساد الاعتقاد بأن نهر النيل ينبع من السماء ويصب فى الأرض وعندما رأى الناس زمان إن دجلة والفرات ينبعان من الشمال ويسيران عكس نهر النيل إعتقدوا إنهما يسيران فى إتجاه خاطئ، والنيل هو المعلم الذى أكد أبوة السودان وأبوته هو..

وعلم النيل أهل السودان حضارة التعاون والنظام وبناء الجسور والسدود، وأوجد النيل مدناً وتخطيطاً وعلى مسيرة شاطئ النيل من الشلال فى أسوان إلى داخل السودان نشأت المدن الحضارية مروي والنوبة ودنقلا وفرص والمقرة وعلوة ، وبنيت على الشاطئ كنائس العصر المسيحى، وأديرة الرهبان ومناسك المتوحدين، وكانت هذه المدن مدناً نهريّة تميل إلى الإستطالة لكى تستفيد من الجهة المائية على النيل، وقسمت فصول السنة إلى ثلاثة فصول: الجمال وهو الفيضان والخير والحصاد ، بل إن السنة تبدأ بموسم الخريف فى أول توت ١١ سبتمبر من كل عام.. إن السودان أبو الكل، والنيل أبو الحضارة..

## ٨٢. السودان أبو الدين والدنيا

أبوة السودان: يحلو لنا الحديث عن أبوة السودان، فالسودان هو أبو الدنيا لأن الدنيا بدأت عندنا عند أول تحرك لهدير الماء فى ممر نهر النيل العظيم وبجوار نهر النيل ظهرت أقدم الحضارات وعلى شطآن النيل سكن الإنسان مستقراً بعد تجوال كثير بحثاً عن الماء والكلأ.. وتبدلت الخيام إلى بيوت من طين، وتبدل الطين فى قوة الطمى إلى طوب أحمر، وإبتنى الإنسان بيوتاً جميلة وأنيقة وعاش مستقراً ينام آمناً فى سلام فى بيته ويستيقظ باكراً إلى حقله ويعمل فى الحقل عملاً دؤوباً يسحب الماء إلى أرضه ويزرع أجود الزراعة..

ومع الزراعة يستقر.. ومن الزراعة يتعلم معنى الحياة ويتعلم أيضاً درساً خالداً هو درس الخلود فيما بعد الحياة وإحتضن الأبدية فى أعماقه وبدأ يفكر فى البيت الأبدى ومن خلال هذا تحدث عن الحياة على الأرض على إنها خيمة لأنها غير مستقرة والحياة بعد الموت بأنها بيت مستقر، وأكد هذا قائلاً: لأننا نعلم إنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضى فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى، وقال: إن الحياة هنا أنين أشواق نحو المسكن المستقر فى السماء فإتنا فى هذه نئن



أيضا مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا الذي من السماء، بل إعتبر إن حياة على الأرض عارية حتى يلبس الحياة الأبد، وإن كنا لابسين لا نوجد عراة، فإننا نحن الذين في الخيمة ننن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يبتلع المائت من الحياة..

وهنا صار الوطن السودان لنا أباً، وبدأ الإنسان يحيا في أبوة السودان يعد نفسه للخلود، ويتجه نحو إرضاء الله حتى لا ينتقل من الأرض من أبوة السودان إلا إلى أبوة الله في مسكنه السماوى ، وقال الإنسان: بنيت قبورنا قبل أن تبنا، ياليتنا تبنا قبل أن تُبنى.. ومن خلال أبوة الوطن إقتنع الإنسان بأن الموت هو الطريق إلى الحياة الأبدية ومن خلال الزرع على شطآن النيل عرف هذا لأن حبة الحنطة لا تثبت إن لم تمت أولاً، لأبد للبذرة أن تموت لكي تبدأ الحياة الجديدة الجميلة في المجد الأبدى المُعد لنا منذ تأسيس الدهور..

أبو الدين والدنيا: وخلال الحياة في الدنيا يعتز المواطن السوداني بأنه فهم كثيراً عن ما بعد هذه الحياة من خلال النيل الذي تتجدد مياهه بالفيضان في موسم محدد كل عام، وإذا كان أحد الفلاسفة قد قال: أن لا تنتظر إلى البحر مرتين فإن النيل في حركته السريعة من الشمال إلى الجنوب يتحرك الماء ولا تنتظر إلى ماء مرتين وتزداد عذوبة الماء بهذه الحركة التي فيه، وتوزيع الماء في الطريق على كل الذين يزرعون على شطآن النيل، وهذا هو العطاء والذي يعطى يعطى، وعطاء النيل لا ينقص قدر مياه النيل بل يزيدها مكانة وإمكانية..

والمواطن السوداني يحيا على أرض واسعة ومتسعة ، إنها أرض المليون ميل مربع وحياته على الأرض الواسعة جعل تطلعاته واسعة نحو الأبدية، نحو ملكوت السموات، نحو الجنة والتي طولها طول الأرض وعرضها عرض الأرض بل أكثر من هذا وهى تسع الجميع لذلك لم ينغلق المواطن السوداني ويقول : إن الجنة له فقط وليست لغيره، وعاش في أبوة السودان التي تجعله يؤمن إنه وطن يسع الجميع، وعاش رحلة التمدين والتدين، وفي تدينه إحترم المعبد والكنيسة والمسجد..

والسودان أبو الأديان منذ أقدم كريم الأديان، فلقد كان بعنقى القائد السوداني في رحلته نحو الشمال لكي يوحد مصر والسودان، عندما يدخل إلى أى مدينة يتجه ومعه الجنود إلى المعبد وينظمه وينسقه ويغسله مع الجنود ويوسع تخومه ويخرج

التمثيل التي في المعبد ويغسلها ويضعها في الموضع المناسب، ولم يكن يؤدي هذا كدبلوماسية ليسيطر، كلا.. إنما من كل قلبه كان يحترم المعبد وإله المعبد، وظل السودان أبو الأديان ، وعلى أرضه عاشت الأديان القديمة والأديان التوحيدية ، ووجد المسيحي واليهودي والمسلم مكاناً في قلب أبوة السودان دون أن يمتن واحد من أبنائه على الآخر، لقد ظل السودان منذ أول الأديان وحتى الآن هو أبو الدين بل أبو لكل الأديان..

### ٨٣. السودان أبو الرجال والنساء

أبوة من الله: السودان أبو الكل وأبوته تتبع من أبوة الله، وفي المعجم الوجيز الذي أصدره مجمع اللغة العربية ١٩٨٠م تأتي كلمة الآب فيقول المعجم : إن الآب هو الأقنوم الأول عند النصارى، والآب صفة الله وكلمة تطلق عليه هو فقط، أى إنسان يسمى أب، ولكن الآب بالشدة على الألف لا تقال سوى على الله لأنه الآب السماوى، ويتطلع إليه على إنه أبو لكل أبى وأمى قد تركانى أما الرب فإنه يضمنى، فالآب السماوى هو الصدر الحنون للإنسان ويصلى المسيحيون الصلاة الربانية التي تبدأ « أبانا الذى فى السموات ليتقدس إسمك ليأت ملكوتك » ، وهذا إعلان فى كل صلاة إن الله هو أبونا السماوى..

ويأتى دور شعر أشعياء فى ملحمة الأبوة عندما يتحدث عن المسيا المنتظر وأبوته « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام (أشعياء ٩) .. هذا الولد المنتظر من صفاته إنه سوف يكون أباً أبدياً ويتخاطب أشعياء مع أبوة الله فيقول :

تطلع من السموات وأنظر..

من مسكن قدسك ومجدك..

أين غيرتك وجبروتك ؟..

زفير أحشائك ومراحمك نحوى إقتنعت ..

فإنك أنت أبويــــا..



وإن لم يعرفنا إبراهيم..

وإن لم يدرنا إسرائيل..

أنت يارب أبونا..

ولينا منذ الأبد إسمك ( أشعيا ٦٣ )

ويستدر أشعيا مراحم الله الآب السماوى ويطالب الله أن لا يسكت على ظلم الناس  
ويذلنا كل الذل :

والآن يارب أنت أبونا

نحن الطين وأنت جابلنا

وكلنا عمل يديك

لا تسخط كل السخط

ولا تذكر الإثم إلى الأبد

ها أنظر شعبك كلنا

الأجل هذه تتجلد يارب ؟

أتسكت وتذلنا كل الذل ؟

والله نفسه عندما يجد شعبه ينساه يتساعل فى ملاخى :

الإبن يكرم أباه..

والعبد يكرم سيده

فإن كنت أنا أباً فأين كرامتى ؟

وإن كنت سيداً فأين هيبتى ؟

ونحن نفهم إن أبوة الآب السماوى لا تعنى إنه تزوج بإمرأة وأنجب منها أبناء ،  
إنما هى أبوة تنتزه عن الزواج وتملاً حياة الإنسان عطفاً وتعاطفاً وتعزية ومساندة  
خلال رحلة الحياة، وكما يحمل الأب ابنه يحمل الآب السماوى أبنائه لأن فؤاده

حنون يرق للإنسان ، ولأجل هذا تتصدر عبارة « سلام من الله أبينا » رسائل بولس

الرسول إلى كورنثوس، وكولوسى، وتسالونيكى..

أب للرجل والنساء: ونحن نفتخر بأن السودان هو أبو حنون عطوف حازم فى غير  
عنف على الرجال كما على النساء، وإذا كان العالم كله يعد منذ الأزمان القديمة  
مجتمعات ذكورياً لا مكان للمرأة فيه حتى فى الإحصاء لم تكن المرأة رقماً فى الإحصاء  
ويقولون : إن خمسة آلاف رجل أكلوا من الخمس خبزات والسمكتين ما عدا النساء  
والأطفال، وهكذا أربعة آلاف أكلوا من السبع خبزات ما عدا النساء والأطفال، ولكن  
السودان أبو للرجال والنساء..

ويعتز بالمرأة أيما إعزاز ويعطها أعظم مكان ويجلسها على عرش الملك،  
وعندما كان العرب يتعالون على مجتمع الزوج أو الموالى فإن هؤلاء الموالى  
يفتخرون عليهم بأنهم يكرمون البنات، وجاء فى الأغاني للأصفهاني :

فاتركى الفخر يا أمام علينا

وأتركى الجور وأنطقى بالصواب

وإسالى إن جهلت عنا وعنكم

كيف كنا فى سالف الأحقاب ؟

إذ نربى بناتنا وتدسون

بناتكم فى التراب

والحديث هنا عن عادة وأد البنات عند القبائل العربية بينما فى ممالك السودان  
القديمة كانت الملكة الأم والتى تجلس بجوار الملك لتتصلى على قراراته الحازمة  
حنان المرأة ولتكون المرأة صمام أمن أمام الرجال الملوك الغاة.. وعندما وضعت  
اللوحات الفنية أيقونات فى صدر الكنيسة رسمت المرأة مثلما رسم الرجل، رسمت  
العذراء مريم وأما القديسة حنة والقديسة دميانة، وكانت الكنداكاة وهو لقب يعنى  
« المرأة العظيمة » ملكة للسودان، ذكرها الأصحاح الثامن من أعمال الرسل..

وعندما أخذت أم ملك النوبة بواسطة السلطان العربى العادل المنصورى أرسل  
الملك النوبى خطاباً إلى السلطان يقول : لا يدير ملوك النوبة سوى النساء، وطالبه



أن يفرج عن والدته حتى لا يختل الحكم في النوبة، وكانت الملكة الأم في مروي تشترك في تدبير شئون المملكة مع ابنها، وإذا ماتت الأم يختارون إحدى نساء الأسرة ويطلقون عليها لقب الملكة الأم، وكان الخال يورث الملك لابن أخته، وبسبب توريت ابن الأخت ومصاهرة العرب للنوبة عاش العرب في السودان كمواطنين، والمهم إن السودان هو أبو الكل رجالاً ونساءً..

## ٨٤. الصوفية أبوة سودانية حانية

أبونا البرعى: قبل أن يغادر الصوفى السودانى الحكيم الشيخ البرعى عالمنا هذا كان الناس قد بدأوا يطلقون عليه اسم أبونا البرعى، ولقب أبونا يشمل رغبة في الحنان، ولقد بحث أهل السودان عن حنان الأبوة ووجدوه في رجل الصوفية هذا، وفي كل رجال الصوفية وإستبدلت في الإستعمال كلمة حيران لتكون أبناء، وكل تلاميذ رجال الصوفية صاروا أبناء للأب الصوفى وهم أبناء بدون زرع بشر وبطريقة رمزية وروحية تقرب إلى الأفهام المعنى الرمزي للأبوة، فنحن أبناء السودان، وأبناء وادى النيل دون مصاهرة أو زواج جسدى..

ولقد تسمى عندنا الناس بأسماء كهذه فعندنا ابن البادية، وبنت النيل، وهكذا.. ويحتل الصوفى مكانة محترمة في قلب أبنائه وهم عندما يلقونه يسلمون عليه باحترام ويقبلون يديه، وهذا التقبيل بل اللقب نفسه أبونا موجود منذ بدء المسيحية في القيادة المسيحية، فالأب الكاهن حتى وإن صغر سنه هو أبو روحى لجميع رعيته، ويأتى تقبيل اليد إحتراماً ومشاركة في الصلاة لأن الإنسان عندما يطبع قبلة فمه على يد مرشده الروحى إنما يضع كلام فمه على هذه اليد المباركة التى ترتفع بالصلاة أمام الله ويكون الابن جزءاً من الصلاة المرفوعة لهذا الأب..

وعندما يلتقى الابن بأبيه يحيا عطفه وحنانه ويتمتع بأبوته إرشاداً وتعليماً وسعياً نحو الهدف الروحى الأسمى وإعداداً لحياة الأبد، وإستعداداً للوقوف أمام الله وتجهيزاً للتوبة الصادقة التى تبيض وجه المخلوق أمام الخالق.. ولقد ذكرت كلمة أبونا في القرآن الكريم قلنها بنات مديان لموسى كليم الله لأنه عندما ورد ماء مديان وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير..

وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها كلمة أبونا والمعنى المادى الحرفى للكلمة، بينما جاءت كلمة يابيت حيث قالها يوسف لأبيه أكثر من مرة.. إذ قال يوسف لأبيه : يابيت إنى قد رأيت أحد عشر كوكباً، وقال : يابيت هذا تأويل رؤياى من قبل، كما قالها إسحق لأبيه إبراهيم: يابيت إفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين..

أبوة الصوفية: وأبوة الصوفية تتفق جداً مع إشارات الجمال والإبداع عندهم، وفي الفلسفة الصوفية هناك كنايات ورموز ذكرها بروفيسور حسن الفاتح غريب الله فى كتابه بنفس العنوان وأعطوا للعلم وتدريسه اسم سعدى وليلى كقول الغزالي :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل

وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بى الأشواق مهلاً فهذه

منازل من تهوى رويدك فأنزل..

والصوفية يجوز عندها إستعمال الرمز بالجمال الأثنوى للدلالة على الذات الإلهية بل يصل الصوفى إلى درجة فناء المنفعلى فى الفاعل وتخطى عالم المحجوب والوصول إلى درجة تلاشى المراتب :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً

وحياتكم ما فيه إلا أنتم

بل أنتم نفس الوجود حقيقة

فالذات والأفعال كلا منكم..

وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن الله خلق آدم على صورته وهو نفس تعبير سفر التكوين : إن الله خلق آدم على صورته ومثاله وهو تعبير روحى يعنى صورة الله فى التقوى والقداسة، وصورة الله فى مخلوقاته وشوق الخلق لمشاهدة نور الجمال.. لقد أدركت الصوفية فى السودان رموزاً روحية عديدة ودخلت إلى صفات روحية مجيدة..

ولهذا تعتبر الصوفية فى السودان أبوة حانية، وإذا كان السودان هو أب الكل،



فإن الصوفية ساهمت مساهمة روحية في اعتماد هذه الأبوة الروحية لأن الصوفية نزوع واع نحو الكمال، وتعلق جاد بالواحد المتعال، والصوفي يفنى في حب الله، ويتفانى في حب أخيه وإبنة الروحي، ولهذا يطلق لقب أبونا على رجال الصوفية..

## ٨٥. أبوة السودان للدنيا حزم وعزم

مكانة الأب: في ميدان الحديث عن السودان أبو الكل نتحدث عن مكانة الأب والذي يحتل مكانة عظيمة في الحياة، هو مسئول عن الإيجاب ومسئول عن التربية ومسئول عن الحزم والعزم في تربية الأبناء، وأشعيا يقول شعراً عن تربية الله للناس وعن عصياتهم: إسمعى أيتها السموات وأصفي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم أما هم فعصوا على (أشعيا ٢: ١) .. والأب مطالب بالحزم والعزم، والأم بالحنان والعطف، ومسألة التربية ميدان مشترك يتكامل فيه الأب والأم..

وهنا يتدخل سليمان الحكيم ويقول: رب الولد في طريقه فمتى شاخ لا يحيد عنها، ويلتزم بالحزم في التربية، أدب ابنك لأن فيه رجاء، أدب ابنك فيريحك ويعطى نفسك لذات، بل ويطلب بحمل العصا للتأديب ويقول: الجهالة مرتبطة بقلب الولد عصا التأديب تبعدها عنه، أدب ابنك بقضيب من حديد، بل إن الرب نفسه في أبوته يؤدبنا أدباً: إني كل من أحبه أوبخه وأؤدبه فكن غيوراً وتب (رؤيا ١٩: ٣) ..

وهذا الحزم ليس محاولة للإنتقام، إنما هو في ميزان محدد حتى لا يفتاظ الأبناء من الآباء، وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم، بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره (أفسس ٤: ٦) .. والوصية للإنسان أن يحترم الأب ويعطه مكانته:

إسمع يا ابني تأديب أبيك ولا ترفض شريعة أمك، يا ابني إحفظ وصايا أبيك ولا ترفض شريعة أمك، إسمع لأبيك الذي ولدك ولا تحتقر أمك إذا شاخت، إقتن الحق ولا تبعه والحكمة والأدب والفهم..

وكل هذه النصوص الكتابية تؤكد إن التربية عملية مشتركة بين الأب والأم، ولا مكان فيها للإرتخاء ولا التهاون ولا التسبب.. فلقد كان على الكاهن على مستوى فردى روحى كبير ولكنه أهمل في تربية أولاده وعوقب على هذا أشد العقاب..

وطن للجميع: والسودان وطن للجميع، أبو لكل المواطنين، ولهذا يسعى الساسة في تأكيد حقيقة المواطنة، وإن أهل السودان متساوون في الحقوق والواجبات دون

تميز بسبب الجنس أو العرق أو الدين، وتؤكد الحكومات الإسلامية في السودان أنه ليس هناك أى مانع أن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً من خلال الانتخابات الحرة وعلى مستوى تاريخنا الحديث لم يحدث هذا، ولكن الباب مفتوح أمام الكل، والسودان وطن يحب المواطن، فيه أبوة الوطن، يحب عزمه وحزمه، والمواطن السوداني لا يعجبه أى مكان في العالم قدر إعجابه بالسودان، بحلوه ومره، بهبوبة السودانى

وحره، بكل ما فيه من سلبيات يبتلعها المواطن برضا، وإيجابيات يحياها.. وعندما يصل إلينا أحد من خارج السودان فإنه يشاركنا محبتنا للسودان، لمائه وهوانه.. ويتذكر نومة السهلة تحت السماء عندما يأتى المساء ونسلم أوراقنا للعلی القدير ملك الأرض والسماء وتمتلئ عيوننا بالنجوم والكواكب وضوء القمر الجميل، والسودان هو الأب الذي يحترمه المواطن السوداني ويسعى إلى راحته ويفكر في تقدمه ويركب المخاطر من أجله ويتنافس في حبه مع أشقائه المواطنين وحتى الذين من أصل جنس آخر عندما يستوطنون في السودان يكون السودان بالنسبة إليهم هو كل شيء والدليل على هذا إن اليهود الذين عاشوا في السودان هم حتى الآن محبين وعاشقين للوطن..

والأقباط الذين هاجروا هروباً من شعارات كانت ضدهم كلهم على أهبة الإستعداد للعودة إلى بلادهم إلى الإستمتاع بأبوة السودان حزماً وعزماً، ولم تعجبهم أجمل البلدان التي يعيشون فيها ويعتبرون وطنهم السودان ليس بلد آخر في مستوى جماله، وهكذا أجناس كثيرة من شوام وهنود وأوربيين وأمريكان ومغاربة وإنجليز كلهم إذا زاروا السودان يشناقون إلى أبوته الحانية الجميلة، فهو الوطن العظيم والأب الكبير لكل الدنيا منذ أن بدأت الدنيا، وهو الآن مخزن الخير لكل الدنيا وسوف يكون أباً لكل للعالم كله بما فيه من مخزون إستراتيجى من البترول والمعادن والماء والأرض، إن أبوة السودان للدنيا هي حزم وعزم..

## ٨٦. السودان أبو كل الأجناس

سفر الرؤيا: يصف الإصحاح السابع من سفر الرؤيا منظر الجمع الكثير الواقف أمام عرش الله حيث رأى الرائي يوحنا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعدده، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش متسربلون بثياب بيض وفي



أيديهم سعف النخل وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وجميع الملائكة واقفين حول العرش والشيوخ والكائنات الأربعة وخروا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله قائلين: آمين، البركة والمجد والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى الأبد آمين.. وقال واحد من الشيوخ: إن هؤلاء المتسربلين بالثياب البيض هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وهم أمام عرش الله يخدمونه، لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر لأن الله يمسح كل دموعهم من عيونهم..

أما الإصحاح الثانی والعشرون من سفر الرؤيا فإن الرائي قد رأى نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثني عشرة شجرة وتعطي كل شجرة ثمراً، وورق الشجرة شفاء للأمم ولا يكون لعنة فيما بعد، وعرش الله يكون فيها وعبيده يخدمونه وهم سينظرون وجهه واسمه على جباههم ولا يكون ليل هناك ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم وهم سيملكون إلى أبد الأبدين..

إن هذا هو منظر السماء وعرش الله الذي إليه سوف يجتمع كل الشعوب وكل الأمم وكل القبائل وكل الألسنة ومن بينهم طبعاً السودان وأهل السودان، ولكن السودان خلال تاريخه كله كان ولم يزل أباً لكل الأجناس وعلى أرضه عاشت أمم وقبائل وشعوب تعاونت وتعايشت، وكان السودان أولاً مجموعة من القبائل المتعددة والمتباينة، ولكنها المتعايشة معاً والمتكاملة معاً..

أبو كل الأجناس: إن السودان أبو لكل الأجناس، على أرضه الطيبة عاش الأقباط، والآتراك، والهنود، واليهود، والمسيحيون والمسلمون، الحلب، والشوام، والمغاربة.. وتحتوى حتى الآن أرض السودان في باطنها على أتراك دفنوا في قباب الخرطوم، ويهود دفنوا في مقابر اليهود بالخرطوم وأم درمان، وهنود في أم درمان، بل يقول طارق الشريف: إن أم درمان هي متحف الأصالة وقد كتب كتاباً تحت هذا العنوان، وفي أم درمان أحياء مثل:

(١) حى الشهداء والذي دفن فيه شهداء كررى وعلماء الدين والشيخ سليمان الحجاز وفيه حى كهربة عامر الذي علق على بابيه أول لمبة كهربائية تدخل أم

درمان، وحى اليهود الذي سكنه عدد من عائلات اليهود وإستقروا فيه، ويذكرون إن هذا الحى كان فيه عيادة اليهودى سليمان بسيونى، وسيمون تمام ومس فلورا، وجانيان التاجر اليهودى فى الآوانى المنزلية، والدكتور منصور إسرائيل صاحب إجرخانة الأزمنة بالعارضة..

(٢) حى المسالمة والذي يسكنه حتى الآن عدد مقدر من الأقباط.. وقد إستوطن الأقباط هذا الحى منذ قديم أزمنة أم درمان وقد أسماه بروفيسور زاهر رياض حارة النصرى.. وتحدث فيه عن إهتمام الأقباط بالميزان التجارى وإنعاش التجارة ودفعها بالجهد والعرق والدم، ويقول البروفيسور فى كتاب كتبه «الإسكندرية فى أفريقيا» صفحة ١٨٩: إنه إذا تباهى البريطانيون بأنهم عملوا على تمدين السودان كذبهم الأقباط فى دعواهم إذ أسرعوا إليه وإنبتوا بين أرجائه يعملون فى مختلف نواحي النشاط فشغلوا جزءاً كبيراً من وظائفه وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم فى هذا القطر المجهول المصير، بادر الأقباط بطرح أموالهم فى السوق والإشتغال بالتجارة، كما أجاد الأقباط صناعة الثياب النسائية، ويتغنى البنات بالنقادية ويقولون: توب الكرب الجابوه النقادة..

(٣) حى البوستان وتعد أم درمان هى كل السودان فهى مركز لكل الأجناس وفى حى البوستان عاشت أسر تجار الشمالية والذين يتاجرون فى التمر والأعشاب والبخور، وفيها المقاهى الثقافية الشهيرة، قهوة جورج مشرقى، وود الأغا، ويوسف الفكى..

(٤) حى العرب والذي إستقرت فيه بعض القبائل العربية، وهو أقدم أحياء أم درمان وقد إستوطن فيه العرب بناءً على أمر الخليفة عبد الله التعايشى الذى جمع فى جيشه الأقباط والشوام والعرب، ويرجعون هذا الحى إلى السلطنة الزرقاء..

(٥) وقد سكن العاصمة كثير من الهنود وعملوا بالتجارة منهم: دامجى، وكسنداس، وسامجى، وشنتلا، وإشتغلوا بحياكة ملابس النساء وعلى الأخص السارى الهندى المشغول بالخياط الذهبية، وزينة العروس فى يوم عرسها.. لقد عاشت كل الأجناس فى السودان لتؤكد إن السودان أبو لكل الأجناس، ولكل الناس..



## ٨٧. السودان أبو الكل المكرم

كرامة السودان: إن الكرامة هي أغلى ما يمتلك المواطن السوداني، وهو غنى بكرامته، وعندما حدثت مجاعة أيام حكم الخليفة التعايشي لم يتنازل السوداني عن كرامته، وعندما نفذت المؤن كان الأب والأم ينمان على السرير في إنتظار الموت، ويربطون الأولاد في السرائر حتى لا يخرجون لإستجداء لقمة الخبز، ومات كثيرون في منازلهم وبكرامتهم، ولقد عاش المواطن السوداني في السودان أبو الدنيا مكرماً مُحزراً يتحدث بكرامة ويحيا بكرامة، ويرفض أن يفقد كرامته منفعلاً أو متوتراً..

ولقد تم التسليم والتسليم بعد الإستقلال في كرامة ودون أحقاد وكما قال السير جيمس روبرتسون الحاكم العام الذي حضر إحتفال الإستقلال : إنه كان لابد من أن تأتي لحظة التسليم، وعندما تبدأ الأنهار في الجريان فلا بد أن تتهاوى حواجز الفيضان، إذا حاول الإنجليز البقاء لكان نشوب الشغب مؤكداً ، ولأمكن وقوع الكثير من سفك الدماء، ولتصدعت النوايا الطيبة بين الجانبين ووصلت إلى نقطة الإنهيار، ولإتسم التسليم الأخير بالمرارة الصحيحة، ولكنه رأى عكس ذلك فلقد ودع حكام المديریات بمنتهى الود والإحترام وبقيت العلاقات ودية تحفها المجاملات..

وهناك مواقف أخرى تؤكد إن السودان أبو الكل المكرم من الكل وهذه بعضها :  
عندما زار الرحالة الفرنسي « شابيه لونج » الخرطوم في منتصف القرن التاسع عشر لم يستطع إخفاء إعجابه بالمدينة، وقال : إنها تذكره بباريس بمحالتها التي تشبه « الباليه رويال » الزاخرة بكل ما يحتاجه الإنسان العصري، بالإضافة إلى حدائقها الغناء بثمارها المتنوعة التي وصفها بحدائق « الشنزالزيه » أما الرحالة الإيطالي «بايارد تيلر» فتمنى أن تكون شوارع الخرطوم روما وفلورنسا في مثل نظافة شوارع الخرطوم..

صارت الخرطوم وطناً ثانياً لكثيرين من أهل أوربا عاشوا السودان أبو الدنيا مثل « كلين » الخياط الألماني، « وهنزل » نائب القنصل، ووصف البعض إن الخرطوم وهي ملتقى كل الشعوب وكل راغبي الصيد وجامعي الثروة إنها أوربا صغيرة، وقال عنها ليجان: إن الجنة عند نقطة الإنلقاء بين المدنية والهمجية..

جاء في صحيفة الأهرام ما كتبه أديب مصرى عن الخرطوم : إنها مدينة جامعة

إلى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدنى والرونق الحضرى وأكثر أنبيتها من الحجر واللبن الأحمر مزدانة بالجبس والأجر، وقصورها فى غاية البهجة والرونق، وشوارعها منتظمة جداً وفيها شاطئ يبتدى من شاطئ النيل الأزرق وينتهى عند جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة ، إستعارة من إسم السكة الجديدة فى القاهرة، وجميع سكانها محافظون على عاداتهم الأصلية، ثم نشأ فيها التقليد الغربى وعادات المدينة الأوربية حتى إن هناك نحو ألف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والإيطالية..

عندما جاء المهندس الإنجليزى " إليك بوتز " أستاذ العمارة لإنشاء قسم العمارة بكلية الهندسة وكانت تصحبه حرمة " مارجريت بوتز " المتخصصة فى الفنون التشكيلية وقام ببناء قاعة الإمتحانات بجامعة الخرطوم هو وزوجته وقعا فى عشق السودان هوى وريداً وحباً، وكتبا كتابهما " كل شىء ممكن سنوات فى السودان " وقد قضيا ثمان أعوام معنا وخرجا بأجمل الإطباعات عن السودان، والذي هو أبو الدنيا وفيه كل شىء ممكناً ، وقد قال الزبير على مترجم الكتاب: إن " إليك بوتز " رجل قد شغف حباً بالسودان والسودانيين، فهو عندما يتحدث عن الأماكن والمدن والناس يتحدث عنها وعندهم بحب وود صادقين، وعندما يتحدث عن طلاب قسم المعمار لا يشير إليهم إلا بالأولاد، أولادنا، وعندما خاطبة بعد عودته إلى بلاده أحد طلاب المعمار الجدد وقال " ياجدى " كانت سعادته لتلك المخاطبة غامرة، وعندما عاد إلى بلاده قال: لقد كنا سعداء بالعودة ولو إن السودان طاف بأذهاننا فى تلك اللحظة لبدأ عنا بعيداً بملايين الأميال، ولكن فيما بعد فقط تبين لنا إلى أى مدى سوف يصبح السودان قريباً منا إلى نهاية العمر، وكتبت " مارجريت شينى " عالمة الآثار بالسودان فى الخمسينات مقدمة لكتاب "بوتر" تقول فيها: إن القارىء سوف يكتشف فى قراءة كتاب " كل شىء ممكن " كيف إستمتع آل " بوتز " إلى أبعد مدى بالسنوات التى قضاها فى السودان بدءاً بعام ١٩٥٧م حيث كان الحماس للإستقلال قد إستقر وحل محله بجلاء جو من اليقين والثقة بالنفس..

فى الحديث عن تمثالى "غردون وكتشنر" تكلم " إليك بوتز " مهندس قاعة جامعة الخرطوم عن كرامة السودان مواطناً وحكومة، وأقيم إحتفال وقور لإنزال التمثالين وتسليمهما إلى بريطانيا، ووصفت جريدة السودان الجديد الإحتفال بأنه " كان إظهاراً لنبل القصد وبرهاناً على النضج والسلوك المتحضر، وكان بعض أبناء



السودان الظرفاء يصنعون باقات الزهور أمام التمثالين في موقع إنتظارهما حتى الرحيل إلى بريطانيا، وعندما.. عن هذا.. إن الواجب يقتضى منا أن نحترم تقليدكم في وضع الزهور والذي حدث إنه لم يعتد أحد على التمثالين، وقد وقع الإعتداء على تمثال "كتشنر" في بريطانيا بواسطة جندي إنجليزي، وأثبت السودان إنه أبو الكل المكرم من الكل والذي يكرم الكل.. وعندما أنزل العلم الإنجليزي والمصري يوم الإستقلال نزلاً بكرامة وإحترام، ولم يحاول أحد الإعتداء على العلمين بالتمزيق أو الحرق، وهكذا وهذا هو السودان الكريم..

## ٨٨. السودان أب محبوب

أب محبوب: إن السودان الذي نعتز به هو أبو الكل المحبوب من الكل لأن أهله يعيشون المحبة وهم للمحبة أساتذة فهم لا يحقدون ولا يكرهون، ولكن فقط هم يحبون وإذا كانت المحبة هي كل شيء فهذا درس قد فهموه، يقول الكتاب المقدس عن المحبة: إنه وإن كنت أتكلم بالسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن، وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً، وإن أطعمت أموالى وإن سلمت جسدى حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً، والحق إن أى شيء لا يمر بالمحبة لا لون له ولا طعم ولا رائحة، والسودان أبو الكل هو المحبوب من الكل وإليك الأدلة:-

عندما كتب « تشرشل » كتابه « حرب النهر » كان هذا من واقع حبه للسودان، لقد كان أكثر من كانوا تحت إمرة كتشنر مقدرة على تسجيل أحداث معركة « الدراويش » وكان يحب السودان، ولكى يصل إلى وطن حبه توسطت له والدته السيدة « راندولف تشرشل » مستعينة بتوصية من أمير ويلز ورئيس الوزراء اللورد « سالزبورى » والقائد العام، ولولا هذه التوصيات لما وافق كتشنر على تكليف ونستون تشرشل وهو شاب في مقتبل الحياة لأية مهمة كبيرة، لقد غامر تشرشل بحياته لاجئاً إلى الوساطة، كان يريد أن يسجل أخبار المعارك كضابط نظامى، وكان يرسل جريدة « المورنج بوست » تحت إسم مستعار وبطريقة سرية..

عندما كتب السير جيمس روبرتسون كتابه « السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى حكم الإستقلال » والذي ترجمه مصطفى عابدين الخانجى، تحدث

عن السودان حديث المحب له والعاشق لترابه، لقد إختار السودان وكان إختياره موفقاً، وكان هو من أكثر البريطانيين شهوة فى السودان ومعرفة شخصية بقاتته وزعمائه ورؤساء قبائله نسبة لطول خدمته فى البلاد وكثرة تجواله فى ربوعها ومعاصرتة لتطوراتها، وقد كان هو السكرتير الإدارى للسودان وأدلى بشهادات جميلة عن السودان أبو الدنيا، فلقد لخص الموقف العام فى السودان سنة ١٩٤٧م بقوله: لقد أدهشنى إنه لم تحدث عندنا اضطرابات أكثر خطورة بعد ثمانية عشر شهراً من البلبلة عن المستقبل، إن قوة أخلاق وصبر وحسن إدراك السودانيين قد ساعدتهم وساعدنى، وبالرغم من كل الذى قيل وكل الذى عمل فإن الغالبية العظمى من السكان لم تتأثر إلا قليلاً، وعندما شارف الإنجليز على الخروج ليتم إستقلال السودان وعندما أقامت الأحزاب المتحدة حفلاً فى أم درمان بمناسبة توقيع الإتفاق البريطانى المصرى قال جيمس: لقد كانت هناك جماهير غفيرة، ولكنها كانت منتظمة، إستمعنا إلى أحاديث من مختلف القادة، وكان هناك حماس عظيم، إندهشت للأسلوب الودى جداً الذى إستقبلنا به كل وفد، وللغياض الكامل لأى شعور بالعداء نحو البريطانيين على الأقل بقدر ما يعيننا نحن كأفراد، وأشاد روبرتسون بتعاون السودانيين معه وقال: إن أبرز شيء على وجه الخصوص هو مودة السودانيين وصبرهم وشدة بأسهم ومقدرتهم على تحمل قسوة ظروف الطقس، هناك أيضاً بشاشتهم فى وجه الصعاب وتهذيبهم، وحسن إدراكهم وبدون تلك المميزات فى أواسط الناس العاديين لكان عملنا أبعد كثيراً من الإنسجام..

عندما جاء البريطانى توماس وزوجته أزمى فى أواخر الأربعينات مستشاراً للتعليم فى الخرطوم ما دار بخلده إنه سيرى مدينة بتلك الأبهة داخل القارة بعد عاصمة المعز، لقد رأى الخرطوم مدينة جميلة نظيفة ومنظمة، تتمتع بكافة الخدمات الضرورية، وأكثر من هذا أدهشه معدن أهلها وخاصة تلك الطبقة الوسطى والتي وصفها بالمخملية معجبة، والتي كانت مهمة فى تشكيل مجتمعها المدنى، ولم يجد هو صعوبة فى الولوج إلى تلك المؤسسات، وقد أعلن إعجابه الشديد بصالون عبد الرحمن المهدي فى مجلسه العام الذى ضم الصفوة من كبار المعلمين والمتقنين والذى كان يضم علماء من كل البلدان من الشام وفلسطين ومصر والعراق، ونوابغ الفكر والأدب كالإمام المراغى والشيخ ماضى أبو العزائم، وفؤاد الخطيب، والقبلى الأديب المفوه نسيم قلندس..

عادت إلى العالم الآخر الممرضة البريطانية « فيليبيا » والتي كان رحيلها فى أغسطس سنة ٢٠٠٠م عن ستة وتسعين عاماً عاشت منها خمسون عاماً



فى السودان وتزوجت من عبد الفتاح المغربى أستاذ الرياضة، والذى تقلد منصب رئيس مجلس السيادة لمدة ثلاث سنوات بعد إستقلال السودان.. لقد كانت " فيليبيا" على تواصل مع الحركة الوطنية، كما أبدت تعاطفها مع القضية المصرية فى ١٩٥٦ م، وقدمت للسودان حياً مؤمنة إن السودان هو أبو الدنيا، وعندما تركت القصر كانت تعمل متطوعة فى التمريض فى إحدى القرى المجاورة للخرطوم..

## ٨٩. السودان أبودنيا السياسة

ما هى السياسة؟ يقولون: إن السياسة هى فن التعامل مع الغير، والدبلوماسية هى التعامل فى ذوق مع الآخر، ولهذا وعى بولس الرسول كل مسيحى أن يكون سفيراً للمسيح نسعى كسفراء كان الله يعظ بنا ( كورنثوس الثانية ٥: ٢٠ ).. وقال عن نفسه: إنه سفير فى سلاسل لكى يجاهر فيه كما يجب أن يتكلم ( أفسس ٦: ٢٠ ).. وطالب بولس أن يصلوا من أجله لكى يعطى الله له كلاماً لكى يخبر بسر الإنجيل، فلقد صار سفيراً لخدمة المسيح فى كل موقع..

ويقول البعض: إن السياسة لعبة قذرة ولكن هذا ليس صادقاً لأنه إذا توفرت للسياسى الشفافية والنقاء سوف تكون السياسة عملاً محترماً لخدمة قضايا البلاد، ولكى يعم الخير على العباد، وقال سليمان الحكيم « الشرير يقع فى الشر والسفير الأمين شفاء ( أمثال ١٣: ١٧ ).. وهذا يعنى إن السفير هو رسول يحمل رسالة من أمته للآخرين، فإن كان شريراً يقع فى شره وإن كان صادقاً فهو أمين فى رسالته وأمانته سر نجاحه.. وكلمة سفير هو رسول يحمل رسالة للآخر..

وقد شرح القرآن الكريم فى سورة عبس إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة، والسفرة هنا هم سفراء، وهم الملائكة الذين يحملون رسالة من الله إلى بنى البشر، ويقول « جون ستوت » اللاهوتى فى الكنيسة الإنجيلية فى كتابه « المسيحية والقضايا المعاصرة » إن ميثاق لوزان تحدث عن الاندماج السياسى الإجتماعى، وكان إستخدام كلمة سياسى سبباً فى دق ناقوس الخطر فى أذهان كثير من الإنجيليين، لقد كانوا دائماً يساهمون فى الأعمال الإنسانية ولا سيما فى البرامج الطبية والتربوية، ولكنهم فى أغلب الأحيان تجنبوا الخوض فى النشاط السياسى، والواقع إن هذه النظرة كانت أوسع بكثير من

أن تنحصر فى جماعة الإنجيليين، لأنه فى كل مرة يحدث إضطراب فى الكنيسة نتيجة اشتراكها فى السياسة..

كان الجميع يتوقعون صرخات الإحتجاج من أعضائها ومن الخارج أيضاً، وتجد الناس يقولون بصوت عال: ينبغى أن تبتعد الكنيسة عن السياسة، فالدين والسياسة لا يمتزجان، ولكن هذا اللاهوتى « جون » يعود ليحدد كلمة سياسية ويحاول أن يحدد العلاقة بين ما هو سياسى وما هو إجتماعى، ويقول بعد هذا: إن كلمة سياسى وسياسة يمكن أن يكون لهما تعريف واسع أو ضيق، فالسياسة بالمعنى الواسع تشير إلى حياة المدينة مسئوليات المواطن، فهى تعنى بمجمل حياتنا فى المجتمع الإنسانى..

فالسياسة هى أن نعيش معاً فى جماعة، أما بحسب تعريفها الضيق فالسياسة هى علم الحكم، فهى تعنى بتطوير وتبنى سياسات معينة بقصد جعلها قانوناً، ويستمر « ستوت » فى حديثه ويقول: يمكننا أن نسال عما إذا كان يسوع قد إنخرط فى السياسة أم لا، وبحسب المعنى الأخير والأضيق لم يكن يسوع منخرطاً فى السياسة فهو لم يؤسس أبداً أى حزب سياسى، ولم يتبن برنامجاً سياسياً، أو ينظم إحتجاجاً له صبغة سياسية، بل إنه لم يحاول أن يؤثر فى سياسات قيصر أو بيلاطس أو هيرودس بل إنه بعكس ذلك رفض أن يكرس حياته للسياسة، لأنه إنما جاء إلى العالم ليشارك فى حياة الجماعة الإنسانية، كما أرسل أتباعه إلى العالم ليفعلوا الشيء نفسه، علاوة على أن ملكوت الله الذى نادى به ودشنه كان بصورة جذرية منظمة إجتماعية مختلفة وجديدة..

تحدث الجماعة القديمة الساقطة بمعاييرها وقيمها، ومن هذه الناحية كانت لتعاليم يسوع مضامين سياسية ومن ثم قدمت بديلاً للوضع الراهن بل إن ملكه أعتبر تحدياً لملك قيصر، ولذا إتهم بالتحريض على الفتنة، ويطالب هذا اللاهوتى بالتمييز بين المسيحيين كأفراد فى المجتمع وبين الكنيسة كمؤسسة روحية، ويطالب جميع المسيحيين بالإدلاء بصوتهم فى الإنتخابات والمشاركة فى النقاش العام والكتابة فى الصحف وأن يكونوا مؤثرين ومشاركين فى السياسة..

دنيا السياسة: وعلى مستوى السودان فإن السودان أبو الدنيا، وأب دنيا السياسة، وإذا كان سكان السودان الآن ثلاثون مليوناً تقريباً فإن الذين يعملون بالسياسة هم



ثلاثون مليوناً، ولدينا العدد الكبير من الأحزاب وعندما طلبت منظمة جمع الصف الوطنى من الأحزاب الحضور إلى موقع الصف الوطنى يوم ٢٣/٦/٢٠٠٧ م مقترح السلام للسودان لحل مشكلة دارفور فقد أوردت كشفاً فيه مائة وثمانية عشر حزباً هذا عدا من استلم النصور من أحزاب أخرى، وفي دنيا السياسة يناقش المواطن السودانى أهم القضايا السياسية تحت شجرة النيم، وعندما ترغب أدوات الحكم الشمولى فى تكميم الأفواه لا يتوقف هذا الحوار السياسى، وكثيراً ما يكون رئيس الجمهورية فى صالات العزاء ويسمع مثل هذا الحوار الجهير الذى ينتقد سياسة البلاد...

وعندما تعددت الأحزاب الآن فإن المؤسسة الدينية لا تفرض على الإنسان حزباً بعينه فهذه مسئوليته أن يكون صاحب رأى حر ومشاركة إيجابية فى قضايا الوطن ويظل السودان أبو دنيا السياسة، ويظل أولاده سياسيون مهرة حكماء يختلفون مع بعضهم ولكنهم لا يتعاركون، إنما يتلاقون فى محبة وإحترام وكل فرد يحترم رأى الآخر لغيره.. إن السودان هو فعلاً أبو الدنيا ويقدم لكل الدنيا أعظم النظريات السياسية..

## ٩٠. أحلام الشاعر والسودان الجديد

حلم الشعراء: يحلم الشعراء والأدباء الحالمون بسودان جديد سعيد.. وتراودنا اليوم هذه الأحلام السعيدة ونحن على مشارف مرحلة جديدة فى تاريخنا فيها تتحقق الوحدة بالإختيار ولا تفرض بالإجبار، ومعاً جنوباً وشمالاً نكتب قصة السودان الجديد.. ونحقق أحلامنا السعيدة، ولقد مرت بنا الأيام وإكتملت الأعوام ونحن يضيع منا الزمن لأن الحروب قد مزقت صك حياتنا ودمرت معالم أحلامنا ولكن الحمد لله تحقق سلام الجنوب مع الشمال..

وفى إنتظار تحقيق الآمال عندما يصبح السودان وحدة واحدة غرباً وشرقاً شمالاً وجنوباً، وحده الله هو الذى صنعها وجمعنا معاً وما جمعه الله لا يفرقه إنسان، وفى هذه الوحدة تتضافر كل الجهود حتى تغوض المواطن السودانى الذى ضاع عمره لاهتاً نحو السلام وعانى من الغلاء والوباء والفناء والجلاء وسيف الأعداء، وصار غريباً خارج وطنه لأن عدم الإستقرار أفقده سلامه وأعتقد إن على الأبواب الآن

عدد من الذين هاجروا وتغربوا ينتظرون العودة إلى بلادهم إلى الوطن الحبيب الغالى الذى كلما إبتعدنا عنه كلما عرفنا مقدار..

ولقد أعجبنى تصرف جماعة إطلالة فى عشق الوطن الذين إجتمعوا خلال غربتهم وقرروا العودة إلى الوطن قبل أن تكتب صكوك السلام ورفضوا أن يحاربوا الوطن خارج الوطن ورأوا أن يعودوا إلى الوطن ويعملون ما يقدرون لأنهم آمنوا إن تدمير كوبرى أو تفجير أنبوبة خط بتروى لن تجدى شيئاً ولن يغير فى الحياة أمراً، لهذا عادوا وكتبوا وعملوا وأسعدوا الناس ولهم كتاب عنوانه «إطلالة فى عشق الوطن» أشرف عليه بروفيسور حسن أبشر الطيب، هذا الرجل الطيب الذى قاد رحلة العودة إلى الوطن والأحلام لم تزل مستمرة ومن حقنا أن نحلم والله سوف يحقق الأحلام..

لقد كانت أحلام يوسف الصديق بالمجد والعزة وسجود الكواكب له حتى الشمس والقمر أحلاماً بعيدة المنال، ولكن تحققت هذه الأحلام رغم أن كل شىء حول يوسف كان يؤكد إنه لا مجال لأحلامه ولكنه خرج من السجن إلى العرش ليكون ثانى رجل فى دولة الفراعنة وهو يهودى ابن للأب الأكبر لليهود يعقوب إسرائيل..

السودان الجديد: لقد أسعدنى ما كتبه الشاعر عزيز أندراوس فى مذكراته التى لم تنشر بعد، وكان عزيز خارج السودان فى الإسكندرية، عروس الشرق كما وصفها هو، وفى أول عام ١٩٥٠م أمسك بقلمه الجميل وكتب تحت عنوان «السودان الجديد» يقول: نريد سوداناً خالصاً تسوده رياح المودة والألفة والإخاء، سوداناً لا فرق فيه بين لون ولون، ودين ودين، وجنس وجنس، سوداناً لا فضل فيه لعربى على أعجمى إلا بما يكتب فى صفحة الجهاد الرائع، وما يثبت فى سجل الوطنية الفذة..

سوداناً يقوم فيه الإنسجام مقام الخصام، والمحبة محل النفور والجفاء، والتفاهم مكان الضغينة والحقد، نريد سوداناً حلواً حراً أنيقاً متساوياً منسجماً كطبيعته المنسجمة الفريدة السمحة بما تحويه من أنهار ووديان وتلال ورمال وهضاباً وجبال، سوداناً تنبض فى أرضه العذراء أشجار السيسبان والتبلدى والأراك والعذليب، ويجرى فى وديانه الخصب القاش والعطبراوى ويلتقى الأبيض والأزرق فى هارمونية عجيبة تلهب الحب وإيمان وترهف الحس والوجدان، سودان تمرح



فى جنباته النوق والحملان، وتختال فى عرضاته أرائل وصيد الغزلان..

سوداناً تحلق فى سمائه الزرقاء حمائم السلام وطيور الأمانى، وترتل فى أجوائه ومعابده أسراب القمرى صلوات أوحدية وصلوات.. نريد سوداناً يقف على قدميه على أسس من فلسفة جديدة مغايرة لكل فلسفة أخذت بها أى أمة حتى الآن، فلسفة من صنعنا نحن لا أثر للتقليد فيها ولا للمحاكاة، نريد سوداناً يعرف طريقه إلى حيث يريد تحذوه غاية ويدفعه هدف، لا يقيده عُرف، ولا يصده عن قصده تقليد..

نريد سوداناً يستمتع فيه أهله بالإخاء والمحبة أولاً ثم بالحرية ثم بالمساواة لأنه لا يوجد شيء أعظم من الإخاء والمحبة.. نريد سوداناً خليقاً بمكانته فى قلب أفريقيا يعيش فى دم أبنائه حب طاغ عفيف للمثل العليا وللحق، ويجرى فى عروقهم إيمان برسالة تاريخية كبرى تستمد أصولها من أعماق ماض عريق، نريد سوداناً يهدم ليبنى على الأنقاض صروحاً للفكر وللحرية فى شتى ألوانها ومعانيها..

سوداناً لا يلين للنكبات ولا ينحنى للعواصف، ولا يتزعزع من مكانه فى الأرض التى سميت بإسمه وعُرف هو بها، سوداناً لا تحجب عنه الشمس ولا يختفى القمر، ليحقق الله أحلام شاعرنا الهمام، وعندها يكون السودان فعلاً هو أب الدنيا..

## ٩١. السودانى صاحب الجلالة

عظمة الإنسان: يستمد الإنسان كل إنسان عظمتَه من الخالق الديان، هو الذى أودع فى الإنسان أجمل كيان، والإنسان مخلوق إلهى، تطلعه تطلع سماوى، وهو الوحيد بين مَخَالِيقِ الله الذى ينظر نحو السماء، وهو الذى جعله الرب خليفة له فى الأرض، وهو المسلط من الله على كل الكائنات، فآدم هو الذى أطلق الأسماء على الحيوانات والطيور، هو الذى قال: بأن هذا أسد وذلك حمل وذلك عصفور وتلك نعامة، وهذه سمكة وهذا ديناصور، وعندما خلق آدم جاء أمر الله إليه: ذكراً وأنثى أنتموا وأكثروا وأملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض..

وقال الله: إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرّاً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرّاً لكم يكون طعاماً (تكوين ١) .. وهكذا صار الإنسان سيد الخليفة، وأصبح كل إنسان صاحب جلالة وعزة وكرامة، ومع تنامي حقوق الإنسان أخذ

الإنسان حقه ولم يزل وفى الأدب الإسلامى إن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم إلا إبليس، فأبى وهذه عظمة كرامة الإنسان التى هى حق من الله الذى يعطى الحقوق، وعاش بنى آدم فى ظل هذه الكرامة يبحث ويفكر ويشغل عقله.. وتصير البيئة كلها فى خدمته والأرض وما عليها وما تحتها ملكاً للإنسان، ولهذا لقب السيد المسيح بأنه ابن الإنسان..

فى السودان: والسودانى هنا هو صاحب الجلالة لأنه يحافظ على كرامته التى وهبها من الله، والذى يدعو إلى الإهتمام والتفكير إعتراز غير السودانى بعزة السودانى، وما كتبه عدد من الإداريين البريطانيين فى هذا الصدد وآخرون من الرخالة يؤكد هذا، وأبدأ هنا بما كتبه المهندس البريطانى «إليك بوتّر» تحت عنوان «جولة ملوكية فى أم درمان» حيث يقول: إن طريقة المواطن السودانى حسن محمد عتبانى فى التسوق كانت مطابقة تماماً للأحرف الأولى من إسمه «ح.م» أو H.M. أى صاحب الجلالة بالإنجليزية، ولهذا أعتبر «بوتّر» إن جولته فى سوق أم درمان كانت ذات طابع ملوكى..

إن «بوتّر» يعتر بلقائه بهذا المواطن السودانى والذى كان كبيراً للمهندسين المعماريين بوزارة الأشغال، والذى كان يشعر بأن ضيفه البريطانى ربما يكون بحاجة لبعض العون الأخوى رغم إن عمل كل واحد مستقل عن الآخر، ولم يمض وقت طويل على قدوم «إليك وزوجته» حتى قال لهم عتبانى: إنه سيكون سعيداً حقاً بإصطحابهما إلى مدينة أم درمان، وعن هذه يقول المهندس البريطانى: لقد كانت أم درمان ولا تزال مكاناً رائعاً للتسوق والشراء، كل ما كان يعرض للبيع كان صناعة محلية أو محصولاً من محاصيل البلاد، السمكية يصنعون من علب الصفيح المستعملة أباريق وآوانى مختلفة ذات طابع عربى، وصُناع الأثاث يشكلون أرجل «العناقريب» والكراسى بمخارط تدار بواسطة خيوط موصلة مع أصبع القدم الكبير، والصاغة الذين يعملون فى الذهب يحولون المعدن الذى أمامهم بمطارقهم الدقيقة إلى أشكال من العقود والخلى، يتعذر تمييزها عن تلك العقود والخلى التى تم إكتشافها فى المقابر النيلية القديمة..

إن سوق أم درمان مليئة بصنوف متعددة من المعروضات إلى جانب المواد الغذائية، ويعود ليتحدث عن حسن عتبانى بأن بساطته ومحبته للناس ومداعبته لهم



## ٩٢. الفنان كرومة والصوفي قريب الله

اللورد كرومة: ولد الفنان كرومة فى حى السيد مكى وقد سمته أمه اللورد كرومر تيمناً بزيارة اللورد للسودان سنة ١٩٢٢م وإستقباله إستقبالا فخماً وبهرها ذلك وتمنت أن يكون ولدها مثل اللورد كرومر من مصاف العظماء وقد تحققت النبوة وصار كرومة أعظم فنان فى السودان، صار كروان السودان وإختفى إسم اللورد ليصبح كرومة ذلك الشاب الوسيم الطلعة الذى تزين وجهه شلوخ على خده تسمى المطارق، وكان كرومة أنيقاً جداً فى ملابسه لدرجة المبالغة، وعندما تتعرض ملابسه لأذى قدر من هجوم التراب عليها يرجع إلى البيت لكى يغيرها، وكان فى أنفاقه يمسك عصا تكملة للأناقة وله فيها مآرب أخرى، وكان شجاعاً كريماً مهذباً ودوداً طيب المعشر محبوب من كل أصدقائه..

وإفتتن به أهل أم درمان بل كل أنحاء السودان صوته جميل ألحانه شجية وكان يهابه الفريق الذى كان يفسد الحفلات.. وكانت فتيات أم درمان يسرعن إلى بيوت الأعراس التى يغنى فيها كرومة وهن فى أبهى زينة لهن وكان الشباب يحبون حضور حفلاته وكانت حفلات الأعراس فرصة لكى يختار الشاب شريكة حياته تحت قيود وتحفظات.. وفى منزل كرومة كان يلتقى كبار الشعراء ومؤلفى الأغنيات التى يشدو بها، وكان ذا موهبة فى تلحين الأغاني حيث كان يستعين بإلهام شاطئ النيل أمام دار الإذاعة ويمشى جيئة وذهاباً يحمل فى يده علبة كبريت بدل الورق..

وعاش كرومة هائماً بالجمال وكان مهذباً جداً فى سلوكه مع سائر الناس حريصاً على مراعاة الآداب العامة، وكان يحرص أن يكون أتباعه من الكورس ملتزمين بالأخلاق الحميدة والسلوك الطيب ويقول لهم: علينا أن نحترم أنفسنا حتى نحترمنا الآخرين.. وقد بلغ الإعجاب به أن رُسمت صورته على بعض عطور الشبراويشى فى مصر مع الزعماء مثل: عبد الرحمن المهدي، وعلى الميرغنى، والشريف يوسف الهندى، لقد كان هناك عطرأ بإسمه وبراد شأى صينى وضع عليه صورة الزعماء الثلاثة ورابعهم كرومة وهذا يعنى إنه حظى بإحترام الجميع..

وكان كرومة راهباً للفن فهو لم يتزوج وكُرس كل عمره ووقته للفن ورفع مستوى الفنان، لقد كانت بدايته إنه كان يغنى لزملائه بعد التمرين فى وسط الميدان ومر

كانت سبباً فى أن هذه الجولة كانت فعلاً "جولة ملوكية".. وعندما جلس "بوتر" فى المنزل ولاحظ الأعمدة الرومانية إعتقد إن المبنى قديم جداً، ولكن حسن قال له: إن هذه الأعمدة الرومانية قد جلبت أصلاً عام ١٩١١م من بريطانيا لتزيين شوارع بورتسودان عند زيارة الملك "جورج الخامس" والملكة "مارى" للمدينة، وبعد هذا صممت أعمدة على هذا الطراز بواسطة مهندس سودانى..

وقد قام هذا المهندس بتصميم وتشيد قاعة الإمتحانات والتى سميت قاعة النجاح، وتحدث عن المقاول جابر أبو العز وقال: إنه رجل حاد الذكاء، وذو حاسة مهنية خارقة، وقال عن مسجل كلية الهندسة المرضى جبارة: إنه فى حديثه أشبه ما يكون بصانع ماهر، وعندما كان يسير فى وسط الجامعة قال: كنا نمشى تحت أشجار النيم، ثم بين أشجار النخيل الملوكى ذات السيقان المفضضة، ونستشوق عبير نبات البطونية (وهو نبات أمريكى من الفصيلة الباذنجانية)، الذى كانت زهراته تصل إلى أحجام مذهلة..

أما العمال فقد وصفهم بقاماتهم الفارعة الطول، ولون بشرتهم وسرعة حركتهم، وأعلن إعجابه بمحلات "فاتيان" وطابعها المتفرد، وقال: الخرطوم إنها مدينة البهجة، وإن ظلال أوراق الأشجار الكثيفة وأشعة الشمس الساطعة كانت تطرز الطرقات بأبسطة موشاة رائعة تتغير نقوشها بين كل آونة وأخرى إلى لوحات بالغة السحر بفعل تمايل الأغصان، ونفاذ أشعة الشمس من خلالها، وقال: إن الشيء المدهش إن أكثر هذه الأشجار كانت تظل محتفظة بأوراقها الخضراء طوال العام، والتى تفقد أوراقها كانت تعوض هذا برشاقتها وتناسق أغصانها..

لقد كان "إليك بوتر" فى السودان عام ١٩٥٨م وما بعده، وهو بإعتباره بريطانى يعتمد الملكية رئاسة لبلاده، شعر إنه فى السودان فى بلد الملوك، وبأن المواطن السودانى هو "صاحب الجلالة" ونحن فى السودان عندما نصف نبيل رجل نقول "إنه ملك".. وعندما نتحدث عن وقار امرأة نقول عنها: إنها ملكة أو أميرة..



الفنان سرور عليه وسمع صوته واكتشف هذا الفنان وقال له: عندما تكبر سوف لا تعرف الناس سواك، وسوف ينسون الأمين برهان وسرور.. وكانت هناك منافسة بين المؤلفين والملحنين عندما كبر كرومة وصار مع رفاقه من اهل الفن.. الفنان والصوفى: وذات مرة التقى كرومة بالشيخ الوقور قريب الله، كان لقاء أرواح وصدى ألحان، كان كرومة يغنى فى بيت عرس بود نوباوى وإنطلق صوته فى هدأة الليل صافياً عذباً، يهز المشاعر ويأخذ بمجامع القلوب، ويتراقص الفتيات على ألحانه الجميلة، ودار العرس كانت قريبة لمنزل الصوفى، والذي كان جالساً مع جيرانه ومريديه يتحدث معهم، وأحياناً يصمت متأملاً منفرداً بنفسه، وهنا وصل إليه صوت كرومة يغنى:

ياليل أبقالى شاهد

على نار شوقى وجنونى.. ياليل

وأعجب مولانا بالصوت وبالكلمات وسأل: من هذا الذى يغنى لليل؟ قالوا له: إنه مطرب اسمه كرومة.. وصمت الشيخ ثم طلب من بعض تلاميذه أن يحضروه إليه، وذهبوا وكان كرومة قد أنهى الأغنية وهمسوا فى أذنه: الشيخ غريب الله يريد أن يراك الآن.. وفزع كرومة وإضطرب: ماذا يريد منه رجل الصوفية هذا؟ والوصف كان لحسن نجيلة، وكان بجواره الشاعر عمر البنا والذي شجعه بأن سوف يذهب معه، وكان كرومة يتوقع توبيخاً وتقريعاً وتأنيباً، ولكنه رحب به وأعطاه عسلاً ممزوجاً بالماء، وهنا طلب مولانا أن يسمع الأغنية التى سمعها فوق منتشياً ليضطرب ومعه كورس من شخص واحد هو الشاعر عبد الله البنا، ويستمتع الشيخ إلى كرومة يقول:

ياليل صار ليك معاهد

طرفى اللى منا موزايد.. ياليل

دنا لى سهرك وأشاهد

فوق لى نجمك ظنونى.. ياليل

ويتجاوب قريب الله وتمتلكه نشوة الليل ويصيح: الله.. الله.. ويندهش كرومة والبنا ويخرجان وسط التهليل بفرحة الليل، إن مولانا غريب الله يعرف قيمة الليل وصلاة الليل، وقديماً قالوا: إن الأسرة المؤمنة والشخص المؤمن ينبغى أن يقسم الليل إلى نصفين بالصلاة، وفى الكنيسة القبطية صلاة نصف الليل، وفيها ثلاث هجعات، يبدأ المصلى قائلاً: قوموا يا بنى النور لنسبح رب القوات، لكى ينعم علينا بخلاص نفوسنا، عندما نقف أمامك جسدياً إتزع عن عقولنا نوم الغفلة، أعطنا يارب بقطة لكى نفهم كيف نقف أمامك وقت الصلاة ونرسل لك التمجيد، فى الليالى إرفعوا أيديكم إلى فوق أيها القديسون وباركوا الرب.. فليدن توسلى قدامك يارب، كقولك فهمنى لتدخل طلبتى إلى حضرتك، تفيض شفتاى بالتسبيح، لسانى يجيب بأقوالك، فليكن شعبك بالبركة ألوف ألوف يصنعون إرادتك..

### ٩٣. إسماعيل الحاج موسى ونزار قباني

قوة الكلمة: كم يعتز الإنسان بقوة الكلمة، والكلمة إذا كتبت بالمذكر يقصد بها الله نفسه، فى البدء كان الكلمة، وكان الكلمة الله، كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان، وعندما تكتب الكلمة بصيغة المؤنث يقصد بها كلمة الله مكتوبة أو مقولة.. ويقصد بها الكلمة التى نقولها تعبيراً عن الله وعن أى شىء كائن حولنا.. وذكر عن كلمة الله بأنها قوية وفعالة وأمضى من كل سيف ذى حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته، بكلمة الرب أسست السموات ونسمة فيه كل جندها، وفى الكلمة قوة المتكلم، الكلمة هى الفكرة متجسدة، الكلمة تربط بين متكلم ومستمع، عندما تخرج منك الكلمة تمتد وتتسع رقعتها دون أن تتمزق أو تنقسم أو تتجزأ إلى أجزاء، الكلمة تولد فى ومن العقل دون احتياج إلى طرف آخر..

الكلمة بعد أن تفرغ من مهمتها تختفى عن الإحساس الملموس، ولكنها تظل موجودة غير فانية، كلامنا، وكلام الذين سبقونا كل هذا موجود حولنا فى الهواء وهناك محاولات لجمع كلام العظماء بأصواتهم لأنه ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله..



إسماعيل ونزار: أعتز جداً بحديث الأديب إسماعيل الحاج موسى، وأشعر إن الكلمة تقطر من فمه شهداً وتنساب رغم إنه يختارها قوية وجميلة من بين باقي الكلمات.. وعندما تصفحت كتاب «أوراق العمر» الذي هو حوار قام به الصحفي المخضرم اللاحق الوقور كمال حسين بخيت، أعجبت جداً بالكلمة، وصارت الكلمات زينة حياتنا الدنيا وزينة آخرتنا السعيدة..

ولم يكن إسماعيل الحاج موسى بحاجة إلى إستخراج الكلمات من فيه، إنما فقط عندما يسأل يجيب، وعندما سألته كمال بخيت: ما بينك وبين الشعر؟ وما بينك وبين نزار قباني على وجه التحديد؟ أجاب إسماعيل باختصار عن الشعر وبإسترسال عن نزار، وكأنه يستريح في بيوت جميلة من شعر شاعر كبير هو نزار قباني: الشعر أريج يعطر الأجواء، وإحساس يدفق الندوة في الحياة، ويبعث الحرارة والحيوية في أوردة الناس وفي شرايين المجتمع، الشعر كلام جميل والكلمة الجميلة تحلق بك بأجنحة من الغمام في سموات عليا ودنياوات أخرى..

فالكلام عندما ينظم بإقتدار يحلو ويؤنق ويعبق ويعذب ويروق، ويقصد إسماعيل في يعذب إنه يصير عذباً لأنني قرأتها بمعنى إن صاحبه من المعذبين في الأرض.. ويستمر إسماعيل: الشعر سهل ورحب في الإسماع ولصيق بالقلوب وخفيف وعذب على الشفاة، والشعر ديوان العرب، وعندما أعجب أهل قريش بالرسول الكريم قالوا عنه: شاعر تتربص به ريب المنون، وعندما أعجب الرسول بهم قال: إن من البيان لسحرا..

أما عائشة فتطالب الأباء أن يعلموا أولادهم الشعر ويرووهم بمياهه الحية: روي أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم، ومازلت أكتب وأطالب أن يكون الحكام أدباء وشعراء، وإذا كان الشعر موهبة فليس أقل من أن يحفظ الحكام أبيات الشعر حتى يكون كلامهم عذباً ويغيب من تعبيراتهم نبرات التهديد والوعيد..

أما عن رأي إسماعيل في نزار قباني فإنه يقول عنه: نزار أمير في الشعر وأمير في النثر، وقد كنت دائماً معجباً بنزار الشاعر المجيد المبدع، وعندما إقتربت إليه أحببت نزار الإنسان الصادق الصديق الصدوق، ولقد قام إسماعيل الحاج موسى بدعوة نزار إلى مهرجان الثقافة الثالث ذلك الإختراع الجميل الذي إختراعه أدباء مايو وأبدعوا فيه وبعدهم غابت المهرجانات الثقافية والتي نأمل أن تسوقها رياح الأدب إلينا..

وعندما جاء نزار إلى السودان عطر أمسيات المهرجان وسموات الخرطوم بأريج شعره العاطفي، وشعره السياسي، وعاد يقول: في كل مكان أحس بأنني شاعر، ولكن في السودان أحس بأنني قديس.. ونزار كابد الآلام وذاق مرارة الدنيا عندما دخل ابنه توفيق إلى حجرة الإنعاش وظل قلبه يخفق شعراً:

أنا جرح مشى على قدميه

وخيل قد هدها الإعياء

وأنا الحزن من زمان صديقي

وقليل في عصرنا الأصدقاء

وعندما صعد نزار على مسرح مهرجان الثقافة في الخرطوم قال:

قتلناك.. يا جبل الكبرياء..

وآخر قنديل زيت يضيء لنا في ليالي الشتاء

قتلناك بكتا يدينا وقلنا المنية

لماذا قبلت المجيء إلينا؟

فملاك كثير علينا

قتلناك يا حبنا وهواننا

وحين غسلنا يدينا إكتشفنا

بأننا قتلنا منانا، وإن دمناك فوق

الوسادة كانت دمانا

إن إسماعيل الحاج موسى ونزار قباني كل واحد فيهما قد ملأ الدنيا وشغل الناس، وغنى اللحن رقيقاً حنوناً للحياة والحب والأمل وأطلق الكلمة قوية صائبة في وجه أعداء الوطن والحق والإنسانية..



## ٩٤. فجر الحركة الوطنية

الأدب والدبلوماسية: يرتبط الأدب بالدبلوماسية كثيراً، فلأدب دبلوماسية، وللدبلوماسية أدب رفيع، وقد برز كثيرون من أهل الدبلوماسية في مضمار الأدب، ومن يقرأ للسفير جمال محمد أحمد يرى كيف كان هذا السفير أديباً يختار أجمل الكلمات ليعبر بها عن نفسه.. ولأن الدبلوماسي كثيراً ما يحيا بعيداً عن الوطن وعن الأسرة أحياناً فإنه يكتب إلى أصدقائه في الوطن وإلى أفراد أسرته لذا فلقد كان جمال محمد أحمد يملك زمام أدب الرسائل، وكثيرون من السفراء أدباء ونذكر هنا أيضاً كيف إمتلأت الساحة بمقالات السفير بشير البكري الذي كتب في عدة مواضيع وعلى صفحات عدة جرائد في السودان وخارج السودان، وتستقبل جرائد الشرق الأوسط والأهرام بترحيب كبير..

وأذكر هنا من الدبلوماسيين الأدباء الصادق الفقيه بخيت والذي عندما يكتب ورقة تشعر بأنه هو الأديب الذي تمتلئ جعبته بأجمل عبارات الأدب والذي يحيطك ببستان يمتلئ بأزهار الكلمة الحلوة، وأريج التعبيرات الأدبية، وإذا الدبلوماسي سفير الوطن فإن الأديب سفير الأدب والشعر.. هذا عدا إن هناك أمثلة أخرى تحتاج إلى من يكتب عنها لسفراء أدباء وشعراء.. ولمن أوكل إليهم هم الثقافة في ملحقاتنا الثقافية وكيف يمثلون الثقافة فعلاً..

كل هذا دار بخلدی وأنا أقرأ كتاب «فجر الحركة الوطنية» للسفير الدكتور حسن عابدين، خريج الآداب جامعة الخرطوم، والحائز على الماجستير والدكتوراة في التاريخ الأفريقي من جامعات أمريكا، والأستاذ الجامعي ووكيل الخارجية وسفيرنا سابقاً في الجزائر والعراق وبريطانيا..

وهو يعتز بتاريخ بلاده ويؤكد في مقدمته إن الأفكار القومية والنشاط الوطني في السودان لهما ماض عريق كثيراً ما أغفل أو قلل من أهميته في الكتابات التي تناولت تاريخ السودان المعاصر، وبالرغم إن الحركة الوطنية لم تعيش طويلاً بل وأخفت في تحقيق الهدف الأساسي حيث لم تتمكن من إنهاء حكم الإستعمار، ولكن كانت هذه محاولات جادة وصلت يوماً ما إلى تحقيق الهدف..

وقد بدأ الوعي الوطني في العشرينات وكانت ظروف الوطن تقتضي هذا حيث كان

لبلادنا وضعاً استثنائياً كمستعمرة إنجليزية مصرية، وكانت مصر من حولنا تكتب أجمل الملاحم ضد الإستعمار حتى إن موظفي الخدمة المدنية والإدارة الإنجليزية الذين كانت تختارهم بريطانيا للعمل في مصر كان يترددون في قبول هذه المهمة، بينما كانوا يرحبون بالمجيء إلى السودان..

ولهذا من هنا يأتي شعار وحدة وادي النيل شعاراً للحركة الوطنية السودانية وفيه رفض للإستعمار وتحالف مع الحركة الوطنية في مصر، كما إن ارتباط التنظيمات السياسية في جمعية اللواء الأبيض بفكرة الوحدة بين مصر والسودان كان عن إقتناع تام بأن مصير القطرين مرتبط ارتباطاً لا انفصام له..

إنني ألاحظ إن الحس الوطني عند أي مواطن خارج بلاده يزداد حماساً ونيران الفراق تجعله حاراً وتجعله عشقاً للوطن، وترابه وكل ما فيه، وهذا الشعور الجميل يذكره لنا الكتاب المقدس في سفر نحemia الذي عندما سمع وهو خارج وطنه أخباراً عن بلاده وما فيها من سبي وإهانة وهدم لسورها العظيم وحرق لأبوابها، جلس يبكي وناح أياماً وصام وصلى أمام إله السماء ووقف مكمداً حزيناً أمام الملك الذي يعمل في بلاطه، وعندما شعر به الملك وافق على إعطائه إجازة لكي يعود إلى وطنه ويصنع شيئاً من أجله، وفعلاً عاد وبني أسوار بلاده وتعاون معه أهله من بني وطنه..

فجر الحركة الوطنية: ويتحدث السفير الأديب حسن عابدين عن «فجر الحركة الوطنية» في السودان وباديء ذي بدء نقول: طالما أشرق نور الفجر فإن شمس الحرية تخرج من حصنها وترسل أشعتها الذهبية نوراً لا يماثله نور.. ويبدأ الأمر قبل الفجر بظلمة داكنة شديدة السواد هي مطاردة أبناء الوطن والحجر عليهم، وإغلاق منافذ الحديث أمامهم، ورفض كتاباتهم، وإغلاق الجرائد اليومية أمام تحركاتهم، وأمام قصائدهم..

وأذكر هنا إن توفيق جبريل الشاعر الوطني كان يرسل قصائده الوطنية للأهرام التي ما كانت تبيح بالسر ولا تذكر اسمه.. ولكن حكومة المستعمر إشتكت في ظلام ما قبل الفجر بمحاكمات عسكرية في ديسمبر ١٩٢٤م، وأعدمت ثلاثة من المتهمين، وكانوا أربعة وخفف الحكم للرابع والتهمة هي محاولة إنقلاب عسكري.. وفي أغسطس من نفس العام حكمت محكمة أخرى على مجموعة من طلبة



المدرسة الحربية بالخرطوم الذين أعلنوا قيام فجر الحرية وجابوا شوارع الخرطوم يهتفون بالفجر الجديد، ولكن حكم عليهم بالحبس سجناً لمدد متفاوتة، ولكن شارع الحرية كان قد أضاء بأفكارهم الثورية ..

وفى فبراير ١٩٢٥ م تم تقديم خمسة وعشرون مثقفاً سودانياً بتهمة التآمر وإثارة الكراهية ضد الحكومة، وتكوين جمعيات غير مشروعة.. ولكن بعدها كان الفجر، وبعد الفجر كان نور الإستقلال.. وإذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر..

## ٩٥. النوبة والإستقلال السياسي

الموقع والإستراتيجية: تقع النوبة بوابة لكل بلدان أفريقيا، وتبدأ من الشلال الأول فى أسوان وتدخل إلى عمق أفريقي هو السودان الكبير الداخل إلى أفريقيا، وعندما تأسست ممالك النوبة كان يخضع لها كل هؤلاء السكان، ولكن دوماً تتمركز الدولة أى دولة حول العواصم وتآلق على مستوى النوبة فرس ودنقلا وسوبا وعلى مستوى الحبشة داخلياً أكسوم، ورغم إن أكسوم أعماقها أكثر من النوبة فإنها قبلت المسيحية قبلها بما يقرب من مائتى عام..

وفى البداية كان الوصول إلى النوبة أمراً صعب التحقيق ولكن أطماع الغزاة لم تتوقف غير إنها جاءت فى شكل حملات ورجعت خائبة، فلقد عقد الرومان معاهدة صلح لمدة مائة عام.. أما ملك الفرس قمبيز فقد ضاع جيشه قبل الوصول إلى النوبة، وفشلت حملات عمرو بن العاص على النوبة، وكان الضحايا كثيرون من رماة الحلق الذين صوبوا النيشان على حدقات العيون، وقرر عبد الله بن أبى السرح أن يعقد معاهدة البقظ ..

وكلمة بقظ هنا تعنى إتفاق، وحاول الفاتح العربى تجميل إتفاقه فقال: إن هذا إتفاق تبادل تجارى النوبة تدفع ٣٦٠ عبداً وتدفع من فتوحاتها ريش نعام وشن فيل وحيوانات، وتستلم وفق المعاهدة قمحاً وشعيراً ونسيجاً قبطياً يسمى « قباطى » ولم تستمر الإتفاقية ولم يستمر دفع البقظ، وعندما طالب الخليفة فى بغداد متأخرات أربع عشر سنة إعتذر الملك فليس لديه عبيد يرسلهم من الشباب وقال: إن شبابنا ليسوا عبيداً نحن كنا نريد أن نقدم لكم من أسرى الحروب التى ننتصر فيها..

وكرر الخليفة الطلب، وفى دبلوماسية راقية تنازل الملك زكريا عن العرش وتبوا العرش ابنه الملك جورج أو جورجى أو قورقى بحسب لهجة مصر.. وجاء الملك ونزل ضيفاً على الخليفة فى بغداد وأكرم الخليفة وقادته وأعفاه من الديون القديمة، ورسم للبقظ أن يكون مرة كل ثلاثة أعوام، وهكذا خفضه إلى الثلث وكان الخليفة ذكياً جداً ولا يرغب فى قيام نزاعات مع النوبة ويكفيه ما يحدث فى بلاده.. وظلت بلاد النوبة قلعة حصينة غير قابلة للإختراق، أسلحتها الفتاكة هى شباب قوى فتى يمسون الأقواس والنبال ويرمون السهام نشاباً على من يعاديهم، وظل هذا الأمد طويل وهذا الأمد هو عصر الإستقلال السياسى..

الإستقلال السياسى: ويكتب دكتور جودت جبرة فى المسيحية عبر تاريخها فى المشرق إصدار مجلس كنائس الشرق الأوسط ليؤكد هذا الإستقلال فيقول: تنفرد الكنيسة النوبية بأنها نشأت وازدهرت فى جو من الإستقلال السياسى الكامل، لقد تأخر دخول المسيحية بلاد النوبة التى أصبحت منذ القرن السادس بلاداً مسيحية حكماً وشعباً، ولم تفقد الممالك النوبية المسيحية إستقلالها السياسى إلا فى القرن الثالث عشر إثر غزوات المماليك المتكررة لها..

وعلى النقيض من معظم البلدان المشرقية إستمرت المسيحية فى النوبة كديانة غالبية السكان حتى القرن الرابع عشر، وبالرغم من إستقلال ممالك النوبة المسيحية سياسياً إلا أن تراث الكنيسة تأثر بصورة بالغة بكل من التراث القبطى، والتراث البيزنطى، وإن كانت له بعض المميزات الخاصة به، والمسيحية فى الأساس لم تتعرض لإستقلال أى بلد ولم ترغب فى إلغاء لغة أو فن أو تقاليد قديمة إلا عندما تتعارض مع المبادئ المسيحية..

ولأن الكنيسة القبطية قامت بدور الأم الراعية للكنيسة النوبية فإن ملوك النوبة أنفسهم أحبوا الكنيسة القبطية وسعوا إليها، وهنا يكون التعامل ليس ضد الإستقلال وإنما بناء على طلب أهل النوبة وسعيهم لأن يدخلوا إلى الإيمان المسيحى من باب القبطية الأرثوذكسية حتى إن ملك علوة سوبا أرسل لى ملك نوباطيا طالباً مجيء الأسقف لونجينوس الذى تعرض فى الطريق للعديد من المضايقات والذى سجن حتى لا يصل إلى سوبا، ولكنه تنكر ولبس باروكة شعر.. وقد كان أصلاً وخرج لى يستمر فى رسالته، وعندما وصل إلى سوبا كتب



إلى ملك نوباطيا يحيى حماسه المسيحى ويعرب عن خالص شكره وتقديره ويعلمه إنه وجد فى سوبا فئة من المسيحيين الأكسويين الذين يعرفون بالخياليين لأنهم اعتقدوا إن جسد المسيح منزله عن الأوجاع والآلام ورايهم خيالى وكأنهم يعتقدون إنه حارب هذه البدعة..

لقد كان هدف تبشير الكنيسة القبطية لبلاد النوبة هو قبول المسيح مخلصاً وفادياً، وقد إنتعش الفن النوبى ورسم الفنان النوبى لوحات فريدة خاصة به مثل : لوحة الميلاد، ولوحة الحماية من العذراء للأميرة النوبية، ولوحة الثالوث الأقدس، إن الكنيسة القبطية حافظت على إستقلال بلاد النوبة لأنها ككنيسة ليست لديها أى أجندة سياسية..

## ٩٦. الكنيسة الشرقية ومسيرة التواضع

الرئيس عمر البشير: عندما زارنا بطريرك إثيوبيا الأب باولوس فى السودان فى أوائل عام ٢٠٠٧ م بدعوة كريمة من رئيس الجمهورية تمتعت بحضور اللقاء بين رئيسنا والبطريرك وأعجنى تعليق الرئيس بأن الكنائس الشرقية لم تقاوم الإنقاذ فى أول الطريق، ولكن قدمت محبتها الشفيفة النقية ووجدت تعاوناً صادقاً، وأقامت إفطار رمضان كل عام والذى يُعد الآن شاهداً على التعايش ودليلاً على المحبة التى تعطى ولا تمتن، فالكنيسة القبطية كنيسة وطنية شرقية أصيلة لم تدخل فى إشكالات مع أى حكومة، فهى لا تتعب الحكومة ولا تتضايق من الحكومة..

والقرآن الكريم يشهد بصدق النصارى وشفافيتهم وهو يقصد هنا الأقباط بالذات، لأنهم وحدهم دون غيرهم عندهم الرهبان الذين لا يتزوجون والقسوس الذين يعيشون فى أسرة ويخدمون من واقع تجربتهم كل أسرة، والقرآن يعتبر إن النصارى هم الأقرب فى المودة وهم البعيدون جداً عن الإستكبار والإستعلاء : «لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وإنهم لا يستكبرون » ..

وملاحظتى هنا إن كلمة أقربهم بهذا الدفاء والتعاطف لم ترد فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية.. كما إن كلمة يستكبرون تحمل معنى تواضع أهل الشرق ويوصف بها الآن دول الإستكبار..

مسيرة التواضع: وفى مقدمة كتاب « مجلس كنائس الشرق الأوسط » المقدمة إن مشروع كتابة « تاريخ المسيحية فى الشرق » خطوة جريئة تأتى فى بدء الألفية الثالثة وتأتى كتابتنا للتاريخ منطلقاً من إرادتنا للتعبير عن تصميمنا على متابعة رسالة كنيستنا والإستمرار بالشهادة للمسيح على هذه الأرض المقدسة.. وتنطلق كتابة التاريخ من العمل بكل إيمان ورجاء لمستقبلنا فى الشرق..

إن إستمرار الشرق فى إعتماده النطاق الزراعى يجعل البعض يتمسك بنظرة تقليدية إلى مفهوم الزمن الدائرى حيث تخضع المحاصيل والحياة الزراعية للفصول والمواسم، ما يجعل الباحثين التقليديين يكررون المقولة الشعبية : « إن التاريخ بعيد ذاته ».. واضعين الناس فى قبضة القدر جاعلين من الشعوب ضحية لدورة التاريخ..

ويرى مقدم كتاب « المسيحية فى المشرق: إن يخرج الناس من قبضة القدر وينظر إلى التاريخ من زاوية النظرة إلى الزمن المتطور الذى يكون فيه الإنسان ملازماً للفعل الإلهى فى صناعة التاريخ، فمع إيماننا بأن عمل الروح القدس قد تجلّى فى أحداث التاريخ وتطوراته، إلا أن تاريخنا لم يكن دائماً مشرقاً ولم يكن دائماً مشرقاً إذ إمتزج تاريخ كنائسنا بتاريخ الحضارات وتاريخ الشعوب والتيارات الفكرية التى نمونا فى إطارها..

وبذلك لم يكن هذا التاريخ طاهراً على الدوام مترفعاً عن الخطية أو عن رذالات هذا العالم، ولهذا فإن كتاب المسيحية عبر تاريخها فى الشرق ليس فقط تاريخ المسيحية بل هو بشكل أساس تاريخ المسيحيين فى منطقة الشرق ، الذين عانوا الإضطهادات الوثنية وتجارب هذا الدهر، وآلام الزمان الحاضر، وساهموا فى صناعة تاريخ منطقة الشرق ، فى خفر السكون..

وفى شفافية التواضع كانت المسيرة تمشى الكنيسة متمهلة كقول أشعياء: أتمشى متمهلاً كل شئ من أجل مرارة نفسى ( أشعياء ٣٨: ١٥ ) وقد إتخذ محمد حسنين هيكل هذه الآية آية رئيسية عند حديثه عن الكنيسة القبطية فى الباب الرابع من « خريف الغضب ».. وعاشت كنائس الشرق تتفاعل مع حضارات الشرق وتثريها، عاشت شهادة الصمت، فالمسيحيون فى الشرق لم يعيشوا مجد بيزنطية السياسى كما لم يعرفوا الإستكبار والتعدى ولم يستفيدوا من إنجازات العقل العربى وإكتشافاته..



لكنهم عاشوا مع سكان هذه المنطقة بقلب واحد وأمل نهضة مشتركة يرافقها العدل والإزدهار للجميع..

شارك المسيحيون في الحكم أقل مما ساهموا في الحركات النهضة الفكرية والأدبية في الشرق، وعلى الرغم من عدم المساهمة المباشرة في إدارة شئون البلاد نرى إن معظم الحكام منذ العهود الإسلامية الأولى يستعينون بأمناء سر وأمناء صندوق وموظفين مسيحيين من كل الفئات، وقد ساهم المسيحيون في النهضة العربية الأولى خلال العصور الأموية والعباسية في نقل الثقافة والتراث الأدبي وإزدهار العلوم في العالم العربي، وساهموا في النهضة العربية الثانية ولم تكن المراحل الصعبة عبر التاريخ دائماً نهائية، إنما استمر الحضور المسيحي في الشرق، وإن كان العدد قد تناقص ولكن الآباء الأول في كنائس الشرق لم يعم على الوجود العددي، إنما على نوعية الشهادة، لأن الكنيسة الشرقية بدأت مسيرة التواضع الشفاف ولم ولن تتخلى عنها...

## ٩٧. تاريخ الحركة الوطنية في السودان

بروفسور عمر بشير: من بين مؤلفات البروفسور محمد عمر بشير كتابه القيم «تاريخ الحركة الوطنية في السودان» طباعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م .. وقد كتب كتابه بالإنجليزية ونقله إلى العربية ثالث من علماءهم : هنري رياض، وليم رياض، والجنيد على عمر، وراجع دكتور نور الدين ساتي.. ويبدأ الحديث عن الحركة الوطنية بحديث عن الجذور التاريخية للسودان الحديث، فالحركة الوطنية لم تبدأ من فراغ والمواطن السوداني هو ابن تاريخه المجيد ويولد الطفل وهو يحمل في كيانه كل تاريخ السودان وأمجاده، أيامه قبل ميلاد المسيح، وأيامه يوم أن كان الوطن مسيحياً لمدة ألف عام، وأيامه عندما دخل الإسلام إليه في نقاء الصوفية وشفافية الحكماء..

السودان بالنيل الذي هو شريان الحياة، وبالأقطار الجميلة في فصل الخريف، وبداية اللقاء بمبادئ المسيحية في القرن السادس حيث وجدت المسيحية مكاناً في قلب المواطن السوداني، ووجد الأقباط مقراً يحتموا به في السودان عندما حاربهم

إباطرة الرومان الذين في أيديهم زمام الأمور.. وظلت الممالك السودانية المسيحية على ولايتها للكنيسة القبطية في مصر، وظل ملوكها يعتبرون أنفسهم حواريين كهنة وحماة لبطريك الإسكندرية..

وكان ملوك تلك الممالك ملوكاً وقساوسة في نفس الوقت قبضوا بأيديهم كلا من السلطتين الدنيوية والروحية وساعدهم في مزاولة مهامهم نظام ديني قائم على تعاليم وطقوس الكنيسة القبطية حتى أتى زمن صارت اللغة النوبية تكتب بحروف اللغة القبطية، وصارت اللغة النوبية هي لغة الكنيسة.. وأقدم هنا ملاحظة هي فك طلاس اللغة النوبية يكون بدراسة اللغة القبطية التي كانت تستعملها كنائس النوبة، ويقول البعض: إن حروف اللغة النوبية هي من إثني وثلاثون حرفاً، خمس وعشرون من هذا، إن حروف اللغة القبطية هي من إثني وثلاثون حرفاً، خمس وعشرون من اللغة اليونانية، وسبع حروف من الديموطيقية.. إن الكنيسة النوبية هي مجد قبطي قديم، فالذين بشروا السودان بدأوا بإمراة قبطية في قصر إمبراطور بيزنطا هي «ثيودورة».. ورهبان.. ونسك.. وتجار.. وصناع.. وكلهم أقباط عاشوا في السودان وصاروا أقباطاً سودانيين..

الحركة الوطنية: وبعد الحديث عن الجذور الأولى يتحدث المؤلف عن مسيرة الحركة الوطنية ويحدد لدراسته أعواماً تبدأ من سنة ١٩٠٠م حتى سنة ١٩٦٩، حيث يفرد الباب الثاني للتاريخ من مطلع القرن حتى الحرب العالمية الأولى ثم يتحدث عن المقاومة الأولى والذي فيها قامة حركة تمرد من دارفور على نظام الحكم الثنائي، ولكن تم القضاء على علي دينار مفجر الثورة، وأصبحت دارفور مديرية خاضعة للحكم الثنائي..

وفي عام ١٩٠٣م ثارت قبيلة نيام نيام ضد قوات الحكومة، وظلت نوبا الجبال تقاوم وتعارض مثل أهل الجنوب، وبعد هذا يأتي الباب الرابع تحت عنوان «إرهاصات الثورة» عندما نشأت الحركة الوطنية وبدأت في تكوين الجماعات السرية والخلايا، وبدأت في كتابة المنشورات وقصائد الشعر وأخذت من الجرائد المصرية طريقاً للحديث عن الاستقلال شعراً ونثراً وتأثرت الحركة الوطنية في السودان بأحداث مصر ومسيرة ركبها نحو معاداة الإستعمار وجهود سعد زغلول الذي أراد أن يعرض قضية مصر واضعاً إياها على منضدة مجلس السلام..



ولكنه منع ونفى إلى جزيرة مالطة معه أقطاب من حزب الوفد من بينهم مكرم عبيد وويصا واصف وسينوت حنا.. وهنا بدأت الرقابة تشدد على السودان، وكان سعد زغلول محبوباً لدى أهل السودان، وكانوا يتوقعون منه أن يحرك البركة الساكنة ويلقى فيها بحجر يرميه ليحرك مشاعر الناس نحو إستقلال السودان، وأذكر هنا قصة المفتش الإنجليزي الذي ذهب إلى مدرسة في كوستى وسأل: من هو أعظم إنسان على الأرض؟ وانتظر الإجابة ورفع طالباً إصبعه مطلقاً إياه لكي يقدم الإجابة، وكانت إجابته كارثة وقعت على رأس المفتش ومشكلة لناظر المدرسة.. فلقد كانت إجابة التلميذ السوداني: إن أعظم رجل في العالم هو سعد زغلول.. وهو درس لم يأخذه في المدرسة، إنما في البيت والشارع اللذان كانا يتمتعان بأمواج الحرية ويتابعان إنتصارات الحركة الوطنية في مصر.. ويستمر الكتاب فيتحدث عن ثورة ١٩٢٤م والتي شارك فيها كل قطاعات الشعب، ومن بينهم الأقباط السودانيون الذين كتبت أسمائهم في سجل سجن كوبر في حجرة المدير.. وبعد هذا جاءت الوطنية الجديدة، والمهدية الجديدة، ومؤتمر الخريجين.. وحديث عن الحركة الوطنية والتطورات الدستورية والأحزاب والنقابات..

وفي الباب الأخير عود على بدء وخاتمة يتحدث عن السودان بعد الإستقلال وحكم عبود وثورة ١٩٦٤م أكتوبر التي أطاحت بإنقلاب عبود، وهو بعد هذا ينظر بعين الرضى إلى ثورة مايو ويقول: إنها ثورة على الماضى وبداية لعهد جديد من التاريخ السياسى والتنمية الإقتصادية، وهذه حكمة من بروفيسور عمر بشير، فقد كان يكتب تحت مظلة حكم مايو.. ولقد عاش حتى حكم الإنقاذ ولم يخف وقتها تبرمه من الانقلابات العسكرية..

## ٩٨. المناخ الثقافي للسودان زمان

آراء وأفكار: عندما صدر كتاب « آراء وأفكار » من الخرطوم والذي يشمل على مجموعة محاضرات ألقى في دار الثقافة وكانت مركزاً أدبياً مرموقاً غطى أربعينات وخمسينات القرن العشرين، تذكرت كيف إهتم الإنسان بالثقافة منذ قديم الأزمان، وتذكرت على الأخص فيلسوف المسيحية بولس الرسول والذي كان على مستوى عال وراق من الثقافة الروحية، وكيف إنه ذهب إلى ميدان « أريوس باغوس » في

أثينا، وكانت قد إحتدت روحه فيه إذ رأى المدينة مملوءة أصناماً، وقابله هناك قوم من الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين وقال بعض: إنه يظهر منادياً بآلهة غريبة لأنه كان يتكلم عن يسوع والقيامة، وأخذوه هؤلاء إلى أريوس باغوس والذي كان داراً ثقافياً.. وكان مكاناً للرأى والفكر، وكان بعض من أهل أثينا لا يتفرغون لشىء آخر إلا لأن يتكلموا أو يسمعوا شيئاً حديثاً..

ووقف بولس في وسط أريوس باغوس وسط هذا الجمع الحاشد من الفلاسفة والمثقفين وقال: أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأتمك متدينون كثيراً لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه « إله مجهول » فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه، هذا أنا أنادى لكم به، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه إذ هو رب السماء والأرض، لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شىء، إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شىء، وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكي يطلبوا الله لعلمهم يتلمسونه فيجدوه، مع إنه عن كل واحد منا ليس بعيداً، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته..

فإذن نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن إن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة وإختراع إنسان، فالله الآن يأمر جميع الناس أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل، لأنه أقام يوماً هو فيه مزعم أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات ( أعمال الرسل ١٧ ).. لقد ذهب بولس المثقف إلى هذا الوسط الثقافى لكي ينادى بالإله الواحد.. وهو إذ يستشهد بشعر شعراء أثينا إنما يدل على ثقافة واعية تنشر ثقافة جديدة هى ثقافة التوحيد وسط شعب يؤمن بتعدد الآلهة.. ولو لم يكن بهذا المستوى من الثقافة لما تمكن من مخاطبة هذا الشعب الذى لا يحب سوى أن يسمع جديداً لكي تنمو ثقافته..

المناخ الثقافى: وكتب آراء وأفكار عن الخرطوم يقدم له بروفيسور حسن أبشر بإعتباره صورة حيوية عن المناخ الثقافى الذى كان فى السودان والذي من خلال دار الثقافة مد جسراً من العلاقات الإجتماعية والثقافية بين رجال الإدارة البريطانية والنخبة السودانية الصاعدة، ونجم عن ذلك إحساس بأهمية العامل الإنسانى خلال



مناقشة القضايا المطروحة والمشاركة في المعلومات المتاحة ، وتفهم وجهة نظر الآخر للتوصل إلى اتفاق أو حل وسط معقول حول المبادئ التي تقود إلى المستقبل..

وفي الكتاب مجموعة من المحاضرات التي أقيمت في دار الثقافة والتي تبدأ بمحاضرة « البعد الإنساني للثقافة » وتمتد إلى مواضيع أخرى عديدة مثل الديمقراطية، كيفية فهم الشعر الإنجليزي، موارد الغابات في السودان، أبو العلاء المعري، عمر الخيام شاعر إيران ورباعياته، أهداف التعليم، الخدمة المدنية، طبيعة الحرب الحديثة، العرب والحضارة الغربية، عالم واحد أم عالمان، القدس وبرلين، أفريقيا والإقتصاد العالمي..

وكل هذه المواضيع التي عرضت ونوقشت في دار الثقافة بالخرطوم توحى إلينا إن المناخ الثقافي السوداني زمان كان مناخاً صحياً، وكان الناس يقرأون ويناقشون بل كانت القراءة مهمة جداً عندهم، والحمد لله وحتى الآن القراءة عند أهل السودان تحتل أهمية كبيرة، فأول مسيحي سوداني قبل المسيحية عن طريق القراءة إذ كان يقرأ في سفر أشعياء النبي والتقى بالشماس فيلبس المبشر وتناقشا فيما كان يقرأ..

وحتى الآن السوداني يحب أن يقرأ حتى كانت بالأمس مقولة: القاهرة تكتب، لبنان يطبع، السودان يقرأ.. وسوف يستمر المناخ الثقافي في إنتعاش ونمو من خلال المنتديات الفكرية والمنابر الثقافية، وأيضا من خلال رجال الصوفية ومن خلال نشاطات ندوات الكنائس المسيحية.. إن المناخ الثقافي في السودان زمان كان جيداً واعتقد الآن إنه سوف يكون أفضل بسبب التواصل الحديث وتكنولوجيا الاتصالات التي تجعل كل مواطن في العالم أخ وشريك لكل مواطن آخر.. وإمتداد جذور ثقافتنا يعني إن المستقبل الثقافي لنا..

## ٩٩. تحية من عزيز إلى قائد عزيز

المجد والتاريخ للثوار: تحت هذا العنوان وفي مجلة الرسالة ٣٠/١١/١٩٦٠م كانت أرق رسالة من الشاعر الوطني عزيز أندراوس إلى القائد البطل جمال عبد الناصر، والمدخل إلى القصيدة حديث راق رقراق يقول بأسلوب ثوري رقيق : حينما وطأت أقدام الجيش الفرنسي أرض سوريا المقدسة ذهب الجنرال « جورو » لتوه إلى حيث يرقد صلاح الدين فقال له: لقد زعمت إبان الحروب الصليبية، إننا خرجنا من الشرق، وإننا لن نعود إليه مرة ثانية، وها نحن يا صلاح الدين نقف على هذه الأرض نفسها، فقم إذن لكي ترانا هنا بعد أن غزونا سوريا وبعد هذا يأتي قول عزيز بعزة وإعتزاز :

قم يا جورو، ولتقم معك كل فرنسا لتري

إن صلاح هذا العصر.. بل لتري إن ناصر

هذا العصر يقود العرب من نصر إلى نصر

ومن فخر إلى فخر.. ومن فجر إلى فجر، فأين

نحن من سنة عشرين ؟.. وأين أنتم من

سنة ستين ؟.. وأين أين أنت من صلاح الدين ؟

ويقول الشاعر عزيز أندراوس في هذه القصيدة حاولت جاهداً أن أضع في كل بيت من أبياتها قطعة من نفسي - وهل هناك شيء أعز على من نفسي أستطيع أن أضعه أمامك الليلة ؟..

رق النسيم وغنت الأوتار

وتراقصت فوق الغصون ثمار

وتوالت عبر النفوس خواطر

بيضاء تهتف للدنى وتغار

وتواكبت شهب البرية مثلما



تتواكب الأحلام وهى نضار  
 بطل العروبة إننا فى مصرنا  
 جند وفى سوداننا أحرار  
 ربطت مياه النيل فى أعماقنا  
 حب الحياة فلن نراه يضار  
 لما تأممت القناة وقتلها  
 لا ظلم بعد اليوم لا إستعمار  
 جفلت قلوب الغى تشجب عارها  
 ويجر أذيال الهزيمة عار  
 فذهبت تخترق الشوارع ملهبا  
 إحساس شعب دونه الإعمار  
 ضجت شعوب الأرض وهى حريصة  
 ما مثل مصر يفضها الإبصار

حب جمال: كان الشاعر مثل كل أهل السودان أو أغلبهم يحب جمال عبد الناصر، ويراقب مواقفه الوطنية الأصيلة، وقيمه النبيلة فى الدفاع عن الوطن والفضيلة.. ولقد إنتشر إسم ناصر وجمال بين أهل السودان.. ولقد أعطى عزيز أندراوس هذا الإسم لإثنين من أبنائه واحد سماه جمال والآخر ناصر.. وعندما أختطف الموت جمال عبد الناصر رثاه عزيز أندراوس رثاء شعر ونثر.. قال فى شعره..

يارجال الصحراء مات جمال

فاخرجوا اليوم نحو زبد الحياة

يانساء البيداء مات جمال

وانطوى النيل فى ضباب الشتات

يانسور السماء قد مات نسر  
 فاهرعى نحوه وقولى وهاتى  
 أنبتيه فقد تسامت طولا  
 وارتفاعاً على رؤوس الغلابة  
 وأسمقيه إلى غنان سماء  
 دون هذى السماء بالحسرات  
 هونى الصبر فى قلوب الحيارى  
 بين نيل مصر وشط الفرات  
 نيل طروادة الطويل بكاء  
 وحداداً ومآتم للكماة  
 وآه ليكسندرا الرؤوم تنادى  
 من خلال الأسوار والردهات  
 ياصبايا اليوم هبوا سراعاً  
 جللت الآفاق بالحدقات  
 وأنشرن الدموع فوق تراب  
 بللته الدماء من ساعات  
 أنا أبكى وانت تبكى ويبكى  
 كل حر على طريق الأناة  
 كل صلب يزود عن كل حق  
 وأبى يشتد فى الأزومات  
 كل عود مخضر رأساً بأرض  
 روعتها منية فى إفتات

لقد ملك جمال عبد الناصر على قلوب بنى عصره، فلقد كان زعيماً وخطيباً صادقاً وأديباً حميماً، وقائداً لركب الوطن، بل كل اوطاننا العربية والأفريقية..



## ١٠٠. وانطلق الطيب صالح من محطة المحبة

الرجل وفكره: كتب الأستاذ عثمان محمد الحسن كتاباً جميلاً رقيقاً ناعماً كالنسيم العذب عن الأديب الكبير الطيب صالح، عنوان الكتاب «الطيب صالح الرجل وفكره» وطباعة الكتاب على مستوى راقى من المؤسسة الراقية أكاديمية العلوم الطبية سنة ٢٠٠٢م.. وقدم لهذا الكتاب الأستاذ الأديب المعروف رجاء النقاش، وفي قراءتي للمقدمة والتي لا أخفى إعجابي الشديد بها وجدت ضالتي المنشودة وتعرفت على محطة الإنطلاق لكل روايات وكتابات الطيب صالح، والذي جذبت كتاباته كل بلاد العالم حتى جامعات إسرائيل، حيث أعدت رسائل ماجستير ودكتوراة عن هذا الأديب السوداني المحترم، والذي دخل إلى القلوب ووجد له مكاناً فيها..

ويرى رجاء النقاش: إن كتاب عثمان عن الطيب هو كتاب وعذاب، فالكتاب قيم، والعذاب يأتي بسبب جمال الكتاب وطلاوة عباراته، وأنا شخصياً أعرف عذاب الكتاب لأننى عندما أحصل على كتاب سواء من الكتب الجديدة أو القديمة التى لم أقرأها يغيب النوم عن عيني ولا أقوى على المقاومة، وأقرأ ويعذبني الكتاب الجيد لأننى لا أقدر أن أتركه لأنام أو أستريح، بل إننى ألته في صفحاته بفكرى وقلبي.. وتزداد ضربات القلب الساكن في احشائي وكأنها تقول لى أترك هذا الكتاب وخذ راحتك..

ولكن لا أقوى على هذا بل يطير النوم من عيني، وخاصة في خلوتي التى أعتبر النوم فيها خسارة فادحة، وأرجو أن أقدم للقارئ العزيز بعض ما كتبه رجاء النقاش حيث يقول: هذا الكتاب الجميل الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القراء عذبني كثيراً، فبعد أن قرأت صفحات قليلة منه وجدتني ألتهم بقية صفحاته كأننى أطير في الفضاء فوق بساط سحرى من ذلك النوع الذى كنا نقرأ عنه فى ألف ليلة وليلة.. والبساط السحرى القديم أكثر إنسانية من سفينة الفضاء لأن سفينة الفضاء محكومة بالأرض فى كل حركة تقوم بها أو إتجاه تذهب إليه..

أما البساط السحرى فهو محكوم برغباتنا ومشاعرنا وأحلامنا، فنحن نستطيع توجيهه على هوانا ونقوده إلى حيث نتصور إن السعادة موجودة، والبساط السحرى دائماً مطيع لا يتلقى الأوامر من أحد فهو يذهب بنا إلى حيث نحب.. وأقول هنا قولتى عن طغمة من خيرة الناس وهم السواح والذين ذكرهم القرآن الكريم على مستوى

الرجال وعلى مستوى النساء عندما قال: التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون.. وعن سياحة المرأة روحياً: مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، وعندما أوصى القرآن أن سيحوا فى الأرض..

وطغمة السواح هؤلاء معروفون جداً فى الكنيسة القبطية منذ بدء المسيحية حيث كان هناك كثيرون تركوا العالم، وتركوا ما يملكون ومضوا إلى التعبد لله، ووصلوا لى درجة السياحة وصاروا سواحاً مثل: الأنبا بولا فى القرن الرابع الميلادى والذي عاش لا يعرف أحد عن أخباره شيئاً إلا فى أواخر حياته.. هؤلاء كانوا ينتقلون من موقع إلى موقع على السحاب وكان بساطاً سحرياً يطير هم من مكان إلى مكان حيث كتب بستان الرهبان عن الأنبا يوساب السائح، كان شيخ سائحاً فى برية الإسقيط، إسمه يوساب قد أضعف جسده بالصيام والصلاة والسهر والتعب والصبر على حر الصيف وبرد الشتاء، ولباسه من الليف الخشن، وكان لسانه مع ذلك لا يفتر من التسبيح والتقديس فأنتهت به عبادته إلى أن صار يركب على السحاب ويتغذى من طعام يأتيه من السماء، يحتقر ذاته ويشعر إنه غير مستحق لما قد صار إليه..

محطة المحبة: ويتحدث رجاء النقاش عن كتاب الحسن بأنه بساط سحرى جميل، يستجيب فى كل صفحاته لمشاعر الحب الفياضة التى إستطاع أديب العرب السودانى الكبير الطيب صالح أن يطلقها كالعصافير فى سماء هذا الجيل العربى منذ ظهوره فى أواخر ستينات القرن العشرين إلى اليوم، فالطيب صالح من الأدباء النادرين الذين كانت محطة إنطلاقهم هى «المحبة» ولم تكن هذه المحطة هى الشكوك أو التوترات أو الكراهية أو التبرم بأوضاع الحياة والناس والمجتمع..

فنحن نجد أنفسنا فى عالم الطيب صالح الأدبى محبين حتى كنا فى الأصل نشعر بأن قلوبنا مغلقة الأبواب والنوافذ فى وجه أفراح الحياة.. وبمجرد أن ندخل إلى عالم الطيب صالح فإننا نشعر بالفرح، وهو فرح غامر يأتينا من عالم الطيب القائم على المحبة والذي يسمو بهذه المحبة إلى أعلى درجاتها فيتصوف.. والمحبة عنده تجعلنا نشعر بنشوة الحياة وجمالها، والتصوف عنده ليس زهداً وإنعزالاً عن الوجود، ولكنه إحتضان دافئ للعالم وللناس..

وقد أعطاه الله كل مواهب المحبين المتصوفين، فأنظر إلى كلماته التى يكتبها فإنك تكاد تحس إنها كلمات تطهرت فى مياه النيل المقدسة قبل أن تظهر على



الصفحات، فهي كلمات طاهرات ومباركات وفيها أضواء كاشفة قوية على عوالم الروح والوجدان.. وهنا أقول ما قاله يوحنا الحبيب « الله محبة »..

## ١٠١. سلام يحميكى يا أم درمان

نور القرآن والإنجيل: أهدى الأستاذ الأديب الأريب عميد الفكر ورجل الثقافة الشاعر العذب الكلمات الأنيق العبارات العميق التأملات الأستاذ الفاتح حمدتو قصيدة عنوانها « أم درمان » إلى كتاب « أم درمان عبر الزمان » ١٨٨٥-١٩٥٦، تأليف ميرغنى عبد القادر بن عوف.. والقصيدة عشق لأم درمان وتحية وحباً وتراثاً يحملها جيل عن جيل شعار لا يقبل التأويل، سلام ممزوج بماء النيل.. بنور القرآن والإنجيل.. كتبت مقولة فى أم درمان.. والعشق لأم درمان هو عشق لترابها.. عشقنا ترابنا ياسودان.. زرنا أماناً فى الأركان.. رسمنا حروفها بالألوان.. وكنا وكانت أم درمان.. عزيزة وغالية يا أم درمان.. وأم درمان هى قبلة كل أنحاء السودان..

وناس البقعة شيب وشباب

مزيج من أعرق الأنساب

شمالنا خير.. جنوبنا رحاب

غرب تاريخ.. شرق ترحاب

وكنتى الوجدة يا أم درمان

وقصيدة « أم درمان » تتعمق جمالا وتحية لأم درمان، ورموز وطننا زمان.. ولى رافع علمنا كمان.. سلام يا أزهرى أم درمان.. سلام يا أزهرى السودان.. ويتحدث الفاتح حمدتو عن تعايش الأديان فى السودان تحت رعاية إلها الواحد الديان.. مساجد ترفع الأذان.. كنائس تمجد الرحمن.. عظيمة وحررة يا أم درمان.. وهو فى تحيته لأم درمان يقول: إن الكورة لم تنزل فى أم درمان، وحليل القعدة فى أم درمان.. ونلاقى الشاعر البنا فى أم درمان.. وهو يشق له طريقاً فى أم درمان.. ويرى فى ود نباوى رجال.. ويقابل فى المسالمة غزال.. ويمشى البوستة بأم درمان قصاد قديس، ويذهب إلى جورج مشرقى ويشرب شاي.. ويختتم الفاتح حمدتو القصيدة بقوله :

سلام يا أم در عظيمة الشأن

سلام يا أم در وطن شجعان

سلام يا أم در كرم حيشان

سلام يا أم در عشا الضيفان

سلام يحميكى يا أم درمان

سلام ينجيكى يا أم درمان

سلام يا درة السودان

درة السودان: يبدأ كتاب « أم درمان عبر الزمان » بموضوع عنوانه « المهدي يحاصر الخرطوم » وهذه بداية أمجاد أم درمان.. فلقد أبلى المهدي بلاء حسناً وبدأ حصار الخرطوم من شهر مارس ١٨٨٤م.. وبدأت الوطاة تشتد حتى فجر يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥م، عندما داهمت جيوش المهديّة غوردون ودخلوا مدينة الخرطوم وقتلوا غوردون، وبهذا سقط عهد التركيّة وبدأت مرحلة جديدة هى أول حكم وطنى تحت قيادة المهدي، وبعده الخليفة عبد الله التعايشى لأنه بعد شهور قليلة وبالتحديد فى يوم ٢٢/٧/١٨٨٥م..

أصيب المهدي بحمى خبيثة تسمى أم دم أو السحائى وأسلم الروح بعد هذا المرض، ولم تكن إقامته فى أم درمان سوى ستة أشهر وكان المهدي عمره إثنان وأربعون عاماً.. وتمت مبايعة الخليفة عبد الله التعايشى والذى كان أول نواب المهدي، وبدأت دولة المهديّة وقام الخليفة ببناء جامع كبير بدون سقف، وقد فرض على أهل أم درمان كافة حضور الصلوات الخمس يومياً فيه، وبعد هذا تم بناء قبة فوق قبر المهدي، وبعد هذا تم بناء بيت الأمانة وبيت المال والمشنقة والسجن، وإتسعت مدينة أم درمان وبلغ عدد سكانها مليون نسمة..

وكان لمدينة أم درمان سور لم يكن مثل سور دنقلا العظيم، كان إرتفاعه خمسة أمتار وعرضه متر، وللمدينة أربعة أبواب، وقد طالب الخليفة التعايشى أهله فى كردفان ودارفور بالحضور إلى أم درمان لكى يعزز بهم ملكه ويأمن بهم عديات الزمان.. ولما رفضوا المجيء مفضلين جذب الصحراء وحرية البادية أرسل الخليفة



من يهدم منازلهم في الأبيض ودارفور، فحضروا إلى أم درمان وسرّ بهم الخليفة وسميت أحياء باسمهم مثل : حي أبو عنجة، ودنوباوي، أبوروف، العباسية، أبو كدوك، بيت المال، المسلمانية أو المسالمة، الملازمين، الموردة... وإستمر الخليفة في أم درمان يدير شئون الدولة ولا يتردد في قتل أو سجن من يخرج عن طاعته..

وأصدر الخليفة عملة جديدة بعد أن بدأ باستعمال الديمورية كعملة معتمدة.. وكان كما قال عنه المؤلف يقابل القوة بالقوة ولا يقدر ظروف وإمكانات الأعداء.. وقد أرسل رسائل إلى الخديوي توفيق والملكة فيكتوريا والسلطان التركي وملك الحبشة، ولما لم يتجاوب ملك الحبشة أرسل إليه القائد حمدان أبو عنجة لمحاربته.. وإنصر عليه، ولكنه مات بنفس مرض المهدي في ٢٩ يناير ١٨٨٩م..

وانتهى الأمر بسقوط أم درمان وبها سقط السودان كله، وكما يقول المؤلف: إنه رضع من ثدي أم درمان قوة النيل الأزرق وهداوة النيل الأبيض.. وتحدث ميرغني عبد القادر مؤلف الكتاب عن أم درمان عاصمة السودان التجارية، حيث كان يأتي إلى أم درمان التجار من كل أنحاء السودان لبيع منتجاتهم الزراعية وغيرها ويشتررون لوازمهم من أم درمان.. وقد كتب مؤلف الكتاب كشف بأسماء التجار في أم درمان وهو يمتلىء بالمسلمين والمسيحيين واليهود..

وذكر من الأقباط عبد المسيح تادرس وأولاده وهو نسيب القمص فلتاؤوس قلادة أول من صلى قداساً في أم درمان خلال أيام المهدي وواصف سليمان ويسى مرقص وميلاد بطرس ومن اليهود إيليا هو عبود، أولاد مراد، ومراد إسرائيل، وكان كل هؤلاء التجار أعضاء في الغرفة التجارية..

## ١٠٢. السودان للسودانيين

كفاح جيل: بدأت الحركة الوطنية السودانية في السودان في حماس دافق نحو خير السودان، وكان البعض يرى إن الخير في الإستقلال، والبعض الآخر يرى إن الخير في الارتباط بمصر.. ونشأت الجمعيات الأدبية وانتشرت بداية لإذكاء الحماس وإشعال الروح الوطنية، وذكر أحمد خير في كتابه « كفاح جيل » : إن الجمعيات الأدبية التي أنشأها أبناء الحي أو الحارة ورفاق الفصل أو الدراسة، نشأ بعضها

للتمثيل وبعضها للمطالعة المشتركة والمراجعة، وأخرى للخطابة وقرض الشعر والمناظرات..

وهناك فئة ثالثة لم تحتل نير الإستعمار وكانت تشعر بعدم الرضا الشديد نحوه، وهذا الشاعر عزيز أندراوس في مذكرات له لم تطبع يقول: إنه عندما تفجرت ثورة ١٩٢٤م كان يافعاً في العاشرة من عمره ولم يدرك المعالم الكبيرة للثورة العظيمة،

ولكنه أدرك شيئاً واحداً وهو سيطرة الإنجليز بقوة الغزو على مقدرات البلاد.. وعلى مستوى الوطن ظهر من ينادى بقومية السودان ومناقشة هوية الأدب السوداني الذي كثيراً ما كان ينتعش ويجد حضوره في الأدب المصري، ولكن لا يقدر أحد أن ينكر إن الأدب السوداني له سمة خاصة به، وهذا على مستوى التاريخ كله حيث يذكر في العصر المسيحي ارتباط الكنيسة النوبية بالكنيسة القبطية، وكانت الكنيسة تحتاج إلى الفنان رساماً، فاستعانت في أيامها الأولى بالفنان القبطي..

ولكن سريعاً ما وجد الفنان النوبي مكاناً.. وتميز الفنان النوبي بسمات خاصة بل رسم لوحات لم يرسمها الفنان القبطي مثل: لوحة الميلاد، والتي وضع فيها سريراً سودانياً أي عنقريب للطفل المولود.. وهكذا لوحة الثالوث المقدس، ولوحة الحماية، والتي فيها رسم الملك في حماية الملاك والأميرة في حماية السيدة العذراء.. كل شعب له فنه وتراثه وقوميته، لقد دعا محمد أحمد محبوب صراحة إلى فصل الثقافة السودانية عن الثقافة المصرية..

ودعا محمد عشري صديق إلى إحياء الآداب القومية وكتب محمد إبراهيم النور يقول: فنحن وإن كنا نشترك مع أمم الشرق العربي في الجنس واللغة والدين، فلنا بينتنا الطبيعية والاجتماعية الخاصة بنا، وهي لابد أن تصبغ ما يقدر لنا أن نصبغه من أدب بصبغتها الخاصة، وكتب محمد عبد الرحيم يقول: ظلم صريح أن ينكر على السودان أن يكون له أدب، إن الأدب القومي في نظرنا أصدق في التعبير عن الحياة السودانية من غيره..

السودان للسودانيين: وارتفع شعار السودان للسودانيين إستمراراً لتأكيد الهوية الخاصة للسودان والشخصية المميزة له، وقد بدأ هذا شعاراً واضحاً لجمعية الإتحاد السوداني والتي ولدت عام ١٩٢٢م وإعتمدت المنشورات، وهذا يعني إنها كانت جمعية سرية..



وكان عدد أفرادها قليل قدر أصابع اليدين، وأطلقت الجمعية الشعار «السودان للسودانيين» والمصريون أولى بالمعروف، وكان هذا يعنى إن هذا الشعار ليس مضاداً لمصر إنما للمصريين مكانة فهم أولى بالمعروف.. وكانت هذه الجمعية تنادى بوحدة وادى النيل مع تأكيد قومية السودان.. وبعد هذا إنطلق شعار السودان للسودانيين من جمعية الإتحاد السودانى إلى المجتمع السودانى كله..

وكان لهذا الشعار رد فعل لدى بعض الوطنيين من السودان ، ولدى رجال الأحزاب فى مصر جعلهم يقفون مع التيار المعارض الداعى للقومية السودانية، فقد رأى مدثر البوشى إن هذا التيار هو خطة لعزل السودان عن العالم وإنه هدف إستعمارى لتقطيع أوصال السودان حتى يسهل إبتلاعه وهضمه ولا طريق لذلك إلا بمحاربة الدين ومحو اللغة العربية..

أما الشاعر العباسى فقد رفض هذا الإتجاه نحو قومية السودان بل رفض القومية ذاتها :

معتبراً إياها وهماً وسراباً..

وما تريدون من قومية هي..

فى السراب على القيعان ررقاقاً..

وكان المناهضون لقومية السودان وخصوصيتها يخافون على وحدة وادى النيل حتى لا يصبح النيل أقطاراً موزعة ، وساكنو النيل أشياعاً وأذراقاً.. ولكن كتب لمسيرة تأكيد الذاتية السودانية أن تشق طريقها ناجحة وسط المتعلمين وخاصة خريجو كلية غوردون.. بل إن هذا النجاح ظل مستمراً حتى عندما أعلن الإستقلال بواسطة إسماعيل الأزهري كان ميالا جداً للإتحاد مع مصر، ولكنه تجاوب مع رغبات شعبه وغير موقفه ..

ومن الملاحظ إن زعماء القبائل والطوائف الدينية بإستثناء الختمية والأنصار كانوا بعيدين عن هذا المعترك منعكفين فى ولاءاتهم القبلية وساعدتهم السياسة البريطانية على ذلك بالإهتمام بهم، وأيضاً بقانون الإدارة الأهلية لعام ١٩٢٤م.. ولهذا كان الداعون إلى القومية السودانية يهاجمون الإدارة الأهلية ، وفى عنوان إفتتاحى كتب أحمد يوسف هاشم يقول: إن الإدارة الأهلية قامت على النصرة القبلية والأرستقراطية الدينية، ولنا ان نقول : إنها مصدر الكثير من متاعبنا..

### ١٠٣. نقد العقل السودانى

بركات الحواتى: يرى البروفسور بركات الحواتى إنه أول من حاول الحديث حول هذا المصطلح، وعن دراسته هي محاولة رائدة ليس لها ما يسبقها، والدراسات السابقة لم تتجاوز الوصفية ولم تدخل إلى عمق المقومات والموجهات فكانت كالزخرف.. ولكن فى رأيه إن الأمر ظل كذلك حتى معركة كررى ١٨٩٨م التى إنتهكت حرمت العقل السودانى وناولت أصوله فى محاولة لقصف جذوره أو على أقل تقدير تعويقها..

وكان هذا الإنتهاك مناوشة محسوبة ومحدودة فى سياسات وخطط وقرارات ليس أقلها إنشاء كلية غوردون التذكارية وهى فى رأيه راجمة فكرية مؤسسية ما زال نفوذها يقض المضاجع.. ويأتى تعقيد هذه الدراسة نتيجة طبيعية لتركيبية العقل فى السودان ومقومات وجدانه لأن دائرة الحوار جامدة أو راكنة أو قاصدة إلى لذيذ الكلمات فى لذيذ الحوار..

وهذا سجن جهنمى سبقتنا إليه كثير من دول العالم الثالث وهى تبحث عن ذواتها إذ ظل المطروح هلاماً تتداوله النخبة رفاهاً تسترقه أذن بعد أخرى.. ولكن رغم هذا تظل محاولة النقد قائمة تحريضاً يستفز العقل تحريكاً للسواكن بل هو عصف يستثير رؤى وأبعاد ذلك العقل.. ولقد تعرض العقل السودانى للقاء عاصف مع الثقافة الغربية التى سيطرت فى زمن ما على المثقفين أنفسهم والتى إستهدفت التغيير الحضارى لمصلحة ثقافة الغرب..

وظل العقل السودانى فى ركن ركين تعاني جذوته من مبررات الهجر والجمود، بل أن مجرد محاولات التفاعل ظلت تتجاوزه بإسم الثقافة العارضة المهيمنة التى خلقت فى كثير من تلك النخبة مدافعاً عن الرصيد الغربى القح حدث فى عقلنا القطيعة المعرفية بماضينا المجيد الجسور، وهنا يقول أحد المفكرين: إننا قد نسينا فى غمار عملية النقل والإستعارة إن هذه الأفكار والقيم والمؤسسات الغربية قد نمت وتطورت نتيجة صراع سياسى وإجتماعى طويل، وإنها تراكم لمحصلات تطور تاريخى ممتد إنترعنا بغير أصالة فكرة من هنا وفكرة من هناك..



وحين زرنا هذه النظم فى بيئتنا بغير توافر الشروط الإجتماعية والإقتصادية والسياسية تحولت للأسف إلى مسوخ شائهة وصور كاريكاتورية لا علاقة لها بالأصول التى تم النقل عنها، ومثل هذا ما ساقته لجنة تنظيم الخدمة المدنية عندما قالت: لقد إمتثلنا للقوانين الإنجليزية دون أن نهىء لأنفسنا أن نكون إنجليزاً..

نقد العقل السودانى: فى كتابه « الذاتية السودانية » دراسة فى المكان والإنسان والأحداث، وفى نقد العقل السودانى تحدث بركات عن أن السودان له حضارته الخاصة المميزة بمقوماتها المادية والمعنوية التى تضرب بعيداً فى جذور المكان والزمان وفيها خصوصية عبر عنها الإنسان إنفعالا وتفاعلا فى إيقاع تفاوت صراعاً كما تفاوت حواراً..

وفى إعتقاده إنه مهما كانت ثقافة الغرب ومهما قوى حكم الإستعمار فإن العقل السودانى عقل يستمد قوته من تراثه القديم.. وإذا كان قد نفذ فكر الإستعمار، وبأشرف ثقافته فهذا هو حكم القوى على الضعيف.. أما العقل السودانى فله جذوره العميقة.. وعندما يولد المواطن السودانى كما يرث لون بشرته وطول قامته وخفة حركته، هكذا يرث ميراث الآباء فى حضارة سبعة آلاف عام من العصر الحجرى إلى العصر المسيحى إلى العصر الإسلامى..

بل إن هذه الأديان لم تنزل تتعاشى ليس فى كل مؤسسة دينية بشكلها المعروف، إنما فى كيان كل مواطن سودانى، ويقدم بركات نموذجاً لهذا التفاعل والإنفعال فى مسميات الأشخاص، فهناك بعنقى، وترهاقا، وشاباكا، وسيلكو، وأنلامانى، وأمانعكرين.. وهناك امانى تيرى، وأمانى شىختو، وهناك أيضاً الأسماء التى عدتها لوحة الملك الأكسومى عيزانا عند تدمير مروى ٣٢٥م وهى أسماء قريبة من أسماء نوبا، كردفان الحاليين..

وهناك على الزمن المسيحى فيما يذكر فانتينى، يؤانس، وزكريا، وإبرام، والبرسى، وجورجى، وزماريا.. وفى نفس ذلك الزمان ما يتصل بحضارة ما قبل المسيحية إستاوروس، بيسكو، سكوتة، وأريد أن أقدم هنا ملاحظة وهى إن اسم

إستاورو اسم مسيحى يعنى صليب ومن مشتقاته أسطفر، بسطوروس، بسطويسى، وهناك من الأسماء النوبية باديس أدور، شنكو، كاتيكودا، كودنبس..

ومن أسماء البجة شاراشن، وشاراتكور، وشاراهيت،.. كما ظهرت أسماء إسلامية مثل: محمد، عبد العزيز، عثمان، وهناك أسماء وعت النوبية والمسيحية والإسلامية مثل: عبدالله برشنبو كما سيطرت الأسماء العربية مثل: البرسى بمعنى التوام، والبولاد، والماتجل، وسوار الذهب، كناية عن السلطة والتى تأتى باسم سرتوب فى بلاد النوبة، ونقد وعيسى وجارة وأمنة وحنا، وجورج، ودينق، ومادبو، بمعنى مؤدب..

وهنا أريد أن أؤكد خلفية العقل السودانى ولكننى أرجو من القارئ أن يراجع الأسماء فربما يكتبها مصفف الجريدة خطأ.. وتظل محاولة نقد العقل السودانى محاولة قائمة على الأخص إنها دراسة لأستاذ كبير فى قامة بركات الحواتى..

## ١٠٤. أم درمان عبر الزمان

الكتاب والكاتب: فى عام ٢٠٠٥م أطل علينا كتاب أم درمان عبر الزمان والمؤلف من مواليد أم درمان عام ١٩٣١م أى أن عمره الآن فى ٢٠٠٧م هو ستة وسبعون عاماً، ولكن صورته على الغلاف صورة شاب فى العشرين من عمره.. وقد أحسن المؤلف فى أن كتب عن أم درمان، وهذا يرضى عشاق أم درمان الولهون بحبها المنسكبون على عطرها، الفرعون بتاريخها، والمعتزون بأمجادها وهم كثيرون.. وما أكثر ما كتب عن أم درمان، ولكنه كله مطلوب جداً لأن أم درمان لؤلؤة متعددة الألوان، وكل من يكتب عنها يعبر عن لون من ألوان هذه اللؤلؤة..

وأعتقد إن هناك ألوان لم تكتشف بعد فى هذه اللؤلؤة الفريدة.. وتعدد الكتاب عن أم درمان أمر مهم، وأشعر بهذا لأننى أعلم إن السيد المسيح له المجد لم يكتب كتاباً عن نفسه، ولكن كتبت عنه أربعة أناجيل، كل إنجيل ألقى ضوءاً على حقيقة ما، وما كتب إلى شعب معين، وإلى فئات محددة، فإنجيل متى كتب لليهود، ولهذا إهتم بالعلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد الذى جاء ليكمل المسيرة ليس لكى ينقضاها، وقدم السيد المسيح الذى تنبأ عنه أنبياء العهد القديم، وقدم المسيح بن إبراهيم الجد الأكبر لليهود وللعرب..



وإنجيل مرقس كتب إلى الرومان وهو عبارة عن رسائل مختصرة لأن الرومان حكام ويحبون أن يطلعوا على الحقائق مباشرة، ولهذا فإن مرقس لم يذكر أحداث الميلاد والنسب الملوكى للسيد، إنما إفتتح كلامه بالخير عن ظهوره على الأرض ملكوتاً جديداً، وملكوت المسيح هو ملكوت القوة، ومعروف إن مرقس هو من أبناء أفريقيا ومسقط رأسه مدينة القيروان فى ليبيا.. وحتى الآن هناك بلدة تسمى «مرقس» على اسمه..

وإنجيل لوقا كتب لليونان وهم أهل ثقافة وفكر، لهذا تتبع كل شىء من الأول بتدقيق، وقدم المسيح ابن آدم المنتسب لكل البشر، ويقدم السيد أخاً لكل البشر، شاعراً بالآلما ومتاعبنا، ويتحدث عن المساكين وتعاطف السيد معهم، ويدعونا إلى الصلاة التى تفتح أمامنا أبواب السماء، وعن اعتزال المسيح للصلاة فى البرارى، فالمسيح علمنا الصلاة وعلمنا أن الأمور المهمة لابد أن تسبقها الصلوات، ولوقا كان طبيباً حكيماً وكان رساماً فناناً، وله لوحة رسمها عن العذراء تحمل السيد المسيح، لم تزل موجودة حتى الآن وسط تراث الآثار الكنسية فى الكنيسة القبطية..

وإنجيل يوحنا كتب بعد الأناجيل الثلاثة، وكتبه يوحنا اللاهوتى حبيب السيد المسيح، وهو إنجيل يفتح قلوبنا على السماء ويقدم بداية أزلية للسيد المسيح والذى هو كائن قبل إبراهيم، ووجوده الأزلى يسبق ميلاده الزمنى، وقد انفرد يوحنا بذكر معجزات منها أول معجزة وهى تحويل الماء إلى خمر، ومعجزة إقامة لعازر، لقد عاش يوحنا قرابة المائة عام ولما وجد الأناجيل قبله لم تذكر بعض الأحداث ذكرها هو..

ومن هذا المنطلق أؤيد أن يكتب عن أم درمان من يرغب أن يكتب، لأن هذا سوف يزيدنا معرفة وثروة فكرية، وأرجو أن ينبرى آخرون للكتابة عن الخرطوم وعن الخرطوم بحرى.. وقد أعجبنى كتاب «الخرطوم عبر العقود» للبروفسور المهندس سعد محمد سليمان الذى إندفع يكتب عن الخرطوم لأنه رأى الناس قد مالوا نحو أم درمان ولم يكتبوا عن الخرطوم..

عبر الزمان: وكتاب «أم درمان عبر الزمان» كتاب قيم جداً وملء بالكلام الجميل عن البلد الجميل أم درمان، وكنت أتمنى أن يطبع طباعة فاخرة على ورق فاخر، وأن تكون صور أبطال أم درمان التى تأتى فى آخر صفحات الكتاب على ارقى مستوى

فنى، ورغم إن الطباعة ليست فى المستوى، ولكن مضمون الكتاب فى مستوى راقى جداً.. بدءاً بقبول حبوبة المؤلف أم درمان بلد الأمان تدخل بحمار تمرق بحصان، أو ما يعنى إنك تخرج منها فارساً مغواراً، وهنا يحدونى أمل أن يخرج الجزء الثانى عن أم درمان فى طباعة أنيقة تتوافق مع مركز أم درمان فى قلوبنا، فهى أم درمان التى صارت ليس أمراً لدرمان فحسب، وإنما أمراً لنا جميعاً، فهى العاصمة الوطنية التى كان لها الدور الأول فى تاريخ السودان قديماً وحديثاً..

وقد مرت أعوام على السودان لم يكن فيها الخرطوم من ١٨٨٥ حتى ١٨٩٨م أى ثلاثة عشر عاماً، دكت فيها الخرطوم دكاً، وهدمت جوامعها وكنائسها وأسواقها وتوجهت كل الأنظار نحو عاصمة وطنية واحدة هى أم درمان.. ويبدأ

المؤلف بتقديم لمسة وفاء إلى العقل المفكر الذى أنار دروب العلم والمعرفة وبذل نفسه قرباناً محترقاً من أجل الآخرين.. العالم الفذ العظيم بروفسور عون الشريف قاسم.. وكان قد رحل من الدنيا إلى عالم البقاء قبل أن يصدر الكتاب، والذى قدمه عون الشريف للقارئ السودانى، وقد أثنى بروفسور عون الشريف على أم درمان وعلى الكتاب والكاتب، فأم درمان هى منذ التاريخ القديم جسراً بين حضارتين من حضارات السودان فى العصر الحجرى، هما حضارة الشهياناب وحضارة الخرطوم..

وكانت أم درمان قبل أن تحمل اسمها مهداً للجماعات البشرية، أما الكتاب فهو إضافة مقدرة إلى ذلك العقد النضيد من الأدبيات التى تطوق عنق هذه المدينة التاريخية العظيمة، أما الكاتب فقد قدمه عون الشريف شاكراً له الجهد العظيم الذى بذله فى تقصى الحقائق وجمع المادة من مختلف المصادر وإعتماد المؤلف على الوثائق والنصوص التى جعلت الكتاب نفسه وثيقة مهيورة لقضايا وأشخاص وحياة إجتماعية وثقافية وسياسية فى أسلوب سلس خال من التعقيد، مما جعله سفرأ يليق بتاريخ أم درمان.. ويأم درمان أنت فى قلب كل سودانى فى السودان وخارج السودان، يملك أهل أم درمان فى قلوبهم أينما إستقر بهم المطاف..



## ١٠٥. مداخلتى لمحاضرة الرئيس الإيراني

إتجاهات المستقبل: أقامت مؤسسة إتجاهات المستقبل للدراسات الإستراتيجية والحوار لقاءً فكرياً حوارياً مع فخامة الرئيس الإيراني الدكتور محمود أحمدى نجاد فى يوم الخميس الفاتح من مارس ٢٠٠٧م فى قاعة الصداقة بالخرطوم والذين جهزوا للمحاضرة من الذين يتجهون للمستقبل السعيد ، ويتألق الدكتور غازى صلاح الدين والدكتور محمد محبوب هارون ألقاً روحياً فى هذه المؤسسة الفكرية والتي تأسست فى سنة ٢٠٠٤م هدفها ترقية الحوار والتوظيف الجامع للموارد والإمكانات من أجل تحقيق الأهداف الرئيسية والكلية للمجتمع والدولة..

ونحن حوجتنا شديدة إلى هذه المؤسسة والتي نرجو أن تجد لها مكاناً بيننا فى جامعاتنا ومنتدياتنا وعلى الأخص إنها مؤسسة تتبنى المنهج العلمى فى حقل البحوث والدراسات رفعا لمستوى الوعي العام لدى الجمهور.. وقد قدم الدكتور غازى مقدمة لطيفة وظريفة عن المحاضر، وكيف إنه ولد فى برودة شتاء ١٩٥٦م وهو نفس العام الذى تخرجت فيه أستاذة سعاد الفاتح، وكيف إنه وصل إلى كرسى رئاسة الجمهورية الإيرانية بعد إنتخابات نزيهة وبأغلبية ساحقة.. وفى ظرف قال دكتور غازى: إن الرئيس نجادى رغم ما أسند إليه من مهام كبيرة ورغم ما خاضه من معارك وجد وقتاً ليتزوج وينجب ثلاثة أبناء..

مداخلات عديدة: وقد كانت هناك عدة مداخلات وكانت مداخلة سعاد الفاتح ليست كشفاً لعمرها الحالى بقدر ما كانت نصيحة للرئيس أن يتأخى السنة والشيعه معاً.. وتشجيعاً للأب فيلوثاوس إننا كلنا مسيحيون ومسلمون أبناء وطن واحد نحيا المحبة والتوادر، وكان إبتدار النقاش فى مداخلة قلت فيها: بسم الله الواحد الذى نعبد جميعاً مسلمين ومسيحيين، أقول شكراً لكم جميعاً شكراً لرئيسنا المبارك عمر البشير الحبة السوداء والتي فيها البركة والشفاء.. وشكراً لضيفنا الكبير على محاضرتة المميزة والتميزة.. وشكراً مؤسسة إتجاهات المستقبل، والمستقبل لنا.. والمواعيد المقدسة لنا.. والأمل المشرق فى إنتظارنا.. وشمسنا دفء روحى وحرارة أعماق.. والتحية لإيران عمر الخيام.. إيران الكتاب المقدس.. إيران الحضارة الممتدة الجذور فى عالم الأمس.. والتي تتألق فى عالم اليوم.. تحدثتم عن إيران والعالم.. وإيران

هو العالم.. والسودان هو العالم.. والإنسان كل إنسان هو العالم لأن الإنسان عالم مصغر ميكروكوزم كما يقول التعبير الفلسفى اليونانى..

التحية لإيران عمر الخيام.. ففى الأربعينات وفى دار الثقافة بالخرطوم قدم الشيخ أحمد البشير الطيب محاضرة عن عمر الخيام قال فيها: إنه شاعر لم يكن مصرياً ولم يكن سودانياً، إنما هو إيرانى، غنه صاحب الرباعيات، وهو مفكر حر.. وكان صانع خيام مثل بولس الرسول فيلسوف المسيحية.. وقع الخيام الذى كان يخطط خيم الحكمة فى كور الغم وإحترق فجأة.. وقد قطع مقرض الأجل أظناب عمره وباعه دلال الأمل رخيصاً.. وعمر الخيام من مواليد نيسابور خراسان الشمالى فى الثانى من القرن الحادى عشر، وعاش فى القرن الثانى عشر وإقتررب عمره إلى مائة عام.. وله كتاب فى الجبر جعل السلطان مالك شاة يستدعيه لينشئ المراصد الفلكية.. ورباعيات الخيام خمسون قصيدة قصيرة تلخص حكمة بليغة.. وهى رباعيات لأن كل أربعة أبيات معاً.. وقد إنتقد الخيام بأعلى صوت ضيق الأفق والأنانية والقسوة الجامدة، والنفاق، وغربة الأطوار، وتشنج الأمزجة.. لقد نادى بما تحدث عنه رئيس جمهورية إيران الذى وقف مع المهمشين ضد الفقر.. ومع المشهمين ضد المخدرات ومع المسحوقين من الحروب والخصومات.. وقدم الحل فى الصفاء والنقاء والتجرد وقهر الذات، والملذات ومعالجة النفس الأمارة بالسوء ذات الأهواء فى صيحة عدل وحق ونور وإعمار، وكله توحيد للكلمة.. وقد كان الخيام صوفياً حكيماً لأنه صور الحق فى سياق النبذ والساقى كما فعل صوفيون مثل ابن القارص، ويقول الخيام:

دع حكيماً فى حوار وشجار  
وأنس شد العالمين والعراك  
وأبق قربى فى هدوء وأمان  
ساخراً من كل مدلسان  
طففت يوماً حول خزاف لبق  
يصنع الأكواب من طين لثق  
لظمت كفاه فى عنف نـزق  
طينة فاسترحمته وجـلا  
أنت مثلى لا تكن فظ الطباع..



إيران الكتاب المقدس: نحن نعرف الكثير عن إيران من الكتاب المقدس، وفي سفر دانيال نقرأ كلمات إيرانية مثل: الشحن، الولاه، المزارية، النيروز، بل إن كلمة نيروز ومعناها رأس السنة انتقلت من لغة فارس إلى باقي اللغات.. نحن نعرف عن نبوخذ نصر الملك الإيراني الذي عندما تكبر وتجرى، وقف على أسوار بابل يقول: هذه بابل التي بنيتها بقوتي وإقتداري، وكان في جنون العظمة سقط وصار يمشى على الأربع كالحيوان تأديباً له ولمدة سبعة أعوام.. ونعرف في الكتاب إن الله نبه كوش لكى يبني بيت الرب في اورشليم.. ونعرف أدبيات الملوك في إيران وإنه عندما طار النوم من عين الملك أحشويروش سارع لكى يقرأ في سفر أخبار الأيام، واكتشف إن هناك شخصاً نجى الملك من مؤامرة إستهدفته ولم يأخذ مكافأة، فتذكره وأعطاه مكافأة عظيمة.. نعرف عن الملكة أستير والتي خلصت البلاد من طغيان هامان ومن حرب الإبادة التي كان يريد أن ينفذها.. أما العهد الجديد فإنه يذكر لنا مجوس المشرق وهم ثلاثة من إيران، أتوا يحملوا هداياهم ذهباً ولبناتاً ومرأ إلى طفل المزود، وكانوا أول من شعر من العالم خارج فلسطين بمجىء المسيا، ولكنهم قابلوا هيرودس الطاغية ثم بعد أن قدموا هداياهم رجعوا إلى كورتهم من طريق أخرى (متى ٢)..  
 في ختام مداخلتى قلت: إننى كنت أرغب أن أسأل عن نوع أطروحة الدكتوراة التي قدمها الرئيس الفخم محمود أحمدى نجاد، وقبل أن أعرف إجابة الدكتور غازى كنت أعتقد إن الدكتوراة التي يحملها رئيس جمهورية إيران موضوعها تخصيص اليورانيوم لأغراض سلمية وسلامية وأمنية.. واخيراً رفعت قلبى إلى الله طالباً الحياة الفاضلة الفضلى الفضيلة لكل بلاد العالم، لإيران، للسودان، وأمريكا، وبريطانيا، وأوربا، وآسيا، وكل البلدان.. ومرحباً بالرئيس الإيراني بيننا وسوف تستمر مساحات الود والإحترام..

## ١٠٦. مصر والنوبة تكاملاً

عائلة واحدة: إن مصر والسودان عائلة واحدة جدهم الأول هو حام ابن نوح، ويكمل كل واحد منهما الآخر.. ويرتبط تاريخ النوبة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر حتى ليصح القول بأن كل منهما متمم للآخر.. فإن وحدة الأصل والوطن والدين، قد أحكمت بينهما أواصر القربى والجوار، إنهما شعب واحد فى أماله وآلامه على الرغم من اختلاف الإقليم والمناخ، ولو قدر للبلاد أن تتكامل لإستفاد كل واحد منهما الآخر.. إنهما من عنصر واحد وقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجراها العلامة « إليوت سميث » فى مقابر مصر والنوبة إنه لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجثمانى حتى ليتعذر من هذه الوجهة تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر..  
 ويقول محمد كامل فى كتابه « صحائف مطوية من تاريخ النوبة » : إنه قد وقعت فى بدء الأسرات الملكية فى مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية فأثرت فى الدم المصرى والنوبى، وكانت أشد تأثيراً فى المنطقة الواقعة فيما بين جبل السلسلة والشلال الثانى، هذا عن النوبة شمالاً، أما النوبة غرباً فيؤكد كتاب « السودان من التاريخ القديم » إلى رحلة البعثة المصرية إنهم من النوبة شمالاً سكنوا جنوب كردفان هروباً من التصادم بالموجات البشرية التي تدفقت إلى تلك البلاد وهم يمتازون عن الزنوج فى تكوين الجسم والطباع..  
 أما لون البشرة فهو يرتبط بالشمس القوية الساطعة فى النوبة والتي تجعل الأجساد تميل إلى السُمرة بكثرة، وهذا ما شرحه سفر نشيد الأنشاد عندما قالت العروس: أنا سوداء جميلة يابنات اورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان، لا تنظرن إلى كونى سوداء لأن الشمس قد لوحتنى، بنو أمى غضبوا على، جعلونى ناطورة الكروم (نشيد الأنشاد ١)..  
 وناطورة هنا تعنى حارسه أو خفير أو بوابة، وتشكوا العروس هنا من إنه لم يوكل لها شىء سوى الحراسة، ويبدو إن الحراسة هى مسئولية أهل النوبة منذ الأزمان القديمة..  
 كما يعنى هذا إن سليمان كان متزوجاً بإمرأة سوداء ربما يقصد بها هنا ملكة التيمن بلقيس، المرأة السودانية التي ذهبت لزيارة سليمان الحكيم وتزوج بها..  
 ويتغنى أهل مصر بالأسمر وجمال الأسمرانى وخفة دم الأسمر، وبأن سماره هو سر



جمال خلقته، وجمال أخلاقه بل يطالبون الأسمر الأسمراني أن لا يقسو عليهم حباً ووداً.. ويتشابه أهل النوبة مع صعيد مصر بسبب حرارة جو الصعيد..

حروب التكامل: وقد تعددت الحروب بين النوبة ومصر، نوبيون يحتلون مصر، مصريون يحتلون السودان.. ولا نستغرب هذه الحروب فقد كانت طريقة القدماء للحصول على إحتياجاتهم.. لم تكن المعاهدات الإقتصادية تحترم ولكنها كانت تكتب تحت تأثير الغزو.. عندما تزايدت رغبة فراعنة مصر في ذلك المتألق الجميل الذي هو الذهب، ذهبوا إلى النوبة.. قدموا لها بإسم بلاد الذهب وبحثوا عن الذهب فيها، ووجدوه وإستفادوا به فائدة قصوى، تشريفاً للملوك، وتالياً للفراعنة، وطلاء لصناديق موتاهم، لأن الذهب نقي جداً والمؤمن طبعاً أنقى من الذهب..

وعندما كانت مصر تحت إمرة الرومان رغب بطليموس في أن يخضع بلاد السودان لكي يحصل منها على الفيلة، فقد كانت الأفيال تستعمل في الحروب وهي موجودة في السودان، ويؤكد القرآن الكريم إستعمال الأفيال في الحروب، ألم تتركب فعل ربك بأصحاب الفيل؟.. ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعاصف مأكول؟.. وعندما رغب أهل النوبة في خيرات مصر حبوباً وأقمشة وسجاداً هو القباطى الذى كان يتفنن فى صنعه أقباط مصر جاءت حملات النوبة على مصر رغبة فى التمتع بهذه الخيرات التى تمتلئ بها جنة الله أرض مصر..

وكان فراعنة مصر يعتبرون النوبة ولاية من ولايات بلادهم، وكان حاكم النوبة يلقب بابن فرعون وهو ليس بابنه جسدياً إنما هذا لقب لكى يضافى عليه أبهة الملوك الفراعين.. وهناك تواصل ومصاهرة بين فراعنة مصر وبلاد النوبة، وعندما قامت مملكة نبتة على مقربة من الشلال الرابع بسطت سلطاتها على مصر، وقد أسفرت هذه الأطوار عن إيجاد رابطة قوية بين مصر والنوبة، وقامت حضارة النوبة مدنياً ودينياً متأثرة بحضارة مصر..

وكانت رعاية كهنة آمون الذين هاجروا إلى النوبة بعد سقوط طيبة عملاً مصرياً فى مجال الدين، بل إن الملك أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشر تزوج بابنة ملك النوبة على العهد، فأمد هذا الفرعون بجيش نوبى يطرد به الهكسوس، وتزوج كانشا ملك النوبة بابنة كاهن مصرى فانجبت له بعض ملوك الأسرة الخامسة والعشرين..

إن بلاد النوبة كانت ولم تزال هى الموصل والمخرج لحكام مصر من أزمتهم.. ولأهل مصر من جور حكامهم، فالنوبة هى الخير وكما يقول الحديث الشريف « من ليس له أخ فليأخذ أخاً نوبياً » إن مصر والنوبة وطن واحد من خلال التكامل الذى يحترم فيه كل واحد الآخر، ويتعايشان ويتوآدان شعب واحد متكامل..

## ١٠٧. مصر والبجا عائلة واحدة

عبد الله حسين: عندما نطالع كتاب « السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية » نتمتع بالكاتب والكتاب، فالكاتب محرر جريدة الأهرام ومحامى امام محكمة الإستئناف، والكتاب الطبعة الأولى منه ١٩٣٥م وهو كتاب قيم يؤكد إن مصر والنوبا والبجا عائلة واحدة.. وإن الأب الأكبر لهم هو حام شقيق سام ويافث، وهو أحد أبناء نوح الثلاثة الذين بدأ بهم تاريخ العالم الجديد بعد الطوفان، وحام هو الجد الأكبر لسكان أفريقيا وهو أبو لكوش جد أهل السودان.. وأكبر أبناء حام، ومصريايم جد أهل مصر، وفوط وكنعان وبنو كوش سبا وحويلة وسبته ورعمة وسبتكا، وبنو رعمة شبا وددان.. وكوش ولد نمرود الذى إبتدأ ان يكون جباراً فى الأرض، الذى كان جبار صيد أمام الرب لذلك يقال: كنمرود جبار صيد أمام الرب.. وخريطة العالم الجديد هذه يذكرها الإصحاح العاشر من سفر التكوين..

ويكتب عبد الله حسين : إنه بعد زوال مملكة أثيوبيا قامت مملكتان : مملكة النوبة، ومملكة البجة، وكانت الوثنية ديانتهما ودخلت النوبة إلى المسيحية ولم تدخل البجا، وفى إعتقادى ومن أبحاث مختلفة عن السودان إن النوبة دخلت المسيحية دخولا واضحاً وصارت المسيحية فى النوبة ديانة الملوك والشعب، وإنتشرت إنتشاراً سريعاً بينما بالنسبة للبجا تحركت المسيحية ولكن تحركاً بسيطاً.. أما مصر فكانت على علاقة مستمرة مع النوبة، أحياناً تصل إلى قمة التأخى، وأحياناً أخرى تنزل إلى مدارك الحرب والدمار فى حروباً أو مناوشات بين الحين والآخر..

وحكمت مصر السودان، وحكم السودان مصر ولكن ينظر إلى هذا على إنه تحرك داخلى فى وادى النيل، وعندما أسس السودانى الملك بغنخى المملكة المتحدة جعل السودان ومصر مملكة واحدة وأسرة واحدة... وكان الملك شبكا هو مؤسس الأسرة الخامسة والعشرون وجاء بعده بغنخى ويحكى عن حضارة هذين الملكين فكان شبكا



النوبى أول من ألغى حكم الإعدام فى العالم واستبدله بالأشغال الشاقة..

أما بغنقى فقد كان حاكماً مهذباً وأديباً عندما تحرك مع جيشه إلى مصر لم يعادى أحداً ولم يقتل من يستسلم له، وكان فى كل مدينة يبدأ بالمعبد الدينى نظافة وصيانة وتوسيعاً ومع جنوده كان يطالبهم قبل المعركة بالتطهير فى ماء النيل والحصول على رضا الإله آمون حتى يصير الواحد فيهم فى قوة ألف رجل، وهذا عن أدب الشاعر العبرانى أشعيا حيث تتلاقى فترة حياة أشعيا ومُلك بغنقى.. وكانت عند مصر رغبة فى خيرات النوبة وعند النوبة رغبة فى خيرات مصر، وأقيمت بعض المعاهدات ولكن أحياناً كان الحصول على هذه الخيرات يتم بالفتح والغزو.. وإمتاز السودان بالرجال الأقوياء والذين كانوا القوة القوية فى جيوش مصر..

كما إمتاز السودان بأنواع متعددة من الحيوانات ومنتجاتها مثل: ريش النعام، وسن الفيل، بأن الملك بطليموس عندما كان يحكم مصر أرسل بعثات كثيرة عن طريق موانئ البحر الأحمر لإقتناص الفيلة التى كانوا يستعينون بها فى الحروب.. وكان ملك النوبة أحياناً يسمى نفسه ابن فرعون أو هكذا كان يسمى من فرعون نفسه، ويحمل ملك النوبة أيضاً اسم ابن رع وحبيب إيزيس وأوزوريس. وكان الإله آمون متربعاً على عرش القلوب فى مصر والسودان، ويقول عبد الله حسين: إن هذه الآلهة نفسها كانت آلهة نوبية، ويرى إن قبائل البجا ظلت عنصراً حامياً لم يختلط بالدم الزنجى بل ظل محافظاً على بداوته فى الصحراء.. وعندما زار سترابوس أسوان لاحظ إن أهلها من نوبيين ومصريين يعبدون صقراً كبيراً يؤتى به من بلاد النوبة..

تاريخ النوبة: ويؤكد المؤلف ما قاله غيره عن النوبة من ناحية الاسم وتعنى الذهب، فالنوبة هى وطن الذهب وأطلق على النوبة اسم أثيوبيا بمعنى الوجه شديد السُمره أو كما ترجمه آخرون أصحاب الوجوه المحروقة.. ويرى إن بلاد النوبة كان يسكنها قوم يجتمعون فى نسبهم بقدمااء المصريين حتى ليذهب المؤرخ ديودور بأن أصل المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب، ويؤكد هذا دكتور شوقى الجمل فى كتابه « تاريخ السودان وادى النيل » ..

ويقدم الأدلة على هذا بأن الموتى فى مصر قبل عصور التاريخ تدفن ورؤسها متجهة نحو الجنوب، وإن البخور كان يستعمل فى العبادة المصرية منذ القدم، وما

كان ذلك ممكناً لو لم يكن المصريون قد جاءوا من الجنوب مع حركة النيل الذى يتجه شمالاً.. بل إن آلهة مصر هى آلهة نوبية، فالإله أوزيريس هو الذى أنقذ مصر من الهمجية وعلم أهلها الزراعة ووضع لهم الشرائع، وشيد المباني فى طيبة، وزوجته الإلهة إيزيس هى نوبية ولها مكان ومكانة، وكان تمثالها يؤخذ فى موكب عظيم من معبدها فى أسوان ليبارك أرض السودان..

وإن إيزيس أخرجت البلاد من الوحشية وصرفتهم عن أكل لحوم البشر، وعلمتهم قواعد الزواج الشرعى، أما ابنها حورس رب الوطنية والفروسية فهو الذى طهر مصر من آلهة الشر والفساد.. وهكذا حملت النوبة حضارتها إلى مصر ديناً ودنيا.. وهناك من يقول عكس هذا، ولكن كل هذا يؤكد إن مصر والسودان من عنصر واحد..

## ١٠٨. شهيدة العفاف تعتصم بالنهر

شهاديات العفاف : عرفت المسيحية نوعاً من الإستشهاد يسمى « الإستشهاد لأجل العفة » ويقول يوسابيوس المؤرخ الذى عاش وسط الإضطهادات المريرة والقاسية: إن تاريخ الشهداء حافل بأمثلة رائعة لأبطال الطهارة والعفة الذين فضلوا أن يقابلوا الموت عن أن يندسوا أجسادهم، وإنه لم يكن النساء أقل من الرجال بسالة فى الدفاع عن تعاليم الكلمة الإلهية إذ إشتراك فى النضال مع الرجال وثلن معهم نصيباً متساوياً من الأكاليل من أجل الفضيلة، وعندما كانوا يجروهن لأغراض دنسة كن يفضلن تسليم حياتهن للموت عن تسليم أجسادهن للنجاسة، وكان واضحاً أمام الوثنيين إن الوقوع فى الدنس أشر من الموت بالنسبة للمسيحيين.. ويذكر لنا تاريخ الكنيسة عدة أمثلة لشباب وشابات فضلن الموت عن أن يفقدن عفافهن.. وأذكر هنا بعض الأمثلة :

فى الإضطهاد الذى أثاره الإمبراطور ديسيوس ( ٢٤٩-٢٥١ م ) فشل أحد الولاة الوثنيين فى أن يثنى شاباً قبطياً عن إيمانه فسلمه لإحدى الباغيات لتسقطه فى الخطية وإذ لم تجد تلك المرأة وسيلة لتحقيق غرضها ربطوا الشاب فى السرير ، قيدوا جسمه ورجليه ويديه ، وبدأ اللعب فى إثارته ولما لم يجد وسيلة للهروب من هذا الفخ قضم على لسانه بأسنانه وبصقه ومعه سيل متدفق من الدماء وإرتعت الساقطة وهربت ، أما هو فحفظ طهارته..



فى أثناء الإضطرابات التى عمت مصر سنة ٧٤٩م بسبب فرار مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى الوجه القبلى أمام أبى العباس، دخل جنود مروان ديراً للعذارى قرب أخميم.. وبعد أن نهبوا أرادوا إغتصاب عذراء صغيرة تدعى فيرونيا فتنوا بجمالها وإذا وجدت هى نفسها بين يدى هؤلاء الجند استمهلتهم قليلاً ودخلت قلايتها وألقت بذاتها بين يدى الله باكية وطالبة الخلاص من الدنس، وسرعان ما خرجت إليهم بحيلة.. توسلت إليهم أن يتركوها لعبادتها، مقابل جميل تسديه إليهم تعلمته من أسلافها، وكان هذا الجميل زيتاً تقتنيه إذا دهن به أى جزء من الجسم لا تعمل فيه السيوف.. ولكى تبرهن على صدق كلامها دهنت عنقها بالزيت وطلبت أن يهوى أقواهم بسيفه على عنقها.. وما أن فعل ذلك حتى فصل رأس العذراء العفيفة عن جسدها.. أما الجند فباعترام خوف شديد وأسرعوا بمغادرة الدير وتركوا ما نهبوه..

ثيودورة العذراء العفيفة فى زمن دقلديانوس فى أوائل القرن الرابع وهى سليلة أسرة نبيلة، وكانت على جانب كبير من الجمال وأمرها الوالى أن تبخر للأوثان وإلا سوف يرسلها إلى أحد بيوت الدعارة، ولكنها تمسكت بعفتها وطهارتها وأودعت فى ماخور فساد، ولكن أتاها الخلاص على يد شاب مسيحى اسمه ديديموس تنكر فى زى جندي، وكانت خطته أن يأخذ ملابسها وتأخذ هى ملابس الجندي، وقد كان.. وخرجت من ماخور الفساد متكررة وبقي الشاب فى الغرفة حتى إفتضح أمره وحكم عليه بالموت شهيداً، وحدث وهو فى طريقه إلى مكان الإعدام أن رآته ثيودورة وعرفت قصته فشقت الجموع وأمسكت به وقالت له: إبنى لا أقبل أن تأخذ مكانى فى الإستشهاد، لقد وافقت فقط أن تحفظ عفتى، وعُرف الأمر ونالا كلاهما إكمال الشهادة..

شهيدة أم درمان: ويحكى ميرغنى أبو عوف فى كتابه « أم درمان عبر الزمان » قصة شهيدة العفاف ويقول: إنه فى مستهل عام ١٩١٩م روع مجتمع أم درمان بحادث كان فريداً فى نوعه، فقد إنتحرت إحدى الفتيات بأن ألقت بنفسها فى النهر، ولم يكن الحادث مألوفاً، وقد كشف عن قصة عجيبة فقد كان بجوار منزل الفتاة شاب تربطها به أواصر قرى تبيح له أن يلقاها فى منزلها، وأحبها الفتى وتدلّه فى غرامها قدر ما كرهته الفتاة..

وحاول الفتى غوايتها بما يملك من مال وجاه.. وأوشكت الفتاة أن تسقط فريسة الإغراء وتنازعها حالة نفسية فلم تطق صبراً لما هى فيه فاحتواها نهر النيل وهى فى ربيع العمر وروعة الجلال.. وعلم رواد نادى الخريجين بأن الشاعر أحمد محمد صالح سيلقى قصيدة فى النادى عن شهيدة العفاف، الفتاة التى إعتصمت بالنهر عن الإغراء وفضلت أن تموت غرقاً عن أن تدنس جسدها، وصارت شهيدة للعفاف والحياة الطاهرة..

واكتظ النادى بعدد وفير من الشباب والكهول، وتقدم إلى المنصة فتى فى ريعان الصبا، أسود اللون، يرتدى بدلة أفرنجية ووضع على رأسه طربوش إشتهر به الشاعر أحمد محمد صالح، وبدأ فى إلقاء قصيدته :

نادى الشبيبة مجتازاً بناديهـا

وقل سلام عليها فى مغانيها

وقص من نبا الأيام موعظة

تجرى الدموع من مآقيها

لعلهم أن يروها حكمة بلغت

وعلى أسماعها تصغى لمهديها

عرفت فى سالف الأيام جارية

البدر يخجل حسناً أن يجاريها

حتى إذا إكتملت منها محاسنها

وأصبحت فتنة فى عين رائيها

سعى إليها فتى ضل الشباب به

وظن أن ثراء المال يغريها

وكانت هذه القصيدة وصفاً لعبرة قدمتها فتاة أم درمان التى صارت المثل الأعلى فى الطهارة والعفاف، فلقد رفضت الفتاة أن تذعن للشباب الطائش فخرجت هاربة من بيتها أمام النيل لتلقى بنفسها فيه..



## ١٠٩. الصليب والثالث في حضارة مروي

جعفر ميرغنى: عندما أسمع بروفيسور جعفر ميرغنى فى برنامج « حضارة السودان » أعتز بالمواطنة المتحضرة فى بلادى المتحضرة ، ولدى قناعة كبيرة بالكنز الذى يحمله جعفر ميرغنى فى صدره، ولدى رجاء لا يخزى أن يخرج ما فى هذا الصدر الكبير من كنوز هى جواهر ولآلىء تؤكد إن حضارة السودان حضارة عظيمة، وإن السودان فعلا هو أبو الدنيا كلها.. وأب هنا لا تعنى رجل متزوج إنما تعنى إن السودان أبو الحضارة كما يوصف الآب عند المسيحيين بأنه مصدر كل شىء أو « باتير » فهو أب للابن ليس عن طريق الزواج، ومنه ينبثق الروح القدس إنبثاقاً كما يقول قانون الإيمان عن مساواة الابن مع الآب فى الجوهر، وعن الروح القدس المنبثق من الآب الذى يظهر كل البرية..

وقد كتب بروفيسور جعفر ميرغنى تحت باب عصر التاريخ فى مجلة أسرتى السودانية والتى يرأس مجلس إدارتها الأستاذة رجاء حسن خليفة، عدد يناير ٢٠٠٧م.. وتحت عنوان فكرة الخلق عند المرويين بين الميثولوجيا ورموز الفن حيث قال : إن أهل اليونان ومنذ قديم الأزمان إعتنوا أكثر من غيرهم بتدوين أساطيرهم، وأساطير غيرهم وفتحوا باب القول فيها تحت إسم ميثولوجيا، وعقد منهم ديودور الصقلى باباً فى الميثولوجيا فى كتابه الكبير فى التاريخ باعتبار إنها تحوى بعض الحقائق وبأن الأبطال فيها كانوا أناساً عاديين قبل أن يصيروا خرافيين، وما جعله يقدم الكلام هكذا هو الحديث عن إيزيس وأوزوريس عند قدماء المصريين حيث قال هليودور: يبدو إن العارفين بأمر الدين منهم والمطلعون على علوم الطبيعة يتحاشون أن يجردوا للعوام معانى المعتقد إذ يخلعون إسم إيزيس وأوزوريس على أشياء مادية فيقولون: إن إيزيس هى الأرض، وأوزوريس هو النيل..

والأرض إلى النيل فى شوق ومن بينهما جاء حورس واهب الحياة وحامى البلاد.. ويقول هليودور: إن هوسبا ملك أثيوبيا أو السودان القديم ناقش كهنة مصر فى تكريمهم وتعظيمهم للنيل من منطلق المفهوم الذى يصورونه فى تلك الأسطورة، وكان مما قاله ملك الحبشة لكهنة مصر : إنه ينبغى أن ننسب كل تلك الميزات الضخمة إلى السودان إذ أن هذا النهر الإله ينحدر من أثيوبيا، وأثيوبيا أحق

بأن تعظموها.. وكان هذا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وهذا خلاف عقائدى نلمسه عند الإقتراب من الرسوم المصورة على جدران المعبد القديم فى المصورات الصفراء فى مروي حيث تفيض النقوش المروية بذكر إيزيس، وحورس، ويأخذ « أباداماك » مكانة عندما يصور بجسم إنسان ورأس أسد..

وثالث إيزيس وأوزوريس أو حورس يصور حورس بأنه صبى حيناً فى حجر أمه.. وحيناً دارج، وحيناً يافع أو شاب فى مقتبل العمر، والقصة لا تتحدث عن صبى بعينه هو حور أو أور بل هى حكاية عن الولد مطلقاً وقريب من حور القبطية ، حوار العربية والتى على الولد أيضاً.. ولا غرابة فلغات العالم القديم المتجاورات جغرافياً تتقارب فى كثير من المفردات الأساسية.. أما أوزوريس فيقصد به الروح، وقد رمز الفن المروي إلى تصوير الروح فى شكل كائن صغير الجرم على هيئة إنسان وفى حجم النحلة أو الجرادة يجلس على شجرة اللوتس.. علاقة الزهرة لا تخفى فمن الزهرة الثمرة التى هى الجنى، ومن الزهرة العطر الذى نشعر بوجوده ولا نلمسه ولا نراه..

الصليب والثالث: ودرج المرويون على تسمية العلاقة بين زهرة اللوتس ورمز مفتاح الحياة بإسم « أونخ » وهذا إسم فى قديم لسان وادى النيل ومن خلال تصفح رسومات المرويين تبين لنا إن هذا الرمز ما هو إلا تجريد للزهرة التى ترمز للجنى، وبالتالي استمرار الحياة، وربما إختصروه فى تصويره الفنى حتى إنتهوا به إلى مجرد خطين متقاطعين على هيئة الصليب وهو لا يزال محفوظاً فى عادات الشلوخ السودانية خاصة فى جنوب سوبا القديمة، ومروي القديمة حيث نرى إلى الآن علامة « أونخ » على هيئة صليب صغير على أحد الخدين أو الخدين كليهما..

وكثيراً ما يعمل هذا النوع من الشلخ تيمناً بأن يحيا المولود، فليس شكل الصليب فى الشلوخ رمزاً مسيحياً بل هو رمز مروي مثلما إن الشلوخ على شكل ثلاثة يعنى الحياة.. وهنا ندرك إن أهل مروي عندما جاءت المسيحية إستقبلوها إستقبالا حسناً فقد كانوا يعرفون علامة الصليب ويعرفون التثليث والتوحيد، وبهذا تجاوب أهل مروي مع أفكار المسيحية التى لم تكن غريبة عليهم.. وفى الفن المروي يُعد جريد النخل تيمناً بكثرة النسل ولهذا تخرج سيرة أو مسيرة العريس إلى النيل ويقطع جريد النخل ومن ذلك كانت كلمات الأغنية.. عريسنا سار البحر.. وقطع جرايد النخل..



ويسمى فى السودان عنق النخل بأنه سبيطة، وفى القرآن الكريم أسباط، والأسباط هو الأبناء مثلما قيل عن أسباط ابن يعقوب..

ورسوم الفن المروى تؤكد إن الثلاثة شخوص آمون، وأبادماك، وحورس.. هى فى الواقع تجليات لشخصية واحدة، وهنا نرى التوحيد فى التثليث، وإن تكرار رسم هذا الشخص بأجنحة يطابق ما ذكر فى سفر حزقيال من صفة الملائكة من أن كل منهم له جسم إنسان وأربع أوجه، وجه أسد، ووجه نسر، ووجه ثور، ووجه إنسان.. وقد وجد ذلك سبيله إلى كتب التفسير عن قول القرآن الكريم الذين يحملون العرش.. ويأتى حديث حزقيال فى الأصحاح الأول فى سفره عن الكائنات الروحية، لكل كائن أربعة أوجه وأربعة أجنحة متصلة ببعضها، وكل يسير إلى جهة وجهه إلى حيث تكون الروح.. وهذا الكائن الروحي يوصف فى الفن المروى بأنه واهب الحياة، ونافخ الروح فى الجنون، وهو الحامى والمدافع..

ويجد هذا صداه فى العادات السودانية التى تتحدث عن المولود بأن الملائكة حارساه.. ويوصف العريس بأن فرقة الملائكة أن تحرسه كأنها تحرسه من أن يلبس الشر جناه المتوقع، وتردد أغانى الأعراس : ياملايكة سيرى معاه.. وهكذا يتجلى الصليب واهب الحياة، والثالوث المقدس والذى هو شخص واحد حامى الحياة واصل الحياة..

## ١١٠. البشير ووطنية الكنيسة الشرقية

البطريك والرئيس: فى يوم الأحد الرابع عشر من شهر يناير ٢٠٠٧م إستقبل رئيسنا المشير عمر حسن البشير قداسة أبونا باولوس بطريك الكنيسة الأنثيوبية والذى زارنا مباركاً فى السودان لكى تشرق أنوار البركة والقداسة على وطننا المبارك والمقدس، وكان لقاء الرئيس مع ضيفه الكبير لقاءً ودياً ودوداً، وكان الرئيس كعادته مبادراً بنقاش جميل، فلقد أشاد الرئيس بالمواقف الوطنية للكنائس الشرقية وخص الكنيسة القبطية بوده وحبه، فهى كنيسة وطنية ليس لها أى أجندة سياسية وهى تعتبر دعمها للدولة أمراً إلهياً لأن الله هو الذى أوصاها باحترام الحكام، وهو الذى طلب منها على فم بولس الرسول أن تقام طلبات وصلوات لأجل كل الذين هم فى منصب لكى نقضى زماناً سلامياً هادئاً..

أما بطرس يقول: فإخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب إن كان للملك فكمن هو فوق الكل أو الولاة فكمرسلين منه للإنتقام من فاعلى الشر، وللمدح لفاعلى الخير، لأن هكذا هى مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء كاحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر بل كعبيد الله أكرموا الجميع، احبوا الإخوة، خافوا الله، أكرموا الملك ( بطرس الأولى ٢ ).. ونعود إلى وصايا بولس الرسول: فاطلب أول كل شىء أن تقام طلبات وصلوات وإبتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس، لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب لكى نقضى حياة عظيمة هادئة فى كل تقوى ووقار لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلصنا الله ( تيموثاوس الأولى ٢ ).. لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة هى مرتبة من الله حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة، فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للأعمال الشريرة، أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله للصلاح، ولكن إن فعلت الشر فخف لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب.. من الذى يفعل الشر لذلك يلزم أن يُخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضاً بسبب الضمير فأعطوا الجميع حقوقهم.. لا تكونوا مدينين لأحد بشىء ( رومية ١٣ )..

وهذا يعنى إن فلسفة بولس كانت تقصد أن يكون المؤمن محترماً للقانون حتى لا يقع تحت طائلة القانون ولا يخشى احداً والخضوع للحاكم هنا لا يعنى التنازل عن القيم العليا الإلهية لأنه ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس.. ولقد سلكت الكنيسة القبطية مسلكاً ممتازاً ومضت فى طريقها تخرج المواطن الصالح الأمين الذى لا يفعل الخطأ ليس هرباً من العقاب إنما من أجل الضمير الصالح الذى ينمو فى داخله.. وأيضاً تشتمل صلوات الكنيسة على أوشية أو طلبية الملك وتكتب الآن بأنها أوشية الرئيس بعد إختفاء الملكية وظهور الرئاسة الجمهورية، وهى طلبية ترفع القلب إلى الله لأجل الرئيس والجند والوزراء والمدراء، كما ترجمها أسقف الدراسات العليا..

وتطلب أن يتكلم الحاكم بالسلام عن الكنيسة وأن يخضع الله الأعداء تحت قدميه حتى لا يلمسون ما لدينا من خصب وثروة.. وفى صلاة الإكليل والذى توضع فيه



أكاليل الفرع على رأس العريس والعروس تصلى الكنيسة وتقول : الله يؤيد حكومتنا ويرخص أسعارنا..

وطنية الكنيسة: وقال الرئيس البشير: إن الكنيسة القبطية بوجه خاص تدعو لنشر المحبة وتقوية النسيج الإجتماعي، وقد كان أبونا باولوس بطريرك أثيوبيا سعيداً جداً بهذه الزيارة وشاعراً بنجاحها العظيم، وثاني يوم لسفره من هنا أرسل رسالة شكر للرئيس عمر البشير لأنه جعل حضوره إلى السودان بركة، وهذا ما أفرح كثيرون من أبناء كنيسته، ومن كل أبناء السودان، فلقد كان البطريرك محل حفاوة كل الدوائر السياسية والشعبية..

ولو إمتدت هذه الزيارة لللقى ترحيباً كبيراً من رجال الصوفية ومن كل المسلمين الذين يذكرون دوماً الملك النجاشي الذي لا يظلم الناس عنده والذي هاجر إليه أول فيلق إسلامي ووجدوا عنده الأمان والإيمان وناصرهم ضعفاء حتى يصيروا أقوياء ويأخذون مركزاً واضحاً في وسط كل بلدان العالم.. وكان البطريرك يعتز جداً بأنه أخ لكل أخوانه في السودان وإنه ليس في وطنه الثاني إنما في وطنه الأول، وأشار إن الأيام القديمة كان كل أصحاب البشارة السمرء يتمتعون بوطن واحد..

ولكن الإستعمار هو الذي قسّم الناس إنما حتى الآن قلوبهم واحدة في الله ومع الله.. ولاشك إن هذه الزيارة سوف تأتي بثمر كثير في العلاقات الأثيوبية السودانية والتي يحافظ كلا الرئيسين عليها، حتى إنه عندما قال رئيسنا: إن أهل أثيوبيا لجأوا للسودان هروباً من الأيام الصعبة .. قال البطريرك: إن أهل أثيوبيا يأتون إلى السودان أيضاً في الأيام غير الصعبة لأننا أخوان ولأننا وطن واحد وسوف نظل هكذا..

لقد كان يوم الأحد ١٤ يناير ٢٠٠٧م يوماً مشهوداً في العاصمة الحضرية، فلقد توافد آلاف الأثيوبيين بملابسهم البيضاء الجميلة منذ امسية السبت وحتى ظهر يوم الأحد.. كانت سهرتهم الروحية في الكنيسة، يرمنون، وينشدون، ويركعون، ويخشعون، ويتعبدون للاله الواحد الذي أعطانا كل هذا الخير العظيم، والذي أوله محبتنا لبعضنا البعض.. ومحبتنا للآخر هذه المحبة التي سوف تكون شأهدنا أمام الله في اليوم الأخير عندما تبيض وجوهنا لأننا عشنا المحبة وسلطنا فيها.. وشكراً للرئيس على حديثه عن وطنية الكنيسة الشرقية، وعلى الأخص الكنيسة القبطية التي تتشرف به كل يوم عضواً في أسرتها على مائدة ..

## ١١١. الصليب فرعونياً ومسيحياً

الأشجار والصليب: يرى علماء اللاهوت إن صليب السيد المسيح هو شجرة الحياة، فهو من خشب الأشجار وعندما عثر على الصليب المقدس بواسطة الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، كانت الكنائس تأخذ جزءاً من هذا الصليب لتزين به عبادتها الكنسية حتى نشأ اعتقاد بأن الصليب شجرة حياة وباقية ونامية أيضاً بدليل تواجدها وإستمرارها رغم كمية ما يؤخذ منها بركة للكنائس.. أما عن الأشجار فإن شجرة مريم بالمطرية والباقية حتى الآن تؤكد إن القدماء قدسوا العديد من الأشجار مثل شجرة تل بسطا، وشجرة مسطرد، وإن النخيل مقدس منذ مولد المسيح، وأيضاً عندما أستقبل المسيح داخلا إلى اورشليم بسعف النخيل وصار النخيل رمزاً لنقاء القلب « وطوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله »..

وصارت النخلة مقدسة في القرآن الكريم ومرتبطة بميلاد السيد المسيح حيث هزت مريم بجزع النخلة فأمطرت رطباً جنياً، كما إن النخلة رمز للمؤمن المصدق لكلام الله والذي هو دوماً على الأحقاد مرتفعاً يرمى بحجر فيعطى أجمل الثمر.. وفي النيروز يأكلون البلح الأحمر والذي لونه رمز لدم الشهداء وقلبه رمز لنقاء المؤمن ، ونواته رمز لصلابة الإيمان وقوته..

وفي كتاب المهندس سيد كريم « مصر والمسيحية » يلخص المؤلف إلى أن صليب الديانة المسيحية هو صليب مفتاح الحياة والذي إحتضنه الطفل يسوع على صدره لحمايته في طريق العودة، ولحماية رسالته المقدسة.. وعن الشجرة يتحدث سيد كريم: بأن شجرة الكريسماس منقولة عن عيد مصري قديم هو عيد الشجرة التي قدمت لشعوب العالم الإحتفال بشجرة إيزيس المقدسة مع كل ما يرتبط بالإحتفال من عادات وتقاليد ابتداءً من تزيين الشجرة بالتمائم والمعلقات الزخرفية إلى التراتيل والغناء والرقص الديني المرتبطة بمولد حورس والأوز الذي كان يتصدر موائد عيد الشجرة، والذي إستبدل الآن بالديك الرومي، وأصبح من تقاليد الإحتفال بالكريسماس..

علامة الصليب: وإذا كانت الحياة عند الفراعنة تشبه إلى حد كبير علامة الصليب، فإن المسيحية تتطلع إلى الصليب كعلامة حياة تقودنا إلى الحياة الأبدية ويحملها



المسيحي في فخر واعتزاز، أما أنا فحاشا لي أن أفخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح.. ولهذا تجد المسيحي دوماً يرشم الصليب ليبدأ به يومه وليختتم اليوم ويرتمي في أحضان الله.. ويرشم الصليب على أعتاب البيوت شرفاً وحماية من قوات الشر..

وهكذا كان ديكور المنازل في ممالك النوبة وحتى الآن في حلفا القديمة توضع صحنون في صدر البيت على شكل صليب.. ويذهبون إلى نهر النيل ويرسمون بالماء علامة الصليب على وجه لاطفل ووجه الأم حماية لهما، كما يصعدون على الصخرة المقدسة في جبال ميدوب بدارفور ويأخذون من ماء الصخرة ويرسمون علامة الصليب كما يذبح الملك عنزة ويضع من الدم بشكل صليب على مقره لكي يكون الصليب حارساً له ولعرشه..

وحتى في النوبة غرب السودان وجد رسم الصليب والذي قيل عنه الخطوط المتعامدة في الفن النوبي كتأكيد إن أهل النوبة غرباهم من أهل النوبة شمالا هاجروا إليها وإحتموا بجبالها، ولكن الكنيسة لم تكن معهم مما جعل المسيحية مجرد رواسب ثقافية وجذور إيمانية.. وفي دارفور يرسمون إشارة الصليب على صدر الصبي ويسمونه في لهجتهم برشام، وربما يعنى هذا غن الصليب برشام يغلق الأبواب أمام دخول الشر والشرير..

وقد إكتشف بروفيسور « جريفيت » مديح الصليب عند النوبة والذي يتكون من مقدمة وترنيم.. المقدمة فيها خطاب السيد المسيح للتلاميذ والذي يشرح فيه أهمية الصليب، وحديث بطرس مع السيد المسيح طالباً من السيد أن يشرح له سر الصليب، ولماذا سوف يظل الصليب علامة عند المجيء الثاني؟ وإن يسوع قال للتلاميذ: إنه سوف يظهر في يوم الدينونة والصليب على جانبه ويجلس على العرش ويحكم العالم بأجمعه، ويقوم الصليب المجيد واقفاً عن يمينه..

وقال لهم: إذا أردتم أن تعرفوا قوة الصليب معرفة كاملة فإستمعوا ما هي؟ وبعدها أورد مديح الصليب الذي بحسب رأى الكنيسة النوبية هو من تأليف السيد المسيح وفيه يقول:

الصليب أمل النصارى..

الصليب قيامة الموتى..

الدرب للضالين..

مرشد العميان..

حصن المناضلين..

فخر الملوك..

نشيد الملائكة..

إرواء الجفاف..

هزيمة إبليس..

فداء الخطاة..

وعندما رسم الفنان النوبى الثالوث المقدس الأب والإبن والروح القدس، رسم تحتها ثلاثة صليبان متساوية مع بعضها، باعتبار إن الثالوث كله مساوى ومتساوى.. ولم تزل عادة رشم الصليب علامة الحياة في صباح كل يوم يخرج رب البيت أو زوجته ويرش ماء على شكل الصليب على أعتاب البيت حتى يمنع دخول الشيطان وحتى تستمر الحياة الروحية قوية ومتقدمة..

ويقول ترتليانوس: في كل تصرفاتنا، في دخولنا وخروجنا، قبل أن نرتدى ملابسنا، قبل الإستحمام، عند إضاءة المصابيح في العشاء، عند الرقاد بالليل، عندما نجلس للقراءة، وفي كل تصرفاتنا في حياتنا اليومية نرسم جباهنا بعلامة الصليب، لقد كان الصليب عند الفراعنة هو علامة الحياة.. وعند المسيحيين هو صليب الحياة الذى مات عليه السيد المسيح لكي يهب الحياة للموتى ولكي نبعث بعثاً روحياً جديداً، هو قيامة الأبرار في الحياة، والقيامة الأبدية في اليوم الأخير..



## ١١٢. سامى الحاج ومبادرة السفير الأمريكى

سعادة السفير: أخطب إنسانية سعادة السفير الأمريكى وقلمى دوماً هو سفير المحبة، ورسالتى هى دعوة محبة.. والدبلوماسية عندما تستظل بالمحبة تكون واحة أمان لكل إنسان.. وتكون حلقة وصل جميلة بين الشعوب النبيلة.. وأعلم إن الكتاب المقدس يتكلم عن السفير كلام حب وود ويدعم رسالته الروحية.. ويبدا سليمان الحكيم الحديث عن أمانة السفير فيقول: الرسول الشرير يقع فى الشر، والسفير الأمين شفاء ( أمثال ١٣: ١٧ )..

والسيد المسيح له المجد نفسه تحدث عن السفراء والسفارة مرتين ، وأى ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر فى حرب لا يجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقى بعشرة آلاف الذى يأتى عليه بعشرين ألفاً، وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح ( لوقا ١٤ ).. ومرة ثانية فى إنجيل (لوقا ١٩) وفى مثل الأمناء عندما رغب أهل مدينة فى رفض ملكهم فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لا نريد أن هذا الملك يملك علينا، اما معلمنا بولس الرسول الفيلسوف المبشر بالحق فإنه اعتبر نفسه سفيراً وطالب من أبناء المسيح أن يكونوا له سفراء..

وقال عن نفسه : إنه يعلم جهاراً بسر الإنجيل الذى لأجله هو سفير فى سلاسل لكى يجاهر فيه كما يجب أن يتكلم ( أفسس ٦: ٢٠ ).. وطالب المؤمنين أن يكونوا سفراء عن المسيح، إذ نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح أن تصالحوا مع الله لأنه جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه ( كورنثوس الثانية ٥: ٢٠ )..

والقرآن الكريم يذكر السفراء بأنهم يحملون رسالة طيبة وربما هم الملائكة، لأن الملاك مرسل من الله لرسالة روحية يقدمها لأحباء الله، كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة..

وبعد سيدى السفير.. هذه صفات السفير الأمانة، التشاور لتحقيق المصالحة، المجاهرة بسر الإنجيل، السعى المستمر بأن نتصالح مع الله، التذكرة بوجود الله فى حياتنا، وإننى أثق إن كل هذه الصفات فيكم، وإنكم فعلاً تمثلون بلادكم العظيمة تمثيلاً أميناً مشرفاً نزيهاً، وهذا الذى أراه فيكم وقد لا يراه آخرون يشجعنى إلى

فتح ملف خفيف لمواطن طاهر نظيف.. يحتاج منكم إلى تحقيق رسالة المصالحة الأمانة الطاهرة..

سامى الحاج: وسامى الحاج الذى نفتح ملفه مع سعادة السفير الأمريكى هو مواطن سودانى من أهل السودان، أهل ثقافة السلام، وأهل العفو والعافية، وقد إختار مهنة البحث عن المتاعب وعمل فى قناة الجزيرة وقد ذهب إلى أفغانستان وهو مسئول عن التصوير، وكان عليه أن يغطى مع الرفاق حرب أفغانستان، وقد عرض نفسه للخطر.. وعندما دخل الوفد الذى يرافقه من أفغانستان إلى باكستان وهم يلهثون وراء الخبر الحى إخترقوا الحدود، وهذا خطأ طبعاً، وله إدانته التى لا تصل إلى مثل هذه الإدانة.. وتطوعت السلطات الباكستانية بتسليمه إلى الجيش الأمريكى لكى يرسله الجيش الأمريكى إلى معتقل قاعدة غوانتانامو الأمريكية فى كوبا، وهو معسكر لا يشرف أمريكا، ولا يتناسب مع رسالتها الديمقراطية فى عالمنا المتهرىء الممزق، وأرجو أن أقدم بعض الملاحظات :-

إن سامى الحاج أعتقل يوم ١٥/١٢/٢٠٠١م ومقالى هذا كتيبه يوم ٢٢ يناير ٢٠٠٧م وهو فى طريقه بعد هذا إلى صفحات الجرائد ، وعلى سعادتك أن ترض كم عام، وكم يوم، وكم ساعة يعانى هذا المواطن السودانى فى معتقل يفتقد الأمان والمعاملة الإنسانية.. أعلن سامى الحاج الإضراب عن الطعام يوم ١١/١/٢٠٠٧م أى أن له أياماً كثيرة لا يأكل، وأنا عندما أصوم لابد أن أكل فى آخر اليوم، فكيف حال مواطننا الآن ؟..

لم يكن سامى الحاج يملك أى متفجرات تدينه، وإنما يملك فقط كاميرا لتسجيل الأحداث وهذه مهمته ومهنته وسفارته.. إن هناك حقوق لدى وسائل الإعلام فى التغطية الصحفية ، وبخاصة مناطق الحروب والنزاعات المسلحة بحرية تامة، وأنتم مسئولون عن توفير الحماية لهم..

إن سامى الحاج إعلامى ناجح لأنه عرض نفسه للموت لكى يحقق رسالته ويقوم بسفارته المنوط بها، وهذا شىء يشكر عليه..

ولهذا يساعد السفير أطالب بمبادرة من سعادتك لكى يطلق سراح سامى الحاج وكل الفريق الذى معه.. وسوف تنجحون فى هذا وتوفقون فيه وتدخلون الفرح إلى بلادنا وإلى كل العالم، وإلى كل الذين إختاروا مهنة البحث عن المتاعب طريقاً لحياتهم وكسب عيشهم..



أرجو أن لا تتأخر مبادرتكم بإسعادة السفير، وغداً ألقاك إذا طلبت منى اللقاء لمزيد من التفاهم أو لإستقبال خبر نجاح مبادرتكم السعيدة..

## ١١٣. الألفية الإثيوبية

قاعة الصداقة

جاءتني دعوة كريمة من وزارة الثقافة والشباب والرياضة السودانية والسيد سفير جمهورية إثيوبيا الديمقراطية للمشاركة في فعاليات مهرجان الألفية الأفريقية والإثيوبية و كان مكان الدعوة قاعة الصداقة بالخرطوم أما زمانها فهو صباح السبت ٢٨ يونيو ٢٠٠٨ م ، وقد تشرفت بحضور هذا اللقاء الذي قدم لنا مائدة دسمة من المحاضرات والكلمات من وزير الثقافة السوداني الدكتور أمين حسن عمر ومن وزير السياحة الإثيوبي وعدد من رجالات الفكر من إثيوبيا ومن السودان ولقد امتدت الكلمات الي ما يقرب من أربع ساعات ، وكان يدير اللقاء المهندس الاديب الشاعر الصديق المجتبي والذي كان ظريف الكلمات خفيف الدم حلو القسمات ، وقد كان لأدارته الأدبية المتأدبة أثرا في نجاح هذا اللقاء السعيد .

و تحدث أغلب الإثيوبيين باللغة العربية حديثا جميلا عن إثيوبيا الجديدة التي تشق طريقها نحو التقدم والحضارة من خلفية تاريخية ذات حضارة قديمة ومجيدة وتليدة فلقد حملت إثيوبيا كل هموم إفريقيا وكانت رائدة في عدة مجالات ، وكان عاهل إثيوبيا الامبراطور (هلاسلاسي) ربيب جد قديم ، وكانت له علاقة طيبة مع شعبه ، و كان موكبة يتوقف ليتلقى خطابا من مواطن بسيط يقرأ الملك و يأخذ فيه قرارا ، فقد كان الملك الذي يحيا لأجل الشعب و لم يكن له برج عاجي إنما كان محبوبا لدي مواطني إثيوبيا فهو رمز لاستقلال إثيوبيا وفي أكبر كنائس حاضرة إثيوبيا أديس أببا وفي أعماق قبة الكنيسة صورة هلاسلاسي يرفع علم الاستقلال و صورة أول مجلس نيابي في إثيوبيا .

و الاحتفال هو احتفال الألفية الثانية ، و الشهور الإثيوبية هي نفسها الشهور القبطية و كما يسميها أهل النوبة القدماء الشهور النوبية ، أو كما سميت عند الفراعنة السنة التوتية لانها تبدأ بشهر توت و في إثيوبيا تبدأ السنة الإثيوبية بعيد النيروز في ١١ سبتمبر من كل عام وهو نفس بدء السنة القبطية في مصر و التي

كان معمول بها حتي عهد إسماعيل حيث اضطر أهل أوربا التغيير الي التقويم الميلادي لجدولة ديونه بسبب قناة السويس ، و احتفال الألفية الإثيوبية الثانية لم يقتصر علي كلمات المحاضرات ، إنما كان هناك لقاءات أخرى تجلي فيها فن الغناء و الطرب و فنون أخرى في معرض قدم المناسبة الجميلة بطريقة جميلة ، و كانت فرحة أهل السودان لأن أعياد إثيوبيا هي أعياد السودان كما أن أعياد السودان هي أعياد إثيوبيا و الأفراح متي وزعت زادت و الأحزان قسمت هانت .

نحن و إثيوبيا

ولقد كانت فرصة مداخلتي في هذا اللقاء الأدبي الرفيع في عدة محطات أذكر منها

إثيوبيا و السودان ، أخوان محبان عاشا رحلة عمر هي الآف السنين ، رحلة مودة و إخاء ، رحلة خير وماء ، فالماء يعبر من إثيوبيا إلينا حمل الطمي مغزيا زراعتنا ، و منذ القدم و عند الفراعنة الأقباط ، وعند بعنخي، و تهرافا و مملكة مروى و نبتة ، و الثلاث ممالك المسيحية كان الإيمان بأن أول نقطة مطر تهبط علي هضاب الحبشة هي من صنع إله النيل ، وهي دفعة للإلهة ايزيس إلهة الخصب و النماء ، و في أسوان كان معبد أنس الوجود للإلهة ايزيس و في احتفال كبير كان يأتي أهل السودان إلي العيد ، و يأخذون تمثال الإلهة ايزيس و يجولون به في ربوع النوبة لكي يتحقق الأمطار و تنجح المزروعات بزيادة مياة النيل ، و عند دخول المسيحية تحول عيد النقطة الي عيد رئيس الملائكة ميخائيل ، الذي هو ميكال ، ويوكل الية المزروعات و الزرع و الأمطار بحسب اعتقاد المسيحية و الإسلام ، و كان عيد النقطة يوم ١٢ بؤونه حيث الحر الشديد وهو يوافق شهر يونيو .

عاشت إثيوبيا عمق المسيحية حيث كان الدخول الرسمي للمسيحية في القرن الثالث في زمان البابا أنثاسيوس رقم ٢٠ في الباباوات الاسكندرية، ومنذ ذلك الحين تقدمت إثيوبيا في الحياة المسيحية و امتلأت بالكنائس و الأديرة و الرهبان و السياح سياحة روحية و الذين ذكرهم القران الكريم سائحون عابدون و عاش نساك إثيوبيا حياة روحية عالية المستوي و هناك اعتقاد أن الراهب كلما ازداد نسكا أنبت الله له أجنحة كالملائكة فالقديس ت كلايمانون الإثيوبي زودة الله بستة أجنحة ، و القديس يارد مؤسس علم الموسيقى استلم الألحان من ثلاثة ملائكة و من أناشيد عدة طيور مفردة .



رسم الفنان النوبي أجمل الايقونات و زين بها الكنائس و هناك صورة امتاز بها الفنان الإثيوبي الفنان النوبي و هي رسم الثالوث المقدس الأب والابن و الروح القدس ، كما ابدع الفنان الإثيوبي في رسم الصليب بنقش إثيوبي خاص .

إثيوبيا هي وطن لحوار الأديان التوحيدية الثلاثة ، فيها الآن مسيحيون و مسلمين و يهود ، بل أن الدم الملكي اليهودي الذي لسليمان الحكيم يجري في عروق الأسرة الملكية و حتي الآن يوجد يهود إثيوبيون ، و هناك من يقول أن تابوت العهد الذي لموسي النبي موجود في الحبشة .

كانت كلمة إثيوبيا قديما تطلق علي كل افريقيا ، و لما كان السودان مدخل افريقيا فقد أطلق عليه إثيوبيا و عندما كتب نعوم شقير مجلدة الشهير عن جغرافية و تاريخ السودان في ١٤٠٤ صفحة ، كان عنوان الباب الاول : في تاريخ إثيوبيا ، و يقصد هنا السودان و لأن كلمة إثيوبيا و الحبشة و ابيسينا إنما يقصد بها ذوي الوجوة المحرقة ، كان السودان الكبير يسمى إثيوبيا و كانت الحبشة تسمى (أكسوم) أو الدولة الأكسومية ، وقد أعيدت طباعة كتاب نعوم شقير بواسطة دار عزة للنشر و التوزيع في الخرطوم و بتقديم أستاذ دكتور فدوي عبد الرحمن علي طه .

لذلك ليس صعبا أن تبدأ السياحة بين إثيوبيا و السودان علي أن تكون رحلة داخلية ، سياحة داخلية لا يتحمل المواطن فيها أعباء التأشيرات لأنها حركة داخلية داخل وطن واحد ، و يمكن أن يتم هذا الي أن يتحقق حلمنا الكبير بالولايات المتحدة الافريقية .

لقد أضفي علي لقاء الألفية الاثيوبية جوا ودودا وجود وزير السياحة الإثيوبي ، و حضور وزير الاستثمار ، و العلماء الإثيوبيون و السودانيون الذين حركوا اللقاء و زادوه دفئا و حرارة ، و في انتظار قرارات وزارية بأن تكون السياحة بين إثيوبيا و السودان كانتها سياحة داخلية .

## ١١٤ . محمد علي و ميخائيل و خديجة أفندي

محمد علي : كان محمد علي راغبا في بناء نهضة حديثة في مصر و السودان ، و رغم تسلطة في تحقيق طموحه و لكنه كان يبحث عن وسيلة لكي يحقق أغراضه النبيلة ، و بالرغم من أنه لم يكن مصري الأصل إنما كان البانيا و لكنه كان يحب مصر و يحب السودان و اراد الخير لكل البلدين ، و استعان محمد علي بالأقباط

في قيادة ركب الحضارة و فعلا قد كانوا له الزراع اليمين ، و عندما أتى بالعديد من الموظفين الأقباط الي الخرطوم بعد أن اختارها بنفسه عاصمة للسودان فكر أن يبني كنيسة قبطية في الخرطوم إيمانا منه بأن يكون هذا داعما لاستقرارهم و لكن الأقباط اعتزروا رافضين إيمانا منهم بأن الكنيسة القبطية لا تبني إلا بتبرعات قبطية ، و هذا عين ما حدث مع الأنبا صرابامون عام ١٩٠٠م عندما زاره الحاكم العام البريطاني ، و عرض عليه مساعدة في نفقات بناء مدارس الأقباط و اعتذر المطران رافضا لنفس المبدأ ، و قام محمد علي بأحضار اربعين كاتباً قبطيا ليرأسوا الكتابة و الحساب في كل ولايات السودان و كان من بينهم ميخائيل مليكة و الذي كتب ابنه يوسف ميخائيل مذكراته التي طبعها مركز عبد الكريم الثقافي ، و اخرجها دكتور ابو شوك الذي سار علي الشوك لكي يخرج هذه المذكرات ، و كان يوسف ميخائيل هو أول من قال أنا قبطي سوداني ، وبعد هذا استعمل هذا التعبير انطلاقا من أن الأقباط قبيلة سودانية مثل الشايقية و الجعلية و الميرغنية و الأنصار و قد لبس يوسف ميخائيل جلابية الانصار التي ترمز للاستعداد ، و كان الخليفة عبد الله التعايشي عندما يذكر يوسف ميخائيل يدعوا دعوات صالحات للأقباط قائلا : جزاهم الله خيرا عنا ، وقد عين يوسف ميخائيل مقدما و زعيما للأقباط مكافاه له لفتح بيته و قلبة للمهدي في الأبيض و للخليفة التعايشي ، و ذكر يوسف ميخائيل أن الأقباط أهتموا بالتعليم وافتتحوا الكتاتيب في المدارس التي كانت تعلم كل مواطن سوداني و ايضا لم يختصر هذا علي الخرطوم بل انتقل إلي الأبيض بلد يوسف و وادي حلفا و النهود و الرهد و الفاشر ومدني و كريمة و عطبرة .

خديجة أفندي و في مصر تبني محمد علي دعوة رفاة رافع الطهطاوي لتعليم المرأة ، و رفاة علي إسمة مدينة رفاة بالسودان لأنه أتى هنا لواء التعليم ، و قد قرأت أن رفاة عندما نادي بتحرير المرأة بدأ بامراته ، و كتب لها صكا بأن لا يكون بينهما طلاق و لا زوجة ثانية ، و ان حدث هذا تكون هي في حل أن تفصم زوجيتها له بالطلاق .

لقد أوكل محمد علي إلي كلوت بك سنة ١٨٢٥م النهوض بحركة الطب في مصر و تحول الحلم الي حقيقة عندما انشئ محمد علي المستشفى العسكري



في أبي زعبل و الذي تحول بعد ذلك الي مدرسة لتعليم الطب و انتقل الي القصر العيني .

و فكر كلوت في شئ جديد ، هو انشاء مدرسة للقبالات أو المولدات ليحقق نقلة حضارية في مصر ، ولكن أين له بالبنات اللاتي يدخلن هذه المدرسة ؟ و هن لم يدخلن أي مدرسة ، و لم يياس محمد علي إنما اصدر عدة فرمات ، وبذل عدة محاولات للعثور علي بنات يدخلن مدرسة القبالات لمحاربة تفشي الجهل بين الامهات و لخفض نسبة الوفيات بين المواليد من الذكور و الاناث .

واصدر محمد علي فرماتا الي جنود الجيش لكي يدخلن بناتهن المدرسة ، و استعمل معهم وسيلة الترغيب و أوامر التهيب ، ولكن الجنود قبلوا التهيب و لم يقبلوا أن يدخل البنات الي مدرسة الدايات ، و طبعاً التقدم لا يتحقق بمثل هذه الفرمانات .

و فكر محمد علي في شراء رقيق من الاناث من سوق العبيد ، و فشل هذا الفكر حيث لم يستطعن الاستمرار و مات كثير منهن و لجأ محمد علي إلى الضغط علي الفلاحين و لم يوفق ثم قرر أن يدخل الأغوات و هم خصيان و لكن حتي هذا لم ينجح ، و اخيراً لجأ الي الفتيات اليتيمات و إلي البنات اللاتي تتركهن أمهاتهن في المستشفيات و نجح في هذا و بدأت الدراسة ، و كانت الطالبة يصرف لها عشرة قروش شهرياً و خمسة و ثلاثون قرشاً في السنوات النهائية مع بعض الملابس و عندما تتخرج تعمل قابلة بمرتب جنية في الشهر و تأخذ لقب أفندي و كانت خديجة أفندي أول امرأة مصرية تعمل و أول خريجة ، و تدخل محمد علي في زواج الافنديات القبالات و اصدر فرماتا بتزويجهن من خريجي الطب و كانوا من الازهر الشريف و بعد الزواج ينتقل الطبيب و زوجته القابلة الي بيت الزوجية الذي صار ملكاً لهم بأوامر محمد علي .

## ١١٥ . الأبعاد الثقافية في التمثيليات السودانية

عادل حربي : أهداني الفنان الكبير بروفيسور حربي كتاباً من تأليفه عنوانه : الأبعاد الثقافية في فنون الأداء التمثيلي في السودان ، وهو أستاذ مشارك في كلية الموسيقى والدراما ، وهو مخرج مميز للعديد من المسرحيات في السودان و مصر ، وهو بالنسبة إلي مكتبة عامرة بكل ما هو مفيد و عندما رغبت أن أكتب عن السودانية شهامة و أصالة و كرامة ، التجأت اليه ليفيدني بأبحاث ذات قيمة عن هذا الموضوع و علي الأخص ما يخص زميلي بروفيسور أحمد الطيب زين العابدين ، أما كتابة القيم فيبدأ أول محتوياته عن الأصل الحضاري و التنوع الثقافي و أثره علي الممارسات و الطقوس الشعبية ذاكرة الحضارة السودانية و تطور المجتمع ، ثم مر بمراحل التاريخ الثقافي للسودان بدءاً بالمجموعات الحضارية ، و حضارة مملكة كرمة و نبتة ، حضارة مملكة مروي ، حضارة النوبة المسيحية ، الحضارة الاسلامية السودانية ، وهو يهتم بالتنوع الثقافي في السودان ذاكرة اثر الثقافات الوافدة ، أثر الثقافة الفرعونية ، أثر الثقافة المسيحية ، أثر الثقافة الاسلامية العربية و تعرض الكتاب لمواضع أخرى و كل موضوع له جاذبية الخاصة ، فالكتاب صاحب قلم معبر يمثله كخريج للمعهد العالي للفنون المسرحية ، و كمخرج له دورة و بصماته في الاخراج المسرحي .

إن عادل حربي مؤلف حربي بالمعني الشعبي الذي يؤكد أن الحربي ساهر و متيقظ و مستعد و متأهب ، و حامل لرؤي الناس متطلع لأهدافهم ، وهو كاتب يؤكد التنوع الثقافي في السودان ، و يؤكد أن هذا التنوع بركة إلهية لشعب السودان المتحضر الذي يحمل في تاريخه قوة الماضي السحيق ، و عمق العصر المسيحي في السودان ، و صوفية الاسلام في بلادنا .

لقد تجاوب عادل حربي مع كثير من اساتذتنا في السودان الذين يرفضون النظرة الاحادية لتراث السودان و التي تقول أنه لا تراث للمحليين قبل وصول الحضارة العربية الإسلامية ، و يري بروفيسور أسامة عبد الرحمن النور في كتابة تاريخ السودان القديم أن الثقافة السودانية بلورت كينونتها السودانية المتفردة و تشكلت بفعل العطاء الذي قدمته الثقافات السودانية المحلية ، ذلك لأن الثقافة في جوهرها



خاصة إنسانية تعتمد الأخذ والعطاء وأن الامتناع عن الأخذ من ثقافتنا المتنوعة هو تنكر لقيمة العطاء الذي أسهم به أجدادنا الأوائل في إثراء التراث الإنساني .  
الحضارة النوبية المسيحية

و لأنني مهتم جدا بالثقافة المسيحية وبصماتها الأصلية في وسط شعبنا السوداني الأصيل أورد هنا رأي عادل حربي في هذا وأقول في البداية أن إهتمامي بالثقافة والتاريخ المسيحي في السودان ليس لأنني مسيحي فقط ، إنما لأنني سوداني و سودانيون يتكونون من الثقافات المتنوعة في المجتمع السوداني .  
و يرى عادل حربي أن الحضارة النوبية المسيحية والتي امتدت إلى ألف عام

في تاريخنا ، تعتبر بداية فترة التأسيس الحضاري ، وذلك لأنه بعد سقوط مملكة مروي و غزو اكسوم لنا تخمس أمان أولهما ظهور ثلاث ممالك نوبية و ثانيهما دخول المسيحية إلى السودان باجماع من أهل البلاد التي دخلت إلى المسيحية قلبا و قالبا ، و كانت مسيحية ممالك النوبة من رحم الكنيسة القبطية ، وفقا لمبادئها ، و اعتمادا لطقوسها و قوانينها و صلواتها المقدسة .

و يقول بروفيسور حربي : لقد اعطت المسيحية بعدا جديدا في الحضارة السودانية في تلك الفترة فلقد أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي ، و لقد أثر هذا علي السلك الإداري و السياسي و الاقتصادي ، و فتحت المسيحية ابوابا جديدة لبلاد النوبة حيث ارتبطت حضاريا و ثقافيا بالامبراطورية البيزنطية و بلاد البحر المتوسط و أيضا في اعتقادي بالكنيسة القبطية و تراثها الروحي المجيد ، و قصص أبطالها التي تعد مادة دسمة لمسرحيات و تمثيلات تعلي شأن الفضيلة و الجرأة و الشجاعة و الثبات علي المبدأ و العفاف و طهارة الشباب و القلوب و الثياب وقد ظهر هذا الانفتاح جليا في الفنون و الآداب .

و عن أثر الثقافة المسيحية في فنون الأداء التمثيلي في السودان يقول بروفيسور عادل : ادي ازدهار الثقافة المسيحية في السودان القديم ، لبعض التأثيرات التي ظهرت جليا بوضوح في الفن الكنسي النوبي رغم اتسامة بالطابع و اللمسات المحلية ، حيث صارت الكنائس و ما تحوية من زخارف و نقوش و صور القديسين و خاصة العذراء مظهرا للابداع الفني السوداني ، فالطابع المحلي تصالح مع المؤثرات المسيحية الوافدة من مصر و من الكنيسة القبطية و التي وجدت في كنيسة فرص

في لوحات فنية عديدة ، و لقد كان التأثير الثقافي المسيحي في السودان ملامحا و ملبيا لحاجات الإنسان السوداني الروحانية ، و تقبل أهل السودان الثقافة المسيحية ، و انصهر متفاعلا في انماطها و تدخل هذا ليشمل بعض أنماط السلوك اليومي و الحياتي فنشأت طقوس ترتبط بالصليب الأب و الابن و الروح القدس الإله الواحد ، وهناك عادات تنتمي حتي الآن الي المسيحية عندما يحمل الأطفال الي نهر النيل و هناك يغتسلون و يتم هذا بعد اربعين يوما من الولادة مثل عادة التعميد أو المعمودية عند المسيحية و هذا سلوك خارجي له قيمة الباطنية التي تظل حبيسة الرمز الروحي الخاص لدي المجتمع السوداني . رواق الأقباط

## ١١٦. في الأزهر الشريف

الأدب القبطي : في كتابه الأدب القبطي قديماً و حديثاً، مكتبة الهلال بالجيزة ، ١٩٦٢م ناقش المؤلف محمد سيد كيلاني موضوع الأقباط واللغة العربية، و قال أن البداية للأطفال و قطع من الإنجيل و طبعا القراءة و الكتابة، و يقول أن كتاب الأقباط مثل كتاب المسلمين، والحقيقة أن المسلمين أخذوا فكرة الكتابات عن الأقباط، و لما لم تكن هناك جامعات فقد كان الأزهر الشريف وحده هو المسئول عن آداب اللغة العربية، وتقول صحيفة الوطن في عدد ٣ مايو ١٩١٦م، يذكر فتتبعوا التاريخ أنه كان للأقباط قديماً رواق بالأزهر المعمور، يتلقي فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية إذ لم تكن وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة، و في الأزهر كان هناك موقع ليس للأقباط فحسب، إنما أيضا للسودان كله كان رواق سنار، و رواق دارفور، و رواق أعالي النيل لأبناء الجنوب الذين يرغبون في دراسة آداب اللغة العربية.

و ممن درسوا في الأزهر من الأقباط، أولاد العسال قديماً و ميخائيل عبد السيد، صاحب جريدة الوطن، و وهبي بك تادرس، و ذكرت صحيفة الوطن ١٤/٢/١٩١٤م، تحت عنوان الأقباط في الأزهر ما نصه: يتردد كثيراً علي حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول في الأزهر، جماعة من إخواننا الأقباط، و قد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق ، والنحو، والصرف ، و البيان، و البديع، و الهيئة، والجبر.



والعربية، وكانت مكاناً للخطابة والخطباء، ومنتدى للأدباء، وتقلد سكرتاريتها في إحدى الدورات شيخ أزهرى. وكان مجمع اللغة العربية يضم أقباطاً والآن أحد الأعضاء المشهورين المستشار نجيب وهبة، الذي له مؤلفان هما: شعراء المسيحية في شبه الجزيرة العربية، وإشراق شمس المسيحية في شبه الجزيرة العربية، وهناك أدباء في العربية من الأقباط مثل جرجس زيدان، ولويس عوض، وقرىاقص ميخائيل المراغى، ورمسيس جرجس، وواصف بطرس غالى، ووصفي بك صاحب كتاب الخلاصة الذهبية كأول كتاب في النحو، ولاننسى قداسة البابا شنودة الثالث البارع في اللغة العربية وصاحب الشعر الروحي، الأديب العربي الذي يرفض حتى الآن أن يدخل القدس إلا مع شيخ الأزهر في وقت واحد.

## ١١٧. أقباط السودان واللغة العربية

القبطية والعربية: عندما دخل الفتح العربي إلى مصر، كانت مصر كلها تدين بالمسيحية، وتتكلم باللغة القبطية، وهذا ما عرفناه ليس عبر المراجع فقط إنما عبر منهج المدراس التي درسنا فيها، وأذكر أن هذا الدرس كان في منهج الشهادة الإعدادية، وكان عدد الأقباط عند الفتح العربي ثلاثون مليوناً ورغم أن هذا ما درسناه ولكن هناك إختلاف حول العدد قد ينقصه نسبة لا تزيد عن ١٠٪، ومن المعروف أن الأقباط هم أول من خط بالقلم واستدلون علي هذا بما وجد من نقوش علي الأهرامات وما قبل الأهرامات، واللغة القبطية هي التطور الأخير للغة المصرية القديمة، وفي القرن الرابع قبل الميلاد إستعانت اللغة القبطية بالأبجدية اليونانية لأنها أسهل من الفرعونية القديمة والتي تتطلب رساماً فناناً لكي ينقش حروفها والتي كل حرف فيها هو لوحة فنية لطائر، والنقط هي حبات قمح تتعدد لتصنف الباء والياء والتاء والشاء.

وهذه الإستعانة بالأبجدية اليونانية أوجدت لدى بعض المؤرخين خطأ فيما يخص اللغة النوبية والتي عاشت في بلادنا السودانية حقبة إمتدت إلي عشرة قرون ميلادية بل أكثر، لقد إستعانت اللغة النوبية بحروف اللغة القبطية التي هي في الأصل أغلبها حروف يونانية، ولهذا قال البعض أن حروف اللغة النوبية هي

ومن الذين درسوا في الأزهر الشريف في العصر الحديث ميخائيل عبد السيد الذي التحق بالأزهر، وعندما أنشئت مدرسة دار العلوم، إنتقل إليها ودرس مع طلبتها جنباً إلي جنب و درس من علوم الدين الإسلامي فقه المذهب الحنفي، وكذلك درس في الأزهر جندي إبراهيم الصحفي المشهور الذي إنتقلت إليه ملكية صحيفة الوطن بعد أن تخلي عنها ميخائيل عبد السيد، وقد التحق بالأزهر تحت إسم الشيخ إبراهيم الجندي، فأمضي سنة كاملة تلقي منها النحو والصرف وآداب اللغة و يبدو أنه كان يعامل كآزهرى شيخ. ومن درسوا بالأزهر تادرس وهبي الشاعر المشهور، ولم يعرف بين أدباء الأقباط من تأثر بالثقافة الإسلامية مثل تادرس وهبي، لقد حفظ القرآن وفهمه فهماً جيداً، وكان يكثر من الإقتباس من الآيات القرآنية، والإشارة للأحاديث النبوية، وآخر ما يذكر عن الأقباط في الأزهر أرشيدياكون البطرسية فرنسيس العتر وقد رحب به الشيخ محمد عبده في مساء كل يوم وأدني مجلسه، وكان ذلك عام ١٩٠٢م، وأذكر عندما كنت طالباً بالكلية الإكليريكية من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣م إنني كنت أحضر القداس في الكنيسة البطرسية بأنبا رويس بالعباسية وكان فرنسيس العتر رئيساً للشمامسة، متقناً للغة العربية، ناطقاً فصيحاً وقد علمت أنه خريج الأزهر الشريف.

أقباط السودان:- وإذا كان كلامنا عن رواق الأقباط في الأزهر الشريف فإن الأقباط عندما تواجدت المدارس صارت المدارس القبطية هي رواقهم في اللغة العربية، ويذكر لنا التاريخ إن رئيس الوزراء بطرس باشا غالى كان أول من أمر بالإحتفال برأس السنة الهجرية، وإستطاع في عام ١٩٠٩م من حل مشكلة طلاب الأزهر الشريف، وعندما كانت الحكومة قد صممت علي إغلاق الأزهر قال هو: لا يمكن أبداً أن يمس أبناء الأزهر بسوء في عهدي، ووضع بطرس غالى مشروعاً يقضي بسفر العلماء من خريجي الأزهر بنصف الأجرة في القطارات، ولهذا كان شيخ الأزهر سليم البشري يعتز به وقال بجوار سرير موته بعد أن قتله يد الغدر الطائشة: قليل من المسلمين فعلوا لبلادهم مثل ما فعل هذا المسيحي الطيب، أما بطرس غالى فكانت كلماته الأخيرة أنا أبداً ما خنت بلادى.

ونذكر في السودان المكتبة القبطية بالخرطوم والتي إهتمت بنشر ثقافة اللغة



حروف يونانية، بينما هي لم تكن سوى حروف قبطية، لأن الكنيسة النوبية هي ابنة من أبكار الكنيسة القبطية، ولأن الكنيسة القبطية كان لها القدس المعلى في الإشراف علي الكنيسة النوبية لغة و عقيدة و طقساً.

و عندما دخلت اللغة العربية إلى مصر في القرن السابع الميلادي أفل نجم اللغة القبطية، و بدأت سيطرة اللغة العربية بمراسيم دولية عربت دواوين الحكومة، و رفضت تشغيل من لا يعرف اللغة العربية، بل إمتد النفوذ إلى التهديد بأن من يتكلم القبطية يقطع لسانه فوراً، و هنا إنزوت اللغة القبطية لتكون لغة الصلاة في الكنيسة، و لغة الإستعمال بتحفظ شديد داخل الأسرة.

و أمام تحدي تعلم اللغة العربية وفق الأقباط توفيقاً شديداً، و أتقنوا اللغة العربية و صاروا عرباً أكثر من سيبويه نحواً، و أكثر من الخطاطين خطأ، و أشد من الشعراء شعراً، و برز الأقباط في اللغة العربية و ترجموا كتاباتهم، و رسموا الخطوط العربية الأنيقة، و تفوقوا علي أقرانهم في فقه اللغة و النحو و الصرف، و ألفوا العديد من التراجم و المداخل بدءاً بمدائح الأحاد حتي سهرات شهر كيهك التي تكرم مريم العذراء البتول التي إختارتها السماء لتكون أمّاً للمسيح كلمة الله و روح فيه، حيث ولدته بدون زرع بشر، فظلت بتولاً بختم البتولية عذراء كل حين.

أقباط السودان:- كان الأقباط عموماً في مصر و السودان أساتذة للغة العربية حتي عام ١٩٤٠م عندما صدر قرار وزاري من وزارة المعارف يمنع المدرسين الأقباط من تدريس اللغة العربية حتي و إن كانوا من خريجي قسم اللغة العربية بكلية الآداب، هذا فقط تم تطبيقه في مصر أما في السودان فلم يمنع هذا القرار أقباط السودان من تدريس اللغة العربية و هنا نذكر بعضاً منهم:

الأستاذ حلمي عبد ربه مدرس اللغة العربية والذي درس علي يديه الإمام الصادق المهدي و الذي يذكر هذا حتي الآن بفخر و إعزاز.

شهدت مدرسة الراهبات بالخرطوم الأستاذ عبد الكريم الشعراوي، الذي كان أستاذ اللغة العربية، و الأدب العربي، و قد كان البعض يظن إنه مسلماً نظراً لأن كان يملك زمام اللغة العربية.

و في مدارس كومبوني كان الأستاذ عبده شعراوي شقيق عبد الكريم، و كان ناجحاً في مادته الأدبية العربية.

الشقيقان منير متي و مراد متي، و قد شاركا في وضع منهج اللغة

العربية للمدارس السودانية و كانا يدرسانها، و كان معهما الأستاذ صموئيل توفيق الذي برع في تدريس اللغة العربية في طول بلاد السودان و عرضها، و وصل منير متي و صموئيل توفيق إلي جوبا و هناك إستقبلهما التمرد و أودعهما في السجن، و أرسلت الحكومة طائرة من الجيش لكي تخرجهم و تعود بهم إلي الخرطوم.

و من طرائف منير متي و صموئيل توفيق إنهما كانا معاً في " زالنجي" و إستقبلا بروفيسور عبد الله الطيب و أكرما وفادته، و كان آتياً من موقع آخر لم يكرم فيه، و أعجب عبد الله الطيب بالشابين القبطيين صموئيل و منير و مدحهما بقصيدة مطلعها:

جود الأكرمين من شواء و لحم

وجودهم " قونقلير " ليس له طعم

الأستاذ تادرس الفرشوطي كان أديباً و شاعراً، و تغني أطفال المدارس بأناشيده الوطنية، و إشتراك في وضع منهج اللغة العربية في التعليم السوداني، و له عدة قصائد لدي البعض منها مثل وحدي علي الدرب، تلك يا صاحبي الحياة، الله للسودان، جهد المقل، يا لائم الدهر، مع النيل العظيم، قاعة الصداقة، ولي زمان البطش، قصة ثورة، لوم الزمان، غيث همي، حلفا الغريقة، يا مرحباً بانتصارتنا.

الأستاذ عدلي منسي، شيخ الكنيسة الإنجيلية، كان يمشي ملكاً، و يقولون عنه إنه ملك الإعراب في السودان.

الأستاذ عبد الله النجيب المحامي، والذي وضع العديد من الأغاني التي تغني بها مطربو السودان، و اذكر الأوبريت عن صلب المسيح الذي أقيم في قاعة الصداقة و هو من تأليفه.

كان للمكتبة القبطية دورها الكبير في ندوات الأدب و حوارات الثقافة، و مساجلات الشعر، و كان سكرتيرها في إحدى الدورات أزهرى مسلم، و قد تميز أقباط السودان بمثل هذه المكتبات، و إفتتحت المكتبة القبطية في ٨ يناير ١٩٠٨م و من بعدها إنتقلت فكرة المكتبات القبطية إلي عواصم السودان، مدني، عطبرة، الأبيض، بورسودان، و قبل هذا بحري و أم درمان.



## ١١٨. مساهمات الأقباط في اللغة العربية

بعض المساهمات :- ساهم الأقباط في إحياء اللغة العربية، و إرساء قواعدها، و فتح أبواب القلوب لها وسط مصر القبطية، و النوبة السودانية، و إحتلت اللغة العربية موقعاً ممتازاً و نذكر هنا بعض هذه المساهمات:-

يذكر أنه في زمن الخديوي إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٨م، برز العالم القبطي الكبير وصفي بك الذي درس في الأزهر الشريف، و وضع كتاب الخلاصة الذهبية، و هو أول كتاب في النحو، و وضع أيضاً كتاب مرآة الظرف في فن الصرف.

واصف بطرس غالي ١٧٨٧ - ١٩٥٨م و هو السياسي المحنك، والأديب البارع الذي قام بترجمة بعض الشعر العربي إلى اللغة الفرنسية في ديوان: روض الأزهار، كما قام بإلقاء محاضرات في فرنسا للإشادة بفضل العرب على الثقافة الأدبية، و قام بترجمة ديوان البحري إلى الفرنسية حتي قيل عن واصف إنه كان ذا كفاءة نادرة و لو إنها كفاءة حاملة، و قال عنه سعد زغلول واصف غالي عندي أقل الناس طمعاً، و أكثر الناس تواضعاً، متواضع في كبرياء، ساكن في حركة، شديد الحساسية، قوي في عجز، ماهر في بساطة، واسع الخيال، بليغ القلم و البيان و قال عنه شوقي أمير الشعراء

غال ما شئت في ابن بطرس غالي  
علم الله ليس في الحق غلا.

كان للأقباط قديماً رواق هو رواق الأقباط في الأزهر الشريف، و ممن درسوا فيه أولاد العسال في القرن الرابع عشر، و ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن، وجندي إبراهيم و كان إسمه الشيخ إبراهيم الجندي، وتادرس وهبي الشاعر الذي حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، و الأرشيدياكون فرنسيس العتر رئيس شمامسة

الكنيسة البطرسية، و الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده كل مساء.

الدكتور رمسيس جرجس (١٨٩٥ - ١٩٥٩م) و الذي كان بلا منازع أحد علماء مجمع اللغة العربية، و قد كان طبيباً محباً للغة العربية، و برع في الأبحاث الطبية، و كتب معجماً للعلوم الطبية عربي و إنجليزي فيه نحو ستون ألف مصطلح، و قد عرف بحرصه علي أن يضع لكل مصطلح مقابلاً له من اللغة العربية الفصحى مهما كان غريباً، و له من المعاجم و القواميس الكثير، و قدم للمجمع اللغوي عدة بحوث عن دراسات لغوية تنم عن إطلاع واسع و علم غزير، و من بحوثه في اللغة العربية:

النسب بالآلف و النون.

التميم و التنوين.

النحو في العربية.

اللغة الفرعونية وعلاقتها باللغات السامية.

مصطلحات ابن سينا، و عندما إنضم رمسيس جرجس لمجمع اللغة العربية، قال عنه الدكتور أحمد عمار: لقد أرادت له الأقدار أن يكون معجماً و أن يكون مجمعيًا، فمعني الكلمتين يكاد أن يكون واحداً، كما أن حروفها واحدة، و من ثم أهلت له لهذا المركز الجليل علي نحو دقيق.

قرياقص ميخائيل المراغي (١٨٨٧ - ١٩٥٦م) هذا أطلق عليه المؤرخون لقب المجاهد الوطني، و أيضاً لقب المحامي البليغ عن الأزهر الشريف، و كان في كتاباته باللغة الإنجليزية يهدف إلي ترسيخ الوحدة الوطنية، و كتب نحو مائة مقال لشرح المسألة المصرية باللغة الإنجليزية في لندن لتكون مرجعاً لأهل بريطانيا، و في لندن أيضاً دافع عن الإسلام، و عن الأزهر الشريف، وتبرع هناك بحديقة منزله لتكون منتدى ثقافياً لأبناء بلاده المقيمين في بريطانيا، و لإجتماع أهل اللغة العربية حواراً و تثقيفاً.



البروفسور مراد كامل ١٩٠٧ - ١٩٧٥م، و قد كان لي شرف التلمذة علي يديه في كلية اللاهوت حيث كان يدرسنا اللغة العبرية و هي لغة شقيقة للغة العربية، و لقد نبغ في عدة لغات تصل إلي ثلاثين لغة، و كان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة ١٩٦١م، و قام بالتدريس في معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، و له أبحاث في أصول اللغة و قواعدها وتاريخها. الدكتور مجدي وهبة (١٩٢٥ - ١٩٩١م) و هو المهندس الجسور الذي مد الجسور بين الثقافة العالمية و الثقافة العربية، و كان يعمل مترجماً ، و يملك ناصية اللغة العربية، وترجم القانون الفرنسي المعروف " كود نابليون " إلي العربية، و عين مديراً عاماً لإدارة الترجمة العربية بوزارة الحفانية ثم وزيراً للمالية، و قبل هذا كان دليلاً لوزارة الثقافة، و في سنة ١٩٧٩م إختير عضواً بمجمع اللغة العربية ، و كان يمثل المجمع في إتحاد المجامع اللغوية، و له بالإشتراك مع كامل المهندس قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية العربية.

الدكتورة أنجيل بطرس والتي برزت بين النساء في الإهتمام باللغة العربية، و هي أستاذة الأدب الإنجليزي، و نقلت يوتوبيا من العالمية إلي العربية، و قدمت السكرية لنجيب محفوظ إلي العالمية، و لها العديد من المؤلفات الأدبية باللغة العربية، و باللغة الإنجليزية، و لها دراسات في الرواية العربية. الأستاذ لويس عوض ١٩١٥ - ١٩٩٠م ، وهو أديب مبدع، وناقد جرئ، و قالوا إنه ظاهرة فكرية لا تتكرر، و هو أحد قافلة رواد التنوير العظماء في تاريخنا الثقافي المعاصر، و هو مفكر جرئ، قضى سنوات طفولته في عاصمتنا الثقافية الخرطوم وسط أجواء جميلة، و رائحة تاريخ عتيق، و قد كتب أوراق العمر، مقدمة في فقه اللغة، الثورة والأدب، و له معارك ثقافية حول مواضيع عربية، مثل أبي العلاء المعري و رسالة الغفران، و قد قال عن اللغة العربية

إنها أحد فروع الشجرة التي خرجت منها مجموعة اللغات. و قال عنه الدكتور يوسف إدريس : إنه من أعظم المفكرين العرب في كل التاريخ العربي، و مقالاته النقدية مهما اختلف البعض حولها هي أنوار متألئة علي طول الطريق إلي نهضتنا، و قال عنه الدكتور مصطفى الفقي إنه كان ناقداً مرموقاً، و متذوقاً، رفيع الشأن للشعر والرواية و المسرح و السينما في وقت واحد، و مزج في شخصيته بين الإهتمامات الفكرية و الأدبية والفنية، و قال عنه دكتور أسامة الباز، إنه كان مفكراً ديموقراطياً، لا يقبل إطلاقاً سلطة الفرد، و إملأه الرأي، يرفض الدكتاتورية الرأسمالية و العسكرية.

أما الأديب القبطي جرجس زيدان مؤسس جامعة القاهرة ١٨٦١ - ١٩١٤م، والذي نعاه إيليا أبو ماضي قائلاً:

ثكل الشرق فتاه، ليتني كنت فداه

ليتني كنت أصما عندما الناعي نعاه

قد نعي الناعون زيدانا إلي البدر سناه

و إلي التاريخ و القلم أباه و أخاه.

و قد نعاه جبران خليل جبران و قال من شاء أن يكرم زيدان فليطلب قسيمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان و تركها إرثاً للعالم العربي. هؤلاء عشرة فقط من أقباط أحبوا اللغة العربية و إهتموا بها ، و لم أنسي قط قداسة البابا شنودة الثالث ، الشاعر الروحاني، و الأديب المفوه الذي يحب اللغة العربية، و يكرم كل قواعدها.

## ١١٩. أساتذتي في اللغة العربية

كتاب الحي:- منذ نعومة أظفاري إختار لي أبي أن أذهب إلي كتاب الحي، و كان الشيخ أحمد طوال اليوم يحفظنا الحروف الأبجدية و بعض آيات من القرآن الكريم، و رغم وجود كتاب قبطي في مسقط رأسي و لكن أبي إختار الكتاب الذي بجوار منزلنا حتي لا أتعرض لخطر الطريق، و كنا نتواصل سيراً علي الأقدام، و كان



هذا سبباً كبيراً في أن تكون صحتنا علي ما يرام، و أذكر إنه في كل يوم خميس كنت أحمل معي خمسة مليمات هي خميس مولانا الشيخ أحمد، و لم يحدث أن نيسستها مرة لأنني كنت أعرف أن فلفة الشيخ في الإنتظار ولم يحدث أن تعرضت لها سوى في العقاب الجماعي عندما يفقد الطلبة النظام بسبب غياب الشيخ ذاهباً إلي بيته فيأتي و يعن علينا عقاباً جماعياً يمارسه هو، و لا يفرق بين طالب و آخر.

و دخلت إلي المدرسة الابتدائية في سن صغيرة، و أحببت اللغة العربية حباً كبيراً، و كان أستاذي الشيخ صالح الأزهرى، و كان قصير القامة قوي الشخصية، و عند عودتي إلي البيت ، و هو يسكن في أول الشارع كان يوقفني بالأمر لإخراج كتاب المطالعة، و أقرأ أمام رفاقه الذين يجتمعون معه أمام منزله، و قد كنت أهاب جداً هذا الأستاذ و في الوقت نفسه كنت أعلم إنه إنما يفتخر بي.

وعندما دخلت إلي المدرسة مرحلة الإعدادية كان أستاذي في اللغة العربية هو محمد عبد السلام، و كان من أقطاب الإخوان المسلمين، و كان معتدلاً جداً بهمم ببناء اللغة العربية فينا، و قد جعلني أزداد حباً لها، و كان يحب ما أكتب من إنشاء و يقارنتي ببعض الأدباء، و لم يكن الأدباء غريبين علي جيلنا، كنا نقرأ علي الأقل في كل أسبوع كتاباً، و عرفنا العقاد و طه حسين و المنفلوطي وعلي الجارم، و كنت صاحب صوت جهير في القراءة في اللغة العربية، و بعد هذا إنتقلت عدوي القارئ الصغير إلي باقي المواد، و بمجرد دخول أستاذ المادة كان يأمرني بالقراءة ويقدم هو التعليقات ، و ذات مرة قال لي أستاذي في اللغة العربية أمام زملائي في حجرة الأساتذة، يا أبنى لي عندك طلب، فقلت أطلب أستاذي ما شئت، فقال أرجوك أن تحضر معنا حصة الدين الإسلامي، و في خجل و إستحياء قلت له يا أستاذ أنا مسيحي، و لو تغيبت عن حصة الدين المسيحي ليس في صالحى، فقال: أعلم يا أبنى و لكن لا أجد بين أقرانك من يقرأ مثلما تقرأ، و قال لي ذات مرة عندما تكمل دراستك في كلية الآداب سوف آخذك بنفسى ، و أقدمك هدية لتعمل في الإذاعة، فلا جاء ليأخذني، و لا ذهبت أنا إلي الإذاعة.

مسيرة الحب:- و كانت مسيرة اللغة العربية في حياتي مسيرة حب و إعجاب، و لم أكن أستعمل سوى كتب الحكومة، و أرفض الملخصات، و أذكر أنني

من فرط إعجابي بالنقد والبلاغة كنت أحفظ هذا الكتاب كله عن ظهر قلب، و أعرف ما أقرأ بالصفحات، و أذكر كتاب المطالعة، حفظته إعجاباً، و أذكر موضوع أحمد زكي سلطة علمية، و قد حاولت هذا العام أن أحصل علي هذه الكتب، لأنشط ذاكرتي بها.

و عندما دخلت كلية اللاهوت في العباسية القاهرة في العقد السادس من القرن الماضي، و لكم أن تتخيلوا أنني عاصرت من الزمان قرنين، كان يدرسنى اللغة العربية صيدلاني هو الدكتور جرجس إسحق، كان معنا في كل يوم جمعة، و هو هاوي و غاوي و معجب و متيم إلي درجة الإنفعال الشديد عندما نرفع ما ينصب، و ننصب ما يرفع، و كنت أراه حزيناً بائساً عندما نجرح الفصحى، و لا يقبل منا هذا ، و أذكر أول لقاء لنا به في الصف الأول بالكلية، و قد أعطانا فيه رائعة طه حسين دعاء الكروان، و قسم علينا فصول الكتاب لنكتب تلخيصاً، و أردت أن أتفوق علي زملائي فكتبت ملخصاً للفصول السابقة و طالبت من يقرأ أن ينتظر الفصول اللاحقة، و جاء موعد الحساب، و كان الأستاذ منزعاً جداً من النتيجة، و جالت أصفاره في أغلب الأوراق، ثم نادي علي قائلاً: أنت الوحيد الموفق و لكني اضطرت أن أخصم ٤٠٪ من الدرجة، لأنك قلت في التلخيص بالشمهندس، هذه كلمة غير عربية، اللغة العربية لا تعرف هذه الكلمات التركية، و رغم أن الأستاذ جرجس كان يتبرم منا، و يضيق بأخطائنا، إلا أننا أحببناه و أحببنا من خلاله لغتنا الجميلة كما كان يقول البرنامج الإذاعي، و إنشاءً لتدريسه لنا صدر الجزء الأول من تاريخ الكنيسة القبطية و كنت قرأته في عدة ليالي، و كان معجباً بالأستاذة إيريس لأن لغتها العربية سليمة .

و خلال تلمذتي باللاهوت كنت أذهب للصلاة في الكنيسة البطرسية، و كان رئيس الشمامسة فرنسيس العتر له أداء موفق و عربية سليمة، و علمت أنه من خريجي الأزهر.

و تتلمذت علي يد الأنبا شنوده أول أسقف للكلية اللاهوتية و كان أديباً و شاعراً، و كنت أكتب كل ما يقوله فقد كان يقدم لنا الدرر في اللغة العربية.



و عندما رست كاهنا كنت تلميذاً للأكيا دانيال في اللغة العربية. و شاعر و أديب، و كثيراً ما كان حوارنا في متكناه حول الشعراء العرب و حصول حافظ و شوقي و غيره، كما كنت تلميذاً للتقصص تتلوه في المحرقي الذي كان يقول: نخل النير لا يعرف الألف من كوز الفر، ولكنه درس و تفوق و كان ضليعاً في اللغة العربية و في الإعراب، لهم جميعاً التحايا فقد كنت و ما زلت لهم تلميذاً أحب العربية و أحب استذنتها.

## ١٢٠. الأستاذ هنري رياض سكر

المحامي البارع تولى هنري رياض في مدينة تشلتني ١٩٢٧ و درس القانون عن حماس و قناعة و عاد و هو يرغب في الدخول إلى سلك المحاماة دفاعاً عن الإنسان و تكريماً لأهمية و قيمة الإنسان.. و مساندة للمظلوم و دفاعاً عن الضعيف و انتصاراً للحق و العدالة و كان لديه إحساس بارع بالعمل .. و الإحساس بالعمل بدلاً أن يدخل إلى امتحان المعادلة سنة ١٩٥٢ و الذي نجح فيه ثلاثة فقط هو و معه أحمد سليمان و علي محمد إبراهيم ... و عمل هنري رياض مدرساً في مدارس كمبوني ربما لأجل لقمة العيش فقط و لكن الحس القانوني عنده كان غلباً على كل حص .. و منتصراً على كل وقته فلقد بدأ في ترجمة السوابق القضائية إلى اللغة العربية تأكيداً لأهمية اللغة العربية و سعتها و دقة تعبيراتها و مقدرتها على نقل المعلومة إلى الناس و اهتماماً بالفهم المتكامل للتصوص و الأحكام حتى لا يضيع المواطن ضحية الغش و لا يقع الإنسان في حفرة و هم فقدان بسبب عدم تمكنه علي فهم نص أو حكم بلغة غير لغته ... و لسعد عاش هنري رياض العمر كله ما بين محام و قاض و دخل إلى سلك القضاء بالعمل في الهيئة القضائية في ١٩٧٢/٦/٣م و كان هذا بتكليف من الدولة و لكنه و بتكليف من الدولة نفسها و في حكم غير الحكم الأول أحيل للتقاعد للمعاش في ١٩٩٠/٩/٩م في عهد الإنقاذ و رغم أن التاريخ جميل يتكرر فيه رقم تسعة أربعة مرات و لكن الإحالة للتقاعد مرارة كانت في خلق هنري رياض حتى رحل إلى العالم الآخر... و هو يذكر في ألب أنه أحيل للتقاعد قبل الميعاد المقرر قانوناً... و لكنه لم يتوقف عن العطاء للقانون

و الثقافة و الألب فقد كان في خزيته حفظاً و صوتاً لكل الأحكام التي شارك فيها بإبداء الرأي الأول أو الرأي المخالف في الدائرة أو الدوائر التي كان عضواً بها أو رئيساً لها فأصدر كتاب حصاد أحكام قبل التقاعد ... فهو لم يكن يتوقع هذا التقاعد لأنه أعطي و أعطي و لم يستيق شيئاً و لكن الحكام يفضلون الولاء علي الكفاءة و الخبرة و رغم أنه لم يكن ضد أحد و لكن راح هو ضحية الإحالة للتقاعد للصالح العام مع أنه كان من الصالح العام أن يبقى في وظيفته فلقد كانت كتاباته و رسائله و رجاته كلها تصب في مصلحة الصالح العام و لأنه كان سليم التية نقي الطوية فلقد استمر يعمل في صمت حتى يوم وفاته عندما امتلأت كنيسة المعذراء بالخرطوم برجال الدولة و رجال القضاء و كلهم متأثرون لرحيله و وقتها كان حديثي علي منير كاترانية الغراء إتيا في الشرق قد نعوذنا أن نغيب العظماء و نسقيهم مرارة العظم و نحيلهم للصالح العام ... و عندما يتركون الدنيا تسرع لإلقاء الكلمات عنهم في يوم شكرهم و تقدم باقات الزهور علي نعش يسكنونه و تحمل النعش في قوة و فخر بينما أتعبناه و هو معنا علي قيد الحياة و قد إنقط هذه الكلمات الصحفي المخضرم نور الدين مدني لتأتي بها جريدة خليجية في الصفحة الأولى لها...

عاش هنري رياض راهباً ناسكاً ... لم يهتم بأي أمر دنيوي قدر ما إهتم برسائله القانونية الثقافية و كتب ما يقرب من مائة كتاب تأليفاً و ترجمة و إهتم بالعديد من شعراء السودان مثل توفيق صالح جبريل و التيجاني يوسف بشير و بأدباء آخر مثل سلامة موسى و محمد مندور و كان لديه الإحساس بالعمل أن جطه يحاول التتحي عندما يكون الموقف حرجاً و عندما أسند إلي شقيقه إدوارد رياض و هو المعترقي في السلك القضائي حتى منصب المحامي العام أن يقف أمام هنري مدافعاً و لما رآه سألته عن سبب حضوره للمحكمة دخل لكي يكتب تتحية للخرج من القضية و لكن خلف الله الرشيد رئيس القضاء أدرك الأمر قبل وقوعه... و عاد إدوارد إلي النائب العام لينعين آخر ...

كتاب هنري عو عندما جلست إلي الأستاذ إدوارد رياض جلسة خاصة كان محور الحديث فيها هو هنري رياض شعرت أن الشقيق يسير في نفس خط الشقيق و شعرت أن وقار إدوارد بجطه مؤهلاً جداً لكتابة كتاب عن هنري رياض و أتوقع من



الهيئة القضائية أن تشترك في دعم كتاب كامل عن رجل القانون و القضاء الذي راح منا و هو سعيد بما قدم إلينا رغم أن ما قدمنا إليه لا يستدعي الرضا... إن هنري رياض الذي درس في الخلوة و حفظ و القرآن الكريم عن ظهر قلب... و حفظ العديد من أبيات الشعر و تحدث عن الكثير من الشعراء و الذي كان صاحب خط جميل و عندما نرفع النقطة عن حرف الخاء ونضعها بسرعة علي حرف الطاء نراه لا يندب حظه إنما يسعى سعيه لأجل الآخر و إذا كان كل خطاط جهول فإن هذا لا ينطبق علي هـنري رياض لقد كان كما يقولون إشتراكي التفكير كان يريد أن تكون الثقافة شراكة و أبناء الوطن شركاء لا أجراء و لهذا قدم كتبه إلي أبناء هذا الجيل و الأجيال القادمة .... إلي أبناء النصف الثاني من القرن العشرين دون تفرقة أن تميز ... و في إنتظار كتاب هنري رياض أعرف لماذا إختار أن يكون محامياً ... فلقد درس محمد أحمد المحجوب الهندسة و عمل بها ثم عاد فدرس الحقوق و لقد صمم محمد مندور رائد الأدب الإشتراكي أن يدخل الحقوق رغم أن طه حسين قد حاول معه أن يدرس الآداب ، و من أجمل الألقاب للروح القدس أنه المحامي و المدافع.

الشاعر عزيز التوم:-

رأيت و جالسته :لقد رأيت الشاعر المبدع عزيز التوم منصور ... رأيت و جالسته في منزله و كتب عني أبياتاً جميلة غابت عني عندما إنتقلت من سكني إلي سكن آخر ... و كان الرجل يمتلئ بالحيوية و يفيض بالمحبة شاعراً أنيق العبارات شجي الكلمات شعره موسيقي رائعة ... قسما وجهه تتحرك مع نبض شعره ... كنت أزوره في منزله و هو من رعايا كنيسة الشهداء و كنت أجلس إليه و أحيي تواضعه .. و كدت أقول له هل هجرت الشعر حتي تغني بالسخافات المغني و لم تسعفني سوي قصيدة إيليا أبو ماضي و قائلة ...

و قائلة هجرت الشعر حتي ...

تغني بالسخافات و المغني ...

أني زمن الربيع و أنت لاه ...

و قد ولي و لم تهتف بلحن ...

و نفسك كالصدي في قاع بئر ...  
و مثل الفجر ملتحفاً بدجن ...  
فمالك ليس يستهويك حسن ...  
و أنت المرء تعشق كل حسن ...  
أتسكت والشباب عليك ضاف ...  
و حولك للهوي جنات عدن ...  
ركود الماء يورثه فسادا ...  
فقلت لها أستكيني واطمئني ...  
فما حطمت يد الأيام روعي ...  
و ان حطمت أباريقي و دني ...  
و لم أعقد علي خوف لساني ...  
و لا ضنا علي الدنيا بفني ...

أن الشاعر عزيز التوم منصور تخرج من كلية غردون التذكارية عام ١٩٤١ ... له ملاحم مستقلة منها كرري و الزين و الشك و يحمل وسام الدولة الذهبي للآداب و الفنون و جاز جائزة الدولة التكريمية للآداب و الفنون و كان يعمل مسجلاً للمصنفات الأدبية والعلمية بمصلحة الثقافة تحت قانون حماية حق المؤلف .. و عاصر الحركة السياسية قبيل الإستقلال و شارك بالكلمة في تحريك الجماهير و حضها علي الثورة ضد الإستعمار ... و قد غادر عالمنا راحلاً إلي الرفيق الأعلى في يوم الخامس من الشهر الخامس للعام ١٩٩٢ ... و له في إستنهاض الهمم ضد الإستعمار قصيدة عصماء جاءت في كتاب ديوان النيل الذي أصدره المجلس الأعلى لرعاية الآداب و الفنون في مصر و قد دعوت الخرطوم عاصمة الثقافة لإعادة طباعة هذا الكتاب و وعدوني و لم يف أحد بالوعد .. و القصيدة من ملحمة كرري يخاطب فيها الشاعر تمثال كتشنر الذي كان يطل علي النيل ...



ترجل فهذا الجواد الأصيل ...

يود الصهيل و لا يصهيل ...

فليس علي ظهره فارس ...

من النيل في درعه مثقل ...

أناخ اللجام علي فكه ...

و ناء بما يجد الكلكل ...

فلا أنت راكبه في الزحام ...

و لا أنت فارسه المفضل ...

ترجل و سر في زحام العبيد ...

إلي ساحة عندها تقتل ...

تطل علي النيل في جراءة ...

كأنك مرسله المنعم ...

كأنك فجرت ينبوعه ...

أو أنك حارسه القيم ...

ترجل و إلا جري محققا ...

و سال علي شاطئيه الدم ...

فما الف الذل عبر الدهور ...

و لا هزه الأرقم المعلم ...

و لكنه فيلسوف الزمان ...

إذا غيظ في عزه يكظم ...

و قد ظل هذا التمثال يطل علي النيل و لم يترجل إلا أبان حكومة عبود التي رفعت التمثال من موقعه في إحتفال كبير و سلمته إلي السفارة البريطانية باحترام القادرين

لأن القادرين يحبون.. و لأن العفو عند المقدرة .. و كانت إزالة تمثال كتشنر مع تمثال غردون يوم ١١ ديسمبر ١٩٥٨ و كان إحتفال إزالة التمثالين إظهاراً لنبل القصد و برهاناً علي النضج والسلوك المتحضر هذا بحسب وصف جريدة السودان الجديد ... و يقول مهندس قاعة جامعة الخرطوم « إليك بوتر » إن بعض الناس اللطفاء من أهل السودان كانوا يضعون باقات من الزهور النضرة أمام التمثالين و عندما سئل من يضع باقات الورود أجاب بإبتسام نحن نعلم إن عادة وضع الزهور هي تقليد من تقاليدكم المعروفة منذ أمد بعيد و أعتقد إن الواجب يقتضي منا أن نحترم هذا التقليد و السودانيون بطبعهم يحترمون البسالة و الشجاعة .. و عندما كان التمثالين في الخرطوم لم يتعرض لهما أحد غير إنه بعد وصولهم إلي بريطانيا اعتدي أحد الجنود الإنجليز علي تمثال كتشنر و حطم غمد سيفه بينما كانت أخلاق أهل السودان العالية تضع عندهم باقات الزهور ...

من محراب حبي :- و قد أبدع الشاعر عزيز التوم في ديوانه « من محراب حبي » و في بعض قصائده مناجاة لمصر العظيمة التي كانت في عصره حلم الشعراء و أدب الأدباء

يا بنت مصر ... و مصر كلما ذكرت ..

هفت بارواحنا اصداؤها فينا ...

لو يملك الناس شيئاً من مقاديرهم ..

كنا فدي مصر تقديراً و تمكيناً ...

و في رومانسية يخاطب عزيز التوم الموعد قائلاً:

أنا ما سألتك موعداً أنت الذي اوعدتني ...

أنت الذي آملتني بهناءة و مطلنتني ...

أنا ما سموت لمأمل أنت الذي آملتيني ..

و بسمت في وجهي و من تيه الضباب دعوتني ...

و لا أدري هل تحقق له هذا الموعد الذي أحيا فيه ..

ميض الحب أم لا و لكن أعرف إنه لقي ربه بعد هذا الموعد.



## ١٢١. مقار وزكري وعبد الله حميدة

طاحونة مقار: كانت طاحونة مقار من أهم معالم الخرطوم والخرطوم بحري، شهد شارع الحرية محطة مقار، وسمع نداء الكومسري من به صمم عندما يقول محطة مقار، أما الخرطوم بحري فكان فيها طاحونة مقار ومخبز زكري وهما أخوان أبناء سيدهم، وكانا يخدمان قوت الشعب بإمانة ووفاء فكان مقار يطحن دقيق الكسرة، وكان زكري يخبز الخبز الحديث ويوزعه ويصل به إلى منازل الناس. وقد عاش هؤلاء وغيرهم في توادد مع جميع الناس، كانوا ملتزمين بإيمانهم المسيحي وفي الوقت نفسه مشاركين لإخوانهم المسلمين في كل المناسبات، وأذكر إحتفاء مقار سيدهم في الخرطوم بحري بالميرغني زعيم طائفة الخاتمية، وضع مقار مائتي زير ماء فرحة بقدومه، ولكي يعطي كأس ماء بارد لإخوانه المسلمين الذين أتوا من كل فج وصوب فرحاً بشفاء زعيمهم الديني، بل إن الناس عندما أمسكوا بآباء ووضعوه في الزير، فوجئوا بأنه ممتلئ بالسكر والليمون، وهي فكرة عبقرية لرجل بسيط أحب أهله وإخوانه.

ولا ننسى عثمان الذي عندما إستقبل طفله المولود بعد رحلة عناء زوجته، سألوه بماذا تسمي المولود فأجاب بدون تردد « تادرس » وسمي الطفل تادرس عثمان، تقديراً للطبيب الإنسان الذي كان وجاهد ليحافظ علي صحة الأم والأبن. بل إن صليب محروس تاجر أم درمان القبطي كان يشتري من الخاتمية، وكانوا ينادونه الخليفة صليب محروس، وتضايق من هذا اللقب تاجر يقع محله أمامه، واحتكموا إلى الخليفة الكبير الميرغني، وسألوه هل يمكن أن يكون هذا المسيحي خليفة، فقال لهم نعم إنه الخليفة صليب محروس، وصمم الخليفة أن يكتب طالباً في وصيته أن يكتب علي قبره شاهد يقول الخليفة صليب محروس، ولم يزل هذا الشاهد في مقابر الأقباط بأم درمان، وهكذا كان إسطفانوس سيدهم شقيق مقار وزكري قد نال من الميرغني لقب الخليفة.

وكان إسكندر فهمي كاتباً سودانياً، وفي مكتبه بمكتبة مروحي كان يجتمع حوله الوزراء ورؤساء الوزراء والكُتَّاب والأدباء، ورجال الصحافة، وكان بنفسه يقدم لهم طلباتهم التي يعدها بمزاج طيب، وكثيراً ما طبع ما إشتهي الأدباء

والشعراء أن يطبعوه، طبعه علي حسابه الخاص. أما إميل راضي فهو شاب محب للخير، تمكنت مجموعة حُسن الخاتمة كم جذب إلتفاته فكان معهم يُعمر مقابر الخرطوم، ويستر الموتى، وكل جهودة كانت لتعمير وصيانة وبناء أسوار مقابر الموتى المسلمين. كل هؤلاء ذكرهم الكاتب الأديب عبد الله حميدة، في مقال له عن وطن النجوم، في مجلة الخرطوم الجديدة مارس ٢٠٠٨م تحت عنوان فصول في إستدعاء الذاكرة، وهنا نحن نقدم كل كلامه، مع كل الإحترام له ولمحبتة الغامرة لأقباط السودان وإلي المقال:-

## ١٢٢. إستدعاء الذاكرة

قضت إرادة المولي عز وجل أن أعيش تجربة الإتيصال ( بالآخر ) في سني الطفولة الباكورة، فقد سكنت أسرتنا الصغيرة في منزل واحد مع أسرة قبطية جاءت من صعيد مصر وإستقرت في مدينة الخرطوم بحري، كانت هذه الأسرة تنتسب إلى أسرة أكبر عرفت في المدينة بمهارتها في مهنتين تتصلان بغذاء الناس مسلمهم وغير مسلمهم فقد كان ( مقار ) صاحب طاحونة شهيرة في موقع هو اليوم جنوب مستشفى المدينة الذي كان يطلق عليه (مستشفى الخرطوم بحري والضواحي) وهو عين المستشفى الذي توسع في مختلف التخصصات الطبية وكان أول مستشفى سوداني يضم قسماً للأمراض العصبية والعقلية والنفسية تحت رئاسة عالم السودان الفذ التيجاني الماحي وتلميذه النجيب طه بعشر، أما ( زكري ) فقد كان رائداً من رواد صناعة الخبز الحديث حيث كان إنتاج مخبزه (مخبز الشمس والقمر) يطوف علي الناس في أحيائهم قبل أن تعرف المخابز الصفوف والتراحم علي الرغبة في أوقات لاحقة.

إن فقد يَسَّر هذا القبطيان للناس وسيلة الحصول علي ( دقيق الكسرة ) الذي كان طعام الأغلبية و ( الرغيف ) الذي كان طعام الموسرين ووضعاً بذلك لبنة في بناء ( التعايش الديني ) بلا ضجة أو تكلف، ولو قال أحد أن في هذا القول مبالغة أو تجاوزاً فهو شأنه، أما حقيقة هذا الأمر فقد إرتسمت في ذاكرتي وهي علي الأقل تحتاج إلي تفسير.



أقول : كانت الأسرة القبطية الصغيرة التي عاشناها تعرف. تماماً. خطوط التماس والإفتراق في علاقة المسلمين والمسيحيين، و لعل الذي سهل إنسياب العلاقات الإنسانية بين الأسرتين إن كلاهما متدينة بغير تعصب أو توجس تجاه ( الآخر ) ، بل لعل الذي قرب بين الأسرتين . و هما المتقاربتان أصلاً بحكم المكان المشترك . هو أيضاً عفوية التعامل والتخاطب اليومي الذي تفرضه ضرورات الحياة و ما أكثرها. أذكر أننا كنا نتعاطف معهم في عيد ( شم النسيم ) و هو عيد يحتفل به الأقباط المصريون من بين سائر النصاري الآخرين الذين ينتسبون إلى الكنيسة الأرثوذكسية باعتباره عيداً مصرياً فرعونياً، بل أن سكان المدينة من غير المسيحيين كانوا يجدون في هذا العيد فرصة للنزهة والترفيه و ساحة لممارسة شئ من الفضول والبحث عن فهم لطقوس هذا العيد، و هذا في حد ذاته إضافة إلى آليات إكتشاف (الآخر) بدلاً عن إسقاط الأمر كله من الذاكرة.

و لو قلت أن المعاشرة والمعاشية التي فرضت نفسها علي الأسرتين كانت محض صدفة أو حقيقة ظرفية عابرة، فإني أكون بذلك قد تجاوزت الحقيقة و تهربت من الواقع.

كانت المؤانسة اليومية بين الوالد، عليه رحمة الله، و (فهيم) رب الأسرة القبطية ، تتناول ظروف المعيشة و الأحوال العامة بل وحتى أحوال الطقس اليومية، فقد كان (فهيم) صاحب باع في الأنواء و حركة النجوم و علاقة ذلك بهطول الأمطار في الخريف.

و كان هذا أمراً ذا بال بالنسبة لمن عايش حالة المنازل و شوارع المدينة في هذا الفصل من العام، كنا نسمع (فهيم) في العشيات ينادي: (الليلة في مية) فننصرف تلقائياً إلى عمل الإحتياجات اللازمة قبل أن ترعد السماء ثم تبرق ثم تصب أفواه القرب !.

كان والدنا يجد لذة في الإستماع إلى لغة (فهيم) المصرية الصعيدية الخالصة : المية .. يا بوووي، تاجي .. هملتهالك .. إلخ؛ لأنه عاش عشرين عاماً من عمره بين (إسنا) و (مرسي مطروح) و (سيوة) و (الجبل الأصفر) و (الغردقة) و عرف لهجات القاهريين و الإسكندرانيين والبدو و الفلاحين و الصعايدة و كانت لنساء الأسرتين لغتهن الخاصة التي تفرضها خصوصية (عالم النساء) حيث يدور

الحديث حول الأطفعة والملابس و الحلي و عادات الزواج و مراسم الزفاف، فيحدث تواصل تلقائي (ثقافي) من نوع فريد.

وكان أطفال الأسرتين يلعبون كما يلعب الأطفال بعفوية و بضجيج و مشاكسة لا تتعدى ما يحدث، عادة، بين الصغار من خصام لا يلبث أن يتلاشي ثم يتجدد ثم يتلاشي و هكذا. و لا أذكر قط أن التباين الديني بين هؤلاء الأطفال كان سبباً لإثارة مسألة (ثيوقراطية) صغيرة كانت أم كبيرة.

فقد كان هناك طيف ما يتسلل من أرواح الكبار من الأسرتين ليغمر علاقات الصغار و يرعاها دون أن نراه و لكننا كنا نحس به كشئ غامض أشبه بالهاتف منه إلى صوت (البوم) أو ( الغراب).

تجربة صبغت فترة من حياتي ما زلت أشم رائحتها و أتأمل كنهها كلما إلتقيت ( فيلوثاوس فرج) أو الراحل (إسكندر فهيم) أو (إميل راضي) و لا عليك إذا إستعصي عليك فهم ما أقول: فويل للشجي من الخلي. عبد الله حميدة

## ١٢٣. الشاعر عزيز أندراوس

شاعر فحل: يعد عزيز أندراوس شاعر قبطي فحل من بين شعراء السودان و كان له إنتاج غزير و كبير أغلبه لم ينشر و يبدو من مذكراته أنه بدأ كتابة الشعر عام ١٩٣٠ و في هذه المذكرات المتناثرة التي تحتفظ بها إبنته مير عزيز عدة كتابات شعراً و نثراً بعضها مدون بتاريخ و توقيع و بعضها توقيع بدون تاريخ والشاعر عندما يكتب نثراً فإنه يكتب شعراً منشوراً طلي العبارة شهد التدقيق... و لقد عاش عزيز بيننا و كان من أبناء كنيسة و له معنا لقاءات أدبية شعرنا فيها برقة هذا الشاعر و بأن جوانحه تحمل تعاطف و حباً و إحساساً ناعماً بالحياة .. لقد دخل إلى العالم عام ١٩١٤ في ١٦ أكتوبر و غادر السودان إلى العالم الآخر يوم ٢٩/٨/١٩٧٧م .. و ترك في ميدان الشعر ما نشر و ما لم ينشر... و الذي نشر من دواوينه الشاطئ المهجور، شهرزاد، الفردوس المفقود، شي جيفارا، نماذج من شعر الجاز، و ما ذكر إنه لم ينشر عودة من الشاطئ المهجور، الأم، جسر التهذبات، شموع ودموع، مهرجان صغير لوادي حلفا، مراكب الشمس، وداعاً



أيها المطر، يراع و شرع، قياثر و أعواد، هيكل الروح، الليالي، أطباق الورد،  
و له كتاب في النقد والتحليل عنوانه أغانيها و قصة عنوانها تيلدا.

لقد بدأ حياته الأسرية زوجاً عام ١٩٥٠م و صدر له الشاطئ المهجور في  
عام ١٩٥٣ و بعدها ليالي الشاطئ المهجور عام ١٩٥٤ و هما الكتابان الوحيدان  
الذان عثرت عليهما و ما زلت أبحث عن باقي الكتب و لدي مخطوطات بخط  
يده فيها الشعر و النثر و الشعر المنثور..

و قد كتب أندراوس في كل صنوف الشعر.. له في الغزل طول باع و عندما تقرأ  
له في الغزل تتعاطف مع حبه الأول و تنتشي بلمسات الود.. و تشعر أنك تحب  
مثلاً يحب و تعاني مثلاً يعاني.. و هو أيضاً كشاعر أبن بيئته فلقد عاش أسرة  
قبطية عريقة و من معالم الأسرة القبطية التجاوب مع نفحات الروح و الإتصال بعالم  
السماء و محاولة الانفصال و لو مؤقتاً عن ماديات الدنيا الفانية... و لقد جذب  
إلتفاتي ما كتبه من شعر روعي تحت عنوان : الشاعر يناجي الله !! و فيه يقول:  
\*إن شهدت الله قد أشهدته

ما تجلي لعيوني من جمال ..  
و لقلبي من خيال.

\*إذا كالطيف يوماً زرتة  
أبتغي التسيار في ركب الكمال  
و بلغني المحال

\*ما تراه فاعلا ؟.. ما جنته  
لجمال يشتهي بعد الوصال

هو كالسحر الحلال  
\*رامني حراً.. فلما رمته

أشرب من فوق الجبال  
في كفاح و نضال

\*جاذباً قلبي إليه سمته  
و تهادي عطره عبر التلال

من ثنيات الظلال

\*لم يدم غير قليل وقته  
في رحاب الأرض منثور الرمال  
في سهول أو تلال  
\*ما عشقت النور حتي سفته  
فظلام شاع في نفسي و طال  
منذ أجيال طوال

و قد كتبت هذه القصيدة في ١٩٤٣/٥/١ .. و حملت عنوان مناجاة النفس  
لله... و هذا الشعر الروحي من وحي زابور داود راعي الأغنام الذي صار ملكاً و  
الذي أبدع في صياغة الشعر الروحي و ناجي الله و نادي روحه فيه أن تتجه  
نحو الله و تذوق العشرة معه و هو الذي قال: أحبك يا رب يا قوتي، الرب صخرتي  
و حصني، يارب أنصت إلي صراخي، إصغ إلي صوت صلاتي، إحفظني مثل حدقة  
العين، بظل جناحك أسترني، إلهي إلهي لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي، إلهي في  
النهار أدعو فلا تستجيب في الليل أدعو فلا هدوء لي.. و من بين الشعر الروحي  
يتألق شعر قداسة البابا شنودة : قلبي الخفاق أضحي مضجعتك ، في حنايا الصدر  
أخفي موضعك، قد تركت الكون في ضوضائه، و إعتزلت الكل كي أحيا معك، قد  
تركت الكل ربي ما عداك، ليس لي في غربة العمر سواك.

الشاطئ المهجور :- لقد عاش شاعرنا في مدينة الإسكندرية المطلة علي البحر  
الأبيض المتوسط لمدة خمسة أعوام من ١٩٤٥ إلي ١٩٥٠ و علي هذا الشاطئ  
عاش الحب عاش غرامه كشاب يمتلئ حيوية و عاش مع الآخرين حباً جماعياً  
طاهراً يقول عنه إنه قد ربطه بهم ما هو أثمن من الدم ذاته و أغلى و  
جمعه معهم هدف واحد ضخم و ثمة حب أعظم لأنهم كانوا في دمي و كنت في  
عروقهم و في أعصابهم لا يكاد يحس أحداً شيئاً إلا و يتجاوب الآخر معه تجاوباً  
عميقاً صادقاً لا أثر للتكلف فيه أو الإصطناع... و هو كشاعر يعد الشاطئ عنده  
كما قال في المقدمة تصوير صادق أصيل لفترة معينة من حيوات متعاقبة متشابكة  
متداخلة عاشت في التاريخ تتأثر به و يتأثر بها بشكل أوفي عمقاً مما جعل للشاطئ  
« صفة موضوعية » إنني أشعر بخجل شديد لأننا ما كتبنا عن عزيز أندراوس و لا  
أخرجنا درره للدارس و غير الدارس ... و أعتقد أنه قد آن الآوان أن يدخل عزيز



أندراوس في ساحة أبحاث الأدباء و الشعراء و النقاد ... و أنتظر من إتحاد الأدباء و الشعراء السودانيين أن يحمل زمام المبادرة و يبدأ بندوات عنه ... حتى يعيده إلي ذاكرة أبناء الوطن ثم تكتب عنه الكتب.

سعد ميخائيل

و شعراء السودان

سعد ميخائيل: عرفت عن الشاعر القبطي سعد ميخائيل من ابنه فارس سعد و الذي خلف ابناً وحيداً هو رافت .. و كنت في أيامي الأولى أسكن بجوار هذه العائلة .. و أهداني فارس سعد كتاباً عن أبيه ضاع مني عند الانتقال من بيت « العزابة » إلي بيت الزوجية و مر علي هذا أربعون عاماً و لكن مرفاً الذاكرة عندي مضاع بذكريات هذا الشاعر من حديث ابنه فارس و أعرف إن له ابناً آخر هو فخري سعد و كان من مديري شركة شل و كنت أزوره في منزله .. و لكن و بكل أسف لم أعرف منهم شيئاً عن الشاعر الكبير فالشعر ليس في دائرة اهتمامهم و كثيرون الآن يتساءلون هل للشعر مكاناً في حياتنا ... و أعتقد إنه لن يخبو نور الشعر بالذات في سوداننا سودان الأدباء و الشعراء و لكن نحتاج إلي إثارة الهمم حول الشعر و قديماً كان التلفزيون يعقد مناظرات شعرية جميلة توظف فيها الإحساس بالشعر و نصحو و تستيقظ معنا أبيات الشعر القديمة التي حفظناها و الشاعر سعد ميخائيل شاعر لا يمكن أن يتجاهله أحد لأنه هو نفسه لم يتجاهل رفاقه من الشعراء فلقد كتب كتاب شعراء السودان و الذي جمع عدداً كبيراً من الشعراء ذكرهم في كتابه بالحروف الأبجدية فهو شاعر رقيق الإحساس و لا يرغب في جرح مشاعر رفاقه في رقعة الإحساس و طبع الكتاب بمطبعة رعمسيس بالفجالة و كان سعد ميخائيل موظفاً بمصلحة البوسنة و التلغراف و قد ساندته في طباعة الكتاب مادياً و معنوياً صموئيل بك عطية باشكاتب مصلحة المخابرات بالسودان و الشيخ بابكر بدري ناظر كلية غوردون و الشيخ محمد سعيد العباسي و الشيخ محمد إسماعيل المفتي القاضي بالمحاكم الشرعية .... و يقول سعد ميخائيل إن ضالته المنشودة هي رضا القراء فهذا هو رأسماله و تحت رسمه أو صورته كتب خمس أبيات من شعر تقول :

قالوا تعشقت من سوداننا أدبا  
الفت منه كتاباً ذا أفاتين  
أريتنا فيه أبناء نسر بهم  
قد فاق قولهم زهر البساتين  
فقلت يا قوم إن الفضل منتسب  
إلحكم في كمال العقل و الدين  
صرفت شطر حياتي في ربوعكم  
فقلت ما شئت من عطف و من لين..  
إننا رضيعا لبان منذ نشأتنا..  
و آية النيل من أقوي البراهين..

و واضح أن أبيات الشعر التي ذيلت صورة الشاعر تعني أنه أصلاً موظف مصري عاش في الخرطوم و لكنه شاعر سوداني أثر أن يبقى مع عائلته في السودان و له أحفاد سودانيون و النيل معجزة من أقوي البراهين علي محبة أبنائه لبعضهم .. و قد قال : إن كتاب شعراء السودان هو تذكاري إقامته في السودان و لكنه إستمر مقيماً في السودان حتي النفس الأخير.

شعراء السودان : و قد ذكر سعد ميخائيل في كتابه شعراء السودان عدد سبعة و ثلاثون شاعراً مع ترجمة شخصية لحياتهم ... و لم يذكر في الكتاب تاريخ طباعته و الشعراء الذين لم يذكرهم لم يكن معجباً ببعض منهم و لم يكن علي دراية ببعض الآخر و لكنه ذكر أساطين الشعر مثل الحسين زهراء و الضريبر و الدولابي و المفتي و أحمد هاشم و المرضي و إبراهيم مدني ، و السراجي ، و نعمة ، و الشيخ بابكر بدري و شفيق مينا الدنقلوي.

و صالح بطرس الذي حفز الهمم لبناء جامع أم درمان و عمر البنا و وصفي و عمر الأزهرري و الشيخ فرح تكتوك و محمد سعيد العباسي و البوشي و مدثر إبراهيم ... و قد حصل المؤلف علي صور لبعض هؤلاء الشعراء و أوردها في الكتاب و تحت كل صورة يكتب أبياتاً من شعرهم لها معناها و تعبر عن شخص كاتبها و نسوق هنا بعض الأمثلة:

تحت صورة صالح أفندي عبد القادر تأتي هذه الأبيات



قد زودتني الليالي فوق معرفتي...  
وعلمتني فما جاريته عبتا ...  
تكشفت لي أمور كنت أجهلها ...  
منها فبت علي علم امرئ بحثا ...  
وقد أنست بدهر كنت أحمده ...  
ما أحسن الدهر لولا إنه نكتا ...

أما الشيخ بابكر بدري الذي لا يوجد في السودان من لا يعرفه مريباً  
قديراً مفتشاً للمعارف و هو شيخ خبير محقق ... ماهر مدقق ذكي  
الفؤاد .. لطيف المعشر ... دمث الأخلاق يهتم بإحقاق الحق .. و  
عندما أقيم حفل تكريم للمسئول الأنجليزي جيمس كري أول مدير للتعليم  
السوداني و الذي مدحه المادحون علي إنه أول من أسس التعليم في  
السودان إستدرك الشيخ بابكر الأمر وقال كلا إن الأقباط هم أول من  
إهتموا بالتعليم و فتحوا المدارس أمام كل أبناء الوطن و أول من أنشأ  
الكتاتيب و قد كتب تحت صورته مداعبه منه للشعر الأبيض في لحيته  
إنه كان مشتاق لوقار الشيب محباً لمسامرته

ألا أيها الشيب الملم بي ...  
فباني مشوق للوقار أسامر...  
لئن في زهدت الغواني تفاديا...  
فإن فؤادي بالتجاريب عامر...  
فغنهن يغنيني التفكير في الذي...  
مضي و الذي يأتي و ما هو حاضر ...  
أما أنا فباني أحلم بإعادة طباعة كتاب شعراء السودان مع إضافات حضارية و  
تاريخية و ثقافية لا تغرب عن أصالتنا.

## ١٢٤. صالح بطرس في جامع أم درمان

الشاعر القبطي :- يذكر لنا الشاعر سعد ميخائيل في كتابه شعراء السودان حديثاً  
جميلاً عن الشاعر القبطي صالح أفندي بطرس و الذي قال عنه إنه هو أحد الأدباء  
المعروفين المشهورين بعلمهم الجم و أدبهم الغزير و هو من الشعراء المعدودين  
الذين ما ذكر الشعر والشعراء في السودان إلا و كان في طليعة المشار إليهم  
بالبنان و هو عدا ذلك منتقد خطير و كاتب تحرير يخلف الأبواب بسحر بيانه ذوقه  
سليم و طبعه كريم... و هو من مواليد أم درمان عام ١٨٩٤م... وتخرج من كتاب  
الكنيسة حافظاً لمزامير داود... و كان أصغر تلاميذ الكتاب و لكنه أكثرهم ذكاء و  
أوفرهم مقدرة علي الدراسة و قد دخل المدرسة الأهلية بأم درمان و عمره تسع  
سنوات ثم أم درمان الأميرية الثانوية ثم كلية غردون و كان يعمل موظفاً حكومياً...  
و قال عنه الشاعر سعد ميخائيل إن له من أدبه و دماثة أخلاقه و علو نفسه ما  
يضمن له المستقبل الزاهر و هو عندما كان صغيراً كنت تري الوقار بادياً علي  
وجهه و من احسن خلاله إنكار النفس و التواضع المدهش و هذا طبعاً أساسه الأدب  
لأن كل خلة طيبة تصحب الإدب و الخير كل الخير في الأدب كما قال الشاعر :

لم ينبت الخير في مال و لا نسب

و إنما الخير كل الخير في الأدب

مزية تملأ الدنيا محاسنها

و سلم لكمال الفصل و الحسب

و أورد سعد ميخائيل صورة صالح بطرس و ذيل الصورة ببيتين من الشعر فيهما  
تعبير عن المعاناة التي عاناها الشاعر صالح و التي هي معاناة كل  
شاعر حساس رقيق و هما:

ملأت يا دهر كأس اليأس مترعة

فنلت منها و لم أحفل بباقيها

فإن قضيت و في نفسي مرارتها

قلت العفاء علي الدنيا و ما فيها...

جامع أم درمان :و لقد عاش الشاعر القبطي صالح بطرس الزمان الجميل بكل ما  
فيه من محبة تجمع المواطنين معاً... المسيحي و المسلم في مكان واحد و بقلب



واحد ... و كثيرون حكاياتهم تقول أنهم و هم مسلمون يعرفون الكثير عن الكنيسة و يتابعون أبحاثها و طقوسها و يذهبون إليها في المناسبات و أكد صالح بطرس تعاطفه مع إخوانه المسلمين و في عام ١٣٤١ هجرية وقف الشاعر المسيحي يحتفل مع المسلمين برأس السنة الهجرية و يلقي في هذه المناسبة قصيدة عصماء يرحب بالعام الهجري الأغسر و الطلعة البهية و بهجة النور و كان العام الهجري الجديد ملك تبوأ عرشه منبراً تحف به النجوم في حفل خطابي مجيد يهب الخيال للشاعر حتي يراه الناس طائراً فوق المجرة و قد أدرك أسرار الوجود و رأي من آياته ما لا يري ... و يأمل الخير في العام الجديد لشعب خالص النية باتياً للمجد مؤدياً للأمانة رافضاً للذل آبياً معاشرة الهوان ... و هو يخاطب العام الهجري الجديد

أنت الذي تهب الخيال لشاعر ..  
حتي يري فوق المجرة طائراً ..  
و لأنت إحدي بينات إلها ..  
من ذا يراك و لا يسبح من برا ..  
أدركت أسرار الوجود فخرتها ..  
و رأيت من آياته ما يري ..  
هل أنت مخبرنا عن القوم الألي ..  
فلعلنا أن نستفيد تذكرأ ..  
يا عام إنا أملوك لخيرنا ...  
أملأ ينيل الحظ فيك موفراً ...  
و الله يهدي للسداد فعالنا ...  
كان الإله بعون عبد أقدرأ ...

و عندما تعثر بناء جامع أم درمان تعجب القبطي صالح بطرس من هذا ... و إنعقد لقاء في الجامع لكي يحفز الهمم لبناء الصرح الكبير و وقف الشاعر الكبير صالح بطرس يتحدث في قصيدة قوية عن مشاعره القوية و يتخيل الجامع المتعثر البناء و قد لوحث شمس النهار علي جانبيه فصار في شبابه هرمأ ... صامتاً حيث قسوة أهل الكلام ... متروكاً رغم إنه يستحق أن يبني بالحجارة الكريمة .. و يطرز

بالطرز المنمنم و يلون بالفسيفساء و لكن أهله لم يتمموا البناء ..  
يا مسجداً مطلّت بنوه بعهد ..  
حتي غدا و هو الحسير المعدم ...  
بداوك جوداً بالصنيع و أحجموا ...  
ما كان أولي أن ذاك يتم ...  
لو كنت تنطق بالشكاة لهالهم ..  
منك العويل و أنه لا تكتم ...  
لكنما أبديت حالك صامتاً ...  
فرثي الصوامت إذ قسا المتكلم ...  
أمنارة الدين الحنيف تحية ...  
من شاعر لك قد غدا يترحم ...  
بقي أن اسأل أهل الأدب و الشعر ... ما هي القصائد الأخرى لصالح بطرس .. و  
متي غادر عالمنا إلي الرفيق الأعلى .. و هل

## ١٢٥ . في ميلاد المسيح أسكبوا عطر السلام

شرق و غرب تحتفل كنائس الغرب بعيد ميلاد السيد المسيح في الخامس و العشرين من شهر ديسمبر في كل عام .. ولهم التحية و التهنة خداماً و مخدومين كنائس وطنية يعمل فيها الروح القدس بقوة روحية و نشهد لله وسط هذا الجيل و تعلي رسالة المسيح الذي ترك أمجاد السماء وجاء الي ارض الشقاء لكي يحمل هذا الشقاء ويقدم عنه الكفارة والفداء أرجو أن نعلم أولاً أن هذا الاختلاف في تحديد موعد ميلاد السيد المسيح ليس اختلاف حول المسيح له المجد و لكنه اختلاف التواقيت و المواقيت في كرتنا الأرضية .. لكل بلد تقويم و ميقات ولكل بلد شهور و أوقات و لهذا عندما يقف كل موضع الأرض ملتفاً حول توقيته يحدث هذا الاختلاف وهناك اختلافات أخرى بين الكنائس لا تفسد للود قضية لأن الكل يجتمع في أهم القضايا اللاهوتية و يجمع حولها فالمسيح عند الكل هو كلمة الله المتجسد .. و الكتاب المقدس هو كتاب كل الكنائس و قانون الإيمان قانون موحد يبدأ بإعلان ميثاق الوحدةانية بالحقيقة نؤمن باله واحد وان كانت صياغة القانون تمت بواسطة شماس من الكنيسة القبطية هو اثناسيوس الذي صار بطريركا فيما بعد فان إجماع الكنائس



حول قانون الإيمان هو إجماع واحد وعبر الدهور منذ القرن الرابع و إعلان الإيمان هذا إعلان عام و ملك لكل مسيحي .. نذكره سيداً للتاريخ باعاً للحضارة هادياً للإنسان ملكاً للزمان ولكل الأزمنة .. ولد في بيت لحم و عاش في الناصرة و لا يحترم احد اليوم أماكن ميلاده وارض مسيرته و مناطق دربة القدسي فهي في الحرب قصفاً .. و عنفاً .. و دبابات و شاحنات شر تشحن الناس الي مقابر الموتى و لو حدثت لحظة صمت فيها يهدا المتقاتلون .. و يسترد المحاربون انفاسهم و يذكرون مسيح السلام و يهدئون روح الحرب لعاد السلام قوياً الي ارض السلام و عاش المتخاصمين معاً علي ارض السلام بسلام و هم يا احبائي اقرباء .. ابناء عمومة .. و لكنهم يتقاتلون وكل واحد فيهم يرغب في تصفية الآخر و إلقائه في البحر حيث لا سلطان لهم علي البحر أو انها حياته في البر و لا سلطان لهم علي البر وليس هناك حل سوي العيش معاً في سلام و علي الاخص ونحن في ذكرى ميلاد ملك السلام و يا احبائي ان لرب الجنود يوماً علي كل متعظم و عال و علي كل مرتفع فيوضع .. و علي كل التلال المرتفعة و علي كل برج عال و علي كل سور منيع .. و علي كل الاعلام البهجة فيخفّض تشامخ الانسان و توضع رفعة الناس ويسمو الرب وحدة في ذلك اليوم ليدخل كل متكبر في نقر الصخور و في شقوق المعازل وفي حفائر التراب من امام هبة الرب و من بهاء عظمته (اشعيا ٢) لانه ولد لنا عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا .. والله دوماً مع الضعفاء مع المنكوبين مع المهمشين و سوف ينزل الاعزاء عن الكراسي ويرفع المتضعين لانه قد ولد لنا في مثل هذا اليوم ولد الرئاسة علي كتفة و دعي اسمة عجيباً مشيراً الها قديراً ابا ابدى رئيس السلام لنمو رئاسته و للسلام لا نهاية يعضد مملكته الروحية بالحق والبر من الان والى الابد (اشعيا ٩) .

عطر السلام

ارجو في ذكرى ميلاد السيد المسيح ان نسكب عطر السلام علي ارض سوداننا الحبيب اولاً .. وعطر السلام عندما ينسكب من قلوبنا ارض الوطن سوف يملا ارض دار فور العريقة برائحة السلام و يملأ الجنوب والشرق والغرب وكل البلاد .. ولكي نسكب عطر السلام اولاً ينبغي أن تمتلي قلوبنا بالسلام عمقا و عملا .. نحن والحمد لله امتلأت افواهنا بالكلام عن السلام ولكن مجرد كلام وهذا بيان كاذب لنا لم نحيا السلام ارض الوطن .. ماذا دهانا نحن ابناء السودان اصحاب ثقافة السلام .. ماذا حدث لنا .. ؟ علي من ننتصر .. ؟ علي اخواننا !؟

يا سادتي ان مولود مزود بيت لحم يناديكم بالسلام .. وملائكة الميلاد تقول لكم المجد لله في الاعالي و علي السلام و بالناس المسرة .. و سيد المناسبة المجيدة يقدم التطويب الخالد طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون .. لو سمحتم ننسي ما فات و نلتعافي عن المرارات و نسكب عصر السلام حبا و مصالحة .

## ١٢٦. تكريم المؤرخ الكبير بروفيسور أحمد دياب

دعوات لتكريمه: لقد طالبت أكثر من مرة بتكريم بروفيسور أحمد دياب لأنه مؤرخ يستحق التكريم ، وذات مرة وفي حضور وزير العدل الآن عبد الباسط سبدرات قلت ان لم تكرموا أحمد دياب فسوف أطالب قبيلة الأقباط بتكريمه ، وابتسم سبدرات ووعدنا خيراً ، وعندما طالب رئيس الجمهورية عمر حسن البشير بتكريم المبدعين قلت لا بد أن هذا إشارة إلى تجارب مع دعوتي بتكريم رجل التاريخ وبطل التاريخ بروفيسور دياب .

واليوم يسعدني اهتمام جماعة من مواطني أم درمان ، باستقطاب مستشار الرئيس ابن آل المهدي العظماء لإقامة كرنفال تكريم لبروفيسور دياب في أم درمان . لقد حظيت أم درمان باهتمام شديد من بروفيسور دياب ، لقد أحبها كثيراً ، وكتب عنها كثيراً ، وهو مستعد أن يتحدث عن أصلاتها زمنياً طويلاً إن وجد فرصة لهذا، إنه يحب أم درمان ، وقع في ريد حي الريد ، واعتقد أن جسده نازل لسبب هذا الحب النظيف الطاهر النقي العفيف .

إن أحمد دياب رجل نحيف قد أضناه حب أم درمان وغلبته بريدها ، والريد هو الحب ، أن تريد من قلبك شخصاً ما ، وأراد هو ريدته في بلد له عقب التاريخ وطيب الذكرى وأمجاد الماضي هو أم درمان دار الأمان والإيمان ، وطن مسالمة الأقباط و أم بدة ، وطن شارع كرري ، وحي العمدة ، والثورات ، والبقعة ، والريدة ، والعباسية ، والمعهد العلمي ، وجامعة الأحفاد ، وجامعة التقانة ، ومكتبة الحرية ، ومكتبة البشير الريح ، والمكتبة ، والأزهري ، واليهود والهنود ، والأحزاب والزعماء السياسيين ، عبد الرحمن المهدي ، وإسماعيل الأزهرى ، وعبد الله خليل ، وميرغني حمزة ، والأسد ، والفيل ، وسوار الذهب ، وأحمد المهدي ، والصادق المهدي ، وخالدة زاهر ، وثريا إمبابي ، ومحاسن جيلاني ، وأم سلمى سعيد ،



والدكتور وديع جيد موسى ، والدكتور أمين خير ، والدكتور داود اسكندر ، وإبراهيم

أببس ، وعلي أرباب وصبحي إسكندر .  
سأنتي ، لقد وقعت في حب أم درمان ولكنني أشهد أنه لا يقدر أحد أن يصل إلى

حرارة حب دياب لأم درمان ، ولهذا نحف جسده ولكن :  
تري الرجل النحيف فتزدرية

وفي أثوابه أسد هصور  
لقد ازدرى به غيرنا ، وعرضه للتشريد حتى فتح دكاناً الأحذية ولكن الأسد  
الهصور في داخله انتصر على عوادي الزمن ولم تهزمه المحن بل هزم هو المحن  
وخرج خروج الغالبين المنتصرين .

وهكذا سأنتي

تأتي الأيام عابرة إلى الماضي

وتكتمل الأعوام راحلة إلى التاريخ

وهكذا تدور الدنيا وتسير

تخفق الأحلام وتتحقق

وتبقى الكلمة الأمانة أمانة

وببقى الرصد الأصيل رصيда

وهكذا تكون أنت أحمد دياب

تبقى أديباً حياً

تبقى تاريخاً نظيفاً

تبقى فكراً ساطعاً

تبقى نبعاً حائلياً

تبقى علماً وعلماً

تبقى تراثاً وميراثاً

تبقى في قلوبنا

الفارس التاريخي المغوار الفلاح الأصيل الذي يخرق أرض التاريخ ويختلط  
عرقه بكلماته وحياته بدموعه وعبراته تبقى بأصالة أم درمان وعطر السودان  
وأريج السودانوية وعبق الأم درمانية .

ونحن اليوم كرمناك ولكننا في الحق كرمنا تاريخنا كرمنا ذواتنا ، كرمنا حبنا  
لماضيينا المجيد ، كرمنا سوداننا العتيق أن يكون له فيما بعد موقعاً ، مثلما كان في  
الماضي معلماً حضارياً .

سيدي لك ولكل المبدعين في وطننا العريض في بلد المليون ميل الذي يتغنى له  
أهل السودان أن يكبر ويقولون بكرة ياسوداننا تكبر ، تكبر ، تكبر أقول لكل مبدع  
مثلك

أخاف عليك من عيني ومني

ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أني خباتك في عيوني

إلى يوم القيامة ما كفاني

وأرجو أن تظل دوماً متوجعاً بالتاريخ ، ومن الوجع وألام المخاض تهز بجزع  
النخلة فيتساقط علينا رطباً جنياً ومؤلفات ومجلدات وخواطر وتأملات وولادة تاريخ  
يدم ويبقى .

## ١٢٧ . الطفل الوديع

وهذا الطفل الوديع الذي زارنا منذ ما يزيد علي ألفي عام صار نموذجاً للوداعة و مثلاً  
اعلي للتواضع وطلب من تلاميذه أن يتعلموا منه لأنه وديع و متواضع القلب ... لا يصيح  
و لا يسمع احد في الشوارع صوته قصبة مرضوضة لا يقصف و فتيلة مدخنة لا يطفئ  
أنما يملئ القلب بالبهجة و التفاؤل و يتعامل معنا معاملة رقيقة يشجعنا فيها أن نعمل و لا  
يطفئ نور حماسنا إنما بشعلة أكثر نحو عمل اكبر ... و لرب الجنود يوماً علي كل متعظم  
و عال و علي كل مرتفع فيوضع ... وعلي كل الجبال العالية و التلال المرتفعة وقد ترنمت  
أم الطفل الوديع مؤكدة أن الرب ينزل الأعزاء من علي الكراسي و يرفع المتضعين ...  
يشبع الجياع خيرات و يصرف الأغنياء فارغين ... و قد سلك سيدنا العظيم الطفل الوديع



عندما يسمع هذه القصيدة سوف يكتبها بمداد من ذهب لأنها كلام من ذهب لشاعر  
عظيم من ذهب جاء الي عالمنا ١٩١٦/١٢/٤م و ذهب عن هذا العالم مودعا ارض  
السودان بل العالم في ١٩٨٢/٧/١٦م .  
قاعة الصداقة :

و يستهل الفرشوطي قصيدته قائلا :

لا تلمني إني بعطفك أحري

ليس ما بي كما توهمت سكري

أنا في نشوة أجل غير أنسي

لم أزق سكرا و لم أحس خمرا

سلبت قاعة الصداقة لبي

فإذا بي اختال زهوا وكبرا

جنتها زائرا و لم أك أدري

أن فيها من روعة الفن سحرا

سرت فيها أرى عجائب شني

و معينا من البدائع ثرا

و بنفسي مما أراه خشوع

فهي مما قد أبدع الفكر حيري

و كاني غدوت راهب دير

فأصن محرابه جللا و طهرا

أين منها ما شيدته ملوك؟

من قصور وأين إيوان كسري

لو رأي سليمان ذابت

عظمة الوداعة و نبتها الي من أراد أن يكون عظيما فليكن للكل خادما ... و خدمنا وغسل  
أرجلنا مع التلاميذ كنموذج عملي للوداعة ... و قد دخل الي اورشليم وديعا هادئا  
علي أتان راكبا بينما غيرة يركب الخيل الدهماء الشهباء ... فلنحتفل اليوم بذكرى  
ميلاده المجيد و كلنا توجهه نحو الله لكي يملأ تخومنا بالسلام و الحب و النماء ...  
يملأ سوداننا بالأمل الكبير و العمل العظيم و السلام الذي لا ينزع منا ... و يكون  
سوداننا كبيرا و أبناؤه كبار وسياسيون كبار يعملون لخير الوطن .

## ١٢٨ . قاعة الصداقة عند تادرس الفرشوطي

تادرس الفرشوطي : منذ أمد طويل أبحث عن شاعر عظيم من أقباط السودان هو  
تادرس يعقوب خليل المشهور بتادرس الفرشوطي و أسم تادرس يعني عطية الله  
وقد كان الفرشوطي عطية الله لشباب السودان و عندما كان أستاذا في المعهد  
الفني قدم لشباب السودان رسالته ممزوجة بالأدب الرفيع وحكي لي احد تلاميذه في  
مدرسة المقلان الثانوية أنه كان يكتب كل يوم حكمة اليوم التي كانت تحمل جاذبية  
لشباب ذاك الجيل و كما قال لي المهندس الكس سرريس أنه كان صاحب خط جميل  
و عند عثر أبنة صلاح تادرس علي احدي لقاياة أو كنوزه و صلني ملف بخط يده  
يتملى بالعديد من القصائد وسوف أحاول في المرات القادمة دراسة شخصيته من  
خلال قصائده ، و اذكر عندما تمت رسامتي كاهنا أنني زرت تادرس الفرشوطي في  
منزلة و أذكر كيف كان ترحيبه دافئا و كلماته معبرة فهو شاعر يملك ناصية لكلام  
و يعرف معنى هندسة الكلام ، و بني بيوتا من الشعر هي قصور منيعة ذات عراقة  
هي عراقة اللغة العربية .

وعرفت من كثيرين أنه أول من ألف كتاب الدين المسيحي و عرفت أيضا أنه  
كتب من القصائد الوطنية ما حفظة شباب السودان في زمان أستاذيته و لكنني حتى  
الآن لم احصل علي كتابة في الدين المسيحي و لا علي أناشيده الوطنية و اعتقد  
أن القاري السودان وهو الفاهم الذكي أنني محتاج الي الحصول علي تراث تادرس  
الفرشوطي ، و أفرد اليوم في التأمل في قصيدته قاعة الصداقة لا اعرف تاريخ  
كتابتها ولكن ربما يكون فور افتتاحها فقد انفعل جدا بهذا الصرح الجميل الذي جمع  
كل طارف وتلبد من كنوز لعالم الأرض طرا و اعتقد أن السيد المهندس محبوب



نفسه حسرة و أجفل ذعرا  
و يستمر الفرشوطي ليصف كيف جمعت قاعة الصداقة كنوز و حضارات و  
ثريات و أريج نواح فيقول :

جمعت كل طارف وتليد  
من كنوز لعالم الأرض طرا  
و تبارت فيها الحضارات  
كل تتمني فوزا و تنشد نصرا  
عكست أرضها الثريات حتى  
خلت أني أخوض تحتي بحرا  
و الأريج الفواح ينساب فيها  
فكان الجدران تتضح عطرا  
وكان الجمال ملك يديها  
ليس يعصي لرب بالحسن امرا

وكان لابد أن يقدم تادرس تحية الي الصين الذي اهدي السودان هذه القاعة زمن  
الرئيس جعفر نميري و يصف قاعة الصداقة الصينية بأنها من أعاجيب الصين دنيا  
علي ضفاف النيل :

يا بني الصين أنكم من قديم  
قد سموتم بالعلم والفن قدرا  
فلكم عندنا علي النيل أخري  
هي للود و الإخاء دليل  
و لعون الصديق رمز و ذكرى  
يا بني الصين فضلكم لا يماري

فيه ألا من كان أحمق غرا  
ليس من يتبع الصنيع بمن  
و يباهي به دلالة و فخرا  
كالذي يصنع الجميل يرجو  
أن يكون الجميل للود مهرا  
أن شعب السودان حر أبي  
صادق العهد ليس بمجد خيرا  
سوف يزهو بما صنعتم ويشدو  
بأياد للصين سرا وجـهرا

وفي ختام القصيدة يطالب الفرشوطي شعب السودان أن يتمتع بزيارة قاعة  
الصداقة و الحمد لله في زماننا هذا و في السودان المؤتمرات و الندوات و السمونات  
زار الآف من أبناء السودان قاعة الصداقة و لكنه إليكم هذه الدعوة :

أيها الغافل الذي لم تزرها  
لا تجادل فلا أري لك عزرا  
سر إليها وطف بها وتأمل  
ما حوته واسجد لربك شكرا

أنه صانع المواهب فأعلم أن فيها من قدرا الله سرا .

## ١٢٩. ثورة أكتوبر في شعر الفرشوطي

تادرس الفرشوطي

وحول الشاعر القبطي الأديب السوداني الأصل تادرس الفرشوطي نلتقي هذه  
المرة وهو يعبر عن مشاعره الرقيقة النبيلة بثورة أكتوبر المجيدة تلك التي أعلنت



أنه قد ولي زمان لبطش و ضاع الباطشين فقدوا ظلهم و ظلالهم و كراسيهم  
المغتصبة ، فقدوا كرامتهم وقد ظنوا أنهم الكرماء و غيرهم هم الخونة و ظنوا  
أنهم اقويا عندما ملكوا وهم لم يملكوا شي لأنهم عبيد غيرهم و باطلهم ، لقد حاربوا  
الحق بل رأوه وحشا ضاربا و لكن الحمد لله انكسر القيد و خرج الناس الي الشوارع  
يهتفون و ينشدون و يترنمون للنصر و يصيحون ضد بناء الظلم و قد انهارت كل  
جوانبه ، لقد كان لموت القرشي حياة جديدة للسودان و كان لموت لورانس الذي  
قدمه أقباط السودان شهيدا سلاما جديدا لسودان جديد ، لقد كانت كل قبائل السودان  
متوحدة معا ضد كل المتجبرين و قيود الظالمين وهنا تغني الشاعر تادرس  
الفرشوطي في قصيدة عنوانها ولي زمن البطش جاءت علي صفحات الصحافة  
الغراء في ١٩٦٤/١١/٢١ م :

أخي أنت حر زال ما أنت راهب  
و ولي زمان البطش ، لا عاد ذاهبه  
و اشرق نور الحق فأنهض ولا تخف  
وحدث جهارا بالذي انت عائبه  
دماء الضحايا شعله بددت لنا  
ظلاما رهيبا روعتنا غياهبه  
فبا (أحمد) استبشر لقد كنت رائدا  
و خلفك سار الشعب تعدو مواكبه  
الي حيث لافي الظلم يجتر غيظه  
وينعش حقدا ليس يهدأ غاضبه  
وما كان عن حق يزود و إنما  
ليبقى له سلطانه ومناصبه  
و أعدي عدو الشعب جهل مسلح  
يري الحق وحشا ضاربا فيحاربه

لقد كان أبناء السودان ومن بينهم تادرس الفرشوطي أن يروا بناء الظلم و قد  
انهار جانبه ولكن الله أسعدهم بثورة الشعب فتحقق ما كان يحلمون به ، بل أعطاهم  
الرب أكثر مما طلبوا لأنه دوما يعطنا أكثر مما نطلب أو نفتكر ، و ازداد يقين الناس  
بوطنهم بأبناء وطنهم وفهموا أنهم ينتمون الي شعب تهول عجائبه ، لقد تحقق  
انتصار أكتوبر و ثاروا مثلما يثور النيل فائرا حاملا للخير فائضا ، مرعبا مثل جيش  
بالوية طاهرا كالشمس ، قويا كالموت ، قاسيا كالهوية لهيب الثورة لهيب نار تدمر  
الشر و تطهر القلب و تبدو من خلال ثورة أكتوبر حياة جديدة لسودان جديد فيوم  
الثورة هو يوم عز السودان ، الذي جاء اليه بالإصرار و بعزم الرجال و هنا ينشر  
الفرشوطي :

ودوت من الشعب المظفر صيحة  
فمال بناء الظلم و انهار جانبه  
رأيت بعيني ما كنت اشتهي  
وحقق ربي فوق ما أنا طالبة  
و عاد الي قلبي اليقين بأنني  
أمت الي شعب تهول عجائبه  
أليسوا بني النيل العظيم اذا جري  
ونيدا ، تمادي في التهاون راكبه  
ولكن اذا ما ثار ألفيت ماردا  
بكل صنوف الرعب تطغي جوانبه .  
سلاما شهيد الحق قد آل أمرنا  
الينا ، وولي بالمهانة غاصبة  
وهبت لنا الروح العزيزة راضيا  
فبورك موهوب وبورك واهبه



## ١٣٠. بطريك إثيوبيا في بلادنا

الضيف و المضيف بدعوة كريمة من السيد رئيس الجمهورية عمر البشير جاء إلينا الضيف الكبير أبونا باولوس بطريك إثيوبيا و الذي يرعى رعاية روحية لشعب قديم أصيل و لعدد من المواطنين يصل إلي الخمسين مليوناً يحترمون و يجلونه و يستقبلون منه نفحات الروح القدس و كانت الزيارة لمدة أربعة أيام من ١١-١٥ يناير ٢٠٠٧ م .. لقد أسعد الرئيس مليوني إثيوبي في السودان كما أسعد ملايين السودانيين الذين رأوا في هذا الرجل العظيم صورة حية للملك المسيحي النجاشي الذي لا يظلم أحد عنده و الذي استضاف المسلمون الأوائل أثناء هجرتهم إلي الحبشة في الأيام الأولى للإسلام .. وقد كان البطريك متعاطفاً جداً مع قضايانا الوطنية فقد قال أنه ابن أفريقيا و أن أبناء أفريقيا هم وحدهم القادرون علي حل مشاكل أفريقيا كما قال أنه يؤمن بدور دول الإيقاد و مقدرتهم علي تجاوز الاختلافات و رسم خطي السلام و دعم المحبة في أفريقيا .. و بطريك إثيوبيا هو الآن رئيس مجلس الكنائس العالمي و عضو فاعل في مجلس كنائس كل أفريقيا و كان يؤكد دوماً أنه في وطنه و بين أخوانه و أن أفريقيا كلها كان يطلق عليها إثيوبيا أي الوجوة المحروقة و لهذا الحديث مراجع تاريخية عديدة من بينها ما كتبه نعيم شقير و مأكتبة بروفيسور العقيد و غيرهما من أساتذة التاريخ و لقد زار البطريك المتحف القومي و كان في استقبالة حسن حسين إدريس مدير المتحف و جال البطريك ليري تاريخنا الخالد في آثارنا المجيدة .. و رأي في آثارنا عصا الرعاية التي عصاه .. و لوحة الميلاد الممتلئة أسراراً و التي ترسم المسيح طفلاً في قمة اللوحة تأكيداً لمكانته اللاهوتية العظيمة و لوحة الثالوث المقدس التي أبدع فيها الفنان النوبي الإثيوبي القديم و التي يتميز بها الفن الإثيوبي و لم يرسم مثلها أي فن مسيحي آخر .. و قام الضيف الكبير بزيارة مجموعة جيا و قال قد تملكته الغيرة أن يكون في بلاد مثل هذا الصرح الصناعي العظيم و أجابة مدير المجموعة الأستاذ أحمد عبد الرحمن بأن هذا هو الهدف و الرؤيا أن تتكرر التجربة في كل بلدان إفريقيا و في مختلف ولايات السودان و استقبل رئيس الجمهورية ضيفه الكبير بالحبور و السرور و السعادة و الرضا و كان الحديث فياضاً مشوقاً عابراً إلي التاريخ القديم

تمنيت لو كنت الوحيد و أنني  
أبوك فألقي بعض ما أنت كاسبة

تلاحم الجيش و الشعب

ولقد أشار تادرس الفرشوطي إلي تلاحم الجيش مع الشعب فلقد وقف الجيش مع الشعب ضد عساكر السلطة فلقد تعود نفر من الجيش أن يستولوا علي حكم و الجيش منهم برئ لأن جيش السودان لا ينحاز إلا إلي شعب السودان و لا يتجاوب إلا مع الأحرار ، و عندما يستدعي الأمر يظهر السر الذي كان خافياً و تعود السلطة المسلوبة للشعب الحر الأبوي و هذا ما عبر عنه شاعرنا تادرس:

بني وطني جيش البلاد ذخيرة

وحض ، وبذل الروح للشعب واجبة

رأيتم إليه كيف كان ولاؤه

وكيف مع الأحرار كان تجاوبه

فحيوا معي جيش البلاد فاته

لصون أمانينا أعدت كتائبه

و يا أيها (السر) الذي كان خافياً

علي الناس ، وبان الذي انت حاجبه

وضاء وعزم في اقتدار و حنكه

ذلك فضل الله جلت مواهبه

وما عن هوي ازجي المديح تملقا

زمان الهوي ولي و زالت مثالبه

هنيئا لك الشعب الذي جاء ساعيا

يفوضك الامر الذي هو صاحبة

فكن خير ربان يقود جموعه .



## ١٣١. رحلة إلي الغرفة الداخلية

كنز الكون عندما نقوم برحلة إلي الغرفة الداخلية نكتشف كنز الكون ، نعثر علي الكنز الثمين الذي هو أنفسنا ، أما الغرفة الداخلية فترمز الي تسليم القلب إلي الله ، والدخول إلي غرفة داخلية هي حياتنا ، وهنا نجد أنفسنا و نذوق طعم العشرة مع الله تلك العشرة التي تجعلنا اقويا و عظماء و عمالقة في الروح لأننا تجردنا من كل شئ و دخلنا الي الغرفة الداخلية ، و سمعنا نداء الروح فينا ، في اعماقنا أن باطل الابطايل الكل باطل و قبض الريح .

تحت عنوان رحلة الي الغرفة الداخلية قرأت كتابا كاملا ، ينشره معهد تدريب القادة بالشرق الاوسط ، وهو معهد يشرف عليه الدكتور وحيد فريد و الذي هو نفسه قام قبلنا برحلة الي الغرفة الداخلية ، و كان الكتاب يقول لنا لا تفتشوا عن الله خارجا عنكم ، إنه فيكم ، إنه في الحجرة الداخلية ، و اذا شئتم لقاءه فالأمر ليس صعبا و لكنه فقط يحتاج إلي رحلة إلي الغرفة الداخلية رحلة إلي اعماقنا لأننا نحن هياكل الله ، وروح الله ساكنة فينا وتبدأ قصة الرحلة في ان بطل القصة كان ينام نوما متقطعا وهو رجل اعمال يقضي طويلا في العمل المرهق ، و في حاجة ماسة إلي النوم ، كان متعبا علي الدوام ، و كان افراد عائلته يسرون علي اطراف أصابعهم لكي ينام هو ، و استيقظ في الثالثة صباحا حيث ليس هناك شيئا يفعله في هذا الوقت ، و لكنه تذكر صديقا له مشكلة مثل مشكلته ، و كان عندما يسقيظ يستغل الوقت في الصلاة لأن الذي يوقظه إما أن يكون الله أو الشيطان لو كان الله فسوف يصلي و يسمع نداء الله ، و لو كان الشيطان فسوف يجعله يندم علي ذلك لأنه سوف يصلي ، و بدأ بطل القصة في الصلاة و خاطب الله قائلا : يا رب لست ادري ماذا يحدث ؟ ربما يكون تقطع النوم هو السبب ، و لكني اظن أن شيئا آخر كان يزعجني ، و تمدد لينام و فيما هو بين النوم و اليقظة سمع صوتا يقول : توقف عن مقاومتي ، و تعال الي الولىمة في الغرفة الداخلية ، و ذهل الرجل وفتش فلم يجد احد في الغرفة ، و حاول مرة اخري أن ينام و لكن همس في اعماقه صوت يقول تعال الي الغرفة الداخلية ، و هنا شعر بأن شيئا عظيما يحدث فقال : يا رب كيف اقاومك ؟ فرد عليه صوت هامس : أن تحاول تستمر في الانسان العتيق ، و أنا

مؤكدًا العلاقات الطيبة الحميمة بين شعبي السودان و إثيوبيا ، وقد التقى البطريك بوزير الخارجية الدكتور لام اكول الذي أوفد سفيرة حسن فقيري .. و مساعدة عبد الدائم علي الأشرف علي رحلة الضيف الكبير .. و التقى أيضا بمستشار الرئيس الدكتور بروفيسور أحمد علي الامام الذي كان الحوار معه لطيفا طاهرا نقيا نظيفا مرحا .. و استقبلته وزارة الارشاد و كان معه ملازما الاسقف ايدي امبرز مدير مكتب الكنائس بالوزارة .. و رساله البطريك كما حددها هو هي رساله السلام و نشر ثقافة السلام و إيجاد ارضية قوية للسلام و الذي هو عطية الهبة الينا من الله رئيس السلام و ملك السلام و الذي وهبنا سلامة الذي يفوق كل عقل و دعي قداسه الي تضافر الجهود من أجل السلام لأننا اذا حققنا السلام فقد ملكنا كل شئ .. و قال إنه يثق و بشدة في حكومة السودان و سعيها نحو السلام و تعاطفها مع قضايا السلام ..

كرسي اليونسكو للتعايش: و قدمت بروفيسور فاطمة عبد المحمود رئيس كرسي التعايش الديني لليونسكو ضيفا كبيرا في محاضرة عنوانها و الآخر وسط لقيف كبير من المسؤولين و المواطنين .. و أبناء إثيوبيا بالسودان الذين عطروا قاعة الصداقة بأجمل الترانيم بصوت أفريقي عذب .. وقال قداسة البطريك أنه سعيد أن يلتقي بأهله لأننا كلنا إخوة و أن الله قد خلقنا جميعا لكي نعبد و نمجده و كلنا من دم واحد و طبيعة انسانية واحدة و أن الناس يختلفون و لكن كلهم واحد .. وقال ان ايمانه و دينه و عقيدته يطلبون منه إحترام الآخر .. وحب الآخر .. و عدم ادانة الآخر و أننا نحتاج الي أن نكون متحضرين و نعترف بالآخر و بأننا لسنا أحسن و لا اقوي و لا أعظم من الآخر .. و ينبغي أن تهدف التربية الأسرية الي حب الآخر لكي نبرهن جميعا أننا اولاد الله .. و قام البطريك بالتجاوب مع دعوة نيافة الأنبا ايليا اسقف الخرطوم الي المطرانية و هناك استقبل البطريك استقبالا حافلا و صمم اسقف الشباب الأنبا موسي و الذي حضر لتقديم جوائز مهرجان قداسة البابا شنودة لأبناء المطرانية أن يقوم البطريك الإثيوبي بتقديم بعض هذه الجوائز بنفسه و تحدث الأنبا باولوس عن العلاقة الطيبة الدافئة الحنون التي تجمع كل أبناء مارمرقس كاروز أفريقيا من أقباط و اثيوبيين .. و عاد البطريك بالسلامة .



أريد أن أجعل منك إنساناً جديداً ؟ أجاب ماذا ينبغي أن أفعل ، لكي تجعلني الإنسان الذي تريدني أن أكونه ؟ أجاب الهامس : يجب عليك أن تتحلى عن محاوله التحكم في حياتك و تشارك في الوليمة بالغرفة الداخلية ، و هنا شعر الرجل أن الرب يريد أن يظهر له شيئاً جديداً و صلي قائلاً : يا رب أريد أن أكون الرجل الذي تريدني أن أكونه !! أسألك أن تريني الوليمة في الغرفة الداخلية حتي أتمكن من المشاركة فيها ، و بعد هذا سار الرجل في رحلة انتهت الي وليمة روحية اعدّها الله لروحه و أكل طعاماً مشبعاً و شرب من ماء من يشرب منه لا يعطش إلي الأبد ؟! لقد وجد نفسه في الحجرة الداخلية التي صارت نظيفة و معدّه لحلول بركة الله فيها .

أغلق الباب :-

وقد عبر البابا شنودة الثالث عن الدخول إلي الغرفة الداخلية حيث تلتنقي النفس لقاء روحياً بمائدة الرب الدسمة ، و في قصيدة للبابا تحت عنوان أغلق البابا يقول قداسته :

أغلق الباب و حاجج في دجي الليل يسوعا  
و املاً الليل صلاة و صراخاً و دموعاً  
ثم يخاطب الانسان الحائر ، التائه في الفكر الذي يشكو صاخاً اين الطريق ؟ و  
عندما يغلق الباب يلتقي بالطريق و الحق و الحياة  
أيها الحائر يا من تهت في فكر عميق

تسأل الناس و تشكو اين الطريق ؟

هل وجدت الحل يا مسكين و القلب الشفيق

هل أزال الناس ما عندك من هم و ضيق

يا صديقي سوف لا يجديك في الدنيا صديق

ليس عند الناس رأي ثابت شاف يليق

فحلول لفريق ضد أخري لفريق

إنما عندي علاج قد خبرناه جميعاً

أغلق الباب و حاجج في دجي الليل يسوع

و املاً الليل صلاة و صراخاً و دموعاً .

ثم يتحدث البابا عن نوع آخر من البشر هم المصلحون أو دعاة الإصلاح و

يصورهم للحق ثائرين علي الانحراف متحدين علي السلوك الخاطئ غضوبين ،  
ويقدم الحل الذي ليس سواه وهو الدخول للغرفة الداخلية :

أيها المصلح يامن تملئ الدنيا لهيباً

ثائراً للحق و الإصلاح محتداً غضوباً

كم لقيت الغت و التجريح و القول المعيباً

تحمل اليوم صليباً و غداً ايضاً صليباً

يا صديقي : إن مضي الوقت نزاعاً و حروباً

و استمر الحال مثل الامس صعباً و عصيباً

فادخل المخدع و اركع ، و اسكب النفس سكبياً

قل له اشتدت و ضاقت ، فافتح الباب الرحيباً

قل له ياربى إني عاجز لن استطيعاً

و اعرض الامر و حاجج في دجي الليل يسوعاً

و املاً الليل صلاة و صراخاً و دموعاً

لقد استيقظ سيد رابعة العدوية علي صوتها تنن و تبكي و تصلي إلي الله ، فقرر

أن يعتقها من العبودية رقاً حتي تلتنقي مع الله ، ومنها نعرف معا كيف تكون رحلتنا

الي الغرفة الداخلية .

## ١٢٢. لوحة فرس عن الفتية في النار

نجيب يسي :- تعودت أن ازور نجيب يسي قبل أن يرحل الي العالم الآخر ، و كنت  
القبة بأنة الخريدة النفسية في تاريخ الكنيسة : كان كنزا أنفس للتاريخ المقدس ،  
و بعد رحيله امتد اللقاء حول التاريخ السوداني المجيد بإشراف قصائد الشعرية  
الثلاث تريزا و نادية و سيلفيا ، و عندهم التقيت الإبنة هيفاء محمد حسن الطيب ،  
وهي فتاة واعدة لديها ثقافة آثارية ، و رغبة قوية في الدراسات الآثرية ، و كان  
الحديث عن آثار بلاد النوبة و مع الحديث شريط مصور علي قرص فية لوحات  
متعددة ومعه قدمت لي دراسة عن الثلاث فتية في آتون النار ، عن لوحة فرس  
الجدارية للأب جيوفاني فانتيني ، ترجمة الدكتور أسامة عبدالرحمن النور الذي طبع  
له مركز عبد الكريم ميرغني كتاب : تاريخ السودان القديم ، أما اللوحة فهي لوحة



جدارية من كاتدرائية فرس ، و التي علي غرارها صممت كنيسة الشهيدين بالعمارات بوحى و طلب من الدكتور وديع جيد الذي حمل هم بناء الكنيسة منذ حجر الأساس حتي الافتتاح و كان معه اعضاء جمعيته القبطية و كان الافتتاح في السادس من ابريل ١٩٦٨ م .

اما اللوحة التي رسم الثلاث فتية في آتون النار فهي بريشة فنان نوبي لم يذكر اسمه ربما تواضعا و لكن واضح أن هذا الفنان درس كل ما ورد عن الثلاث فتية في سفر دانيال من الكتاب المقدس ، و في نصوص أخرى عبرية و آرامية . و تجذب هذه اللوحة التفات الزائر لمتحف السودان حيث تحتل موقعها في مدخل الصالة المسيحية ، و هي ذات ألوان حيوية و علي الاخضر اللون الاحمر فيها ، و كان الفنان كان يضع ريشته في دمه ، و جلال الصورة في القوم المهيب للملاك و ارتفاع قوامه سبعة أقدام ، و في الوقفة الهادئة الوقور للشبان الثلاثة ، و الزخرف المتقن لثيابهم ، و لقد رسم الفنان النوبي الملاك برداء طويل ابيض مزخرف بأشرطة عمودية كبيرة و عباءة مزينة بخطوط مقلمة ، و كان البياض المدهن للملاك يبدو مناقضا مع لون الكائنات الانسانية الثلاث ، كما أن الشبان رسموا بشعر اسود مرتب جيدا إلي يمين و يسار وجوههم ، و لكي يؤكد الفنان ما جاء في الكتاب المقدس أن الفتية الثلاث عندما أدخلوا قسرا في النار ، و لم تحترق شعرة واحدة من رؤسهم ، و ملابسهم لم تشيط ، و سراويلهم لم تتغير و رائحة النار لم تات عليهم ، لم تكن للنار قوة علي أجسامهم .

لقد البسهم الفنان النوبي سراويل هي نوع من البناتلين التي يستخدمها البارثيون ، و وضع علي رؤسهم عمامة ، و في القدمين وضع نوعا من الاحذية تتطابق مع الإغريقية ، و هو نوع من الأحذية يرتفع حتي بطن الساق . و في لوحة كاتدرائية فرس ينزل الملاك إلي الفرن المتقدم سبعة أضعاف بالقرب من عزاريا وهو الاول الذي كان ينشد للرب وسط النيران و في اللوحة يقف علي اليد اليمنى للملاك و تحته كتب إسمه عزاريا ، و في اللوحة الملاك يبعد لهيب النار إلي الخارج ، و يرتفع اللهب الأحمر عاليا في الخلفية بعيدا عن الثلاثة فتيان ، و الملاك يغطي عليهم كمروحة ، و يمتد جناحا الملاك من اقصى اللوحة الي أقصاها و كأنما يهدف التعبير عن فعل (التغطية المروحية) و يعبر الفنان النوبي عن أن النار لم تمس الفتية في رسمهم واقفين في هدوء و اطمئنان .

النص الكتابي :- و يذكر الكتاب المقدس في الاصحاح الثالث من سفر دانيال ، قصة الملك نبوخذ نصر الذي صنع تمثالا من ذهب ضخم الحجم ، و نصبه في بقعة دورا في ولاية بابل ، و صدر الأمر من الملك بأن كل رعاياه عندما يسمعون صوت الموسيقى يسجدون لتمثال الذهب ، و لكن الفتية الثلاث عزاريا و حناينا و ميصائيل كانوا من ابناء يعقوب الموحدين الذين لا يسجدون لغير الله ، و كانوا في مراكز مرموقة في الدولة ، و جاءت ضدهم شكوي الي الملك أنهم يرفضون السجود ، و طلب الملك حضورهم امامة و تحاور معهم ، و كان موقفهم رفض السجود و يوجد الههم القادر علي انقاذهم من عقاب النار لمن لا يسجد ، و حتي و لو لم يتم الانقاذ فهم لا يعبدون آلهة الملك و لا يسجدون لتمثال الملك ، و غضب الملك جدا ، و طلب أن تحمي النار سبعة اضعاف المعتاد ، و بأمره اوثق الجبابرة الشبان الثلاثة ، و القوهم في النار ، و قتل لهيب النار الرجال الجبابرة الذين رفعوهم ، أما هم فكانوا بدون ربط و لا قيود يتمشون في وسط النار ، و كأنهم في نزهة هادئة ، و وجد الملك أن عددهم اربعة ، و أن الرابع شبيهة بأبن الآلهة ، و لكن الفنان النوبي رسم الرابع ملاكا قويا تقيا ، صافيا طاهرا يوفر الحماية للثلاث فتية ، كدليل أن الله يقف معنا حتي و لو وضعنا في النار بسبب إيماننا

### ١٣٣ . ذكاء قطر و صناعة السلام

ذكاء قطر: عندما شاعت إرادة الله أن أتمتع بزيارة دولة قطر و ذلك لحوار مؤتمر الدوحة السادس لحوار الأديان من ١٢-١٤ مايو ٢٠٠٨ م ، أسعدتني جدا هذه الزيارة ، و تشاركت مع المؤتمرين بعدة مداخلات ، و كنت عند ذهابي معجبا جدا بالأخلاق الفاضلة و الصفات الجميلة لدي سفير دولة قطر في السودان السيد علي الحمادي ، و لكن هذه الزيارة اكدت لي أن أهل قطر جميعا علي نفس مستوى سفيرها الهمام ، لأن ذكاء قطر حكومة و شعبا هو الذي جعلها تولي اهتماما كبيرا بحوار الأديان ، و توسع دائرة الحوار لتشمل الأديان التوحيدية الثلاث اليهودية و المسيحية و الإسلام ، لقد تمكن أهل منتدى الدوحة في تجميع قيادات دينية من الاديان الثلاث ، و لقد كان الحوار فقط مسيحيا إسلاميا ، و كان أمر دعوة خامات اليهود أمرا صعبا ، و لكن قطر اجتازت الصعب ، و عبرت بكوبري المحبة إلي



الآخر ، و نادى بما يوقف ثقافية الكراهية التي عشناها أمدا طويلا من الزمان ، كراهية لا لزوم لها و لا منفعة و لا إمكانية على تسيير دفعة الحياة ، فكلنا بشر و كلنا من آدم و آدم من الله ، لقد أسعدني حوار قوي اجتمعت فيه الأديان الثلاث على قيم روحية أصيلة ، فلقد كان عنوان المؤتمر : القيم الدينية بين المسالمة و احترام الحياة ، و بداية المسالمة أن نضح أفكارنا عن الآخر ، و أن نحترم أفكار الآخر و معتقداته ، و احترام الحياة يعني احترام حياة كل إنسان يمشي على الأرض فالحياة هي حياة عند كل إنسان ، لقد تمكنت قطر بذكاء قيادتها السياسية المتمثلة في سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني و أركان حكومته المباركة أن تعبر بنا من ثقافة الكراهية إلى ثقافة الحوار ، و أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتتي هي أحسن ، و عند الحوار سوف نجد بل وجدنا قواسم مشتركة و محطات للتأخي تجعلنا نقرب إلى بعضنا البعض ، و نتأخي معا في الله ، و في الحوار محبة و ضوابط روحية تجعل كل واحد فينا يستمع إلى الآخر ، و سوف يتحول الحوار مع الوقت إلى توادد و تكال بل إلى محبة لأن من يحب أخاه يثبت في محبة الله ، و اذا كنت لا تحب أخاك الذي تراه فكيف تحب الله الذي لم يراه أحد قط ، و نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الاخوة ، و من لا يحب أخاه يبقى في الموت ، كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس ، و انتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة ابدية ثابتة فيه ، لا نحب بالكلام و لا باللسان بل بالعمل و الحق ، و بهذا نعرف اننا من الحق ، و لم يكن ذكاء قطر فقط في دعوة و انما ايضا في حل مشكلة لبنان التي كانت عصية و في مساندة امريكا خلال الم اعصار .

صناعة السلام: من اسهل الأمور ان يتحارب الناس و لكن اصعبها أن يتحابون ، ليس صعبا أن يفعل قائد أو رئيس و يعلنها حربا شعواء على جران بلادة ، و كما تنتقل النار بسرعة الهواء هكذا عدوي الحروب ، و لكن صناعة السلام تحتاج الي ذكاء و إلى القلوب نقية شفافة طاهرة أمام الله لذلك انت تطوبية السيد المسيح : طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، و لقد حاورني احدهم قائلا بأن أهل قطر ليس كل مقتنعون بحوار الأديان و كان ردي واضحا إذا كان الحكام هم الذين يساندون هذا الحوار فهذا يعني ان حكام قطر أدكي جدا و يعني أيضا أن محبة الحكام لشعوبهم هي التي دفعتهم إلى مساندة هذا الحوار ، بل اننا رأينا بأنفسنا كيف

تم تنزيل هذا الحوار على المجتمع و الدليل على هذا أن خمس تلمذات في مدرسة قطرية ألفن كتابا عن حوار الأديان و عرضت أفكار الكتاب على المؤتمرين ، و نحن في انتظار تنامي هذا التجاوب وسط كل أهل الدوحة ، و في انتظار انتقال هذا التجاوب إلى كل البلدان .

و صناعة السلام تتطلب مزيدا من الصبر و طول الأناة ، و لا تأتي الثمار إلا بالصبر ، و كما يقول الكتاب المقدس و يثمرون بالصبر ، و الصبر عطاء و من يزرع بالشح فبالشح يحصد و من يزرع بالبركات فبالبركات أيضا يحصد ، و ذكاء قطر يأتي في أن حوار الأديان الثلاث يمكن أن يكون بداية لحل مشكلة عصبية نحياها تؤرق راحتنا ، فربما يكون هؤلاء المحاورون من اليهود سببا في تغيير صورة الغرب عنا ، و ربما يكونون سببا في إرساء السلام على أرض السلام في فلسطين التي ينتقل حربها و نوثرها و بؤسها و شقاؤها إلى كل بيت من بيوتنا ، تحياتي لحماة السلام في قطر رئيسا و شعبا و مؤتمرا و مؤتمرين رجالا وقفوا مؤازرين النعيمي الريمحي ، و امرأة هي حمامة سلام هي عائشة الناعي ومعها نساء فضليات قطريات ، و هكذا كان ذكاء قطر طريقا لصناعة السلام .

## ١٣٤ . هارون داود

اقتصاد السودان : أثبتت الأجيال السابقة أن السودان بلد زراعي ، و أننا يمكن أن نأكل مما نزرع ، و اذا كنا اليوم كما يقولون نضحك مما نسمع فإنه من الخجل أن يكون اجدادنا قد كانت لهم سياسة زراعة و تخطيط و نظرة الي المستقبل البعيد ، و بينما نخطي الآن بزراعة سياسية ، و نفتقد السياسة الزراعية فهناك ما يجعلنا نعيد النظر ، و نتذكر الرواد الأول الذين ساهموا في بناء اقتصاد السودان ، و هنا نذكر هارون داود القادم إلى السودان من شمال الوداي صبيا صغيرا ، و الذي كافح في تجارة الاقمشة و تجارة المحاصيل و بدأ حياته في كردفان ثم النيل الأزرق و من هناك بدأ في تصدير المحاصيل إلى غربال شركة متشيل كوتس في بورتسودان ، و بعدها يتم التصدير الي الخارج بواسطة تجار سودانيين مثل عثمان صالح و آخرون و صرف هارون داود شبابه في خدمة وطنه السودان ، وهو قبطي سوداني حتي النخاع تجري في عروقة السودانية الاصلية إسهاما في بناء الاقتصاد السوداني ،



و تدبنا شفافا طاهرا ، و عندما كان في سنجة بدءا من عام ١٩٢٨ حتى مجيئة للخرطوم عام ١٩٧٦م كان لديه إنجازا إقتصاديا هو محطة هارون في السكة حديد ، وهي محطة سميت باسمه و باقية في موقعها حتى الآن ، و كان لديه إنجاز روحي وهو جناح المطران في منزله و الذي دشنة مطران الخرطوم الأنبا يؤنس الذي رسم في عام ١٩٤٧م و تنجح في عام ١٩٦٧م ، و كانت كنيسة بيته بركة روحية لأسرته و لكل أقباط سنجة ، و كان رجال حكومة سنجة يحيطون مطران الخرطوم عندما يزورهم بعطفهم و محبتهم .

ورجل الاقتصاد هارون داود ترجع قصته الي ابيه داود سعيد الذي قدم الي السودان عام ١٩١٤م ، و عندما رزق بأبنة هارون ذهب ، ذهبت زوجته لتضع مولودها الذكر هارون ، ثم يأتي بعد هذا ليقضي صبوته و شبابه في السودان ، وقد بلغ من العمر الآن ما يقرب من ٩٠ عاما وهو لأولوة نفيسة في تاريخ بلادنا العزيزة ، وهو من أقباط السودان الذين لا يفضلون أي بلد عن السودان ، و الذين حتي عندما يرجعون الي مصر تستمر تسميتهم أقباط السودان ، و تكون سودانيتهم مميزة و شفافتهم الروحية طاهرة و يسهمون في كل عمل اقتصادي ، و من اقتصادهم المتين و نجاحهم الباهر يساندون الأعمال الخيرية و المنتديات الثقافية ، لأن هارون داود من الذين احتضنوا الروحانية و عاشوا لأجل الأبدية ، و في زيارة قريبة من ولاية النيل الأزرق إليه في منزله بأم درمان ، كان رجال الولاية يقفون علي إنجازات هارون داود ، و يؤكدون عملة العظيم في بناء اقتصاد السودان ، و جدير بالذكر أن لدي هارون داود خزانة حديدية ترجع إلي عام ١٩٠٤م وهي أثر نفيس ، طلب مني الا احدث موقعها خشية السرقة رغم أنني واثق أنها لا يقدر أحد أن يسرقها ليس لقوة صناعتها فقط ، إنما لأنها لا تتخل عن مساندة فرد أو مجموع، حكومة أو شعبا .

شهادة مؤرخ : و يشهد برفسور زاهر رياض علي مساهمة الأقباط في اقتصاد السودان ، و يقول بالحرف الواحد في كتابة : كنيسة الاسكندرية في أفريقيا ما يلي:

لقد ساهم الأقباط في النشاط الاقتصادي في السودان و عمل هناك شنودة و غطاس و بقطر و باسيلي ، و اتخذوا من الخرز و الدروع و القصدير و الفترك و

الفرادي و هي ملابس السودانين تجارتهم ، يبادلونها بسن الفيل و ريش النعام و المطاط و الحديد و النحاس ، و يروي المكتشف مستر ستانلي أنه وجد مع أمين باشا واحدا و عشرين كاتباً مصرياً كانوا جميعاً من الأقباط .

و سكن الأقباط في شمال أم درمان و حملت منطقتهم الاسم التقليدي حارة النصاري ، و بادر الأقباط بطرح اموالهم في السوق قبل ان يجازف البريطانيون بقرش واحد ، و اذا كانت تجارة السودان قد بلغت في سنة ١٩١٤م مليون ثمانمائة ألف جنية فإن الأقباط كانوا وراءها يدفعونها بالجهد و العرق و الدم ، و انتشر الأقباط في جميع الجهات حتي وصلوا النهود و الضعين و الفاشر ، بل وصلوا نيالا و جوبا في اقصى الجنوب حيث يقيمون بالتجارة مع جمهوريات النيجر .

إن هارون داود هو دعوة محبة ، و أقدم مني دعوة محبة أن يسارع مثقفينا و رجال الاقتصاد و الإعلام للقاء هذا الرجل العظيم ، و تسجيل شهادته علي العصر و الاستفادة بخبراته ، و لقد بدأ هذا الاتجاه بقيادة الهادي بشري الذي هداه ذكاء العالي بأن يأتي الي هارون داود في وفد يرأسه نائب والي النيل الأزرق و اعضاء حكومته .

## ١٣٥. أفراح مأمون حميدة

قبل عيد الحب بيومين فاحت رائحة الحب الطاهر في جامعة العلوم الطبية و التكنولوجيا و سمع اناشيد الفرح وسط اسرة متحابية اساتذة و طلبة ، و الحب اشعاعا يضئ المسيرة في عيون برفسور مامون حميدة و رفاقه من الاساتذة الاجلاء الذين تعاهدوا ان يتفوقوا بالحب ، بالارادة ، بالمحبة الصلبة و نخلوا في الصخر طريقا و نقشوا علي جدار الوطن قصة نجاح كبير أنني اتعجب من المواطن السوداني رجل واحد فيهم مثل مامون حميدة يقيم هذا الصرح الكبير، و يؤسس جامعة عملاقة لابناء الوطن بما أن العديد من المشاكل ليس لها حل و تتضاءل امامها الحلول ، لقد كانت انطلاقة المسيرة عام ١٩٩٦م و بعد هذا استمرت المسيرة قاصدة العلم مستنيرة بالتقوي منيرة بالمحبة حتي وصلت إلي مؤسسة كبيرة تدخل فرحة التعليم و النجاح الي كل ارجاء السودان ، و قد كنت اشفق علي سفر ابنائنا للدراسة في الخارج وهم بعد صغار عاشوا دفعاء الاسرة و في الغربة يتعرضون للبرد الشديد



الذي يصيب صحتهم برد العاطفة في غياب الأهل ، و رياح الحرية الغير منضبطة  
 ، أن مامون حميدة هو الرجل الذي حافظ علي ابنائنا من امراض الغربة و الوحدة  
 ، وربطهم بالوطن الذي ينتظر عطاءهم لأنه معروف أن الذين يتعلمون في الخارج  
 اغلبهم راغبون في البقاء في الخارج و يضيع علي الوطن استثماره البشري .  
 و في احتفال ٢٠٠٩م كان الجديد هو قائمة الشرف الجميلة التي سجلت أوائل  
 الدفعة وهم في عدد العشرة و كأنهم الوصايا العشرة لزملائهم ان يكونوا بينهم في  
 سجل المتفوقين وقد تألق في هذه القائمة الفتيات مثلما تألق الفتيان فها هي الأولى  
 في كلية الصيدلة كاترين فيكتور جبرة بطرس و هي واحدة من قبيلة اقباط السودان  
 الساعية نحو التقدم من باب العلم و المعرفة و لها حي في الابيض باسم جبرة جد  
 مني و آمال و أسراء و مروج و آمال ، و تألف الفتيان أحمد و وائل و محمد ، بنات  
 قائمة الشرف سبعة الفتيان ثلاثة و لو بذلوا الفتيان جهدا اكبر لأخذوا مكانهم و لكن  
 الفتيات متفوقات .

لقد كان بعض الخريجين مهتما بحضوري جدا و اذكر هنا بتول نبيل تادروس  
 التي افرحني جدا نجاحها مع كل زملائها كيرلس فخري و أيمن عصام وكيرلس  
 فؤاد مرعي و طارق محمد و الآء و دعاء و أسراء ، فوزي فكتور و دينا جورج ،  
 سامري و جرجس وجية ، انطوان بشاي و ندي عبد الغني و لبنى و رشا و تغريد  
 ، رماز ابادير و صفاء ساجي و في الاحتفال وقف الصديق الشاعر عبد المجيد حاج  
 الامين يلقي بصوته الجهور المنضبط لغويا نشيدا من تأليفه هو نشيد (حب الوطن

يا شعاع القمر يا نورا تراءى

في سموات الوطن

يملي الدنيا حديثا

ملء اسماع الزمان

نحن بالعلم سنجتاز الصعاب

نرفع الرايات في أعلي الهضاب

أنه السودان يبقي خالدا

رغم المحن

سوف نحمله جميعا

من تباريح الفتن

و يستمر الشاعر ينشد متحدئا عن صرح الجامعة وهو صرح الاماني والمعاني ،  
 صرح الطموح الاقشبية ، صرح الخير الوفير و النجم المنير و الافاق الجديدة  
 هاهو الصرح تبدي شامخا و العلم نور

أنه صرح الطموحات القشبية

في علوم الطب يسمو بالدراسات الرحبية

أنه صرح الاماني و المعاني

وارتياد المستحيل

أنه الخير الوفير

أنه الوعد النبيل

أنه الفجر المنير

لقد ابداع فريق انشاد الجامعة في غرز النشيد في القلوب و جعلنا نمتشي بحب  
 الوطن ، و نعتز بفريق مامون حميدة الذين رسموا بدمائهم الحمراء لوحة الحب  
 الأصيل ، ولقد ابداع الوزير الهمام في كلمته وهو يتحدث عن ثورة التعليم في  
 السودان و التي تحتاج إلي ثورة في تهيئة فرص العمل للخريجين ، و ابداع رئيس  
 مجلس الامناء الذي اتشرف بعضويته ، ان افراح مامون حميدة هي افراح الوطن  
 كله ، و لقد تخرج من هذا الصرح الآف الطلبة ، وفي الجامعة مئات الاساتذة ، و  
 انني اهنيئ الجامعة و الخريجين و الخريجات و الآباء و الامهات الذين وفروا جوا  
 روحيا لشبابنا شباب الوطن .

## ١٣٦ . أول الحروف وقوة الإتحاد

أول الحروف : مدرسة تأخذ أول الحروف الانجليزية لها إسما هو A.B.C كان  
 الإحتفال الكبير بالنادي القبطي في يوم الجمعة و كان شعار الإحتفال : الإتحاد قوة  
 ، فصارت قوة الإتحاد هي أول الحروف في كل اللغات ، لقد حضرت الإحتفال منذ  
 البداية حيث بدأ في الموعد بالتزام كسرا لقواعد عدم الالتزام و احساسا بأهمية  
 الوقت ، و تأكد لي شعور أمير الشعراء كاد المعلم أن يكون رسولا ، و لماذا لا



يكون رسولا ، إن رسالة المعلم هي أن ينشر نور العلم الذي عندما كان يشرق علي الأوطان يبدد ظلمات الجهل ، بل إن ملاكا رقيقا متعاطفا ، و الملاك مرسل ايضا و رسول لأن الله فاطر السموات الارض جاعل الملائكة رسلا ، و لأن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكما جعل الملائكة نار تجربة ابراهيم بردا و سلاما ، هكذا فإن المعلم بلباقته و تعاطفه يجعل رحلة الحياة نار شقائها بردا و سلاما ، و اسرة المدرسة هي اسرة متأخية متألفة ، و كل أفرادها يعشقون رسالتهم و عملهم هو الهواية المحببة إليهم ، فالمديرة مهندسة مدنية ناجحة هي نادبة نجيب و لكنها تهوي التدريس ، و شقيقتها محامية لبقة حامية لحقوق الناس هي تريزا نجيب و لكنها تهوي التدريس ، أما الشقيقة الثالثة سيلفيا فقد كرسست نفسها و وقتها للتعليم ، إن المعلم عندي من اعظم الألقاب و لقد تشرف هذا اللقب بالسيد المسيح المعلم العظيم ، و الذي يطالب أن يكون الجميع متعلمين من الله ، و الذي قال : ليس التلميذ افضل من معلمه ، و قد دعاه الشاب قائلا : أيها المعلم الصالح ، و قال له الرجل : يا معلم قدمت إليك ابني ، و قال له التلاميذ : يا معلم هوذا الذي تحبه مريض ، و قال السيد المسيح: أنتم تدعونني معلما و سيذا و حسنا تقولون لأنني أنا كذلك ، فإن كنت و أنا السيد المعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ، لأنني أعطيتكم مثالا حتي كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضا ، إن رسالة المعلم في عصرنا هذا هي أن يغسل اقدام التلاميذ تواضعا ، و يملأ بالفرح أفواههم ، و يمسح برقته آلام زمانهم ، و يجعل أيام تلاميذه معرفة و سعادة و سراجا و نورا لطريق الحياة و سلوكا سويا مترنا .

#### الاتحاد قوة

و كان نشيد أبناء المدرسة في العام الماضي هو الحلم العربي ، و لكن يبدو أن العرب لم يحققوا أحلام التلاميذ و لم يحققوا أحلام أي مواطن ، و لهذا كان نشيد هذه المرة هو الضمير العربي في محاولة جادة لإيقاظ الضمير النائم الهائم ، لأن الوقت مر ، و مازال ظلام الليل كابوسا و ليس حلما و لهذا كانت القصيدة الجديدة تقول :

من زمان علمني أبي من زمان

أن حب الوطن إيمان

وحب الإيمان أوطان ...

لقد قالوا شعاع النور في حلمهم الأول يوصل سما و بحور ، و لكن للأسف طول طول ، الليل جعل الضمير أبكما ، و لكن شبابنا يصمم أن يحلم ، و لو بقي له يوم واحد لا بد أن يحلم .. و دعوة النشيد موجهة إلي الانسان لبناء وطن العدل و الإيمان ، و ملأ العالم بالأمان و في الاحتفال كان توجه شبابنا نحو غزة ، و كان إنهاض الهمم للوقوف مع غزة ، و وقفت فتاة صغيرة تخاطب عالمنا الكبير و تقول : يا غزة يا حلم الألم ، يا جرحا قديما لم يندمل ، و اخذت الفتاة تسأل في اندهاش :

ماذا تنتظرون ؟

انتظرون فتوي من هيئة الأمم ؟

أم ما يسفر يسفر عن المؤتمرات و القمم ؟

لقد حاول أبناؤنا و بناتنا أن يقدموا علاجا لكل مشاكل العالم ، و روشته منهم و هم أطباء المستقبل ، و الروشته تقول : أقبلوا الآخر علي ما هو عليه ، مهما اختلف اللون أو الجنس أو الدين فهذا هو العلاج ، و في مسرحية طريفة حاولت الطيور أن تغير لون طائر (الفلمنجو) الأزرق حتي تقبل من باقي الطيور ، و لم يتمكن أحد من إجراء التغيير ، و قرروا في آخر الأمر قبولها بنفس لونها ، و اعترى شبابنا بعلم السودان الجميل المختلف الألوان ، و الذي يقبل كل الألوان في وطن يتسع للجميع هو السودان .

لقد كان الحضور مشرفا ، الوسيلة وزير الدولة بالخارجية ، مضوي الترابي أمين عام احزاب الوحدة الوطنية ، سفير الباكستان ، زيدان عبد الرحيم توحيد رؤي دارفور و التي نأمل أن تتوحد ، ولفيف من كبار رجال التعليم ، عدا أولياء الامور عيوننا تمتلئ فرحا من الآباء و تمتلئ أملا من الأمهات ، إن اهتمام A.B.C. بالتربية الوطنية التي تدعونا للاعتزاز بوطننا العظيم الذي يعيش في اعماقنا .



## الإنتاج الأدبي والثقافي للمؤلف

صدر منها :-

- ١- القادرون يحبون .
- ٢- المؤمنون يتنافسون .
- ٣- حصاد السنين .
- ٤- روحانية الروح والجسد .
- ٥- المسيحية في عيون المسلمين .
- ٦- حديث الأيقونات ..
- ٧- رجل روحاني على تلال من ذهب .
- ٨- خواطر قلم .
- ٩- دراسات قطبيه .
- ١٠- شمس الأمل .
- ١١- سبعون مقالاً عن الملائكة .
- ١٢- مساحات الود والاحترام بين المسيحية و الإسلام .
- ١٣- اطروحات سودانية .
- ١٤- النوبة ملوكاً وشعباً .
- ١٥- الواقفون على خط النار .
- ١٦- النوبة وطن الذهب .
- ١٧- النيل والسودان الأصيل .
- ١٨- الأحوال الشخصية لغير المسلمين .
- ١٩- النيل والسودان الأصيل
- ٢٠- جامعة الحياة
- ٢١- السودان أبوالدنيا

تحت الطبع :-

- ١- النيل أبونا والجنس سوداني .
- ٢- النعمة امرأة .

٣- أنا سوداني أنا .

٤- السودان زمان

٥- سر الابتسامة .

٦- الهادئون في الارض .

٧- وكان السودان للحضارة بستاناً .

٨- المبتسمون مطمئنون .

٩- السودانية كرامة وأصالة وشهامة


١٠. أحلام إقتصادية

١١- أقباط السودان الجزء الأول الشخصيات والوثائق التاريخية

١٢- المكتبة القبطية



وأخيراً

وردة  حمراء

إلى

جون وديع

من باقة ورود عيد الحب الطاهر أهدي وردة  
حمراء للإبن المبارك جون وديع دانيال الذي  
بإصراره وعطائه ساند في إصدار هذا الكتاب  
عندما كان عضواً نشطاً فعالاً في مجلس  
إدارة المكتبة القبطية بأمدردمان وله مع رفاقه  
ورئيس أسرة النادي المهندس عادل العبد أحلى  
الأمنيات وصالح الدعوات

مؤلف الكتاب

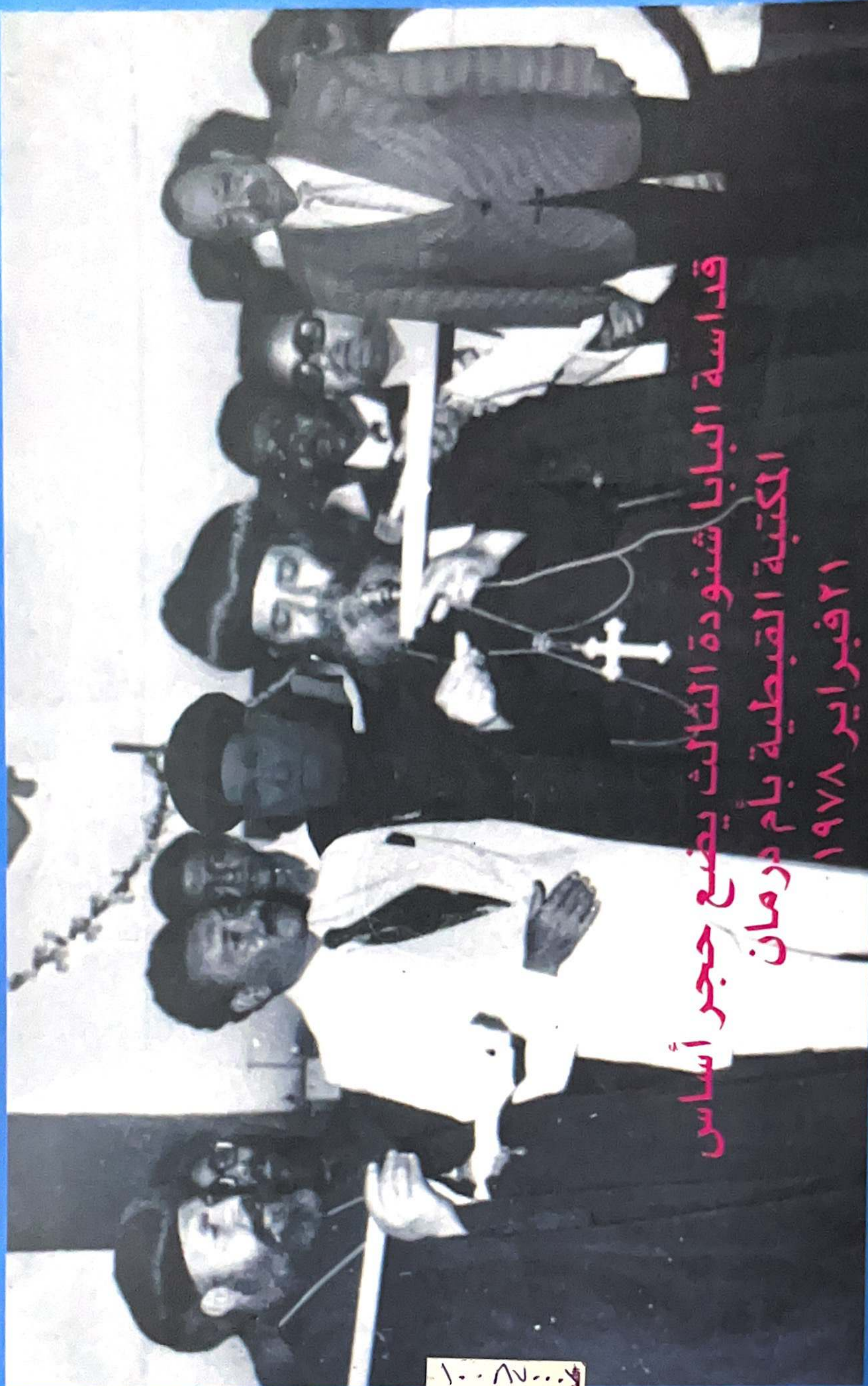


رقم الإيداع  
(٢٠٠٧-٦٦٣)

E-mail: [fatherfilotheos@gmail.com](mailto:fatherfilotheos@gmail.com)

[www.fatherfilotheos.com](http://www.fatherfilotheos.com)





قداسة البابا شنودة الثالث يضع حجر أساس

المكتبة القبطية بأم درمان

٢١ فبراير ١٩٧٨

١٠٠٨٧٠٠٠  
دار مكتبة الحرية  
١ - ٢٥ م